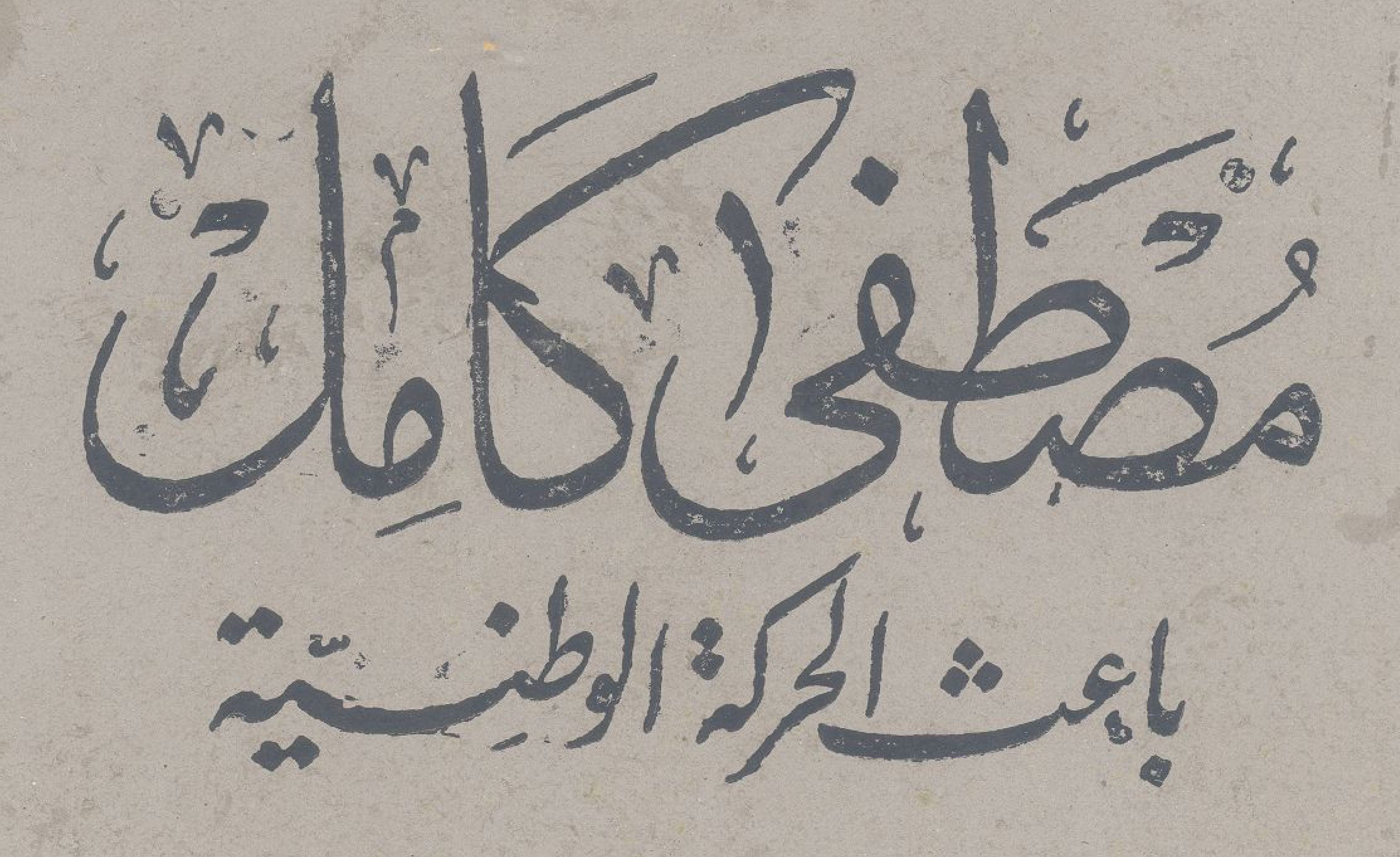


بقلم

عبد الرحمن الرافعي بك

١٣٥٧ هـ - ١٩٣٩ م

الطبعة الأولى

يطلب من مكتبة النهضة المصرية
بشارع عدلى باشا بمصر

الثمن ٢٥ ص

مصطفى كامل

باعث الحركة الوطنية

بقلم

عبد الرحمن الرافعي بك

ثمن الكتاب

ـصـ
٥

الطبعة الاولى ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٩ م

مطبعة الشرق شارع حيضان الموصلي نمرة ١٩
قسم الدرب الأحمر

اهداء الكتاب

إلى مَن كانت حياته للأمة بَعْثاً وطنياً . من كان لى أباً روحياً . وسأبقى له تلميذاً وفياً . من علمنى أن الحياة بغير المثُل العليا عرضٌ زائل . وعبثٌ ضائع . الى «مصطفى كامل» أهدى كتاب «مصطفى كامل» . هدية الوفاء الى روحه العظيمة .

يناير سنة ١٩٣٩ عبد الرحمن الرافعى



مصطفى كامل

باعث الحركة الوطنية

١٨٧٤ — ١٩٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

هذا هو الكتاب الذى اعتزمت وضعه عن « مصطفى كامل » منذ سنوات عدة ، وقد تأخرت فى إخراجه عن الموعد الذى كنت قدرته ، لأنى إذ بدأت فى كتابة فصوله الأولى استوقفنى البحث فى مبدأ ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديثة ، فبدا لى أن أرجع الى الأدوار التى سبقت عهد مصطفى كامل ، لكى أقف عند حد يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية ، فانتهى بى البحث الى اعتبار المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر أول دور من أدوارها ، ومن ثم اتجهت نيتى الى دراسة تلك الأدوار على التعاقب ، قبل الكتابة عن مصطفى كامل ، فانتظرت حتى أتممت المجلدات السبعة التى وضعتها فى تاريخ الحركة القومية وأدوارها ، من عهد ظهورها فى إبان الحملة الفرنسية ، وتطورها بعد انتهاء تلك الحملة ، الى اكتمالها فى عصر محمد على ، ثم تجددها فى عهد سعيد واسماعيل ، الى الثورة العرابية ، ثم الانحلال الوطنى العام فى السنوات الأولى للاحتلال

واليوم أكتب عن « مصطفى كامل » باعث الحركة الوطنية الحديثة ، وغرضى من دراسة تاريخه أن أطالع الجيل بصفحة من الجهاد القومى تصل حاضرنا بماضينا ، وتنير لنا السبيل فى جهادنا الحالى ، وجهادنا فى المستقبل ، أريد بدراسة هذه الصفحة من تاريخنا القومى أن أدون وقائعها ، وأسجل حقائقها ، لأن حوادث التاريخ وأعمال

الرجال اذا انقضت عليها السنون ولم يسجلها القلم يخشى أن يجر عليها الزمان ذيول الاهمال والنسيان

***

من أراد أن يعرف فضل مصطفى كامل على الحركة الوطنية ويستخلص من تاريخه صورة عامة لشخصيته ، فليرجع ببصره الى العصر الذى ظهر فيه ، فلقد ظهر سنة ١٨٩٠ على حين فترة من الحركة الوطنية ، وهجعة من الكفاح القومى ، وانحلال فى الروح المعنوية ؛ ظهر والنفوس قد استحوذ عليها اليأس والقنوط على أثر اخفاق الثورة العرابية واحتلال انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ ؛ ظهر حين خيّم على البلاد جوٌّ من الخضوع والاستسلام بقى مضروبا عليها نحو عشر سنوات، فنهض يدعو الى الحرية والاستقلال، فى وقت تحالفت فيه عوامل اليأس وتضافرت أسباب الجمود والضعف ، دعا دعوته ، فبدأت غريبة عن الأذهان ؛ بعيدة عن الافهام ، وتساءل معاصروه كيف تقوم حركة وطنية لاستخلاص الاستقلال من يد أقوى الدول نفوذاً وأوسعها سلطانا ؟ ولكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذى ظهر فيه ، وأقوى من العوامل المثبطة ، فأخذ يثابر على دعوته ويناضل عنها ، حتى استجابت الأمة لندائه ؛ فكانت نهضة ، وكانت حياة ، وكان شعور ، وكان جهاد ، كانت رسالته الى مصر كصرخة الحياة الداوية فى سكون النوم العميق ، كانت رسالة الأمل بعد اليأس ، والحياة بعد الخمود ، والكرامة بعد الهوان ، والجهاد للحرية والاستقلال ، بعد الاستسلام للاحتلال والاستعباد؛ واذا كانت الدعوة الوطنية التى دعا اليها وناضل من أجلها قد صارت بعد ثمانية عشر عاما من جهاده طبيعية محبّبة الى النفوس ، فان الطريق اليها كان شائكا ، ولقد كانت فى حاجة الى إقدامه ، وعبقريته وايمانه ، فهى كحادث اكتشاف القارة الامريكية ، ظهر طبيعياً ومعقولا بعد تمام الاكتشاف،

ولكنه كان فى حاجة الى إقدام « كريستوف كولومب » وعبقريته

***

ولد مصطفى كامل سنة ١٨٧٤ ؛ وظهرت وطنيته أول ماظهرت سنة ١٨٩٠ حين كان لا يزال طالبا بالمدرسة الثانوية ، إذ شعر بهاتف الوطنية يهتف بين جنبيه ، يناديه بأن عليه واجبا نحو مصر يجب أن يؤديه ، ويدعوه الى الجهاد لتحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي ، وعرف فيه على باشا مبارك وزير المعارف وقتئذ أنه الشاب الذى سيكون له شأن كبير ؛ فقال له « انك امرؤ القيس » وبشره بأن سيكون عظيما ، وقد تحققت نبوءته ؛ فصار الفقيد عظيما بوطنيته وجهاده ، ثم دخل مدرسة الحقوق سنة ١٨٩١ ، واختارها « لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأمم والأفراد » كما قال فى كتاب له الى شقيقه على فهمى كامل (بك) فى ١٢ يوليه سنة ١٨٩١ ؛ دخلها لكى يعد نفسه لأداء مهمته الوطنية ، وقد راسل الصحف وهو بعد طالب ، وأنشأ مجلة (المدرسة) سنة ١٨٩٣ وهو طالب ؛ واتخذ شعارها (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك) ، فالوطنية كانت عقيدته وشعاره وهو فى تلك السن المبكرة ، نشأت فيه دون أن يتلقاها عن معلم ،أو يقتبسها من العصر الذى ظهر فيه ، لم تكن نتيجة درس أو تعليم ، بل كانت وحى الالهام والعبقرية ؛ ثم نال شهادة الحقوق سنة ١٨٩٤ ، فلم يتبع ما درج عليه معاصروه من اختيار منصب فى الحكومة ، أو الانتظام فى سلك المحاماة ؛ بل وقف حياته على ماعاهد عليه الوطن من المحاماة عن الأمة ، والعمل لاستقلالها وحريتها وكرامتها ؛ وقد صدق وعده ، إذ كانت سنو حياته وقفا على الجهاد ، فكان لا يفتأ يعمل ، ويكتب ، ويخطب ، ويؤلف ؛ ويجوب البلاد متنقلا ، رافعا صوت مصر فى الداخل والخارج ، ينادى بحريتها واستقلالها ؛ مستحثا مواطنيه على الالتفاف حول راية الجهاد والأمل ، حتى تفتحت الأذهان على توالي السنين الى قبول دعوته ، ثم جاءت سنة ١٨٩٨

ووقعت فيها حادثة فاشودة ، فصدمت الحركة الوطنية صدمة زلزلت الأمل الذى أحياه مصطفى فى النفوس ، بدأت تلك الحادثة بتنازع فرنسا وانجلترا على المسألة المصرية ، وكان الظن أنها تنتهى بجلاء الانجليز عن مصر ؛ ولكنها انتهت على العكس بتراجع فرنسا ورسوخ أقدام الاحتلال فى وادى النيل ، وأعقبها ابرام اتفاق السودان بين مصر وانجلترا فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، ذلك الاتفاق الذى قضى على مركز مصر فى السودان ، فيئس المصريون، وانصرفت نفوسهم وقتا ما عن الاستماع الى النداء الوطنى ، ولكن مصطفى كامل لم ييأس ولم يتراجع ، بل استمر ماضيا فى جهاده ، وعول من ذلك الحين على عدم الاعتماد على فرنسا ، وفقد أمله فى عدالة أوروبا عامة منذ رأى جمودها أمام مأساة البوير سنة ١٩٠٠ وتركها اياهم يسحقون أمام القوات الانجليزية ، دون أن تأبه لهم ؛ فدعا الأمة الى الاعتماد على النفس ، ومتابعة الجهاد ، وكان هو المثل الأعلى فى الثبات والمثابرة، والشجاعة والاقدام ، وأنشأ اللواء سنة ١٩٠٠ ، فكان مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم ، وتبث فيهم روح الوطنية الصادقة ، والاخلاق الفاضلة ، واستمر يناضل عن مصر على صفحات اللواء ، وفوق أعواد المنابر ، وفى صحف أوروبا وأمريكا ؛ الى أن جاءت سنة ١٩٠٤ ، فصدمت الحركة الوطنية صدمة جديدة ، إذ أبرم العهد المعروف «بالاتفاق الودى» بين فرنسا وانجلترا ، وبمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال الانجليزى فى مصر وتعهدت بأن لا تعرقل عمل انجلترا فيها ، فكان لهذا الاتفاق أسوأ الأثر فى نفوس كبراء مصر وعظمائها ، ورجالها المعدودين ؛ ورأى أكثرهم أن الخير لهم فى مسالمة الاحتلال والانضواء تحت لوائه ، واكتساب رضاه ، ولكن مصطفى كامل خالفهم ، واستمر فى طريقه يحمل علم الجهاد ، لا ينى ولا ينثنى ، مناديا بالجلاء ؛ وتجلت وطنيته فى روعتها حين عظمت هموم الوطن ، وقل المعين والناصر ، فقد ضاعف جهوده

وصمد للعقبات والعراقيل ، يتغلب عليها بقوة العزيمة والايمان ، وبتأثير دعوته ووطنيته ومثله الأعلى نشأ جيـل من المصريين اشربت نفوسهم الوطنية الحقة وحب الحرية والاستقلال ، ودرجوا على الأمل والحياة ، وتعددت مظاهر هذه الحياة الجديدة، وأهمها تأسيس نادى المـدارس العليا سنة ١٩٠٦ ، إذ اجتمعت فيه صفوة الشبيبة المصرية المثقفة ، وتشبعت بتعاليم الفقيد ومبادئه ، متعاهدة على الاخلاص فى خدمة الوطن ، وبذلك سرت روحه الى الطبقة المثقفة من الأمة ، ثم كانت حادثة دنشواى فى يونيه سنة ١٩٠٦ ، فحمل فيها الفقيد على الاحتلال وسياسته الحملات الصادقة ، وجاءت محققة لصدق نظره فى أن لا حياة للأمة ولا كرامة لها بغير الاستقـلال ، ومن ثم انتشرت تعاليمه ومبادئه حتى سرت الى طبقات الشعب كافة ، وضاعف الفقيد جهاده، وظل يخطب ويـكتب ويعمل فى أوروبا وفى مصر داعيا الى الاستقلال ، وأنشأ سنة ١٩٠٧ جريدتين يوميتين ، احداهما بالفرنسية (ليتنـدار اجبسيان) ، والاخرى بالانجليزية (ذى اجبشيان استاندرد) ، تدافعان عن حقوق مصر فى العالم الأوروبى، الى جانب (اللواء) فى العالم الشرقى ، وهـكذا كان الفقيد يصدر ثلاث صحف يومية كبرى ، بثلاث لغات مختلفة ، للدفاع عن مصر ، وهى مهمة تنوء بها العصبة أولو القوة من الرجال والجماعات ، وقد تأثرت صحته من هذه الجهود المضنية المتواصلة ، وشعر بدبيب المرض فى سنة ١٩٠٦ حيث كان بباريس صحبة صديقه وزميله فى الجهاد محمد بك فريد لاختيار محررى جريدتى ليتندار اجبسيان وذى اجبشيان استاندرد، وهناك عاده طبيب عالمى مشهور وبعد أن فحص عن مرضه نصحه بحضور فريد بك أن يترفق بصحته ولا يحملها فوق طاقتها ، ولـكنه لم يستمع لنصح الناصحـين ، وسارع الخطى فى تنفيذ مهمته : لـكي يتمم رسالته قبل أن يدركه الاجـل ، فـكانت سنوات ١٩٠٦ و١٩٠٧ وأوائل سنة ١٩٠٨ حافلة بعظائم الأعمال ،

وما زال يجاهد ويناضل ، حتى ذوت زهرة شبابه فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره

***

إن الثمانى عشرة سنة التى قضاها الفقيد فى الجهاد هى أساس الحركة الوطنية الحديثة ، فهو باعثها ومحييها ، وبانيها وسط الشدائد والعقبات ، ومدعمها بالايمان والشجاعة والثبات ، ومغذيها بالاخلاص والتضحية ، مات فى ميدان الجهاد كقائد الجيش فى ساحة الوغى ، يرى الخطر محدقا به ، فلا يكترث له ، ويتقدم الصفوف حتى يستشهد فى سبيل الواجب ، أو كما قال فريد بك : « مات رئيسنا فى ساحة الوغى كالقائد يعانى سكرات الموت ويده تشير الى جنده بالتقدم الى الأمام »

فالروح التى بعثها مصطفى كامل فى الأمة هى التى صارت على مر السنين غذاء الحركة الوطنية ، وهى التى مهدت السبيل لثورة سنة ١٩١٩ التى اعتاد الكثير من الكتاب أن يجعلوها مبدأ الحركة الوطنية ، وهم فى ذلك مخطئون ؛ لأن الثورات ليست حركات ميكانيكية تبدو فجأة للناظرين ، بل هى حوادث اجتماعية ، تتمخض عنها حياة الشعوب تبعا لدرجة استعدادها ، ونتيجة لسريان روح الوطنية فى نفوس أبنائها ، فلولا الوطنية التى بثها مصطفى كامل فى نفوس المصريين خلال الثمانية عشر عاما التى قضاها فى الكفاح لمرت سنة ١٩١٩ كما تمر غيرها من السنين دون أن تتجلى فيها روح الثورة ، فالثورة هى غرس الوطنية ، والوطنية هى نتيجة جهاد مصطفى كامل المتواصل طوال هذه السنين ، ولهذه الصفحة من الجهاد قد خصصت هذا الكتاب ، فاليوم اؤرخ «مصطفى كامل» ، وغدا بمشيئة الله سأؤرخ « محمد فريد » ، وبذلك أكون قد اديت واجبي نحو عباقرة الوطنية الذين رسمو للأمة طريق الجهاد الخالص لله والوطن

أقسام الكتاب

أفردت الفصل الأول من الكتاب لدراسة نشأة الفقيد والعصر الذى ظهر

فيه ، وتناولت الكلام عن نشأته العائلية والمدرسية ، ثم الأخلاقية والوطنية ،
يليه الفصل الثانى وفيه بيان المرحلة الأولى من جهاده ، فى عهد التلمذة ،
والفصل الثالث عن المرحلة الثانية ، بعد حصوله على شهادة الحقوق ، ثم الفصول
الثلاثة التالية عن جهاده من سنة ١٨٩٤ حتى سنة ١٨٩٧ ، والفصل السابع عن
حادثة فاشودة وجهاده عام سنة ١٨٩٨ ، والذى يليه عن جهاده عام ١٨٩٩ ،
يتبع ذلك الكلام عن ظهور اللواء سنة ١٩٠٠ والجهاد الاكبر ، ثم الاتفاق
الودى الانجليزى الفرنسى سنة ١٩٠٤ وأثره فى الحركة الوطنية وموقف الفقيد
منه ، ومضاعفة جهوده بازائه ، ثم تأسيس نادى المدارس العليا ، ثم حادثة
دنشواى واستقالة اللورد كرومر ، فظهور جريدتى ليتندار اجبسيان وذى
اجبشيان استاندرد ، يلى ذلك تأسيس الحزب الوطنى وخطبة الفقيد الكبرى
بالاسكندرية ، يليه الفصل الخامس عشر عن وفاة الزعيم وجنازته ، ومراثى
الشعراء والكتاب فيه ، ثم الفصل السادس عشر عن الخديو عباس الثانى
وتاريخ مصر السياسى فى عهده ، يلى ذلك فصول تحليلية عن مصطفى كامل والخديو ،
ومصطفى كامل وتركيا ، ثم مجلس شورى القوانين ، ثم مصطفى كامل ومعاصريه ،
يليه الفصل الحادى والعشرون وفيه دراسة لشخصية الزعيم وصفاته واخلاقه
ومقدرته السياسية والخطابية والصحفية وتضحياته فى الجهاد ، وفضله فى بعث
الحركة القومية وتأسيس الوحدة الوطنية ، ثم الفصل الأخير (الثانى والعشرون) ؛
وفيه نماذج من حياته الخطابية ، وبه ختام الكتاب

***

ان الحديث عن مصطفى كامل يتجدد كلما تعاقبت الحوادث وكرت الاعوام ،
اذ من الحق علينا للزعماء الراحلين أن نذكر على الدوام فضلهم ولا ننساهم ،
فالوفاء ركن من أركان الوطنية ، بل هو ركن الفضائل وقوامها ، والأمم الحية
هى التى تعرف أقدار بنيها الذين أفنوا حياتهم فى سبيل مجدها وعظمتها ، وانى

باخراج هذا الكتاب لا انشد الوفاء فحسب ، بل أقصد المساهمة العملية فى النهضة القومية ، لانه مهما تعددت نواحى النهضة وسبلها ؛ فمن الواجب لكى تؤتى ثمرها أن ترتكز على أساس ثابت من الروح الوطنية العامة التى تضع مصالح الوطن فوق المطامع الشخصية والمنافع الذاتية ، وليس أدعى الى بث هذه الروح فى النفوس من الرجوع الى تاريخ الزعماء والمجاهدين الذين كانت حياتهم رمزا للاخلاص والتضحية ؛ فمن ذكرياتهم نستروح نسيم الوطنية الصادقة ، وستبقى سِيَرُهُم على مر الزمان مثالا يُقتدى به فى العمل لاحياء الوطن ، هذا ما أنشد واليه أقصد ، « ان اريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب »

يناير سنة ١٩٣٩ عبدالرحمن الرافعى

الفصل الاول

نشأة الفقيد والعصر الذى ظهر فيه

نشأته العائلية

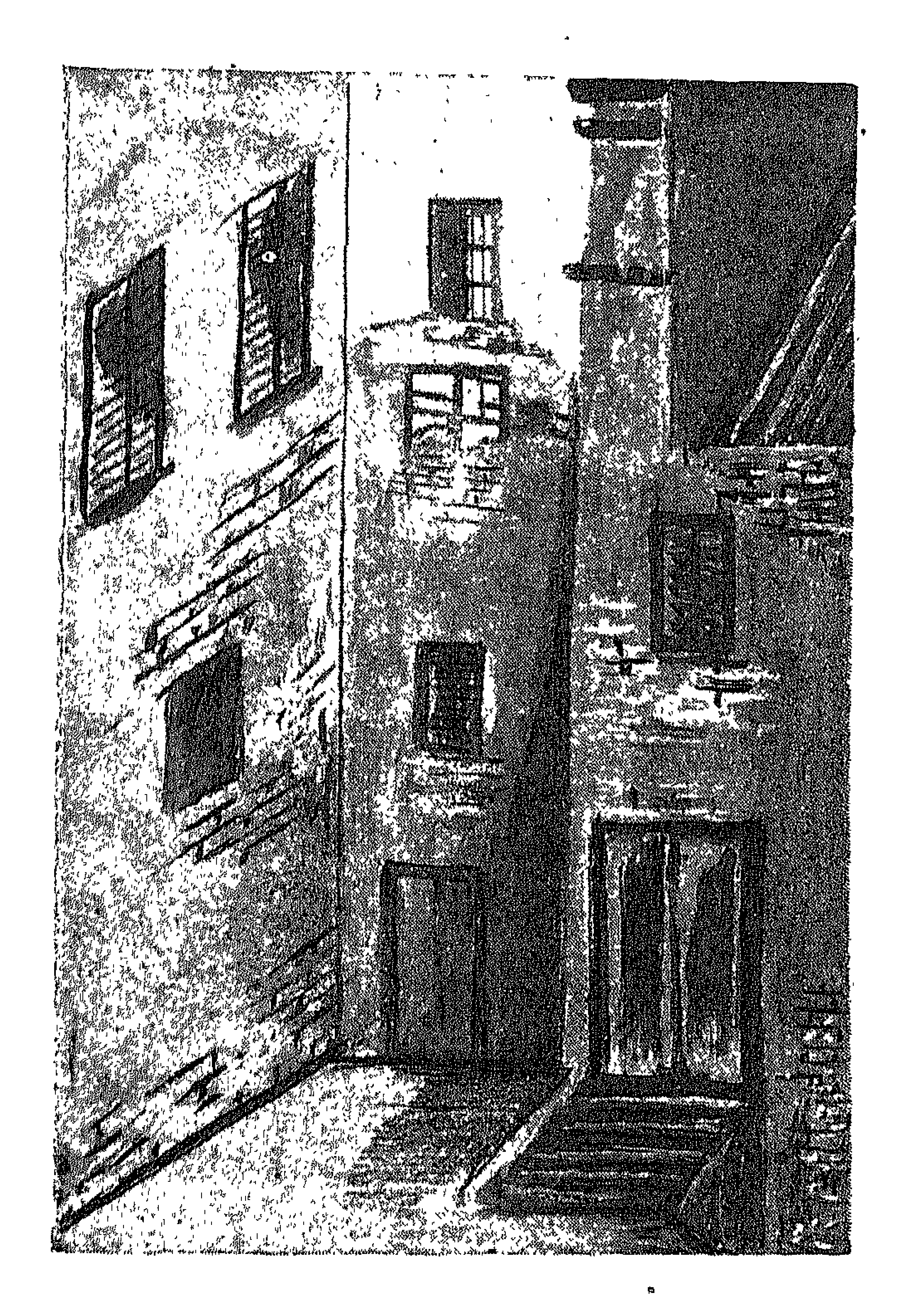
ولد مصطفى كامل بمدينة القاهرة بحى (الصليبة) بقسم الخليفة يوم ١٤ اغسطس سنة ١٨٧٤ (أول رجب سنة ١٢٩١ هـ) ، وهو ابن (على افندى محمد) احد خيار المهندسين الضباط

والد المترجم

نشأ (على افندى محمد) فى بلدة كتامة الغاب من أعمال مركز طنطا عاصمة الغربية ، إذ كان والده من تجارها ، ودخل فيمن دخل من أبناء التجار مدرسة طره سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م) ، ومكث بها خمس سنوات ، ثم انتقل الى مدرسة (الخانكه) وبقى بها أربع سنوات كان بها مثال الجد والاستقامة وكان أول أقرانه ، وفى سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) نال رتبة الملازم الثانى مهندساً طوبجيا وعين معيداً فى المدرسة ، ثم نقل الى بلوكات المهندسين التى كانت تعمل فى إقامة الكبارى وبناء الشكنات فى عهد محمد على باشا ، ثم رقى الى رتبة الملازم الأول فى عهده أيضاً ، والى رتبة اليوزباشى فى عهد عباس باشا الأول وعين قومندانا لأحد بلوكات المهندسين

وفى سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) شيد منزلا بحارة درب الميضأة بشارع شيخون ، وهو المنزل الذى ولد فيه المترجم ، وفى عهد سعيد باشا عين ضمن أركان حرب معيته ، ثم أحيل الى الاستيداع فى عهد اسماعيل ، ثم عين مهندسا ملكياً

بوزارة الأشغال حتى أحيل الى المعاش سنة ١٢٩٤ هـ[1] (١٨٧٧ م)



المنزل الذى ولد فيه الفقيد سنة ١٨٧٤

بدرب الميضة بشارع شيخون بالصليبة

وقد أنجب من البنين سبعة ، ومن البنات اثنتين ، فأبناؤه هم المرحوم

(١) هذه البيانات الاولى عن كتاب (سيرة مصطفى كامل) تأليف على كامل بك شقيق الفقيد

افندى على الذى كان صيدليا بطنطا وتوفى سنة ١٢٢٠ ه (وهو والد الأستاذ احمد افندى زكى وكيل النيابة الآن) ، ثم المرحوم سليمان افندى علوى الذى تخرج من مدرسة الحقوق وعين بالمحاكم المختلطة وتوفى فى التاسعة والعشرين من عمره ، ثم حسين بك (باشا) واصف وزير الأشغال الأسبق أطال الله عمره ، ثم المرحوم الدكتور عبد الفتاح فتحى من نوابغ خريجى مدرسة الطب (وقد توفى سنة ١٨٩٤) ، وأنجب من السيدة « حفيظة » المرحوم على بك فهمى كامل ، ثم المترجم ، ثم السيدة عائشة حرم المرحوم عثمان افندى صبرى (والد ابراهيم افندى صبرى من نوابغ خريجى كلية الحقوق سنة ١٩٣٧) ، ثم الأستاذ حسن حسنى كامل أمد الله فى حياته ، ثم المرحومة السيدة نفيسة وهى آخر خلف له

كان والد الفقيد ضابطا ومهندسا ، جمع بين الصبغة الحربية والصبغة الملكية ، إذ كان فى أواخر عهده بالحكومة مهندساً ملكيا ، وكان معروفا بالاستقامة والشهامة وطيب العنصر والأخلاق الكريمة ، وكان له من غير شك فضل كبير فى ظهور مصطفى كامل ، إذ كان يعنى بتربية أولاده وتنشئتهم النشأة الصالحة ، فكان إذا بلغ الولد الخامسة من عمره دعا أحد الفقهاء الى منزله لتلقينه مبادئ القراءة والكتابة ، فاذا شب أرسله الى الكتاب ليحفظ ما تيسر من القرآن الكريم ، ثم يدخله المدرسة ، وكان من ناحية أخرى يجمع أولاده حوله فى معظم الليالى ويقص عليهم أحاديث الشهامة والنجدة ، ويعلمهم الصدق والاخلاص ، كما كان يتفقد أحوالهم فى المدرسة ، هذا فضلا عن أنه هو بذاته وبأخلاقه الطيبة كان قدوة لأولاده

فعلى افندى محمد كانت له يد طولى فى نشأة الفقيد وتربيته التربية الحسنة ، وهذه التربية قد مهدت السبيل للنشأة الوطنية التى نشأها الفقيد

والدة المترجم

وكذلك كان لوالدته السيدة حفيظة كريمة المرحوم اليوزباشي محمد افندى فهمى فضل كبير فى نشأته ، وهى سيدة من فضليات النساء من جهة المحجر بالقاهرة (بشارع الكومى) ؛ وكانت على جانب كبير من مكارم الأخلاق ، وكان الفقيد يعزها ويجلها ويشيد بذكرها طول حياته ؛ وحزن أشد الحزن على وفاتها سنة ١٩٠٧ ؛ وقد انطبعت فيه أخلاقها من صفاء النفس وحب الخير ، والصبر والجلد ، مرضت بالقلب فى آخر حياتها عدة أشهر وكانت وطأة المرض تشتد عليها بين حين وآخر ، ولكنها كانت تقابل آلام المرض بالصبر والجلد ، وظلت كذلك حتى أسلمت الروح ؛ فهذا الصبر على احتمال الآلام والمتاعب قد ورثه الفقيد عن والدته الفاضلة

نشأة الفقيد المدرسية

بدت على مصطفى كامل مخايل الذكاء والنجابة وقوة الذاكرة فى طفولته ، وكان كثير الاهتمام بما يحدثه أبوه من القصص على عادته مع أولاده ، ويعى هذه القصص ويدركها تمام الادراك وهو بعد طفل لما يتجاوز الخامسة من عمره ، وقد عهد أبوه وهو فى هذه السن الى فقيه يدعى الشيخ احمد السيد أن يعلمه فى المنزل مبادئ القراءة والكتابة ، ويحفظه القرآن الكريم ، ولما أتم السادسة أدخله مدرسة (والدة عباس الأول) الابتدائية بالصليبة ، وهى القائمة الى الآن ؛ فهذه المدرسة تفخر بحق بأنها أول معهد علمى تخرج فيه نابغة مصر العظيم

وبدا على مصطفى أول مابدا فى أول عهده بالحياة المدرسية تعلقه بعلم الحساب وميله اليه اكثر من ميله الى أى علم آخر ؛ ولا غرو فأبوه كان مهندساً ؛ فورث عنه الميل الى العلوم الحسابية ، وظهرت عليه أيضا علائم الشمم و الاباء والشجاعة ، فمن

ذلك انه بعد أن مكث بمدرسة والدة عباس سنتين حدث أن تلميذاً معه فى الفرقة سأله الأستاذ سؤالا لم يجب عليه ، فأجاب بدلا منه ، فسبه الأستاذ وعاقبه بالحبس ساعتين ، فعافت نفسه هذا الظلم ، وطلب الى أبيه أن يلحقه بمدرسة أخرى لأنه لم يستطع أن يتحمل هذه الاهانة ، فذهب والده فى اليوم التالى وحقق الحادثة وتبين أن ابنه محق فى شكواه ، فأخرجه من المدرسة وأدخله مدرسة (السيدة زينب) الابتدائية التابعة لوزارة الأوقاف ، واكب على الدرس فى تلك المدرسة كما كان دأبه فى مدرسة والدة عباس إذ كان شديد الاقبال على الدرس والمذاكرة، وبدا منه الميل الكبير الى دروس التاريخ ، وظهر ذكاؤه الفائق واستعداده الكبير فصار أول أقرانه

وفاة والده

أدركت والده الوفاة يوم ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م) والفقيد فى مدرسة السيدة زينب ، فحزن لوفاته حزنا شديداً وأثر فيه الحزن تأثيراً عميقا ، وقد كفله من بعده أخوه الاكبر حسين بك (باشا) واصف (وزير الاشغال الاسبق) فطلب اليه أن ينقله الى مدرسة (القربية) لأنها أقرب الى منزل جده لأمه الذى أقام فيه واخوته ، فأجابه أخوه الى طلبه ونقله اليها

حصوله على الشهادة الابتدائية

وفى هذه المدرسة تجلت فى الفقيد مواهبه فى الذكاء والعزيمة والجد والاجتهاد، فتفوق أيضاً على أقرانه بها ، ونال شهادة الدراسة الابتدائية فى احتفال فخم حضره الخديو الاسبق توفيق باشا سنة ١٨٨٧

فى المدرسة الثانوية

دخل المترجم المدرسة التجهيزية (الخديوية) سنة ١٨٨٧ ، وكان من أساتذته

فيها الدكتور محمود بك فوزى الحكيم، وأحمد بك كمال ، وأحمد بك حمدى ، وعثمان بك أنور ، ومحمد بك ادريس ، واسماعيل افندى فهمى ، والدكتور محمد بك كامل الكفراوى ، وغيرهم ، وقد ظل الفقيد على صفاته التى لازمته فى التعليم الابتدائى من الجد والاكباب على الدرس والعمل ، وظهرت مواهبه من الشجاعة والجرأة والذكاء وقوة الذاكرة واستقلال الفكر وعلو النفس والصراحة فى القول، وحسن الالقاء ، فنال احترام الأساتذة والتلاميذ جميعا ، وكان موضع إعجابهم ، وقد عرفه فى ذلك الحين على باشا مبارك ، وكان وزيراً للمعارف العمومية، فأعجب بفصاحته وشجاعته وقوة عارضته ، وقال له مرة « انك امرؤ القيس »،وبشره بأن سيكون عظيما ، وأعجب به إعجابا كبيراً ، وقابله يوما فى سراى الوزارة وشكى اليه حيف نظام الامتحان إذ أدى الى رسوبه ورسوب زملائه ، فأعجب بجرأته واقتنع بشكواه وحجته ، فعدل عن هذا النظام مما أدى الى نجاح مصطفى وكثير من زملائه ، وكان الفقيد على حداثة سنه موضع احترامه ،فكان الوزير ينشطه ويدعوه الى منزله ويناقشه فى المسائل العلمية والاجتماعية ويقدمه الى جلسائه من العلماء والكبراء ،ويثنى عليه امامهم

فى مدرسة الحقوق

ونال شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) صيف سنة ١٨٩١ ودخل مدرسة الحقوق الخديوية فى اكتوبر من تلك السنة ونجح فى امتحان السنة الأولى ، ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية فى اكتوبر سنة ١٨٩٢ وجمع بين المدرستين ، وحصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز فى نوفمبر سنة ١٨٩٤ .

نشأته الاخلاقية

إن الأخلاق هى مهد الوطنية وقوامها ،فالأمم التى يتحصن أفرادها بالاخلاق



مصطفى كامل
في السابعة عشرة من عمره

هى التى تنمو فيها الوطنية وتتأصل فى نفوس أبنائها ، ولا غرو فالوطنية الصادقة لا تسكن الا النفس المتحصنة بالاخلاق القويمة ، ولقد كان مصطفى كامل زعيما اخلاقيا كما كان زعيما وطنيا ، وكانت نشأته الوطنية متابعة لنشأته الاخلاقية ، لان الاخلاق أساس الوطنية الصادقة

بدأت نشأته الاخلاقية فى البيت ، من حسن تربية والده اياه ، وقدوته الحسنة ، ثم استمرت فى المدرسة الابتدائية ، ثم الثانوية والعالية ، ودخل ميدان الجهاد الوطنى متميزا بالاخلاق التى اكتسبها طفلا وتلميذا وشابا ، ولازمته طوال حياته

وأبرز الجوانب فى حياته الاخلاقية الصدق والاخلاص ، وقوة العزيمة ، والصراحة والشهامة ، وعلو النفس ، ولقد كانت هذه الاخلاق خير أساس لوطنيته

كما كانت عدته فى الجهاد وسبيله الى الفوز فى اداء رسالته القومية

ظهرت هذه الاخلاق للعيان أثناء دراسته بالمدرسة الثانوية ؛ ذكر المرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد أنه دخل ذات ليلة على على باشا مبارك فى منزله أوائل سنة ١٨٩٠ وهو يومئذ وزير المعارف ، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء ، واذا بمصطفى كامل وكان وقتئذ تلميذا بالمدرسة الثانوية يجادل الباشا فى أمره ويقول انى لا أطلب منك إلا ما وجدت أنت من مثالك يوم كنت تلميذا مثلى ؛ وما يدريك أن لا أكون عظيما أخدم وطنى غدا بأكثر مما تخدمه أنت اليوم ، قال هذا ثم خرج غاضبا ، وكأنه ليس بتلميذ ؛ وكأنما الباشا الذى يخاطبه ليس وزير المعارف العمومية ، وبعد ماخرج ابتسم الباشا وقال إنى أعجب كثيرا بشجاعة هذا التلميذ ، ويلذ لى أن يتكلم أمامى كثيرا بمثل هذه الشجاعة النفسية ؛ ولذلك لم أخبره بما أمرت اليوم لأجله ، وكان قد أصدر أمره بما طلب منه من قبل وتركه يخاطبه بمثل هذه اللهجة متلذذا بما كان يعجبه من كلامه وجداله ، قال الشيخ على يوسف : « من تلك اللحظة عرفت (مصطفى كامل) وكأنما عرفت رجلا لا تلميذا فى المدرسة »

نشأته الوطنية — سنة ١٨٩٠

تدل الشواهد والبينات على أن نشأة مصطفى كامل الوطنية بدأت وهو بعد فى المدرسة الثانوية ، ونقصد بالنشأة الوطنية اتجاهه الى العمل والجهاد فى سبيل حرية مصر واستقلالها ، بدأ يشعر وهو بعد فى السادسة عشرة من عمره أن عليه واجبا نحو وطنه يجب أن يؤديه ، ظهر هذا الشعور أول ما بدا وهو فى المدرسة الخديوية ، إذ أسس جمعية أدبية وطنية أسماها (جمعية الصليبية الأدبية) واختار لها أعضاء من بين أصدقائه فى التلمذة ممن توسم فيهم الفضل والذكاء والكفاية ، وكانت ثمة جمعية أخرى تسمى (جمعية الاعتدال) تعقد جلساتها الاسبوعية فى

مدرسة الامريكان ، فكان المترجم يزورها ليتعرف الى من فيها من الافاضل والادباء فيحبب اليهم زيارة جمعيته ، وقد نمت الجمعية ولم يمض على تأسيسها أكثر من ثلاثة أشهر حتى كان فيها نحو سبعين عضوا

ومن ذلك الحين تعلقت نفسه بالوطنية والخطابة ، فكان يقف فى الجمعية خطيبا مساء كل جمعة مرتجلا ما تملى عليه البديهة من الخطب ؛ وتجلت مواهبه الخطابية وهو بعد فى هذه السن المبكرة ، وأول خطبة ألقاها كانت فى (فضل الجمعيات فى العالم) ، وأخذ يراسل الصحف من ذلك الحين ، ويتجلى تعلقه بالوطنية منذ كان بالمدرسة الثانوية من خطابه الذى أرسله إلى شقيقه على فهمى (بك) فى ١٢ يولية سنة ١٨٩١ لمناسبة حصوله على شهادة الدراسة الثانوية ، واعتزامه دخول مدرسة الحقوق الخديوية ، إذ يقول فيه مخاطبا أخاه (الذى كان وقتئذ ضابطا بالسودان) :

« السلام عليك أيها الأخ الحبيب . اليوم أبشرك أن العقبة الكؤود التى أمامى وهى شهادة الدراسة الثانوية قد زالت من أمامى ؛ فقد نلتها بعد أن أضنت جسمى ، فأصبح نحيلا ، لا صحيحا ولا عليلا ، ولكنى أؤمل أن تعود الى القوى لادخل مدرسة الحقوق الخديوية ، فقد عزمت على الانضمام الى صفوف طلابها ، لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الافراد والأمم ؛ وأنت تعلم أنى أميل اليها كثيرا ؛ وعزمت كذلك على تأسيس جمعية أسميها جمعية « إحياء الوطن » وربما دهشت من إقدامى هذا لضعفى الذى تعلمه فى اللغة الفرنساوية ؛ ولكن اعتمادى على الله وعلى نفسى أكبر ضامن لنجاحى والله الموفق الى أقوم سبيل »

نشرنا هذا الخطاب بالزنكوغراف (ص ١٨) لأنه أول رسالة بخط المترجم [١]

(١) نشرت صورته لاول مرة فى كتاب (سيرة مصطفى كامل فى أربعة وثلاثين ربيعا) لعلى فهمى كامل بك

ولأنه أول وثيقة تلقى الضوء على نشأة مصطفى كامل الوطنية ، فالكتاب مؤرخ فى ١٢ يوليه سنة ١٨٩١ ، وهو يصف اتجاه المترجم الى الانتظام فى سلك مدرسة الحقوق « لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الافراد والامم » ، وهذا الاتجاه ليس وليد اليوم الذى كتب فيه الخطاب ، بل هو وصف لشعور

بالإسكندرية فى ١٢ يوليه سنة ١٨٩١

أخى حضرة على افندى فهمى حماه الله

بسلام عليك أيها الأخ الحبيب اليوم أبشرك أن العقبة الكؤود التى كانت أمامى وهى شهادة الدراسة الثانوية قد زالت من أمامى فقد نجحت بعد أن اجتهدت حتى وأصبحت نيلا لأصحابى والعائلة ولكنى أزمع أن أعود إلى القوى لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية فقد عزمت على الانضمام إلى صفوف طلابها لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم

وأنت تعلم أنى أميل إليها كثيرا وعزمت كذلك على تأسيس جمعية اسمها "جمعية إحياء الوطن" وربما دهشت من اقدامى هذا الضعيف الذى تعلم فى اللغة الفرنساوية ولكن اعتمادى على الله وعلى نفسى أكبر ضامن لنجاحى والله الموفق الى اقوم سبيل

السيدة الوالدة العزيزة (حرسها الله) والأشقاء عموما وفى مقدمتهم سيدنا الأخ البار حسين افندى يهدونك ألف سلام

وداوى حلمى ترجون أنه لا تكون شديد على العساكر السود فانهم أهل عشرة ويحملون الضغينة وأنت خير من يحسن معاملة الناس حفظك الله

لأخيك
مصطفى كامل

خطاب الفقيد الى شقيقه على بك فهمى كامل
عقب حصوله على الشهادة الثانوية — ١٢ يوليه سنة ١٨٩١

نفسانى سابق خالج المترجم منذ كان طالبا بالمدرسة الثانوية ، وقبل أن يتخطى تلك العقبة الكؤود ، وقوله مخاطبا أخاه « وأنت تعلم أنى أميل اليها كثيرا » مشيرا الى مدرسة الحقوق ، يدل على أن هذا الميل كان معروفا عنه قبل كتابته هذا الجواب ، واعتزامه تأسيس جمعية اختار لها اسم (احياء الوطن) دليل آخر على شعوره بالعمل لاحياء الوطن ، وان هذا الشعور ليس وليد الساعة التى كتب فيها الخطاب ، بل هو نتيجة تفكير طويل وشعور عميق اطمأنت نفسه اليه

لذلك يمكننا أن نحدد مبدأ نشأة الفقيد الوطنية بسنة ١٨٩٠ ، وهو أصح السنين لتأريخ ظهور تلك العبقرية الوطنية التى سطع نورها فى ارجاء وادى النيل وبعثت النهضة القومية من مرقدها

ويبدو من هذا الخطاب ضوء آخر تجتلى به اخلاق الفقيد التى لها صلة وثيقة بوطنيته ، فمن خلال سطوره وكلماته تلمع معانى العزيمة الماضية ، التى كانت من أخص صفاته ، فهو قد اجهد نفسه لينال شهادة الدراسة الثانوية حتى اصبح جسمه نحيلا « لا صحيحاً ولا عليلا » ، وهذا يدلك على مبلغ قوة إرادته ، وتبدو صورة نفسه المتوثبة الى عظائم الامور من اعتزامه تأسيس جمعية لاحياء الوطن وهو منهك القوى من الجهد الذى بذله فى الدرس والامتحان ، فهذا الجهد الذى كان فى حاجة الى الراحة بعد العناء لم يصرف الفقيد عن متابعة الجهد والعمل لاحياء الوطن

العصر الذى ظهر فيه مصطفى كامل

لا تكمل دراسة شخصية المترجم دون ان ندرس العصر الذى ظهر فيه ، لكى نتبين مبلغ تأثير العصر فى شخصيته ، وتأثير شخصيته فى عصره

قلنا ان ظهور مصطفى كامل فى ميدان الجهاد الوطنى قد بدأ سنة ١٨٩٠ ، فانقف قليلا لـكى نصف حالة مصر السياسية فى ذلك العصر

مضى على الاحتلال البريطانى نحو تسع سنوات كانت سنوات يأس وقنوط واستسلام من جانب الامة، كما كانت عهد طغيان وجبروت من جانب الاحتلال

فالثورة العرابية بما انتهت اليه من الاخفاق والهزيمة سنة ١٨٨٢ قد اثرت فى حالة الامة المعنوية تأثيراً سيئا ، لأن إخفاق الثورات فى ذاته يبعث اليأس فى النفوس ، هذا الى ان الخاتمة التى انتهت بها الثورة وما أفضت اليه من الاحتلال هى مظهر بارز لخيبة الأمل فى الثورات، إذ ان الثورة التى قامت فى الأصل لانالة البلاد حريتها السياسية قد انتهت بالعكس بفقدان هذه الحرية ، ثم بفقدان الاستقلال الذى كانت تتمتع به من قبل . فقلما يوجد من الثورات ما انتهت بخيبة الأمل مثلما انتهت به الثورة العرابية

أضف الى ذلك مابدا من زعماء الثورة العرابية من ضعف وتسليم فى ميدان الجهاد ، وخضوع ومذلة بعد الهزيمة ، وفى اثناء المحاكمة ، وتنصلهم من تبعات الثورة التى اقتادوا زمامها ، والتجاء معظمهم الى الانجليز يستجدون منهم الصفح والمعونة ، وما انتهى اليه امرهم من النفى والنسيان ، كل ذلك قد ادى الى تسرب اليأس فى النفوس ، فنهاية الثورة العرابية كانت من اسباب انحلال المقاومة الاهلية فى اوائل عهد الاحتلال البريطانى ، فان روح الخضوع والاستسلام قد تسربت من نفوس الزعماء الى صفوف الأمة ، فركنت الى الاذعان ، وظلت هذه الروح غالبة على الأمة سنوات عديدة ، إذ ليس من السهل ان تتخلص الأمم من امثال هذه الحالة المعنوية، بل قد تمر عليها اجيال ثم أجيال وهى تراها حالة عادية لاغضاضة منها ولا غرابة فيها حتى يظهر فيها الزعماء المخلصون ينفضون عنها غبار

اليأس والذل ويبعثون فيها روح الحياة والكرامة ، فلا تتغير نفسية الأمة الا بتأثير عوامل وشخصيات قوية تبعث فيها دما جديداً قويا ، من أجل ذلك قلنا فى كتابنا عن (الثورة العرابية) ان هزيمة الثورة العرابية لم تقتصر نتائجها على احتلال الانجليز أرض مصر دون أية مقاومة تذكر ، بل كان من آثارها سريان روح الخضوع واليأس فى نفوس المصريين ، ومن هنا جاء الانحلال الوطنى العام الذى أصاب البلاد عقب إخماد الثورة العرابية وبقى مخيما عليها نحو عشر سنوات ، ولا غرابة فى ذلك فان البلاد التى تشهد خيبة الأمل فى ثورتها القومية مثلما رأته مصر من الثورة العرابية تبقى تحت تأثير اليأس والقنوط الى أن يقيض لها الله زعامة جديدة تسلك بها سبيل الجهاد من جديد ، وهذا هو فضل مصطفى كامل فى جهاده ، فلقد ظهر فى وقت كان اليأس مستحوذا على النفوس ، فبعث فى الأمة روحا جديدة ، فهو بحق موجد الحركة الوطنية ومنشئها ، لا ممثلها وناثبها ، وفرق بين الزعيم الذى يخلق حركة من العدم ، ويستبدل من اليأس املا ، ومن الجمود حياة وجهاداً ، وبين الزعيم الذى تدفعه الحركة الوطنية وتخلقه خلقا جديدا ، ولا يكون له من العمل الا ان يمثلها او يستغلها

لم يكن إخفاق الثورة العرابية هو العامل الوحيد لسريان روح اليأس والاستسلام ، بل اجتمعت اليه تلك الحوادث التى تعاقبت على البلاد فى السنوات العشر الأولى من الاحتلال ، فكانت ايضا من بواعث القنوط وانقطاع الامل

فى هذه السنوات شهدت البلاد التواء السياسة الانجليزية ونقضها مواعيدها فى الجلاء ، شهدت جمود الدول الأوروبية ازاء المسألة المصرية وتركها انجلترا تعبث ماتشاء باستقلال مصر وحقوقها ، شهدت تهدم صرح الامبراطورية المصرية الواسعة الارجاء التى اسستها فى السودان ، ورأت الكوارث والهزائم تصيب

جيشها فى اصقاعه ، وعواصمه ومديرياته تسقط واحدة بعد اخرى فى ايدى الثوار ، شهدت خضوع الحكومة المصرية لأوامر القنصل البريطانى العام ، شهدت إلغاء الجيش المصرى وتأليف جيش جديد هزيل ، قائده وكبار ضباطه من البريطانيين ، شهدت النفوذ البريطانى يتغلغل فى شؤون الحكومة كافة ، من سياسية وحربية ومالية وتشريعية وإدارية ، شهدت إلغاء الدستور الذى نالته سنة ١٨٨٢ وتأليف هيئة شورية لا حول لها ولا قوة ، شهدت نوعا من الحماية مضروبا على مصر دون ان تعرف له اساسا ولا حدودا ، ولا قواعد ولا وقتا محدودا ، ثم شهدت فوق ذلك استسلام رجالات مصر لارادة العميد البريطانى ، وتقرب اكثرهم اليه ، والتماسهم الزلفى لديه

كان الخديو توفيق باشا يتولى مسند الخديوية مذعنا للسيطرة البريطانية لا يرد للعميد الانجليزى (اللورد كرومر) طلبا ، وقد أضفى على الاداة الحكومية روح الاستسلام لارادة الانجليز ، واللورد كرومر هو صاحب الامر والنهى فى شؤون الحكومة ، يتدخل فى كل وزارة بواسطة الموظفين الانجليز الذين كانوا على رأس المصالح المهمة ، فالسردار والضباط البريطانيون على رأس الجيش ، والبوليس تحت إمرة المفتش البريطانى العام ، والمالية فى يد المستشار المالى ، والأشغال فى يد وكيل الوزارة البريطانى ، والحقانية منذ سنة ١٨٩١ فى يد المستشار القضائى ؛ وكان يتولى الوزارة فى ذلك الحين (سنة ١٨٩٠) رياض باشا وفى عهده استمر النفوذ البريطانى يتغلغل فى دوائر الحكومة ، ثم استقال فى مايو سنة ١٩٨١ وخلفه فى رياسة الوزارة مصطفى فهمى باشا ، وهو أكثر الوزراء خضوعا للاحتلال الانجليزى واستسلاما له ، وليس فى البلاد هيئة نيابية تمثل سلطة الأمة ، بل كان بها ذلك المجلس المعروف بمجلس شورى القوانين ولم

يكن يسمع له صوت فى الشؤون العامة، والصحافة إما موالية للحكومة ، او ضعيفة فاترة بازاء السيطرة البريطانية ، وجمهرة الأمة تحت تأثير هزيمة الثورة العرابية وخضوع الحكومة للسياسة الانجليزية ، منصرفة عن الكفاح والجهاد

وكان الرجال البارزون فى مصر إما منزوين فى دواوين الحكومة، متربعين فى المناصب ، وبعضهم اعوان الغاصب ، واما منصرفين لأعمالهم الخاصة فى المحاماة أو الطب والزراعة والتجارة ، والذين أدركوا منهم الثورة العرابية أو كانوا من رجالها قد انصرفوا عنها ، وحل اليأس فى نفوسهم، والذين لم يشتركوا فيها كانوا متأثرين بالروح العامة التى خيمت على البلاد ، روح الخضوع والاستسلام، ويكفيك لكى تتمثل صورة من الروح العامة للطبقة الممتازة من المجتمع أن تذكر أن المغفور له سعد باشا زغلول (الذى تولى قيادة الحركة الوطنية سنة ١٩١٩) كان وقتئذ المحامى النابه (سعد افندى زغلول) ، ومع أنه كان منصرفا للمحاماة ولم يضطلع بعد باعباء الجهاد القومى ، فانه آثر المنصب الحكومى على الحياة الحرة ، فعين سنة ١٨٩٢ قاضياً (مستشاراً) بمحكمة الاستئناف ، وأقر لزملائه المحامين فى حفلة تكريمهم اياه أنه اختار القضاء « ليستريح بعد العناء [1] » ، ففى الوقت الذى ضرب فيه اليأس رواقه على الطبقة الممتازة من المجتمع خاصة ، وعلى الامة عامة ، بدأ مصطفى كامل حياة العناء والجهاد فى سبيل مصر واستقلالها ، من هذه الناحية تستطيع أن تقدر فضل المترجم ، إذ أنشأ الحركة الوطنية فى عصر تغلبت فيه عوامل اليأس والجمود ، وتظاهرت أسباب الضعف والخذلان

والآن يجدر بنا أن نتساءل من أين جاءت مصطفى كامل هذه الروح الوطنية فى عصر اكتنفته عوامل اليأس والقنوط ، وكيف نهض وحده وهو فى هذه السن.

---

(١) المؤيد عدد ٢٩ يونيه سنة ١٨٩٢

المبكرة إذ كان لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره ؟

لم يقل أحد إن أباه (على ما كان عليه من الفضائل) هو الذى غرس فى نفسه عقيدة الوطنية ، لأن « على افندى محمد » لم يكن فذا فى الآباء ، بل كان كغيره من خيار الرجال الذين لم يكونوا يعنون بتنشئة أبنائهم النشأة الوطنية ، ولم يكن فى المدارس كذلك دروس فى الوطنية يتلقاها تلاميذها ، كما أن العصر الذى ظهر فيه مصطفى لم يكن مستعداً لأن تكتسب فيه الوطنية بطريق القدوة ، وإذا قلنا ان أخلاق مصطفى كامل هى التى أوحت اليه العقيدة الوطنية، فان كثيراً من الشبان والتلاميذ كانوا على مثل أخلاقه الفاضلة، ومع ذلك لم ينشأوا على غراره فى العقيدة الوطنية ، واذا أردنا أن نعلل هذه النشأة بأنها كانت نتيجة ما كانت مصر تعانيه من احتلال يعبث باستقلالها ويتغلغل فى شؤونها ، وأن مصائب الوطن كانت كافية لتحريك نزعة الوطنية فى نفوس المصريين ، فان هذه المصائب لم تحرك فى نفوس الناس ما حركت من نفس مصطفى ، بل ان المصائب كان لها تأثير عكسى فى ذلك العصر ، إذ بعثت اليأس فى النفوس، وجنحت بالأمة للاستسلام ، هذا الى أن فريقا من المصريين كانوا يستفيدون من مصائب الوطن ويعدها قوم من الفوائد والحسنات

فنى الحق انه لا تعليل لهذه النشأة الا أنها قبس من نور العبقرية، فالعبقرية هى مصدر هذه النشأة ، وقوامها قوة الارادة والايمان ، ولا غرو فهذه القوة تذلل الصعاب وتأتى بالمعجزات ، وهذا هو سر العبقرية ، لا تجد له تعليلا دقيقا ، فاذا عللته بتأثير البيئة أو الوراثة كما يقولون اعترضك فى هذا أن العبقرى قد ينشأ وغيره من الناس فى بيئة واحدة ، ومن أب واحد، وأم واحدة، ومع ذلك ينفرد بالنبوغ دون أقرانه واخوانه ، فنشأة مصطفى كامل الوطنية، ثم حياته الوطنية كلها ، هى

تبس من عبقريته ، وقد اتجهت هذه العبقرية الى إحياء الوطن ، وبعث الحركة القومية من مرقدها . ومن مداد هذه العبقرية خطّ التاريخ دورا عظيما من أدوارها ، ولقد كان مصطفى منشىء هذا الدور ، اذ نفخ فى الامة من روحه ، فى وقت كانت الملابسات والظروف تجعل الدعوة الوطنية من أشق المهام وأبعدها عن النجاح ، وكانت موضع الزراية والاستخفاف من سواد الامة ، بل من الطبقة الممتازة من المجتمع ، وهذا ولا ريب مما يظهر فضل مصطفى كامل فى بعثه الحركة الوطنية

الفصل الثانى

المرحلة الاولى من الجهاد

فى المدرسة الثانوية وفى مدرسة الحقوق

قلنا ان نشأة الفقيد الوطنية بدأت سنة ١٨٩٠ ، وهو طالب فى المدرسة الثانوية ، وقد أسس أول ما أسس (جمعية الطلبة الادبية) ، وتعلقت نفسه من ذلك الحين بالخطابة والكتابة والأدب ؛ فكان يقف فى الجمعية خطيبا فى مساء كل جمعة مرتجلا ماتملى عليه البديهة ، وكان يسترعى الانظار ويملك الاسماع بمواهبه الخطابية

دخل مدرسة الحقوق الخديوية فى أكتوبر سنة ١٨٩١ ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وكان قلبه يتقد وطنية واخلاصا لمصر ؛ فلم يستطع أن يصبر حتى ينال شهادة الليسانس لكى يبدأ الجهاد ؛ بل بدأ جهاده وهو فى مهد التعليم ، فى المدرسة الثانوية ، ثم فى مدرسة الحقوق

كان رفيقه وزميله فى دراسة الحقوق فؤاد بك سليم (باشا) ، وقد تلاقيا لأول مرة بالمدرسة المذكورة ، فتعارفت روحاهما وائتلفا إئتلافا قلبيا وروحيا ، وقويت بينهما من ذلك الحين أواصر الصداقة ؛ وتعرف الفقيد بواسطته الى والده لطيف باشا سليم ؛ فكان له خير مرشد ومشير ، كما كان له حين عظم شأنه نعم العضد والنصير ، كان الفقيد يسبق عصره فى النضج وقوة الوجدان والشعور ، كان وهو فى مدرسة الحقوق يتعرف الى الرجال البارزين فى ذلك العصر ويتصل بهم ويناقشهم ، ويتبادل واياهم الآراء والأفكار ، نذكر منهم الشيخ على الليثى الشاعر والأديب الكبير ، ولطيف باشا سليم ، واسماعيل باشا صبرى الشاعر

المشهور ، وعلى بك فخرى ، وأمين باشا فكرى ، ومحمود بك سالم ، واسماعيل بك شيمى وآخرين من أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية

وقد حدث يوماً وهو فى مدرسة الحقوق ان جرت بينه وبين صديقه فؤاد سليم مناقشة حادة أصدرت المدرسة على أثرها أمراً بحرمانهما دخولها أسبوعا ، فاستاء كلاهما من هذا القرار ، ولم يرد فؤاد بك أن يعود الى المدرسة بعد انتهاء الاسبوع ، بل التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية التي تأسست فى ذلك العهد ، أما مصطفى فعاد الى مدرسته واستمر فيها حتى انتهاء السنة الأولى

انتقل المترجم من السنة الأولى الى السنة الثانية بنجاح ، وفى صيف ذلك العام (١٨٩٢) قصد الى مدينة الاسكندرية لتبديل الهواء ، فاجتمع هناك بصاحب الاهرام بشاره باشا تقلا ، وكان واسطة التعارف بينهما صديقه الحميم الاستاذ خليل بك مطران ، فأعجب به وأجله وأفسح جريدته ينشر فيها ما يبعث اليه من الرسائل الوطنية

وفى شهر اكتوبر سنة ١٨٩٢ رغب اليه صديقه فؤاد بك سليم أن يتم دراسته فى مدرسة الحقوق الفرنسية ، ليكونا بها معا ، فمالت نفسه الى العمل بهذا الرأى لسببين ، أحدهما أنه يجد فى هذه المدرسة الحرية التى تصبو اليها نفسه ، فلا يتقيد بالنظم المتبعة فى مدرسة الحقوق الخديوية ، والثانى أن يستزيد من دراسة اللغة الفرنسية فيجيد الكتابة والخطابة بها ويدافع بها عن قضية الوطن أمام الرأى العام الاوروبى ، وقد جمع وقتا ما بين المدرستين ، فكان يقضى سحابة النهار فى المدرسة الاميرية ، والمساء فى المدرسة الفرنسية إذ كانت الدراسة فيها تبدأ قبل الغروب ، ويبدو لك من جمعه بين المدرستين ما فطر عليه من الاباء وعلو النفس والتعلق بالحرية ، بله الجد والمثابرة على الدرس ، فقد أراد أن يكون المجال

فسيحا أمامه لينصرف من احداها الى الأخرى اذا ما ضيّق على ضميره نظام أو إنسان ، وفى تلك السنة المكتبية ١٨٩٢ ـ ١٨٩٣ أكثر من الكتابة فى جريدتى الاهرام والمؤيد .

وكان وهو يخطب بين إخوانه الطلبة يثير حماستهم الوطنية لمقاومة الاحتلال ، فأكبروا فيه وطنيته ومواهبه الخطابية ، واجتمعت قلوبهم على محبته والاعجاب به

وفى نوفمبر سنة ١٨٩٢ زار الخديو عباس الثانى مدرسة الحقوق الأميرية ، فكان التلميذ « مصطفى كامل » من الطلبة النجباء الذين رحبوا به والقى بين يديه قصيدة مطلعها

بشرى الحقوق بسيد الامراء * كنز العلا عباس ذو النعماء

بشراك يادار العدالة والهدى * بمليك مصر وأوحد العظماء

وفى يناير سنة ١٨٩٣ لمناسبة أزمة اقالة الوزارة الفهمية [١] قامت مظاهرة وطنية من طلاب المدارس العالية وفى مقدمتهم طلبة الحقوق لتأييد الخديو فى خلافه مع اللورد كرومر ، وكان الفقيد فى طليعة هذه المظاهرة

وفى أوائل تلك السنة ألف رسالة (أعجب ما كان فى الرق عند الرومان) ، وهذه الرسالة على صغر حجمها أوضحت حقيقة الاستعباد الرومانى المنافى لاحكام الرق فى الشريعة الاسلامية

انشاء مجلة المدرسة

وفى تلك السنة أيضا أنشأ مجلة أسماها (المدرسة) ، صدر العدد الاول منها يوم السبت ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ — غرة شعبان سنة ١٣١٠ ، وهى مجلة وطنية أدبية تهذيبية علمية تصدر فى غرة كل شهر عربى ، وجعل شعارها المطبوع فى صدر

(١) راجع تفصيل هذه الازمة فى الفصل السادس عشر

كل عدد (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك)

كان المترجم مدير المجلة ومحررها ، وتطوع بعض الكتاب المجيدين لكتابة المقالات والرسائل فيها ، وقد رحب بها السيد عبد الله نديم (خطيب الثورة العرابية) ، وكان قد ظهر بعد اختفائه وأصدر مجلته (الأستاذ) فنوه فيها بظهور مجلة الفقيد [(١)].

وتبدو فى مجلة (المدرسة) روحه الوطنية ، فالروح التى أملت عليه إصدارها وهو بعد فى التاسعة عشرة من عمره هى ذات الروح التى أوحت اليه إصدار اللواء حين بلغ السادسة والعشرين ، فالينبوع واحد ، وهو ينبوع الوطنية الفياض.

إن ظهور مجلة (المدرسة) يعطيك فكرة عن شخصية المترجم ، فهى أول مجلة مدرسية أصدرها طالب مصرى ، وفى إقدامه على اصدارها وهو بعد فى التاسعة عشرة من عمره ما يدلك على عظيم همته ومضاء عزيمته وقوة وطنيته ، فليس من السهل على طالب فى مثل سنه أن يصدر مجلة يتولى تحريرها وإدارتها والانفاق على تكاليفها ، بل هو عمل قد تنوء به الجماعة من الرجال ، ولكن عبقرية المترجم كانت تذلل الصعاب ، ويدل إصدارها كذلك على ميله للصحافة منذ نشأته الوطنية ، ولا غرو فالصحافة كانت اداة كبرى لجهاده وكفاحه ، ويكشف أيضا هذا العمل عن قوة وطنيته المغروسة فى فؤاده ، فهو يقتطع من وقته لاصدار مجلة يبث فيها بين الشباب روح الوطنية والتهذيب.

كتب الى أخيه على بك فهمى كامل فى ١٩ فبراير سنة ١٨٩٣ كتابا يقول فيه « أبعث اليك فى هذا البريد بمجلة المدرسة التى أنشأتها لخدمة الناشئين لا للربح والشهرة »

---

(١) مجلة (الاستاذ) للسيد عبد الله نديم عدد ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٣

وهذا الكتاب يدلك على الفكرة التى صدرت عنها المجلة ؛ فهو لا يقصد منها الربح والمنفعة بل يرمى الى اداء الواجب الوطنى نحو بلاده

وكان عدا إصداره مجلة المدرسة ينشر بين حين وآخر المقالات فى جريدتى الاهرام والمؤيد

اتصاله بعبد الله نديم

عاد السيد عبد الله نديم الى مصر من منفاه سنة ١٨٩٢ ، فاتصل به الفقيد وعرف من أحاديثه أسرار الثورة العرابية ، إذ كان النديم خطيبها وأحد كبار زعمائها (١) ، عرف منه حوادث الثورة على حقيقتها ، وأدرك أسباب اخفاقها وهزيمتها ، واذ كان يعد نفسه لزعامة الحركة الاستقلالية ، فان أحاديث عبد الله نديم قد أفادته كثيراً فى تعرف مواطن الخطأ وأسباب الاخفاق فى الثورة العرابية ، فتجنبها فى جهاده ، كما عرف شيئا كثيراً من دسائس السياسة الأنجليزية ، تلك الدسائس التى كان لها دخل كبير فى اخفاق الثورة ووقوع الاحتلال ، وانك لتلمح فى حياة مصطفى كامل الوطنية والسياسية مبلغ تجنبه أخطاء العرابيين ، فهو لم يفكر فى اتخاذ الجيش أداة للحركة السياسية ، بل كان يعتمد على قوة الرأى العام وتربية الشعب التربية الوطنية والاخلاقية الكفيلة بتوطيد دعائم الحرية والديمقراطية ، واذ علم أن اصطدام العرابيين بالخديو توفيق باشا قد مكن للدسائس الأنجليزية من أن توقع الفرقة والانقسام فى مصر ، فانه نأى عن هذه السياسة الخرقاء ، وسلك بالحركة الوطنية سبيل التفاهم مع الخديو عباس الثانى ، وتفادى الاصطدام به رغم ما شجر بينهما من خلاف كما سيجئ بيانه ، وكان ينقم من عرابى استسلامه للانجليز وأدرك مبلغ تأثير هذا الاستسلام فى حالة الأمة المعنوية ، فرسم لنفسه خطة المقاومة

---

(١) ترجمنا له فى كتابنا (الثورة العرابية) ص ٥٣١

المستمرة للاحتلال ، مقاومة لاضعف فيها ولا هوادة ولا تراجع ، وهكذا كانت أخطاء الثورة العرابية درسا لباعث الحركة الوطنية، جنبه مواضع الخيبة والاخفاق في الجهاد ، والزعامة الحقة هي التي تستفيد من تجارب الماضي ، وتعتبر بمصائب الوطن، فتقيه مواطن الزلل وتسلك بالأمة سبيل الحكمة والرشاد

سفره الى باريس

لأداء امتحان الحقوق

سافر الفقيد لأول مرة الى أوروبا يوم الجمعة ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٣ ، ليؤدى امتحان السنة الأولى بكلية الحقوق بباريس فأداه بنجاح [1] ، وقد كانت هذه الرحلة فرصة سنحت له ليستزيد من معارفه ويكتسب من مشاهداته في بلاد الحضارة والوطنية ، وكان أثناء مقامه بباريس مثال الجد والاستقامة ، منصرفا عن اللهو واللعب ، ولم يكن همه بعد أن يفرغ من دراسته كل يوم الا أن يزور المكاتب والمعاهد، أو يحادث ذوى الرأى فيما يتعلق بشؤون مصر وما يجيش به صدره نحوها من العواطف والآمال ، وكان في خلال رحلاته هذه لايفتأ يذكر مصر ومجدها ، كتب الى أخيه علي بك فهمى كامل خطابا من باريس في ٢٩ يوليه سنة ١٨٩٣ يقول فيه

« لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين وبولونيين ويابانيين فرأيتهم جميعا منكبين على العلم ، ولكنى اؤكد لك أن المصرى أقواهم عارضة وأعلاهم ذكاء ولاينقصه الا الارادة التى هى أس النجاح »

ولقد أفاد المترجم كثيرا من ذهابه الى أوروبا عامة وفرنسا خاصة ، فان

---

(١) ذكرت جريدة المؤيد نجاحه في عدد ٣٠ يوليه سنة ١٨٩٣



مصطفى كامل
في التاسعة عشرة من عمره

هذه السياحة التعليمية قد فتقت ذهنه وعامته من شؤون الأمم والجماعات مالم يكن يعلم ، وعرف فيها أوساطا لم يكن يعرفها ، واتصل بشخصيات لم يكن ليتصل بها لو بقي في مصر، وكانت هذه الرحلة باكورة سياحاته في أوروبا التي رفعت شأنه في ميدان الجهاد القومي وجعلت اسمه عالميا ؛ وخدم بها القضية المصرية أعظم الخدمات ، إذ نقلها الى أذهان وهيئات كانت مجهولة فيها ، ولاشك أن اتصاله بالأساتذة والصحفيين الفرنسيين قد أفاده كثيرا من الوجهة العلمية والمعنوية ، فان وطنية الشعب الفرنسي هي بلا مراء قدوة للشعوب التي تريد أن تحيي حياة الحرية والكرامة

عاد من أوروبا في اغسطس سنة ١٨٩٣ ، ووالى دراسة الحقوق وإصدار مجلة

المدرسة ، وقد زادت أواصر الود بينه وبين لطيف باشا سليم (والد فؤاد بك سليم) إذ كان يرى تأليف هيئة تضم صفوف المعارضة ،فانضم الى هذه الهيئة ، وكانت تضم الصحفي والخطيب والقاضي والضابط وكلهم من خيار الرجال

رواية (فتح الأندلس)

وفي ديسمبر سنة ١٨٩٣ أخرج رواية (فتح الاندلس) ضمنها حوادث فتح العرب للأندلس [1] وأظهر فيها فضل الصدق والأمانة والثبات وقوة العزم والارادة ، وهي الصفات التي كانت أكبر عضد للفتح العربي، وقصد الى تربية الأمة على الفضائل الوطنية

امتحان السنة الثانية

ثم قصد الى فرنسا في صيف سنة ١٨٩٤ وأدى بنجاح امتحان السنة الثانية ، وزار باريس وبروكسل ، ثم أخذ بعد نجاحه يراسل الاهرام ،فنشر بها ست مقالات عن معارض ليون وأنفرس ، وعاد الى مصر في سبتمبر ، واعتزم أن يؤدي امتحان السنة الثالثة حيث ينال الليسانس في نوفمبر من تلك السنة .

حصوله على شهادة الحقوق — نوفمبر سنة ١٨٩٤

وعلى ما في هذا العزم من الاجهاد فان قوة إرادته كفلت له تحقيق أمنيته ، فسافر الى باريس في أكتوبر سنة ١٨٩٤ ، ووجد صعوبة في اداء الامتحان النهائي في كلية باريس ، إذ لا يتفق ونظامها أن يؤدي الطالب امتحانين في سنة واحدة ،فاستعان بأساتذيه في مدرسة الحقوق الفرنسية وهما المسيو ديروزاس ناظر المدرسة والمسيو مولر استاذ الاقتصاد السياسي بها ، فنصحاه بأن يعدل عما اعتزمه إشفاقا

(١) المؤيد عدد ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٣

على صحته ، ولـكنه أصر على عزمه ، ولما لم تقبل مدرسة باريس اداء
في سنة واحدة ساعداه لدى كلية (تولوز) فى أن يؤدى أمامها الامتحان .
فقبل طلبه بوساطة ذينك الاستاذين ، وانتقل المترجم الى تولوز ، وهناك
على الدرس لـكى يتمم علوم السنة الثالثة ، ودخـل الامتحان ، فنجح فيه
شهادة ليسانس الحقوق فى نوفمبر سنة ١٨٩٤ وله من العمر عشرون سنة

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الجهاد

بعد نيله شهادة الحقوق

شعوره بواجبه نحو مصر

كان أول شعور للمترجم عقب نجاحه، أن اتجه الى استمرار الجهاد فى سبيل الوطن ، قال فى كتاب له الى أخيه على بك بتاريخ ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٤:

« واليوم احمد الله حمدا كبيرا وأشكره شكرا جزيلا على فك قيد اسرى والمن بإطلاقى فى ميدان الحرية ، فقد أصبحت حاملا شهادة الحقوق ، وعولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة لأدافع عن حقوق الافراد ولو اتيح لى الخير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع ، لأن مصر وهى جنة الدنيا لاتستحق أن يداس شرفها بالاقدام ، ونصبح فيها نحن أبناءها الاعزاء ممقوتين غرباء »

لم يفكر الفقيد فى مستقبله حين نال اجازة الحقوق ، بل فكر فى واجبه نحو مصر ، وهذا يدلك على قوة وطنيته التى ملكت عليه مشاعره ، فقد عزم على الانتظام فى سلك المحاماة، لأنها ميدان الحرية والدفاع عن الحقوق ، ولأنها السبيل الى الدفاع عن حقوق الوطن ، ولم يفكر فى الانتظام فى سلك المناصب لأن لها قيودا لا يستطيع معها أن يؤدى واجب الجهاد لمصر ، ولأن الحكومة فى ذلك العصر كانت خاضعة لسيطرة الاحتلال وهو لا يقبل هذا الخضوع ، بل هو ثائر على الاحتلال

حديثه فى جريدة (جازيت دى تولوز)

نوفمبر سنة ١٨٩٤

ويبدو لك مبلغ يقينه برسالته وتلهفه على نشرها أنه لم يكد ينال شهادة الحقوق حتى كان له حديث فى جريدة (جازيت دى تولوز) التى تصدر فى تولوز حيث نال اجازة الحقوق قال فيه :

« أما السبب فى تمضيتى سنتين فى سنة واحدة فهو أنى وعدت شخصا أحترمه [1] بذلك ، ولأن ارادتى رغبت فى هذا العمل حتى أخرج من قيد الطالب الى ميدان العمل والدأب ، ومتى عدت الى مصر انضم فى الحال الى صفوف المحامين لأنى ممن يزدرون الحكومة المصرية الحاضرة ولا يرون التوظف فيها أو الاستظلال بظلها ، وكيف لا يكون الامر كذلك والموظف منفذ لارادة من اغتصب أثمن وأقدس شئ لديكم وهو الدستور »

وقد عاقت جريدة (جازيت دى تولوز) على هذا الحديث بقولها :

« هذا كلام مصطفى كامل المصرى الذى ألقاه بترو وتبصر ولو أنه تحمس فى الجزء الأخير حماسة تدل على قوة الوطنية عند المصريين وأنهم استفادوا كثيراً من الدروس التى تلقوها على أساتذة منا »

نشرت جريدة دى تولوز حديث الفقيد ، وكان وقتئذ قد أتم العشرين من عمره ، وظهر من حديثه أنه أعد نفسه للدفاع عن مصر أمام الرأى العام الاوروبى ، وأنه سيوجه نصيباً من جهوده للدعاية لمصر فى الخارج ، لأن هذا النوع من الجهاد فضلا عما له من الأثر البعيد فى أوروبا وفى مصر ، فانه يرفع من شأن مصر أمام العالم الاوروبى ، ولا غرو فقد كان الفقيد بوطنيته وكفايته خير من يمثل الامة.

---

(١) يقصد أخاه حسين واصف باشا

المصرية ، وترى بداية هذا الأثر فيما نشرته جريدة دى تولوز عنه وعن مصر يوم أن نشرت حديثه ، إذ قالت :

« بين الذين نجحوا فى كليتنا الحقوقية شاب مصرى هو مصطفى كامل ، وهذا الشاب لم يكن من الذين قيدوا فى الكلية من مبدأ دراسة الحقوق ، بل هذه أول مرة له فيها ، ومن يعلم أنه أمضى فى شهر يوليه الماضى امتحان السنة الثانية أمام كلية باريس بنجاح باهر فانه يدهش دهشا كبيرا لهذا الذكاء النادر ، ومع ذلك فلا يعجب قراؤنا ، فان تاريخ مصر يحوى الكثير من النظريات العلمية الكبيرة التى تدل على مبلغ تقدم العلوم والمعارف عند المصريين وسمو مداركهم من زمن بعيد ، وهؤلاء مواطنونا الفرنسيون الذين عاشوا فى مصر واختلطوا بأهلها وأبنائها بصفتهم أساتذة فى مدارسها قد صنفوا التآليف الكثيرة فى دفائن الذكاء المصرى ، حتى رفعوه فوق كل ذكاء ، والظاهر أن اعتدال الاقليم سبب من الأسباب التى أوجدت فى المصريين هذا الذكاء النادر ، فأمة كهذه الأمة لها شهرة تاريخية كبيرة فضلا عن ميل أبنائها الى فرنسا ورغبتهم الأكيدة فى الحصول على العلوم الحديثة من منابعها الفياضة لا بد أن تسترجع مجدها بفضل هؤلاء الأبناء الذين نعجب بهم كثيراً ونجاهم اجلالا كبيرا ، وليس فى وسعنا بعد الذى شاهدناه من ذكاء « مصطفى كامل » الا أن نهنئ مصر به ، ونرجو له النجاح التام فى العمل الذى يريد به خدمة بلاده ، لأن الغيرة التى شاهدناها على محياه ، والطلاقة التى تشير الى مستقبله الباهر ، والتى تدل بأوضح بيان على أنه من الذين وهبوا قوة الخطابة ، لابد أن ترفعه الى مصاف مشاهير الرجال ، ثم لاينسى القارئ أنه يبدو على سيما مصطفى كامل الصفاء التام فى القول والفعل ، وأن قلبه لايزال طاهراً كريما ، وفوق ذلك فان آدابه الشرقية الجميلة وتحيات

نظراته الساحرة قد هذبت عله الغربى تهذيباً لم نره فى حياتنا الا قليلا ، وان مدينة تولوز لتفخر بأن تسجل فى عداد الذين تخرجوا من كلياتها شابا كهذا الشاب نقى الفؤاد، متصفاً بكل مايزين المرء من علم وأدب ورأى صائب . »

جهاده بعد عودته الى مصر

عاد الفقيد الى مصر فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ معتزما أن يهب حياته كلها للجهاد فى سبيل مصر ، ولئن قيد اسمه فى جدول المحامين (١) فانه لم يترافع فى قضية لفرد قط ، ولم يحترف المحاماة أمام المحاكم ، بل شغلته رسالته القومية عنها ، اذ انصرفت جهوده للمحاماة عن القضية الوطنية ، وقد كانت هذه نيته التي عقد عليها عزمه منذ حصوله على شهادة الحقوق ، قال فى هذا الصدد من كتاب له الى محمود بك ابو النصر بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٨٩٥ أى عقب حصوله على شهادة الحقوق ببضعة أشهر : « لعلك تسألنى عن أخبارى الخصوصية ، فأقول انى تقررت من نحو شهر محاميا ولكن لم أترافع الى الآن ولن أترافع ، ولست أدرى أيحقق الله لى آمالا تخالج فؤادى ليلا ونهارا أعتقد أنها ان تحققت أنقذت الوطن من الخطر واعادته الى منشأه الاول وأحسن ، وسوف تعلمون كنه هذه الآمال » .

دراسته المسألة المصرية

حدثنا على بك فهمى كامل شقيق الفقيد فى كتابه أنه لما استقبله فى الاسكندرية عند رجوعه وجد معه ضمن متاعه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب القديمة والحديثة فى تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم ، وفيها

(١) جاء فى « المؤيد » عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ما يأتى « قررت لجنة انتخاب المحامين قبول حضرة الفاضل الأديب مصطفى أفندى كامل صاحب جريدة (المدرسة) والحائز للشهادة النهائية فى الحقوق محاميا أمام المحاكم الابتدائية وهو من نخبة الشبان الاذكياء النجباء»

مذكرات بعضها لكبار السياسيين وبعضها من مكتبة باريس وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية ، وبعد أن استقر به المقام فى القاهرة وانتقل الى منزل استأجرته العائلة خلف قسم المنشية (بعمارة خليل اغا) كان لايفتأ يدرس الكتب والمذكرات التى أحضرها معه .

وقد اكب على هذه الدراسات، كأنه لايزال فى دور الدراسة ، ولا غرو فانه قد أعد نفسه ليكون باعث الحركة الوطنية والمحامى عن القضية المصرية ، فلابد أن يدرس كل ما كتب عن هذه القضية ، شأن المحامى النزيه الذى يعنى بدرس قضيته ليجيد الدفاع عنها ، ولم يكن للفقيد سوى قضية واحدة شغلته طول حياته ، بل قضت على زهرة شبابه ، تلك هى قضية مصر الكبرى .

أكب الفقيد على هذه الكتب يدرسها ويستوعب ما بين دفتيها بذكائه النادر وقوة عزيمته ، ووضع لنفسه برنامجا للعمل سار عليه ، فكان يعمل يوميا ثمانى ساعات فى مكتبه ، ذلك أنه يستيقظ فى الساعة السادسة صباحا فيؤدى صلاة الصبح ، ثم يتناول الفطور ، ويقصد كوبرى قصر النيل للرياضة ، ثم يعود فى الساعة السابعة ويأخذ فى المطالعة والعمل، فيستمر بين قراءة وكتابة وتدوين مذكرات الى الظهر ، ثم يتناول الغداء ، وينام الى الساعة الثالثة ، ثم يستأنف المطالعة حتى الساعة الخامسة ، وبعدئذ يزور اخوانه وأصدقاءه ، ويعود فى الساعة السابعة مساء ليعاود القراءة مرة أخرى الى الساعة التاسعة ، ثم يتناول مع أفراد الأسرة طعام العشاء ، ويقضى السهرة معهم ومع الزائرين حتى منتصف الليل ، ثم يأوى الى فراشه

وقد نضج فكره من هذه الدراسات العميقة ، فكانت عدة له فى الكفاح الى جانب اخلاصه وقوة يقينه ، ومواهبه الخطابية والصحافية

الفصل الرابع

جهاده سنة ١٨٩٥

كانت سنة ١٨٩٥ من أهم سني جهاد الفقيد في مرحلته الثانية ، وعلى أنها أولى سنوات هذه المرحلة الكبيرة ، فانها حفلت بأعمال جليلة دلت على مبلغ إيمانه واضطلاعه بمهمته السامية .

حديثه مع الكولونل بارنج

بدأ أعماله في تلك السنة بنشر حديث له مع شقيق اللورد كرومر وهو الكولونل بارنج على ظهر الباخرة التي أقلته عند عودته الى مصر ، اذ التقى به وانتهز فرصة مقابلته اياه ليرفع صوته بالدفاع عن استقلال مصر ، ونشر هذا الحديث بعد عودته الى مصر [1] ، وخلاصته أن الكولونل بارنج يرى ضرورة بقاء الاحتلال ، وأن الفقيد يرى ضرورة الجلاء ، وأنه حق لمصر وواجب على انجلترا ، وفاقا لعهودها واحتراما لمواثيقها ، وقد سأله الكولونل بارنج خلال الحديث من للمصريين من الأنصار أو السفراء في أوروبا يعتمدون عليهم في قرب تحقيق الجلاء ؟ فقال الفقيد :

« لنا أوروبا بأسرها التي تناديها صوالحها العديدة بأن تنصرنا بنصرة تلك الصوالح التي سعيتم من يوم احتلالكم البلاد في تقويض أركانها ، على أنها ان لم تنصرنا فان لنا من حقنا واتحادنا بوصف أننا أمة عظيمة ذات حضارة قائمة مأثورة ما نبلغ بهما الى ما نصبو من حرية واستقلال »

وقد نشر هذا الحديث في الاهرام ، فكان لنشره دوى كبير في المحافل الوطنية

---

(١) الاهرام عدد ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥

نشر الدعوة الوطنية

وقد استمر الفقيد فى دراسة الكتب التى وضعت فى المسألة المصرية، وأخذ يراسل الاهرام والمؤيد وينشر بهما المقالات الوطنية ، وكثر معارفه من المعجبين بذكائه ووطنيته ، وأخذ يتصل بهم ويباحثهم فى شؤون مصر ، ويحثهم على مقاومة الاحتلال ، فاتسع نطاق المعارضة ، وتعرف الى كثير من الاشخاص البارزين فى المجتمع من الكتاب والأدباء وأعضاء مجلس شورى القوانين والاعيان ، وكان يسافر كل أسبوع أو أسبوعين الى الأقاليم تلبية لنداء مواطنيه ويبث دعايته بين الاعيان ، فكان لجولاته هذه أثر كبير فى ازدياد أنصاره

احتجاجه على تأليف المحكمة المخصوصة

وفى ٢٥ فبراير من تلك السنة استصدر اللورد كرومر من الحكومة المصرية مرسوما بانشاء (المحكمة المخصوصة) لمحاكمة من يتهم من الاهالى بالتعدى على ضباط وجنود جيش الاحتلال بمصر ، وهى المحكمة التى صار لها شأن كبير فى حادثة دنشواى المشهورة كما سيجىء بيانه ، وينص المرسوم على تأليفها برياسة وزير الحقانية ، وعضوية المستشار القضائى (الانجليزى) ، وقاض انجليزى من محكمة الاستئناف الاهلية ، والقائم بأعمال المحاماة والقضاء فى جيش الاحتلال البريطانى بالقاهرة أو الاسكندرية ، ومن يختاره وزير الحقانية من رئيسى محكمة مصر أو الاسكندرية الابتدائيتين ، أى أن الغالبية فيها للانجليز ، وقد جعلوا لها نظاماً خاصاً فلا تتقيد بأحكام قانون العقوبات

كان إنشاء هذه المحكمة بمثابة انتقاص لسلطة القضاء المصرى وتثبيت لأقدام الاحتلال ، فتقدم الفقيد جميع المصريين لاحتجاج على تأليف هذه المحكمة الشاذة التى أثارت سخط الامة ونشر احتجاجه فى جريدة الاهرام [1] تحت عنوان (صواعق الاحتلال)

---

(١) عدد ٤ مارس سنة ١٨٩٥

حضور النائب الفرنسى دلونكل — مارس سنة ١٨٩٥

وفى مارس من تلك السنة جاء مصر نائب شهير من أعضاء البرلمان الفرنسى وهو المسيو فرانسوا دلونكل ، للاطلاع على حالة مصر السياسية ، وكان الفقيد قد تعرف به بباريس فى صيف سنة ١٨٩٤ اذ كان يؤدى امتحان الحقوق ، وعرف عنه معارضته للسياسة الانجليزية ، وبخاصة فى الشرق ، وقرأ مقالاته فى الصحف الفرنسية ومناقشاته المهمة فى مجلس النواب الفرنسى عن المسألة المصرية ، فعنى باحاطته بكل صنوف الحفاوة ليكون فى حضوره والحفاوة به مظاهرة قومية ضد الاحتلال الأجنبى ، فسافر الى الاسكندرية مساء الخميس ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ لاستقباله ، والتقى به على رصيف البحر فى صبيحة اليوم التالى يصحبه كثير من الوطنيين ، وقدم له ولقرينته جميع اخوانه المصريين ، وكان للنائب القادم مكانة رفيعة فى نفوس الفرنسيين فكان فى استقباله قنصل فرنسا فى الثغر مع موظفى القنصلية وكثير من النزلاء الفرنسيين ، وقد رافقه الفقيد فى كل روحاته وغدواته بمصر ، وكان يقدم له اخوانه ومعارفه من الوطنيين .

وقد أقيمت الحفلات والولائم للمسيو دلونكل ومكث بمصر زهاء عشرين يوماً ألقى فى خلالها عدة خطب طعنا فى السياسة البريطانية ، وأقام بالقاهرة وليمة بفندق (نيوأوتيل) قبيل رحيله الى فرنسا دعا اليها لفيفا من الصحفيين الوطنيين ألقى فيها الفقيد خطبة بالفرنسية شكره فيها على دفاعه عن القضية المصرية ، وبارح النائب الفرنسى الاسكندرية قاصداً فرنسا يوم السبت ١٣ ابريل سنة ١٨٩٥ .

سفر المترجم الى باريس — مايو سنة ١٨٩٥
ودعايته للقضية المصرية فى أوروبا

رأى مصطفى أن الدعاية للقضية المصرية فى الخارج من أمضى الأسلحة فى مجاهدة الاحتلال ، لأن المسألة المصرية كانت مجهولة للرأى العام الأوروبى ، بل كانت الفكرة الذائعة عن المصريين أنهم راضون عن الاحتلال ، وأنهم أمة

قائمة بالحكم الانجليزى ، ليست لها آمال ولا حقوق تطالب بها ، فنشط الى تعريف الرأى العام الأوروبى بحق مصر فى الاستقلال ؛ وبأن الأمة المصرية تكره الاحتلال ولا ترضى به بحال ، وأن بقاءه لا يضر بمصر فحسب بل يضر أيضاً بالمصالح الاوروبية عامة ، وقد كان لدعايته أثر كبير فى احراج مركز الاحتلال، وابراز عدم مشروعيته ، كما كان لها صداها فى مصر ذاتها اذ كانت وسيلة لنشر الحركة الوطنية ، لذلك كانت دعايته فى أوروبا من أهم صفحات جهاده الوطنى ، وكانت فى الوقت نفسه من دلائل عبقريته ، لأن اتصال شاب فى سنه بأقطاب السياسة فى أوروبا من كتاب وسياسيين وأدباء وصحفيين، واستطاعته الدفاع عن القضية المصرية على صفحات الجرائد الاوروبية ، كل ذلك ليس من المهام السهلة التى يضطلع بها كل من يريد ، وانما هو عمل شاق يتطلب استعداداً وكفايات متعددة ، وجهوداً هائلة ، اذا اجتمعت فى شخص واحد كان ذلك آية عبقريته ، ولا غرو فهو أول مصرى أسمع العالم صوت مصر وعرف الرأى العام الاوروبى من مقالاته وأحاديثه وخطبه أن على ضفاف النيل أمة تشكو الاحتلال وتطلب الحرية والاستقلال

كان الفقيد أول من فكر فى وجوب الدعاية لمصر فى الخارج، وأول من أدى هذا الواجب الكبير ؛ قال فى هذا الصدد فى كتاب له نشر بجريدة المؤيد (١)

« إن عقلاء الانجليز شعروا بخطر احتلال مصر على دولتهم ولا ينقصهم غير معرفة احساسات الأمة المصرية وحقيقة آلامها وآمالها وحقائق الامور حتى يقيموا القيامة على حكومتهم ويسألوها الجلاء عن وادى النيل ، فأجل عمل يأتيه المصريون اليوم هو نشر الحقائق فى أوروبا بأكثر اللغات انتشاراً خصوصاً باللغتين الانجليزية والفرنسية حتى يتيسر لنا خدمة الوطن العزيز الذى فى خدمته خدمة الحق وفى نصرته نصرة الفضيلة والحقيقة والسعادة القومية »

---

(١) عدد ٥ اغسطس سنة ١٨٩٥

سافر المترجم الى فرنسا فى مايو سنة ١٨٩٥ وقصد الى باريس ليرفع فيها صوت الوطن ، وهناك اتصل بكثير من رجال السياسة والصحفيين ليعاونوه فى اداء رسالته ، كتب فى هذا الصدد الى شقيقه على بك كتابا من باريس قال فيه « إنى الآن أقضى ليلى ونهارى فى مخالطة كبار السياسيين لانتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة ، والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ورأيت من الجميع استعدادا لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية وطرحها على بساط المناقشة من جديد ؛ وإنى أجد من نفسى قوة فى هذه الايام ماوجدتها فى حياتى ؛ كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قويا حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة ، بيد أنى أشعر من جهة أخرى بأن البلاد فى حاجة لرؤوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى يقرب البعيد بما تحدثه فى العالم من تأثير ؛ ولى الأمل أن ينتشر الشعور فى البلاد بسرعة فانه هو وحده رأس مال محررى الأمم والشعوب ؛ وبدونه لا يستطيع خادم مهما كانت أمانته وقوته أن يصل الى الغرض المرجو ؛ ولذلك يجب على أغنياء البلاد الذين هم مدينون لمصر بما لديهم من ضياع شاسعة وأراض واسعة أن يؤسسوا المدارس العديدة على أساس متين من الدين القويم والتربية السليمة ، وأن يقوم كبار العلماء بنشر الكتب المفيدة ومهرة الكتاب بانشاء الصحف الصادقة فى خدمة قطر هو أثمن وأغلى الأقطار »

وكانت مهمة مصطفى فى رحلته شاقة ، لأن صغر سنه وتقدمه أعلام مصر البارزين وقتئذ فى حمل علم الجهاد باوروبا، جعل الكثيرين منهم يحيطون مهمته بالتشكيك فى نتيجتها والتهوين من شأنها ، كتب صديقه فؤاد بك سليم (باشا) يصف موقفه وقتئذ بقوله [1] « إنما الاعمال بالنيات ، حياة طيبة أو موت شريف، هذه كانت إحساسات الشاب مصطفى كامل ودواعى سفره ؛ بارح القطر المصرى

(١) المؤيد عدد ٣١ يوليه سنة ١٨٩٥

فى أول شهر مايو الماضى (سنة ١٨٩٥) قاصدا اوروبا ؛ نائيا عن أهله وأحبابه ، مضحيا نفسه وكل ما تملك يداه فى سبيل خدمة وطنه والمدافعة عن حقوق أمته ، فان كان صغر السن كل ما يؤخذ عليه ، فليس ذلك ذنبه ، وإن لم يكن من الطبقة الأولى فى مصاف الأمة فانما نهضته تشرفه »

نداؤه الى مجلس نواب فرنسا — يونيه سنة ١٨٩٥

ابتكر مصطفى طريقة للدعاية للقضية المصرية كانت أقوى أثرا من مئات المقالات يكتبها فى الصحف أو عشرات الخطب يلقيها في المحافل ، وكانت مادة لنشر المقالات الجمة عن المسألة المصرية ، ذلك أنه وضع نداء الى فرنسا فى شكل صورة رمزية سياسية قدمها الى مجلس نوابها تمثل مصر ترسف فى قيود الاحتلال وتستصرخ فرنسا لتعاونها على تحريرها كما عاونت أمريكا وايطاليا واليونان وبلجيكا على نيل حريتها من قبل ، وجعل فى ذيلها ثلاثة أبيات كتبت بالعربية وكتبت أمامها ترجمتها بالفرنسية ، ولم يكن الفقيد شاعرا يقرض النظم ، ولكن وطنيته ألهمته وضع هذه الابيات التى تبدو عليها الفطرة وعدم التكلف وهى :

أفرنسا يامن رفعت البلايا عن شعوب تهزها ذكراك
انصرى مصر إن مصر بسوء واحفظى النيل من مهاوى الهلاك
وانشرى فى الورى الحقائق حتى تجتلى الخير أمة تهواك

وضع مصطفى الصورة وطبع منها عدة آلاف من النسخ ، وذهب هو وستة من إخوانه المصريين الذين كانوا مقيمين بباريس الى سراى مجلس النواب يوم الاربعاء ٤ يونيه سنة ١٨٩٥ لتقديم الصورة والكتاب المتصل بها ، فقابلهم المسيو بريسون رئيس مجلس النواب، وتسلم منه الكتاب والصورة ، وأبدى عطفه على الأمانى القومية المصرية؛ وأرسل مصطفى عقب المقابلة نسخا من الصورة والكتاب الى جميع صحف العالم ، كما وزعها على جميع النواب والصحفيين والسياسيين فى فرنسا ؛ وأرسل الآلاف منها لتوزيعها فى مصر ، وهذا نص الكتاب :

« ياحضرة الرئيس

« إنى بأشـد انفعال يخالج القلب تأثيره أتشرف بأن أقدم لمجلس النواب



الصورة الرمزية التى قدمها مصطفى كامل

الى مجلس نواب فرنسا — يونيه سنة ١٨٩٤

الذى أنت له نعم الرئيس هذا اللوح الذى يمثل مصر طالبة من فرنسا أن تكون لها خير عضد يساعدها على استرجاع حريتها واستقلالها ، وإن هـذا اللوح ليمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيور على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عاما ، ولقـد برهنت الأمة المصرية بحضرة الرئيس مع ما يعتورها من المصائب الشديدة على سكينة وصبر عجيبين استمالت بهما قلوب الأمم الاوروبية ، ولـكن لما اعتراها النصب جاءت مستغيثة بفرنسا ، هذه الدولة العظيمة التى أعلنت « حقوق الانسان » ، والتى سارت به منذ قرن فى سبيل التقدم والمدنية ، جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الـكريمة التى حررت عدة من الأمم ، فهل تجاب إلى استغاثتها وتضرعها ؟ وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليـل مكانتها فى العالم الاسلامى الواثق بها ؟ على أن ذكر اسم مصر عنـدما تكون حرة مستقلة بجانب أسماء الامم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها ، فلتحى فرنسا محررة الامم »

كان لهذا العمل دوّى هائل فى أوروبا وفى مصر ، لأنه نداء غير مألوف من أمة كان الظن الغالب أنها راضية بالاحتلال ، وقد نوهت بذلك جميع الصحف الفرنسية وكثير من الصحف فى أوروبا وامريكا ، فكان هذا النشر اكبر دعاية للقضية المصرية .

وأهمية هذا العمل أنه لفت أنظار العالم الى المسألة المصرية ، وفى الحق ان هذا النداء كان أول صوت للشعب المصرى دوى فى أوروبا عقب الاحتلال ، مطالباً باستقلال مصر وحريتها ، ولم يكن ممكناً أن يرتفع صوت مصر بأكثر ولا أقوى مما ارتفع وقتئذ بهذا النداء ، وتناقل صداه فى الصحف الى جميع الآفاق ، فلقد كان استصراخا للانسانية يشبه استصراخ بولونيا للعالم ابان محنتها القومية ، وان دعاية الفقيد للقضية المصرية فى أوروبا بهذه الهمة وهذا الاقدام وهو بعد فى الحادية والعشرين من عمره لأكبر مظهر من مظاهر عبقريته ، فان العمل الذى

اضطلع به وحده قد تنوء به الجماعات والاحزاب ، وقد لفت هذا العمل أنظار المصريين الى شجاعة هذا الشاب وعلو همته ، ودهشوا لجرأته ، إذ نهض لمقاومة الدولة المحتلة فى وقت كان أغلب كبراء مصر وعظمائها خاضعين للقنصل البريطانى العام ، فهذه الشجاعة التى بدت من مصطفى قد حببته الى نفوس المصريين ، وأخذ نداء الوطنية والاستقلال يلقى فيهم ملبياً وسميعا

حديثه فى جريدة الجورنال — يوليه سنة ١٨٩٥

وقد نشرت له جريدة (الجورنال) الفرنسية وهى من أوسع الصحف انتشاراً حديثاً سياسياً عن مصر والمسألة المصرية كان له تأثير كبير فى تبصير الرأى العام بمساوئ الاحتلال البريطانى ؛ وعلقت عليه جريدة (الأكاير) الفرنسية بقولها :

« لا بد أن سيكون لمصطفى كامل المصرى دور مهم فى المسألة المصرية لأن أسلوبه السياسى قائم على الصراحة والحق ، فهو يذكر بشجاعة وجلاء تلك المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الانجليزى الذى كلما مرت عليه السنون تجسمت فيه صروف الاعتداء على حقوق الناس » .

خطبته فى تولوز

أول خطبة سياسية له فى أوروبا (يوليه سنة ١٨٩٥)

لم يكتف الفقيد بجهاده بقلمه فى الصحف ، بل عمد الى الخطابة فى المحافل ، فأقام اجتماعا يوم ٤ يوليه سنة ١٨٩٥ بمدرج كلية الآداب فى تولوز [١] التى نال منها شهادة الحقوق ، دعا اليه بعض أساتذة الحقوق وكبار الصحفيين والكتاب وذوى الرأى فيها ، وألقى بالفرنسية خطبة مسهبة ، هى أول خطبة سياسية لمصرى فى أوروبا ، ذكر فيها اعتداء الاحتلال على حقوق مصر واستقلالها ؛ وأبان مبلغ نقض انجلترا لعهودها فى الجلاء ، وتغلغلها فى شؤون مصر الداخلية فى مختلف

---

(١) بشارع ريموزا

الوزارات ، واستنجد بأوروبا وفرنسا لمعاونة مصر فى استرداد استقلالها ، وشكر المدعوين على عطفهم على القضية المصرية [١] ، فأعربوا له عن عواطفهم نحوه ونحو مصر ، قال رئيس تحرير جريدة (الديبش) التى تصدر فى تولوز فى هذا الصدد :

« إنى واثق كل الثقة بأن هذا المدافع عن حقوق مصر المسلوبة سيغرس لا محالة بعمله بذور الوطنية الصالحة حتى يقضى الشعب المصرى لباناته ويسمع يوماً الحكم له على انجلترا ، ولذلك أدعو زملائى أصحاب الصحف الى تهنئة زميلنا الشاب الغيور منذ الآن »

ولقد كان لهذه الخطبة أثر كبير فى فرنسا لأنها جاءت صدى للوطنية الصادقة التى يحترمها الجميع فى فرنسا

فى فينا — يوليه سنة ١٨٩٥

لم يقتصر مصطفى على الدعاية للقضية المصرية فى فرنسا بل قصد الى النمسا ونزل بفينا عاصمتها فى يوليه سنة ١٨٩٥ ، واتصل بكبار الصحفيين والسياسيين ، وأخذ ينادى بحق مصر فى الاستقلال ويدافع عن كرامتها وحريتها

كتبت جريدة (اكسترا بلاط) فى عددها الصادر بتاريخ ٢٨ يوليه سنة ١٨٩٥ تقول :

« إن فى فينا اليوم ضيفا كريما هو « مصطفى كامل » أحد كتاب مصر الفضلاء ، وهو شاب حاد الفكر بعيد النظر اشتهر اسمه فى وطنه وفى اوروبا أخيرا ؛ وهو الآن يجوب القارة الاوروبية مطالبا باسم الوطنيين المصريين بتحرير بلاده من ربقة الاحتلال الانجليزى ، وبدهى أن الأمة التى ينتسب اليها هذا

---

(١) نشر المؤيد خلاصتها — عدد ١٠ و١٣ يوليه سنة ١٨٩٥ ، وطبعت بالفرنسية فى رسالة مستقلة فى عشرين صفحة

الكاتب الشرقى قد استحقت بما افادته من معاهد المدنية وبما لها من الذكاء الفطرى النادر المثال أن تعد فى مصاف الامم المتمدنة فهى بذلك لاترضى أن تكون تحت سيطرة حكومة أجنبية تعمل فى مصر كل ما تريد »

وكتب عنه مراسل جريدة (الستاندرد) الانجليزية فى فينا ما يأتى : « جاء مصطفى افندى كامل وهو قانونى ومحرر جريدة الى فينا واقام فيها عدة ايام ، وقد جال فى كثير من انحاء اوروبا نائبا عن جمعية وطنية فى مصر تسعى لتحرير بلادها من نير الانجليز وبذل جهده فى استمالة الدوائر الرسمية الى آراء وأفكار هـذه الجمعية الوطنية » .

رسالته فى اخطار الاحتلال البريطانى

عاد الفقيد الى باريس فى ٨ اغسطس سـنة ١٨٩٥ ونشر رسالة بالفرنسية بتاريخ ١٤ اغسطس عن (أخطار الاحتلال البريطانى) أبان فيها خطر الاحتلال على حقوق مصر ثم على المصالح الاوروبية عامة ، وقد وجه فيها الخطاب الى الرأى العام الاوروبى ليكسب تأييده للقضية المصرية [١] ، وقد طبع هذه الرسالة وبعث بها الى جميع رجال السياسة والصحف الشهيرة فى اوروبا ، فكان لها دوى كبير ، وجاءه نحو مائة جواب من مشـاهير السياسيين فى فرنسا وغيرها يعلنون له فيها شكرهم وتهنئتهم .

احرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا

وفى هـــذه الرسالة قال كلمته الخالدة عن شعار مصر ومعاملتها لنزلائها الاجانب (احرار فى بلادنا ، كرماء لضيوفنا)

والرسالة تتضمن شرحا وافيا للمسألة المصرية ، وتدل على واسع اطلاعه على تاريخها ودقائقها ، كما تدل على نضجه الفكرى وبعـد نظره السياسى ، وحسبك دليلا على قيمتها ما كتبته عنها مدام جوليت آدم ، فقد قدمها اليها عندما تعرف

---

(١) نشر المؤيد تعريبها فى عدد ٢٨ اغسطس سنة ١٨٩٥

يها، فنشرت عنها فى جريدة (البتى مرساييه) الفرنسية بتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٨٩٥ كلمة ثناء قالت فيها : « إن هذا العنوان (أخطار الاحتلال البريطانى) علم على رسالة صغيرة الحجم لاتتجاوز عدد صفحاتها الاثنتى عشرة صفحة ، كتبها مصرى وطنى يحب بلاده حبا شديدا ، وقد جاء ليدافع عنها اذ رآها فريسة أغراض الاجنبي ، وأودع هذه الرسالة كل ما ينتجه الفكر السليم والتبصر القائم على أدلة وحجج تفحم الذين جعلوا العمى مذهباً لهم أو تنير ما أشكل عليهم ، والعنوان الثانى لهذه الرسالة الصغيرة الحجم الكبيرة الاهمية هو (نتائج الاحتلال الأنجليزى لمصر) ، وهو لايلم بموضوع الا وفاه حقه وزيادة ، وقد قرأت منذ واقعة (التل الكبير) ما كتب عن مصر فى انجلترا وفرنسا ومصر نفسها ، فلم أر قط المسألة المصرية موضوعة أحسن من هذا الوضع ولا مستنتجة نتائجها أحسن من هذا الاستنتاج ، ولا مرتبة أجمل من هذا الترتيب ولامبسوطة بتعقل وتدبر مثلما بسطت فى هذه الرسالة »

تعرفه الى مدام جولييت آدم

سبتمبر سنة ١٨٩٥

إن تعرف المترجم الى مدام جولييت آدم هو حادث مهم فى حياته السياسية والقومية ، فان مدام آدم هى من أعظم شخصيات فرنسا فى عالم الوطنية والسياسة والأدب ، وهى الكاتبة الكبيرة ذات الشهرة العظيمة والنفوذ الأدبى فى فرنسا ، وكان مشاهير الرجال من نواحى الارض يرحلون اليها ويجتمع بدارها العلماء والادباء وكبار القوم وملوك الشعر والأدب والسياسة

ولدت مدام آدم سنة ١٨٣٦ ، وتوفيت عام ١٩٣٦ ، أى انها عمرت مائة عام ، وهى من اعظم من انجبتهم فرنسا علما وأدبا ووطنية ومكانة سامية ، وظلت موضع احترام مواطنيها طول سنى حياتها ؛ وقد وضعت سنة ١٩٢٢ كتابا قيما عن مصر اسمته (انجلترا فى مصر) ، وهو من خير ما الف فى المسألة المصرية

وقد سعى الفقيد سنة ١٨٩٥ الى التعرف اليها، إذ أرسل اليها من تولوز أول كتاب له فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، ننشره هنا لأنه يصور لنا مقدار وطنيته ويصف مبلغ ايمانه برسالته القومية الكبرى، فى أفصح عبارة و أبلغ بيان : قال :

« سيدتى

« إنى لا أزال صغيرا ، ولكن لى آمالا كبارا ، فانى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة ، هم يقولون ان وطنى لاوجود له ، وانا أقول ياسيدتى انه موجود ، وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى ، وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفا عليه .

« إنى أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة ، وقد نلت إجازة الحقوق من تولوز قبل سنة ، وأريد أن اكتب واخطب وأنشر الحمية والاخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل رفعة الوطن العزيز ، وقد قيل لى اكثر من مرة انى احاول محالا ، وحقيقة تصبو نفسى الى هذا المحال ، فأعينينى ياسيدتى ، فانك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولى وتقوية عزمى وشد أزرى ، وتقبلى تحية واحترام مصطفى كامل » (١)

وأرسل لها ضمن كتابه رسالته عن (أخطار الاحتلال البريطانى على مصر) ، فلبت مدام آدم نداءه ، وكتبت اليه ترحب بدعوته ، فجاء وقابلها ، وما ان عرفته وادركت سمو آماله فى تحرير بلاده حتى ازدادت به اعجاباً ، وتوثقت بينهما من ذلك الحين أواصر الاتصال الروحى ، إذ كان الفقيد يعدها اما زوحية له ، وقد عرفته بكبار السياسيين واصحاب الصحف والمجلات فى فرنسا ، قالت تصف تعرفها به :

« أعجبتنى كثيرا هذه الرسالة (أخطار الاحتلال البريطانى) فأنشأت فى الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٥ مقالة عنها ، واقتبست منها أسانيد

(١) رسائل مصطفى كامل الى مدام جوليت آدم ص ٧

جديدة فى المسألة المصرية ، وقد سبق لى الخوض فيها كثيرا ، وأثنيت على المؤلف فى مقالتى ، فورد الى منه خطاب شكر جزيل ، ومن ورائه خطاب آخر من باريس يسألنى فيه أن أضرب موعدا للقائه ، فسرعان ما أجبته الى ذلك ، وواعدته دار « لانوفل ريفو [1] » (المجلة الحديثة) ، فأقبل علىّ شاب خلته ابن ثمانى عشرة سنة ، فقلت له ضاحكة ماصدقتنى سنك فانك لم تبلغ الحادية والعشرين ، فقال « قد بلغتها ياسيدتى وا كملتها » وبعد أن تجاذبنا اطراف الحديث رأيت أن عقل هذا الشاب قد بلغ أشده ونضج قبل أوانه ؛ ورأيت أنه قد أطال التدبر والتروى فى إمكان مصيره كما يقول خطيب مصر ، ورأيت أغراضه الجسام محالة وممكنة معا ، فانه مع انقطاع المعين له حقيقة وحكماً ، لأنه غير معول الا على شبان مثله لا مال لهم ، كان يحدث نفسه بانشاء جريدة ، ومدرسة : ولا أدرى بماذا كان يحدث نفسه أيضا ، وربما لاح لغيرى أن هذا الشاب إنما كل زاده أوهام وأحلام ، ولكن جاء كتيبه دالا على أنه حقيقة ، هذا ولشدة بغضى لانجلترا وحبى لمصر كنت أرتقب وأتوقع منذ سنين قومة قائم فى وادى النيل : وكانت ثقتى دائما بذوى القول السديد الذين يرسلهم الله فى الوقت المناسب ليزرعوا الحب الصالح فى النفوس التى ظلت زمنا طويلا بورا ، لقد فقه مصطفى كامل وأدرك بواطن الاطماع والدسائس الانجليزية ، وكان يتكلم عنهـا كأنه سياسى مسنّ متعود البحث عن أسباب الأمور ، كفء لان يحل بيطء ولكن بدون أن يخطىء العقد التى احكمت عقدها مهارة عاقديها ، أو ليست مساعدة وطنى شاب على أن يجاهد ويؤدى مهمة عالية أحد الاغراض التى التزمت توخيها منذ أنشأت جريدتى (لا نوفل ريفو) ؟ فقلت لمصطفى كامل « ضع ياولدى مقالة فى احدى المسائل الخاصة بمصر وامض فيها واسترسل استرسالا بغير تقيد ، فانه لا يضرنى منك سورة الشباب ولا حدة اليقين »

(١) المجلة التى كانت تديرها مدام جوليت آدم

ومن عهد تلك الحادثة أخـــذت أؤدى لمصطفى كامل وظيفة الام ، فعرفته بجميع الرجال الاكابر الذين قد يعنيهم شأن مصر ، وأوليته من حب الام جميع منازل ابنائى المتقدمين عليه الذين كان يختص بالمعزة منهم بيرلوتى والكولونل مارشان ، وارنست جوديه ؛ وأوجدت له فى آن واحد علاقات نفيسة فى عالم الصحافة الفرنسية ، تلك العلاقات التى عرف كيف يستخدمها بأحسن سياسة فى دعواه الشريفة ، وأمكنه فيما بعد أن يستفيد من هذا المركز بكل مهارة فى جميع البلدان الأخر حتى فى انجلترا نفسها »

واستمرت الصلة بين الفقيد ومدام جولييت آدم تقوى على مر السنين ، ويدلك على مبلغ تقديره إياها ما كتبه عنها فى ٢٠ اغسطس سنة ١٩٠٢ حين أهدته كتابها (طفولتى وشبابى) اذ قال :

« اذا كان يحق لكل انسان محب لبلاده أن يحيى هذه السيدة تحية الاعظام والاعجاب، فمن الواجب الحتم علّي وأنا من خدمة بلادى العزيزة أن أعرب لها عن مزيد اعجابى بعملها وبكتابها ، وأن أشرك الجمهور معى ليشكرها على حبها لمصر وثقتها بوصول أمتنا المحبوبة فى مستقبل الايام الى ماتبتغى من سؤدد وحرية واستقلال [1] »

وقد زارت مدام آدم مصر سنة ١٩٠٤ ملبية دعوة الفقيد فاستقبلها بالحفاوة والاكرام كما سيجيء بيانه فى الفصل التاسع

حديثه فى جريدة (الاكاير) الفرنسية

اتصل المترجم وهو فى باريس بكثير من السياسيين والصحفيين الفرنسيين ليضمهم الى صف القضية المصرية ، وقد حدث أن قررت الحكومة المصرية فى أواخر اغسطس سنة ١٨٩٥ إلغاء البعثة المصرية الى فرنسا ، فقصدت اليه جريدة (الاكاير) الفرنسية الكبيرة ونشرت له حديثا بالعدد الصادر فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥ حمل فيها على الاحتلال وسياسته وبخاصة فى التعليم ، قدمت له بقولها :

---

(١) اللواء عدد ٢ سبتمبر سنة ١٩٠٢

« ورد علينا فى الاسبوع الماضى تلغراف من الاسكندرية يفيد أن وزارة المعارف فى مصر قررت إلغاء الارسالية المصرية فى فرنسا ، ولما كان لهذا القرار مساس عظيم بنفوذنا فى مصر فقد رأينا من المفيد أن نقصد من أجله الى (مصطفى كامل) وهو الكاتب والخطيب المصرى الذى اشتهر اسمه فى باريس ، لأن آراءه فى مثل هذه المسألة يعول عليها » (١)

وقد كان لهذا الحديث تأثير كبير فى فرنسا ، وتناولته الصحف الفرنسية وكان موضع اهتمامها ، ونشرت له جريدة (الجولوا) حديثا له فى شؤون مصر السياسية ، وأخذ ينشر المقالات فى مجلة « لانوفل ريفو » وهى مجلة مدام جولييت آدم

خطبته فى الجمعية الجغرافية بباريس

ديسمبر سنة ١٨٩٥

وألقى فى الجمعية الجغرافية بباريس يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٥ خطبة كبرى بالفرنسية موضوعها (الاحتلال الانجليزى فى مصر) ، وذلك فى اجتماع حافل حضره مشاهير السياسيين والكتاب والعلماء والنواب فى فرنسا ، وكثير من نزلاء باريس ، فقوبلت بالتصفيق والاستحسان ، واقتبست الصحف الباريسية كثيرا من فقراتها ، ومما يذكر عن هذا الاجتماع أن مصطفى كامل دعا اليه ضمن من دعاهم الفيلسوف الفرنسى الشهير (جول سيمون) وكان يبلغ وقتئذ الحادية والثمانين من عمره (٢) ، فأرسل اليه كتاب اعتذار قال فيه : « إن كبر سنه وهو فى الحادية والثمانين يمنعه عن الحضور ولكنه لايمنعه من أن يقول إنه اكثر الناس حبا لمصر واهتماما بشأنها » .

---

(١) المؤيد عدد ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٥

(٢) ولد سنة ١٨١٤ وتوفى سنة ١٨٩٦

الفصل الخامس

جهاده سنة ١٨٩٦

استمر الفقيد ماضيا فى جهاده ، فحفل عام ١٨٩٦ بمثل ما حفل به عام ١٨٩٥ من الجهود الجبارة فى بعث الحركة الوطنية

خطابه الى جلادستون

فى شأن الجلاء — يناير سنة ١٨٩٦

فكر وهو فى باريس أن يواجه المستر جلاد ستون شيخ الاحرار فى انجلترا — وكان قد اعتزل الوزارة — ويذكره بآرائه فى الجلاء ، حين كان رئيس الوزارة البريطانية سنة ١٨٨٢ وادلى بتصريحات عدة فى البرلمان الأنجليزى بأن انجلترا لاتنوى نقض عهودها فى الجلاء ، فأرسل اليه الخطاب الآتى تعريبه :

« باريس فى ٢ يناير سنة ١٨٩٦

« سيدى المبجل

« اسمحوا لأحد أبناء وادى النيل ، لوطنى لا أمنية له الا تحرير بلاده ، أن يقصدكم اليوم ليسألكم رأيكم عن حل مسألة مصر ، فقد كنتم منذ احتلت انجلترا وطننا أشد نصراء الجلاء ، وجاهرتم مرارا عديدة بأعلى صوتكم أنه لا يليق ببريطانيا العظمى أن تحتل مصر الى أجل غير محدود ، فان عملا كهذا يمس شرفها أشد المساس .

« لقد سجلنا كل تصريحاتكم فى هذا الصدد ، ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عند ما كانت السلطة فى يدكم لأسباب نجهلها جهلا تاما ، فاننا لا نزال نظن ان اعتقادكم الآن كاعتقادكم فى سالف الزمن ، أى أنه ليس لمسألة مصر الا حل واحد ، وهو الجلاء

« ولهذا رأيت من المفيد أن أرجو منكم فى هذا الوقت الذى اضطربت فيه أحوال المسألة الشرقية أن تعرفونا حقيقة إحساسكم نحو بلادنا

« فان كنتم لا تزالون من نصراء الجلاء كما نظن ذلك فمتى تظنون أنه يمكن تحقق هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد ؟

« وفضلا عن ذلك فان تصريحا منكم فى شأن مسألة مصر يكون له أعظم قيمة فى هذه الايام التي يحسب فيها الجم الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الاسلام ، وانى مع انتظارى الجواب علي كتابى هذا أرجو منكم أيها السيد المبجل أن تتفضلوا بقبول عظيم احترامى»

« مصطفى كامل »

رد جلادستون

وقد أرسل المستر جلادستون الى الفقيد على غير تعارف بينهما جوابا رقيقا ردا على كتابه ؛ أقر فيه بأن زمن الجلاء عن مصر قد وافى منذ سنين ، فكان جوابه وثيقة هامة فى المسألة المصرية سجلت على انجلترا مركزها غير المشروع فى مصر كما سجلت لمصر حقها فى الجلاء ؛ وهذا تعريب الخطاب :

« سيدى العزيز

إنى أستحسن مافهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم مصريـ ولكننى مجرد بالمرة من كل سلطة

«أما آرائى فانها لم تتغير قط ، وهى دائما أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف وفى فائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها

« وان زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين .

«ولما كنت فى منصبي أخيرا رجوت مساعدة الحكومات الأخرى توصلا

الى تسوية هذه المسألة المهمة ، والسلوك الذى اتبعه مسيو وادنجتون [1] فى عام ١٨٩٣ شجع أملى ، غير أن المخابرات لم تخط خطوة واحدة مع عظم ما أملنا إذ ذاك ، ولست أدرى لأى سبب

« ولقد جاهرت بكل تصريحاتى فى مجلس النواب سنة ١٨٩٣ ، ولم يبق عندى شيء أضيفه عليها ، وقد كنت مستعد العمل كل ما هو حسن فى سبيل اعطاء آرائى تأثيرها ؛ الا أننى تركت المنصب بالمرة ، ولست الآن الا أحد أبناء بلادى الخصوصيين ، وانى أتشرف بأن أكون لك الخاضع الصادق »

بيارتز فى ١٤ يناير سنة ١٨٩٦ « و . جلادستون »

كان لخطاب مصطفى ورد جلادستون دوى كبير فى الدوائر السياسية ، اذ جاء حجة على انجلترا فى اخلافها عهودها فى الجلاء ، وجاء شهادة قيمة من كبير الاحرار الانجليز ، الذى وقع الاحتلال فى عهد وزارته ، بأن لا مسوغ لبقاء الاحتلال ، فكان الرد انتصارا كبيرا لجهاد مصطفى كامل ؛ وقد تناولت الصحف الاوروبية الخطابين بالتعليق ، وعلا شأن الفقيد اذ ظهر فى أوروبا بأنه ترجمان مصر المعبر عن آمالها ومطالبها

نشرت جريدة (الاكلير) الفرنسية فى عدد ٣ فبراير سنة ١٨٩٦ مقالة للمسيو الفونس همبير نائب باريس فى مجلس نواب فرنسا قال فيها :

« تبودلت مكاتبة مهمة بين مصطفى كامل والمستر جلادستون ؛ ومصطفى كامل هو شاب مصرى متعلق أشد التعلق بتحرير بلاده ، وقد أقام فى باريس وعرفه فيها معرفة جيدة كل الكتاب المشتغلين بمسألة وادى النيل » وأتى على خلاصة الخطابين

وكتبت جريدة (الفيجارو) الباريسية مقالا جاء فيه :

« لقد أصبح المستر جلادستون أحد أبناء بلاده البعيدين عن السلطة كما

---

(١) سفير فرنسا فى لندن وقتئذ

ينادى بذلك ، وسهل عليه أن يعترف بتصريح ربما ضايق اللورد سلسبرى (رئيس الوزارة البريطانية) فى المفاوضات الجارية دائماً فى شأن الجلاء عن مصر ؛ فقد كتب الى زعيم الأحرار ذلك الشاب المصرى مصطفى كامل يذكره بآرائه القديمة التى كان مغزاها دائماً أنه لاحل للمسألة المصرية إلا بالجلاء »

وكتبت الصحف الاخرى فى فرنسا وأوروبا المقالات الضافية عن الخطابين والتعليق عليهما ، ونوهت بفضل مصطفى كامل فى الحصول على هذه الحجة القوية من شيخ الاحرار الانجليز ضد الاحتلال ، وصار اسم الفقيد فى الصحف الاوروبية علماً على الحركة الوطنية المصرية .

خطابه الثانى الى جلادستون

أراد المترجم أن يسجل على المستر جلادستون تصريحه بأن الجلاء قد حان منذ سنين ، ويطالب اليه أن يعمل على تحقيق ما وعد ؛ فأرسل اليه الكتاب الآتى ، وقد بعث به اليه بعد عودته الى مصر :

« مصر فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦

« أيها السيد المبجل

« اعذرنى اذا كنت اكتب اليك مرة ثانية ، فان عدداً عظيما من أبناء وطنى لما رأوا « أن زمن الجلاء على ماترى قد حان منذ سنين » كلفونى أن أرجوك التكرم على مصر باحداث حركة فى الرأى العام الانجليزى لمصلحة الجلاء .

« وان الحركة الكبيرة العديمة المثال التى أحدثتها فى انكلترا لمصلحة الأرمن بعض عبارات لكم فى شأنهم — حيث لم تكن وقتئذ إلا أحد أبناء بلادك الخصوصيين كما تقول — لهى أعظم كفيل لنا بأن مساعدتك لمصر يكون لها أعظم فائدة

« وإلا فهل مسلمو مصر أقل استحقاقا لرعايتك العالية من مسيحيي الأرمن ؟

أو هل أنت كما أشاعوا فى كل بلاد الشرق عدو للاسلام ؟ ذلك ما لا نتجاسر على ظنه .

«ولقد قلت فى خطبتك التى ألقيتها فى شهر اغسطس الماضى «انك لاتبغض المسلمين البتة » ، فها هم المسلمون يأتونك اليوم حيث جاءهم الدور يسألونك أن تدافع عن مصر .

« ومع ذلك أفليس من الواجب على انكلترا أن تحترم هى نفسها العهود العلنية والمعاهدات الدولية الضامنة لمصر حريتها قبل أن توصى تركيا — التى تعتبرها أقل بلاد أوروبا مدنية — باحترام فقرة من معاهدة برلين مختصة بالارمن ؟

« هذا وانى أرجوك أيها السيد المبجل أن تتفضل بقبول عظيم احترامى »

« مصطفى كامل »

لم يتلق المترجم من المستر جلادستون رداً على هذا الخطاب ؛ وانما تلقى منه كتاباً ثانيا رداً على خطاب ثالث أرسله اليه فى سبتمبر سنة ١٨٩٦ كما سيجىء بيانه

عودته الى مصر — يناير سنة ١٨٩٦

بقى المترجم فى باريس يدافع عن القضية المصرية بقلمه ولسانه حتى أوائل يناير سنة ١٨٩٦ ، وقد قدر لمدام آدم فضلها ومعاونتها إياه فى جهاده ، فبقى على وده لها طول حياته ، وظلت هى على اعجابها به وبوطنيته طول حياتها ، وقد ابحر من مرسيليا قاصداً مصر فوصل الاسكندرية يوم ١٤ يناير سنة ١٨٩٦

كتابه الى مدام آدم

وقبل أن يبارح فرنسا بعث اليها فى ٩ يناير سنة ١٨٩٦ بكتاب من مرسيليا يدل على مبلغ تقديره لما أسدته اليه من المعونة الأدبية ، قال فيه :

« سيدتى المديرة المبجلة

« قبل أن أبرح هذه الارض العزيزة أرض فرنسا أعرب لك من صميم فؤادى عن جزيل الثناء على المساعدة النفيسة جداً ، تلك المساعدة التى أوليتنى إياها ، وانه لواجب واجب الأداء أن أشكر بكل اخلاص عملك العظيم لوطنى التعس الحزين ولشخصى المتواضع ، ولا شيء يؤلمنى أكثر من عجزى فى الكلمات ، ولولا ذلك لكنت أصف لك مقدار التأثير الذى وقع فى نفسى من حسن لقائك إياى وما نلته من هذه المقابلة ، وبالجملة فانك أعلم بشعورى نحوك

« بعد ساعة أبرح فرنسا حاملا تذكارا متين الدعائم ، وأملى أن أعود اليها بعد أن أتم عملى فى مصر ، وانى أعتمد دائما عليك أيتها السيدة الوطنية الكبيرة

« وأرجو منك أن تتكرمى بقبول أجل اكبار واعظم اعتبار من يعترف لك بالجميل » « مصطفى كامل »

أول خطبة وطنية له بالاسكندرية

٣ مارس سنة ١٨٩٦

لما عاد مصطفى كامل الى مصر عقب جهاده فى اوروبا سنة ١٨٩٥ اتجهت اليه أنظار المصريين وتعلقت به آمالهم ، وتفتحت بتأثير جهاده عواطف الوطنية فى قلوبهم ، وتردد صدى خطبه ومقالاته فى أرجاء البلاد ، فأخذت القلوب تلتف حوله كزعيم للحركة الوطنية ، ومحرر للبلاد ، ومناد بالجلاء ، وقد اعتزم عند عودته إلقاء خطبة وطنية كبرى فى مدينة الاسكندرية ، ليتصل بقلوب الجماهير مباشرة ، ولعله اختار إلقاءها هناك لما كان يأنسه فى أهلها من الحماسة والوطنية

ذهب المترجم الى الاسكندرية يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٦ لالقاء خطبته ، ونزل بأوتيل (آبات) بالمنشية ، ولكن صديقه اسماعيل بك شيمى ، وكان وقتئذ قاضيا بمحكمة الاسكندرية المختلطة ، أبى إلا أن يستضيفه بمنزله على شاطئ البحر (بجهة الانفوشى) ، فقبل الدعوة ، ونزل ضيفا كريما بداره ، وما ان علم

أعيان الاسكندرية وأهلها بمقدمه حتى أخـذوا يتوافدون على دار شيمى بك ليظهروا للفقيد اعجابهم به ، وتقديرهم لجهاده فى سبيل مصر ، وليعربوا له عن تأييده والالتفاف حوله ، فكانت الدار مدة اقامته بها مهوى أفئدة الوطنيين ، وقد ألقى خطبته يوم الثلاثاء ٣ مارس فى المسرح العباسى ، وكان الاجتماع حافلا بالمستمعين من صفوة القوم ، وقد حضره بعض النزلاء الاجانب ، وكان الزحام شديدا إذ لم يبق مكان فى التياترو خاليا ، وارتد المئات من الناس عن بابه من كثرة الزحام ، وقوبلت الخطبة بالتصفيق والحماسة والاستحسان ، وكان موضوعها حث المصريين على التمسك بحقوقهم فى الاستقلال ، والمطالبة بالجلاء ، واستثارة روح الكرامة والأمل فى قلوبهم ، وقد طلب الخطيب من الحاضرين فى نهاية خطبته أن يقروا نداءه بالجلاء برفع ايديهم فأقروا بالاجماع نداءه ، فكانت مظاهرة قومية رائعة

قال «المؤيد» فى وصف الاجتماع (١) « وبالجملة فان جميع الذين سمعوا هذه الخطبة الشائقة أجمعوا على أن حضرة الخطيب الفاضل قد استهوى المسامع بحسن القائه وبلاغة منطقه وغزارة مادته ولطيف اعتداله » ، وقال أيضا « انها الخطبة الأولى التى أقدم على القائها شاب مصرى غيور عرف واجب الوطن وضرورة التفانى فى حبه المقدس بعد أن مر على الاحتلال الأجنبي أربعة عشر عاما »

وأطنبت جريدة (الفارد الـكسندرى) التى تصدر بالثغر فى مدح الخطيب ، ونوهت بفضله فى تأليف قلوب الوطنيين والنزلاء ، قالت « وهو الأمر الذى كان له أحسن وقع فى النفوس الحرة لاسيما من شـاب لايتجاوز عمره اثنتين وعشرين سنة قام نائبا عن أبناء وطنه فى الدفاع عن حقوقهم » .

كان لخطبة المترجم دوى عظيم فى الاسكندرية تردد صداه فى أرجاء مصر ، وظهر تأثيرها فى نفوس الاسكندريين يوم عودته الى العاصمة ، فكان توديعه

(١) عدد ٤ مارس سنة ١٨٩٦

بمحطة الاسكندرية مظاهرة وطنية ، اذ اجتمع على رصيف المحطة جمع كبير من الاسكندريين وفى مقدمتهم أعيان المدينة وفضلاؤها لتوديع الضيف الكريم

هدية الثغر الى المترجم

وقدموا له وساما من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة السعف المصرى ومسلة الثغر وكتب على الوجه الآخر هذه الجملة :

برهان الاخلاص من أهالى الاسكندرية

للوطنى الغيور مصطفى كامل

فتقبل الهدية شاكرا ، وأمطرت عليه باقات الازهار والرياحين ، وما كاد القطار يتحرك حتى هتف له الجمع الحاشد هتاف الاخلاص والحب وهو يرد التحية شاكرا

كتاب المترجم الى اهالى الاسكندرية

أثرت مظاهر الحفاوة التى لقيها الفقيد من أهالى الاسكندرية فى نفسه تأثيرا كبيرا ، وأدرك منها أن دعوة الوطنية تلقى من الشعب استعدادا لقبولها ، فنشر فى المؤيد كتاب شكر لهم أعرب فيه عن اغتباطه لتلبيتهم داعى الوطنية ، قال :

الى اهالى الاسكندرية

« أبناء وطنى الاعزاء

« يعجز قلمى ولسانى أن يؤديا لكم واجب الشكر علي ماأظهرتموه نحوى من العواطف الشريفة ، وما أبديتموه لى من علامات الود والاكرام ، ولولا أنى معتقد انكم لم تقصدوا بمظاهرتكم نحو أضعف خدمة الوطن الا إعلاء منار الوطنية ورفع شأن الوطن العزيز لكنت اخجل ان امسك القلم واسطر هذه السطور

«وان الامة المصرية لذاكرة كلها مظاهرة « ٣ مارس» الشريفة التي أظهرتم فيها رغائبكم وطالبتم بحريتكم وسعادتكم الاجتماعية ، وبرهنتم على انكم تقدرون الوطنية الصادقة حق قدرها وتعرفون مزية السكينة والاعتدال فى خدمة الاوطان ، فاعملوا دائما بهذه المبادئ السامية لنبلغ الآمال وتشرق لنا شمس السعادة والاقبال.

« وما مثلى أمامكم ومثلنا جميعا أمام الوطن العزيز الا كمثل رجل وجد أمة عليلة سقيمة فأحس من نفسه الحنو والشفقة عليها فقام مناديا اخوته العمل معه ليشفاء علتها حيث وجدهم جميعا يحسون نفس احساسه ويشعرون شعوره ففرح بهم وفرحوا به واجتمعوا على خير أمهم المحبوبة

« فليتم لنا هذا الاجتماع المرغوب حتى يبرأ الوطن من علته ويسلم من دائه العضال ، دمتم له يا أعز بنيه وأصدق حماته »

مصر فى ١٠ مارس سنة ١٨٩٦ « مصطفى كامل »

اضطهاد الانجليز شقيقه

نقم الانجليز من الفقيد مجاهدته اياهم فى أوروبا ، لأن الدعاية فى الخارج تزعزع مركزهم المعنوى الذى يعتمدون عليه كثيراً فى تثبيت سلطانهم فى مصر ، وقد غضبوا عليه لحملاته عليهم فى الصحف الاوروبية عام ١٨٩٥ ، وبدا أثر هذا الغضب فى معاملاتهم لشقيقه على (بك) فهمى كامل ، وكان وقتئذ ظابطا بالجيش المصرى بالاورطة الاولى من المشاة المرابطة بسواكن ، فتشدد رؤساؤه الانجليز فى معاملته ، فقدم استقالته من خدمة الجيش فى أكتوبر سنة ١٨٩٥ ، ولكن قومندان الاورطة الانجليزى رفض استقالته وطلب اليه استردادها متهددا متوعداً فاسترد على بك الاستقالة ، ثم صدر الامر باحالته الى الاستيداع فى شهر نوفمبر ، وسافر الى مصر فوصلها فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٥

وقد رافق على بك شقيقه حين خطب بالاسكندرية ، ولما عاد معه الى العاصمة

قدم استقالته من الجيش في مارس سنة ١٨٩٦ ، ليكون بجانب أخيه فى ميدان الجهاد ، وكان الانجليز قد ساءهم النجاح الذى لقيه المترجم فى خطبته ، والحفاوة التى قوبل بها فى الاسكندرية ، فاعتزموا أن ينتقموا منه فى شخص أخيه ، فاعتبروا استقالته من الجيش فى الوقت الذى كانت تعد الحكومة فيه الحملة لاسترداد دنقلة مخالفة للواجب العسكرى تستوجب محاكمته ، ومع أنه حين علم بنبأ هذه الحملة استرد استقالته بخطاب مسجل ووضع نفسه تحت تصرف وزارة الحربية : وألحق فعلا بالاورطة الخامسة عشرة ، فان وزارة الحربية أمرت بوقفه ، واعتقاله ومحاكمته ، وحوكم على الفور أمام مجلس عسكرى ، فقضى بتجريده من رتبة العسكرية (وكان ملازما أول) ، وتنزيله الى درجة (نفر) ، أى جندى بسيط ، ونزعوا عنه علامة هذه الرتبة ، وساروا به الى الثكنة التى بها أورطته (بالعباسية) ، فقوبل هذا الظلم بالألم الشديد من زملائه الضباط ؛ وأعربوا له عن صادق عواطفهم نحوه ، فشكرهم على إحساسهم ، ونصح لهم أن يتبعوا الحكمة والروية ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وقد أودع السجن ، وعومل بغلظة وشدة ؛ وألحق (نفرا) بتجريدة دنقلة ، فكان ذلك منتهى العسف والتنكيل ، وحضر واقعة (فاركة) وواقعة (الحفير) وهو جندى بسيط

كان لهذا الظلم الصارخ أثر سيئ فى النفوس ، وبخاصة بعد أن تناقلت الصحف والألسنة تفاصيله : وانتقل صداه الى الصحف الخارجية ، واستفاضت الأنباء بأن المقصود بهذا الانتقام هو مصطفى كامل .

وقد جعل المترجم لمسألة أخيه صبغة رسمية ، فطلب مقابلة الخديو ليرفع اليه ظلامته من هذا الاضطهاد ، فاجيب الى طلبه ، وقابل الخديو لهذا الغرض يوم الخميس ٩ يوليه سنة ١٨٩٦ ، فكان لهذه المقابلة ضجة فى المحافل السياسية ، وبخاصة الانجليزية ، لأن الانجليز عدوا مقابلة الخديو لزعيم حركة الجلاء مظاهرة ضد الاحتلال ، وقابل اللورد كرومر الخديو فى هذا الشأن ، وأظهر له استياءه

الدوائر الانجليزية من استقباله مصطفى كامل ، فأجابه الخديو أنه ككل المصريين له الحق فى أن يشكو اليه مظلمته ، واخيراً صدر العفو عن على بك فى اغسطس سنة ١٨٩٦ ، وقد استاء اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى وقتئذ من امر العفو، فلم ينفذه إلا فى اكتوبر، أى بعد شهرين من صدوره.

خطبته بالفرنسية فى الاسكندرية

١٣ ابريل سنة ١٨٩٦

لم يجزع مصطفى لاضطهاد شقيقه ، وكان الظن أنه يتراجع خوفا عليه ، ولكنه ألقى وأخوه يتلظّى فى محنته خطبة دلت على أنه مهما حورب فى شخصه أو شخص اقرب الناس اليه، فلا يحول حائل دون جهاده، ذلك أنه فى ابريل سنة ١٨٩٦ طلب منه لفيف من الاوروبيين المقيمين بمصر أن يلقى خطبة يشرح لهم فيها القضية المصرية وموقف المصريين من الجاليات الاجنبية ، فلبّى الدعوة ، وألقى بمسرح زيزينيا بالاسكندرية يوم ١٣ ابريل خطبة بالفرنسية ، كانت فوزاً كبيراً له وللقضية الوطنية ، فقد ازدحم المسرح بالحاضرين ، وكانوا نحو الف من خيار النزلاء مختلفى الاجناس رجالا ونساء ، ومنهم بعض الانجليز، وفى مقدمتهم بعض القناصل والشخصيات البارزة من الجاليات الاجنبية ، وأعيان التجار ، وجموع كثيرة من صفوة الوطنيين الذين يعرفون اللغات الاجنبية ، والقى المترجم خطبته بلغة فرنسية فصيحة ، وصوت رنان ، ولقد جاهر فيها بأن اضطهاد شقيقه لا يثنيه عن جهاده ، وسيظل مدافعاً عن وطنه طول حياته ، واستمر يخطب ساعة ونصفا ، كان فى خلالها يقابل بالتصفيق والاستحسان والاعجاب ، مما دل على مبلغ تأثيره فى نفوس السامعين ، ومعظمهم من الاوروبيين.

وكان الموقف يدعو حقا للاعجاب ، لأن تلك أول مرة بعد الاحتلال يلقى

فيها خطيب مصرى على جمع من الاوروبيين فى مصر خطبة بلغة أوروبية ، مدافعا عن القضية الوطنية ، مناديا بالجلاء ، وقد ظهر هــذا الاعجاب فيما كتبته الصحف الاوروبية عن الاجتماع ؛ قالت جريدة (الفارد الكسندرى) « عندما ظهر الخطيب على مسرح الخطابة قدم له جماعة من ابناء وطنه باقات كثيرة من الزهور دليلا على حبهم له وتأييدهم لخطته ؛ فكان يتكلم وسط الزهور والرياحين بلسان بديع فى الفرنسية ، وأسلوب خطابى ، وصوت جهورى ، مما أثر تأثيراً قويا فى السامعين » ، وقالت جريدة الريفورم « إن هــذا الجهاد الذى يقوم به مصطفى كامل لجدير بالفخر ، فلقد أمكنه أن يتكلم فوق ساعة ونصف بلسان أجنبي عنه ، دون أن يمل سامعوه ، ودون أن يستعمل الفاظا نابية عن الذوق ، وبرعاية وتحفظ تامين ، ومن البديهى أن الذى يبلغ درجة كهذه لابد أن يكون له شأن كبير ، ولقد سمعت بنفسى خصوماً مجاهرين بمعارضتهم لآراء مصطفى كامل يعترفون بفضله وكفايته »

مجموعة أعمال المترجم فى عام

حفل عام ١٨٩٥ — ١٨٩٦ بما رأيت من جلائل الاعمال والجهود الجبّارة فى بعث الحركة الوطنية ، وقد فكر بعض أصدقائه فى طبع مجموعة أعماله فى ذلك العام ، تخليداً وتكريما لجهاده ، فنشر الاستاذ العالم محمد بك مسعود (صاحب جريدة منفيس وقتئذ) هذه المجموعة بعنوان (مصر والاحتلال الانجليزى) ، ومهد لهــا بمقدمة بليغة تدل على المكانة التى نالها مصطفى كامل فى النفوس والاعتراف له من ذلك الحين بأنه باعث الحركة الوطنية .

ظهرت هذه المجموعة فى مايو سنة ١٨٩٦ ، وانتشرت انتشارا كبيرا ، وأقبل الناس على اقتنائها اقبالا عظيما ، وإنا مقتبسون هنا بعض فقرات من مقدمة الاستاذ

مسعود بك لأنها تحتوى على وصف لشخصية مصطفى كامل فى بداية حياته الوطنيةالـكبرى ، قال :

« نبغ هذا الهمام من مدارس مصر ، وتوج ما اكتسبه فيها من المعلومات الجليلة بمتابعة الدراسة فى فرنسا ، حتى نال الشهادة الناطقة بفضله وقوة ادراكه وشدة ذكائه وحدة فهمه ، وقد كان كافة أساتذته وأقرانه يعترفون له بهـــذه النعوت الـكاملة ، وبما وهب من طلاقة اللسان وقوة البيان ، وأنه الذى إذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له القول وسخر له الخطاب ، وتابعه الـكلام متفق القرائن مطرد السياق ، حتى يستميل اليه القلوب النافرة ، ويرد الأهواء الشاردة »

الى أن قال :

« يعترف القارئ المنصف اعترافا لاتشويه مداراة أو مواربة بأن الموجد لهـذه الحركة الفكرية القوية إنما هو ذلك الذى ينبغى أن يكافئه كل وطنى بالاقتداء به وسلوك منهجه القويم ، وما هذا المنهج القويم ؟ هو صراط مستقيم يهتدى اليه كل من اجتمعت فيه مزية الاقدام واشتعال العواطف بالوطنية الصادقة ، فان هاتين الصفتين الجليلتين متى منح الانسان التوفيق بتوافرهما فيه أوصلتاه الى سدرة منتهى الغايات المحمودة والمقاصد السنية ، وسخرتا له كل الوسائط لتذليل الصعاب وتمهيد العقبات » الى أن قال :

« علم مما سلف أن الاقدام والوطنية الصادقة شرطان لازمان للمصريين ، إذ بهما يقاومون جميع الصعوبات السياسية كما قاوم بهما من قبل فحول الرجال الذين أنقذوا أوطانهم من ربقة الاستعباد ، فخلدوا فى تاريخ أممهم وتاريخ الحرية الذكرى الحسنة ، وتركوا للاعقاب أثراً جميلا ومثالا يقتدون به ، ولا بدع اذا كان المصريون الصادقون يؤملون لوطنيهم وخطيبهم المصقع منزلة في تاريخ مصر ، كمنزلة أولئك العظماء فى تواريخ بلادهم ، فكلهم ابتدأوا كما ابتدأ ، وربما كان

عملهم فى المبدأ لم يصادف من النجح والفوز ما صادفه مصطفى كامل فى فاتحة أعماله الجليلة التى نقدمها اليوم للقراء متضمنة كل آثاره الوطنية فى عامه السياسى الأول » (١)

استئناف الجهاد فى اوروبا

اغسطس سنة ١٨٩٦ — نوفمبر سنة ١٨٩٦ .

أبحر المترجم من الاسكندرية يوم السبت أول اغسطس سنة ١٨٩٦ قاصداً فرنسا ليستأنف جهاده فى أوروبا ، فودعه على رصيف الميناء جمع كبير من ذوى المكانة ، وقدم له الوطنيون الاسكندريون باقات الازهار داعين له بالنجاح فى جهاده (٢) ، وما ان وصل الى باريس حتى بادر الى العمل والجهاد فى سبيل مصر فنشرت له جريدة (ليبر بارول) الفرنسية حديثا بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٩٦ عن الحركة الوطنية قال فيه :

« إن كراهية المصريين للاحتلال تزداد من يوم لآخر وقد علمنا الآن حق العلم أن انجلترا تستعمل كل الوسائط بما فيها الشرف البريطانى للوصول الى غايتها فى مصر ؛ وليس لها من غاية هنالك سوى الاستيلاء عليها ، وانه اذا كانت الأمة المصرية ساكتة اليوم سكوتا تاما وصابرة صبرا جميلا فانى لا أستطيع التكهن بما يمكن أن ينجم عن حقدها الشديد على الاحتلال والمحتلين »

---

(١) كتاب (مصر والاحتلال الانجليزى) أو مجموعة اعمال مصطفى كامل مدة عام من مايو سنة ١٨٩٥ الى مايو سنة ١٨٩٦ ص ٤

(٢) جاء فى المؤيد عدد ٢ اغسطس سنة ١٨٩٦ ما يأتى « كان من جملة الذين بارحوا ثغر الاسكندرية أمس الى أوروبا حضرة الكاتب الفاضل والخطيب الوطنى البليغ مصطفى افندى كامل فودعه على ظهر البحر كثير من أصدقائه واخوانه كما ودعه الكثير منهم بعد ظهر يوم الخميس الماضى على محطة القاهرة وافقته السلامة والنجاح أينما توجه »



مصطفى كامل

في الثالثة والعشرين من عمره

ذكرى ١٤ سبتمبر

وانتهز المترجم يوم ١٤ سبتمبر وهو ذكرى احتلال الانجليز عاصمة البلاد في سنة ١٨٨٢ فنشر في جريدة (الأكاير) الفرنسية بعدد ١٥ سبتمبر ١٨٩٦ حديثا ضمنه التنويه بهذه الذكرى ، وقد مهدت له الجريدة الباريسية بقولها :

« أى تذكار محزن وأية ذكرى تعسة مؤلمة ؟

« لقد مضى على مصر أربعة عشر عاما وهى مقهورة مضغوط عليها من قوم يلقبون أنفسهم بممدنى العالم ! وان الانسان عند ما يفكر أن الانجليز مضى عليهم

هذا الزمن وهم يهدمون كل بنيان فى مصر ، ويحاربون اوروبا والمدنية الأوروبية على شواطئ نهر النيل ، ويقوضون أركان نفوذ فرنسا واحترامها ، ويقهرون المصريين ؛ كل ذلك ودول أوروبا لم تعمل شيئا ما ضد الاحتلال ، يظن أن أوروبا هذه تلاشت وأنها لا وجود لها اليوم ! وليس تذكار ١٤ سبتمبر تذكار حداد للأمة المصرية فقط ، بل هو أيضا — وأسمح لنفسى أن أقول ذلك — تذكار عار وخجل على سياسة أوروبا ومدنيتها عامة وعلى فرنسا خاصة »

خطاب ثالث الي جلادستون

كانت المسألة الأرمنية فى صيف سنة ١٨٩٦ مثار الأحاديث فى الصحف الأوروبية والدوائر السياسية ؛ وكانت الصحف الاوروبية عامة تدافع عن الأرمن وتحمل على الحكومة التركية من أجلهم حملات شديدة ؛ وكان المستر جلادستون من أشد السياسيين انتصارا لهم ، فكتب اليه المترجم من باريس خطابا ثالثا نوه فيه بخطابه الثانى الذى لم يتلق عنه ردا ، وألمع الى دفاع المستر جلادستون عن الأرمن ضد الحكومة التركية ، وسكوته عن المسألة المصرية، على ما يقع فيها من عدوان السياسة الانجليزية ؛ ونقضها لعهودها فى الجلاء ، وأعرب عن أمله فى أن يكون عادلا فى موقفه حيال المسألة المصرية، وهذا تعريب خطابه :

« باريس فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٦

« أيها السيد المبجل

« إن الذى يخاطبكم اليوم هو مصرى تشرف من قبل بمراسلتكم ، ولما شرفتمونى فى شهر يناير الماضى بجوابكم الذى صرحتم فيه « ان وقت الجلاء عن مصر قد حان منذ أعوام » ، كتبت اليكم راجيا باسم الانسانية والشرف البريطانى أن تلقوا خطبة تذكرون فيها حكومة الملكة بأن هناك معاهدات خاصة بمصر يجب احترامها ، فلم يصلنى جواب ما ، وحسبت ان رجائى لم يؤثر أى تأثير فى روحكم الشريفة الكريمة

« واليوم أرى مع الأسف أنكم لاتميلون إلا الى المسيحيين من بنى الانسان ، أوليس لنا حق كذلك نحن معشر المصريين المسلمين فى دعواكم المؤثرة وندائكم القوى ؟ أما أنا فأظن ذلك ، وخصوصا لأنكم بدعوتكم للجلاء عن مصر لاتدافعون عن حقوق أمة متمدنة معتدلة فقط ، بل تدافعون كذلك عن مقام بريطانيا وشرفها

« وان اليوم الذى تدافعون فيه عن مصر تستميلون إليكم لامحالة كل المسلمين الذين يعتقدون الآن أن دفاعكم عن الأرمن إنما هو تحيز للمسيحية ودفاع عنها لاعن الانسانية ، وعلى هذا أؤمل أن تعيروا رجائى التفاتكم ورعايتكم ، ومع انتظارى لجوابكم أرجو منكم أيها السيد العظيم المقام أن تتفضلوا بقبول صادق اعتبارى وعظيم احترامى . « مصطفى كامل »

رد جلادستون

فأجابه المستر جلادستون بالكتاب الآتى تعريبه :

« السبت ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٦

« سيدى العزيز

« إنى لاأظن أنه وصلنى منكم كتاب من غير أن أجيب عنه أما احساسى ورأيى فى مسئلة الجلاء عن مصر فقد صرحت بهما لجناب مسيو وادنجتون — سفير فرنسا فى لندن اذ ذاك — اذ قلت له ان حكومة سنة ١٨٩٢ (أى الحكومة الانجليزية التى كان يرأسها مستر جلادستون نفسه) مستعدة للمناقشة فى هذه المسألة : ولكن الحكومة الفرنسية لم تجب أى جواب مدة وجودى فى الحكومة ، والآن باعتبارى أحد الافراد أرانى مجردا من كل سلطة تبيح لى التدخل فى هذه المسألة

«وفى الختام أتشرف بأن أكون لكم العظيم الاخلاص الخاضع

« و . جلادستون »

كان لهذين الكتابين صداهما فى الصحف اذ اتخذت منهما مادة لمناقشة للمسألة المصرية والزام السياسة البريطانية الحجة .

كتبت جريدة (الديبا) الفرنسية مقالا جاء فيه ما يأتى :

« ان المستر جلادستون الذى كتب أخيرا كتابا يدعو فيه الامة الفرنسية الى التظاهر بغيرة أشد مما هى عليه انتصاراً لمسيحيى الارمن دعاه بدوره رجل مصرى للدفاع عن أمة أخرى مقهورة ، وبيان ذلك أن مصطفى كامل المصرى الوطنى كتب اليه كتابا يقول فيه انه يجدر بشيخوخته النشيطة أن تعمل لتحرير مصر وردها الى أهلها من أيدى الانجليز محتليها بلا حق ، وان تكن المشابهة بين المسألة المصرية والمسألة الارمنية طريفة أكثر مما هى صحيحة ، ولقد أجاب المستر جلادستون مصطفى كامل بأنه لما كان رئيس حكومة الاحرار سنة ١٨٩٢ فاوض فرنسا فى هذا الشأن وأنه عرض على المسيو وادنجتون المباحثة فى المسألة المصرية ولكن الحكومة الفرنسية هى التى أغفلت هذا الطلب ولم تجبه ، واننا نعلم كيف كان عرض هذه المناقشة يومئذ ، ولكن الخطبة التى ألقاها المستر جلادستون نفسه فى البرلمان البريطانى باعتباره اذ ذاك الوزير الاول لانجلترا تجعلنا نحكم الآن بأن حكومتنا كانت تضيع وقتها سدى لو فاوضت المستر جلادستون فى هذه المسألة ، ومع هذا فاذا كان المستر جلادستون لا يزال يعتبر لزوم المفاوضة ويرغب فى أن تحافظ انجلترا على عهودها وتقوم بوفائها فلماذا نراه لا يقبل رجاء مصطفى كامل بل يعتذر عن نفسه بأنه فرد من امته مجرد عن كل سلطة ككل افراد الانجليز نعم إن هذا القول يعد تواضعا ممدوحا ، ولكن هل الصوت الذى ارتفع للدفاع عن الارمن فهيج خواطر الانجليز غير قادر على ان يقول الحقيقة فى شأن مصر ؟ »

دعايته فى المانيا

سافر المترجم من باريس فى اكتوبر سنة ١٨٩٦ قاصدا برلين ليرفع

صوت مصر فى المانيا ويكسب لها الانصار ، وهناك تعرف بكثير من رجال السياسة والصحافة ، ورحبت به الصحف الالمانية واستقبلته بالحفاوة ، فكتبت عنه جريدة (برلينر تاجبلاط) قائلة :

« وفد على برلين فى هذه الايام اكبر المشتغلين بأمر تحرير مصر من الاحتلال الاجنبي ، وهو الوطنى الشهير « مصطفى كامل » الذى يكتب ويخطب فى أوروبا منذ عامين دائب السير والعمل والجهاد فى سبيل مشروعه الشريف ، والآن قد جاء برلين لاستمالة شعبها الى وطنه الأسيف ، ومصطفى كامل هذا هو شاب فصيح جذاب ، اجتمع به أحد محررى جريدتنا وتحادث وإياه فى المسألة المصرية وكان الحديث باللغة الفرنسية التى يتقنها كل الاتقان »

وقد نشرت الحديث وهو دفاع مجيد عن حق مصر فى الاستقلال وعدم مشروعية الاحتلال وتألم المصريين منه

ونشرت جريدة (ذى بوست) كبرى جرائد المحافظين حديثا آخر له فى هذا الشأن ، وقد نوه فى كلا الحديثين بأن الاحتلال لا يضر بحقوق مصر فحسب بل يعارض المصالح الاوروبية عامة ، قالت جريدة (ذى بوست) فى هذا الصدد :

« لقد تكلمنا فى جريدتنا منذ بضعة أشهر عن رسالتين مهمتين تتعلقان بالجلاء عن مصر ، وقلنا انهما من قلم الوطنى المصرى الشهير (مصطفى كامل) ذلك الذى وهب حياته ونفيس عمره لتحرير وطنه وتحرير بلاده ، ولما كان يطوف أوروبا دائبا فى عمله فقد جاء برلين ليتعرف فيها الى رجال القلم والسياسة حتى يطالعهم بحالة بلاده الحاضرة ، لكى يقتنعوا بضرورة العمل ضد بقاء انجلترا فى مصر ، وقد فعل ذلك لممالك والعواصم الاخرى » ، الى أن قالت « لقد تعودنا أن نعتقد أنما ان نصراء الآراء العظيمة وزعماء المذاهب ودعاة الاغراض الكبيرة يكونون من الشيوخ الكبار السن ، ولذلك دهشنا أول الامر اذ شاهدنا مصطفى كامل المصرى المتجول فى أوروبا طالبا لتحرير بلاده من نير الاحتلال الاجنبي شابا فى

غضاضة العمر ؛ ولكن لا يلبث الانسان هنيهة حتى ينسى أنه أمام شاب ، بل يحسب نفسه مع شيخ كبير حنكته التجارب والسنون الطوال ، ويجده محدثه فضلا عن ذلك فى كل كلمة من كلماته شغوفا بوطنه مملوءا غيرة عجيبة وحبا للعمل الذى هو قائم به ؛ وحركات رأسه المملوء نشاطاً وكفاية ، وبريق عينيه ، كل ذلك تدل على قوة إيمانه وأنه مستعد لعمل عظيم يحقق فيه القول بالعمل ، وهو يؤدى الاحاديث مع محادثيه بحرارة ماعهدت فى غيره من رجال الشرق ، ويجيب مخاطبه بصراحة تامة عن كل سؤال ، وهو معتقد تمام الاعتقاد أنه يعمل عملا شريفا طاهرا ، وأنه واثق تمام الثقة بأن آماله لابد أن تتحقق ؛ وثقته بنفسه وبشعبه واطمئنان خاطره يظهران جليا من جوابه عن هذا السؤال :

أى مهمة سياسية أنت مكلف إياها فى حضورك الى برلين ؟

« إنى مكلف من تلقاء نفسى وبواجبى الوطنى بمهمة وطنية محضة يدفعنى اليها الاحساس النفسانى ، فانى لما فكرت فى الحالة التعسة التى فيها وطنى وشعرت من نفسى بأننى انسان عليه واجبات لأرض آبائه وأجداده رأيت بعد التروى مع أصدقائى الوطنيين أن آتى الى أوروبا ، وقد مضى علىّ عامان وأنا مشتغل بعملى هذا مدافعا عن قضية بلادى ضد الانجليز المحتلين لها برغم المعاهدات الصريحة القطعية ، وأعظم التعهدات العلنية ، ولقد وجدت أينما كنت معاضدة محبى الحق والعدل ، وهم والحمد لله ليسو بالقليلى العدد فى اوروبا ، وانى أخاطب الأمم والحكومات ، وسواء سمع صوتى الآن أو بعد الآن ، حتى لو كان سماعه بعد موتى ، فانى عامل ماعشت لأداء واجباتى نحو وطنى ، وأنادى كل ذوى الضمائر الحرة من جميع الأمم للعمل لانقاذ مصر »

فى النمسا

ثم ذهب الى النمسا ليواصل دعايته للقضية المصرية ؛ فوصل عاصمتها « فيينا »

يوم ١٩ اكتوبر سنة ١٨٩٦ ، [1] وكان وهو فى باريس قد دارت بينه وبين المسيو (جوزيف بويوسكى) أحد كبار أعضاء مجلس النواب النمسوى مكاتبة فى صدد المسألة المصرية أراد بها أن يجتذب النائب الكبير الى جانب مصر ، فكتب اليه كتابا فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦ يشبه من بعض الوجوه كتابه الى المستر جلادستون قال فيه :

« باريس فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦

« جناب المحترم المسيو جوزيف بويوسكى

« لم أتشرف بمعرفتك من قبل ، ولكنى وطنى مصرى أعمل لجلاء الاحتلال الانجليزى ؛ لذلك أجد من الشرف أن أسأل بلا معرفة رجلا حرا مثلك اشتهر بسعة علمه وعظيم استقلاله وتمكنه من معرفة السياسة الخارجية بحذافيرها ليشرح لى رأيه هل هو نصير الاحتلال أم الجلاء ؟ وماهى السياسة التى يجب أن يتبعها التحالف الثلاثى ؟

« ورجائى أن لاتعتبروا سؤالى هذا مملا أو مبهما ، فان الوطنية قوة قاهرة تدفع المرء الى مخاطبة من لايعرفه أو الخروج أحيانا عن حد اللياقات ، وإنكم وأنتم الذين علمتم الأمم ماهى حدود الوطنية لابد أن تعطفوا على الوطنيين المصريين وتمدوا اليهم يد المعونة فى سبيل تخليص وطن حكم عليه بالأسر والذل كاد يذهب ضحية طمع بريطانيا وتهاون أوروبا

«وتقبل أيها العضو المبجل أجل تحيات وعظيم احترامات

المصرى المخلص

« مصطفى كامل »

فاجابه النائب بويوسكى بالكتاب الآتى :

« فيينا فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٦

(١) المؤيد عدد ٣١ اكتوبر سنة ١٨٩٦

« سيدى

« تسألنى فى كتابك المؤرخ ٢٤ سبتمبر الماضى إذا كنت نصيراً للاحتلال أو الجلاء ؛ فجوابا عن هذا السؤال أقول لك إنى أفهم جيداً انك باعتبارك مصريا وطنياً لابد أن تتألم لضياع استقلال بلادك : وان كان يعزيك ويخفف آلامك الاعتقاد بأن الاحتلال الانجليزى فى مصر ليس إلا مؤقتا وأن انجلترا لا تتعدى على القومية المصرية ، وأن لكم استقلالا داخلياً تاما وأن لكم أميراً حازما وادارة منتظمة ، ولكن لكى تنال أمة من الأمم حريتها يلزم أن يكون عندها بعض صفات معنوية خاصة ؛ وأولى هذه الصفات أن تكون مستعدة لأن تضحى بنفسها فى سبيل الوطن

«وقد أرشدنى التاريخ الى أن روسيا قضت أربعين عاما حتى استطاعت أن تملك القوقاز ، وأن فرنسا حاربت فى الجزائر حربا طويلة حتى استطاعت أن تقف مقاومة « عبدالقادر » لها ، ولا يزال من الصعب على هاتين الدولتين تجنيد الجنود من القوقاز والجزائر ! ؛ ومن جهة أخرى فليس لانجلترا فى مصر غير ثلاثة آلاف جندى مع أن للخديو جيشا منظما عدته ثلاثة عشر الف جندى ولديه خمسة آلاف رجل فى بوليس منظم تنظيما عسكريا ، فهذه الارقام تدل على أن أغلب المصريين راضون عن الاحتلال الانجليزى !

«وأنا أعتقد أن الحرب السودانية لابد أن ترفع من شأن الجنود المصرية فتكسبهم ملكة عسكرية أهلية تساعد — وذلك مالا شك فيه — على استكمال الصفات الضرورية لمصر حتى تنال استقلالها يوماً ما

«وانك تسألنى أيضا فى كتابك عن رأيى فى السياسة التى يجب أن يتبعها التحالف الثلاثى تجاه المسألة المصرية ، وجوابا عن هذا السؤال أقول لك إنى أفتكر أن المسألة المصرية لاتهم دول التحالف مباشرة بل ان سياستها تتوقف على ما تخطه انجلترا فى المستقبل

«هذا وأنى أرجوك أن تتفضل بقبول عظيم احترامى ومزيد اعتبارى

«جوزيف بويوسكى»

وقد قابل مصطفى كامل بعض كبار رجال السياسة فى النمسا . وفى مقدمتهم المسيو شلومكى رئيس مجلس النواب النمسوى وكبار الصحفيين وشرح لهم المسألة المصرية وجهاد مصر فى سبيل استقلالها ، فاكتسب عطف الكثيرين منهم نحو مصر

ونشرت له جريدة (اكستر تاجبلاط) حديثا قال فيه :

«إننا متألمون من الاحتلال الأنجليزى لأنه مسقط لكرامتنا باعتبارنا أمة فضلا عن كونه جارحا لعزة بلادنا حساً ومعنى ، فاننا أمة نقدر محبة الوطن حق قدرها ، ونعلم أن بلادنا مادامت تحت النير الاجنبي وما دمنا لاندير شؤوننا بأيدينا فلا حق لنا فى أن نحسب أنفسنا أمة من الأمم التى لها حقوق محترمة ، ولهذا نرغب من صميم أفئدتنا التحرر من الاحتلال الأنجليزى»

وقال عن سبيل مصر إلى الاستقلال

«لما كانت الامة المصرية متألمة ولها حق التحرر من النير الانجليزى نرى للوصول الى غرضها سبيلين ، سبيل الثورة والسبيل السلمى ، فأما سبيل الثورة فنحن لانريده لاننا قبل كل شىء قوم مشهورون بالدعة وحب السكينة : و نبغض المذابح الجرائم ، ومن جهة أخرى فان لاوروبا عندنا مصالح تضر بها الثورة ؛ وإذ كنا نحترم حقوق أوروبا ومصالحها فى مصر فمن المحتمل أن الامة اذا ثارت ضلت سبيل الرشاد فلا تميز بين الأنجليز وغيرهم من الاوروبيين اذ تقول وقتئذ «لقد تظاهرت أوروبا ضدنا بموافقتها على الاحتلال فمن الواجب اذاً العمل ضدها» — لذلك أعرضنا عن سبيل الثورة الذى نكرهه بفطرتنا ، وعلى ذلك قد اخترنا السبيل السلمى ورفعنا صوتنا الى مسامع أوروبا المتمدنة بمطالبنا الحقيقية ، وان الساعة قد آذنت لامحالة وتحتم على أوروبا أن تعمل لجلاء الأنجليز عن مصر»

ذهابه الى الاستانة

اكتوبر سنة ١٨٩٦

لم يكن معقولا أن يطوف المترجم عواصم أوروبا ليكسب الانصار والاعوان لقضية مصر ، ولايذهب الى الاستانة عاصمة تركيا ، لان تركيا كانت فى عهد الاحتلال الانجليزى الدولة الوحيدة التى كانت لاتفتأ تطالب انجلترا رسميا بالجلاء عن مصر ، وقد أنفذت الى مصر مندوبا ساميا عنها وهو (احمد مختار باشا الغازى) مهمته مطالبة الانجليز بالجلاء ، وكان مختار باشا يعلن بأنه احتجاج حى على الاحتلال ، فلا غرابة أن يستعين زعيم الجلاء بتركيا ، كما أراد أن يستعين بفرنسا وغيرها من الدول الاوروبية على احراج مركز الاحتلال

قصد اذن الاستانة لأول مرة عن طريق فيينا وبودابست ، فوصلها صبيحة الثلاثاء ٢٧ اكتوبر سنة ١٨٩٦ ، ونزل بفندق (بيراپالاس) وحضر بدعوة من باشكاتب المابين الهمايونى حفلة (السلاملك) وهى حفلة صلاة الجمعة فى الجامع الحميدى حيث يصلي السلطان ، وفى ذلك اليوم قابل السلطان ، فلاطفه فى الحديث وأعرب له عن إعجابه به وحسن تمنياته ، وفى خلال إقامته بالاستانة أهداه هدية ثمينة وهى علبة سجاير من الذهب مرصعة بالماس والاحجار الكريمة وموضوعة داخل صندوق صغير من الذهب والفضة ؛ وأبدى رغبته فى أن يمنحه رتبة أو نيشاناً ، ولكنه اعتذر عن قبولها حتى لايتهمه خصومه ، وكانوا فى مصر كثيرين ، بأنه يعمل حباً فى الظهور ونيل الرتب والأوسمة ، وقد لامه أصدقاؤه على هذا الاعتذار بعد عودته الى مصر ، وأقنعوه بالا يرفض رتبة تمنح له من السلطان ، لأنهم عالمون بأن الألقاب فى مصر والشرق تعظم من شأن الرجل فى نظر الناس وتعلى من قدره ويزداد بها الزعيم مكانة عند العامة والخاصة ، فاقتنع المترجم بهذه الحجة كما سيجيء بيانه

أقام فى الاستانة بضعة أيام من ٢٧ اكتوبر حتى ١١ نوفمبر اتصل فى خلالها بكثير من رجال الدولة ومكاتبي الصحف الاوروبية والامريكية الشهيرة ، إذ وفدوا عليه ليحادثوه فى شأن مصر والمسألة المصرية ، فأفاض لهم بما لديه من المعلومات الجمة ، وكان فى أحاديثه الترجمان الصادق للأمانى القومية

كتب مكاتب جريدة (فرنكفورتر كورييه) الألمانية بعنوان (حديث عن المسألة المصرية — مصطفى كامل فى الاستانة) ما تعريبه :

« الاستانة فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦

« تشتغل دوائر الاستانة السياسية الآن بمسألة تحرير مصر ، وهى المسألة الخطيرة التى لا يبعد أن تظهر قريباً فى مقدمة المسائل الدولية العظيمة الشأن ، وفضلا عما لهذه المسألة من الأهمية فى أوروبا فان الوطنيين الصادقين من المصريين قد أخذوا على أنفسهم المناداة بحقوقهم وإظهارها دائما على المسرح السياسى ، وذلك مما زاد قيمتها ؛ ولقد حضر الى الاستانة منذ أيام ذلك الخطيب المصرى الشهير الناطق بلسان المصريين والمترجم عن رغائبهم ، وهو (مصطفى كامل) ذلك الشاب الذى خلق ليكون خطيب قوم ؛ لما وهبه الله من القوة والغيرة العجيبين ؛ ولما هو عليه من الفصاحة المتدفقة وملكة التأثير فى النفوس ، وما فى نفسه الشريفة من المحبة الشديدة لوطنه ، لم يكد يجئ الاستانة ويزور فيها رجال السياسة حتى قوبل من كل الدوائر السياسية بغاية الحفاوة والاكرام ؛ وعلى الاخص فى المابين السلطانى ؛ فانه قوبل بأجمل ما يقابل به سياسى من الحفاوة والتكريم ؛ ومن الصعب أن يتكهن الانسان فى هذا الحين بالنتائج التى تنتج عاجلا عن عمل (مصطفى كامل) ، ولكن مقابلته لرجال السياسة ذوى الحكمة والشأن فى العواصم الثلاث (باريس وبرلين وفيينا) ومحادثاته لسائر الصحف الشهيرة وحضوره بعد ذلك لعاصمة الدولة العثمانية لمن الامور التى يدرك قيمتها كل انسان ، ولقد قابلت هذا الضيف الجليل وتحادثت معه طويلا فى أحوال مصر والشرق ، فوجدته على جانب عظيم من اللطف والدعة

وسعة الفكر والخبرة بكل مشكلات السياسة ، وهو يتكلم اللغة الفرنسية كأحد نجباء الفرنسيين النابغين تحت سماء باريس ، كل ذلك فضلا عن احاطته التامة بالعادات الاوروبية الجيدة وعدم اهماله العادات الشرقية الكريمة ، وهو يقابل زائريه ببشاشة تسلب القلوب وتستميل نحوه ونحو بلاده كل انسان ، وانى أقول بكل صراحة ودهشة ان لمحادثة هذا الرجل الشهير والخطيب المؤثر لذة مخصوصة تبقى حلاوتها زمنا طويلا ، ولايزول تذكارها ، أما حرارته فى حديثه فهى حرارة غريبة صادقة يمتاز بها سكان الجنوب من بلاد أوروبا ؛ وهى حرارة كلها وطنية صادقة واحساسات عالية»

ونشرت جريدة (النيويورك هرالد) الامريكية الشهيرة حديثا آخر له عن المسألة المصرية والمسألة الشرقية سأله فيه المكاتب — ماهى احساسات المصريين نحو الانجليز ؟ . فأجاب المترجم : «ان جميع المصريين كارهون للاحتلال الانجليزى وهم يعتقدون اليوم أن غاية السياسة البريطانية امتلاك كل وادى النيل ولذلك نزعوا الآن ما كان لديهم من الثقة فى وعود الانجليز ؛ وبالاختصار فقد تعلمنا أن نعتقد بأن لاشرف ولاذمة فى السياسة»

وسأله المكاتب :

— ماهى رغائب الوطنيين المصريين أو الحزب الوطنى فى مصر ؟ ، فقال :

« ان الحزب الوطنى فى مصر هو عبارة عن الامة بأسرها تجاه الاحتلال ، فرغائبه هى رغائبها ، وأهم هذه الرغائب تحقيق الجلاء عن مصر من غير احداث اضطراب أو أمر من شأنه تكدير الامن العام»

ثم سأله المكاتب —

— لماذا يرغب المصريون فى الجلاء والانجليز يشيعون أنكم فى أرغد عيش تحت سلطتهم ؟ فقال :

«اننا نعمل للجلاء أو تحرير وطننا أولا لاننا نشعر بواجباتنا وحقوقنا

ونعتقد أن من واجباتنا القيام بهذا العمل الشريف وان فينا من الحياة مايكفى لتمتعنا بكل حقوقنا ، أما مايشيعه الانجليز من أننا سعداء تحت سلطتهم فهذا كذب محض يدحضه البرهان اذ الحقيقة أن المحتلين فرقوا مصر أحزابا حسا ومعنى »

أحدث هذان الحديثان تأثيرا كبيرا فى المحيط السياسى . وذاع اسم الفقيد فى أوروبا كزعيم لحركة الاستقلال المصرى ، وجاءته كتب كثيرة من مختلف النواحى والشخصيات البارزة اعجابا بجهاده ، وتقديراً لفضله ، فمن ذلك مابعث به اليه الدكتور هفمان زنيفر رئيس حزب الشمال بالبرلمان الالمانى اذ قال فى كتابه اليه (١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٦) :

« سيدى

« انى قرأت أعمالك الاخيرة وتتبعت كل خطواتك السياسية دفاعا عن بلدك العزيز ، فوجدتها لم تصدر الا عن وطنى مخلص ذكى نشيط فأهنئك بهذه المكانة التى تدهش كل من وقف عليها وعرف أن سنك هى سنك (كانت سن الفقيد وقتئذ اثنين وعشرين عاما) ، وانى أوافقك على وجوب جلاء الانجليز عن مصر لا لأن الالمان يكرهونهم كما يشاع عنا بلا حق ، ولكن لتحقيق مسألة التوازن الدولى العام ولمصلحة قناة السويس بل لمصلحة انجلترا نفسها

« انا مستعدون لمساعدتكم متى كنتم عقلاء ، فاذا أبوا على الدفاع من سبيله الشرعية ، فكل من سار على الدرب وصل وتقبل ياسيدى خالص احترام

الصادق المخلص

هـ . زنيفر »

وكتب اليه كذلك المسيو كانى فورشالا النائب الايطالى المتطرف الشهير كتابا هذا تعريبه :

« ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٦

« أيها المصرى المحترم

« إنك بأعمالك تلفت من جديد نظر العالم الى تاريخ مصر القديم والجديد، وتعيد ذكرى الفراعنة الذين حملوا قبل بنى البشر تاج العلم ودخلوا جنة الصناعة، إنك لاتقل فى نظرى عن أوروبى ذى رأس كبير محنك، وربما فضلت عليه بنشاطك الفائق الذى لايقل عن نشاط البخار ، فمن باريس نسمعك وكذلك من برلين وفيينا والاستانة نسمعك تذكر بلادك، حتى خيل الينا أن العالم كله معك ؛ نعم ان العالم كله معك : لان مسألة مصر هى مسألة العالم كله ، وخصوصا مسألة ايطاليا التى اعتمد ملوككم الحديثون على أبنائها فى الرسم والبنـاء وتنظيم الجند والبوليس .

« فلاتحرم ايطاليا زيارتك ،فان الاحرار يحبون على الدوام رؤية الاحرار من أى جنس كانوا ، واعتقد أيهـا الوطنى الغيور أن أبنـاء ايطاليـا الذين درسوا الوطنية على جريبالدى وكافور وما زينى لفى أتم استعـداد لمعاونتكم على حـل مسألة مصر ، ان لم يكن اليوم فغدا ؛ وليس الغد ببعيد ، وتقبل عظيم اخلاصى

ك . فورشاللا »

وكتبت جريدة (الاند بندنس بلـج) البلجيكية الشهيرة فصـلا مطولا بعددها الصادر فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ عن المسألة المصرية لمناسبة زيارة المترجم للاستانة أيدت فيها مطالب المصريين فى الجلاء .

عودته الى مصر

نوفمبر سنة ١٨٩٦

مكث المترجم بالاستانة حتى ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٦ ثم برحها عائداً إلى مصر فوصل العاصمة يوم ١٥ نوفمبر (١) ، فاستقبله الجم الغفـير من أصدقائه والمعجبين بجهاده على المحطة مهنئين اياه بسلامة الوصول ، شاكرين له حسن بلائه فى الدفاع عن قضية الوطن

(١) المؤيد عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٨٩٦

مكيدة للمترجم

الشروع فى تجنيده

كانت أنباء جهاد المترجم فى أوروبا ترد تباعا الى مصر وتنشر الصحف خلاصتها ، فيغتبط بها المصريون ، أما الاحتلال وصنائعه فكانوا ينقمون منه رفع صوته فى أوروبا ضد السياسة البريطانية ، وقد دبروا له فى غيبته مكيدة حاولوا بها اسكات صوته ، ذلك أنهم أوعزوا الى مجلس قرعة القاهرة بطلبه للتجنيد فى غيابه ، وكان يبلغ وقتئذ الثانية والعشرين من عمره ، وطلب المجلس من مأمور قسم الخليفة الذى كان المترجم يقيم فى دائرة اختصاصه تبليغ اعلان الاقتراع لاحد أفراد بيته ، حتى اذا مضت ثلاثة أشهر على هذا الاعلان دون معارضة يكون اقتراع المترجم واجبا ، وقد سلم المأمور الاعلان الى شيخ الحارة الذى كان منزل المترجم فى دائرة عمله ، وذهب هذا الى منزله فعلم أنه غائب فى أوروبا (وكان يجهل أمر المكيدة) ، فآثر أن يستبقى الاعلان لديه حتى يسلمه الى صاحب الشأن عند عودته من أوروبا ، ولما عاد الى مصر تسلم اعلانا من القسم بأن يذهب الى مجلس القرعة بحجة أنه أصبح مفروضا عليه الاقتراع اذ لم يبد معارضة بعد الاعلان الاول ، فلما فطن للمكيدة دعا شيخ الحارة واسمه الشيخ محمد زايدن واستكتبه إقرارا بأنه لم يسلم الاعلان الاول الى أحد من ذويه ، ثم دعاه رئيس مجلس القرعة ، فصارحه بأن لاحق لهم فى اقتراعه لأنه من حملة الشهادات العليا فضلا عن استعداده لدفع البدل العسكرى ، فلم يقتنع رئيس المجلس وكتب الى وزارة الحربية ، وهذه كتبت الى المحافظة لتجنيده بحجة أنه لم يبد معارضة فى اقتراعه فى الميعاد ، فأبرز شهادة شيخ الحارة التى كانت القول الفصل فى عدم اتباع الاجراءات التى يقضى بها قانون القرعة .

كان لهذه الحادثة ضجة كبيرة فى مصر ، وترامت أنباؤها الى الدوائر

الاوروبية ، فأرسل مكاتب شركة هافاس تلغرافا مفصلا عنها الى مركز الشركة في باريس هذا تعريبه :

« ان المحتلين يريدون تجنيد « مصطفى كامل » السياسى الشهير مع أن قوانين البلاد تستثنى من القرعة حاملى شهادة الحقوق والقادرين على دفع البدل العسكرى ، وهو متمتع بالصفتين ، وان ماينتحلونه من أعذار كاعلانه فى غيابه واتمام الاجرءآت القانونية ليس بصحيح ، وانى اؤكد للرأى العام الاوروبى أن هذه المسألة لو تمت على رغبة الانجليز لاثارت فى مصر حركة تكون نتيجتها وبالاً على مصالح دول أوروبا ، لأن هذا الرجل من اكبر زعماء الحزب الوطنى الذين وقفوا أنفسهم لتحرير مصر ، واخوانه فى هذا العهد أقوياء ، وغدا سيقابل محافظ العاصمة الذى شدد فى طلبه ليترافع أمامه فى قضيته بل فى قضية مصر الوطنية بأسرها »

وظهرت جريدة (الجورنال اجبسيان) فى صباح اليوم التالى مصدرة بمقالة فى هذا الموضوع حذرت فيها الحكومة والاحتـــلال مغبّة هذا العمل ، وقد تراجعت الحكومة أمام هذه الفضيحة ، وقابل الفقيد المحافظ وألزمه الحجة وأثبت له بشهادة (شيخ الحارة) عـدم صحة اعلانه فى غيابه ، فانتهت الحادثة بالعدول عن اقتراع الفقيد ، وكان للشيخ محمد زايد شيخ الحارة الفضل الكبير فى احباط مكيدة الحكومة .

الفصل السادس

جهاد سنة ١٨٩٧

مرضه ثم ابلاله

أنهك المترجم نفسه فى الجهاد خلال سنة ١٨٩٦ ، فاستقبل عام ١٨٩٧ وهو على فراش المرض، من كثرة أعماله ورحلاته ، وقد أبلّ من مرضه فى منتصف يناير من تلك السنة ؛ فوصف له الاطباء مدينةحلوان التماساًللراحةو تبديلا للهواء، فقضى بهامدة أسبوعين استجم فيها صحته ، وما ان عادت اليه قواه حتى عاد الى ميدان الجهاد والنضال

نداؤه الى ألمانيا

فقد وجه نداءً مؤثراً الى الامة الالمانية بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٨٩٧ نشرته جريدة (برلينر تاجبلاط) من كبريات صحف ألمانيا ولسان حال وزارة الخارجية الالمانية ، شرح فيه القضيةالمصرية وطلب الى ألمانيا أن تخرج من حيدتها وتناصر مصر فى نضالها ، وعلقت عليه الجريدة بقولها :

« ان هذه الدعوة الصادرة عن مصرى وطنى غيور ستزيد بلا شك فى ميل ألمانيا الى الامة المصرية وعطفها عليها ، نعم ان هناك فرقا بين ميل أمة الى أخرى وبين مساعدتها لها مساعدة فعلية، ولكن اذا لوحظ أن رجال السياسة البريطانية لا يخشون المجاهرة الآن برغبتهم فى اهتضام حقوق البوير (سكان الترنسفال) الذين هم أقرب الناس الينا ، فيفهم جيدا كيف أن مديرى السياسة الالمانية يرون ضرورة طرح المسألة المصرية فى ميدان الحل ليفهموا الانجليز أن فى استطاعة ألمانيا القصاص ممن يتجاسر على إهانة كرامتها والمساس بشعورها واعتبار مصالحها السياسية وغير السياسية عديمة الأهمية قليلة الاحترام ، ولذلك نعتقد

أن دعوة مصطفى كامل للأمة الألمانية جاءت فى حينها وصدرت فى أحسن وقت سياسى مناسب لها »

رحلته فى أوروبا

مارس سنة ١٨٩٧

واعتزم السفر الى أوروبا فى مارس سنة ١٨٩٧ ليطوف عواصمها ويرفع فيها صوت مصر، متابعا جهاده في سبيلها ، فبرح العاصمة يوم الجمعة ١٢ مارس وأبحر من الاسكندرية فى اليوم التالى [١] ، وودعه الكثيرون من أصدقائه وأنصاره ، وكان من بين المودعين أمريكى اسمه المستر (جولد نبك) جاء خصيصا ليتعرف به لما سمعه عنه من جهاده فى سبيل حرية بلاده ، وكان واسطة التعارف بينهما أحد كبار الموظفين الوطنيين بالاسكندرية ، فانتهز الامريكى فرصة تعرفه به وألقى عليه الاسئلة الآتية :

أولا — هل لك ان تتكرم علىّ باجمال السبب الذى دفعك الى المناداة بحرية مصر

ثانيا — اذا لم تستطع فرنسا خاصة وأوروبا عامة أن تجبر بريطانيا على الجلاء فماذا تكون خطتك وخطة مواطنيك العاملين

ثالثا — هل لك من حاجة فى أمريكا لأقوم بها خدمة لهذا البلد الكبير المظلوم

فأجابه المترجم باسهاب على أسئلته الثلاثة مما نوجزه فيما يلى : [٢]

---

(١) ذكرت (الاهرام) مايلى بعددها الصادر فى ١٣ مارس سنة ١٨٩٧ « سافر اليوم على الباخرة النمسوية حضرة الوطنى مصطفى افندى كامل وهو مسافر توًا الى فيينا وسيذهب منها الى بودابست وبرلين وباريس جريا على خطته فى خدمة القطر فنرجو له كل نجاح وتوفيق فى هذه الخدمة الجليلة »

(٢) نقلا عن كتاب (سيرة مصطفى كامل) لعلى بك فهمى كامل ص ٣١٧

قال فى رده على السؤال الاول :

« لما كنت مصريا صميما رأيت من واجبي أن أقف قلمى ولسانى على الدفاع عن أم حنون لا حياة لنا إلا بوجودها عالية الشأن سامية المقام ؛ وإنى سأبقى ابنها البار الوفى حتى آخر نفس أردده فى هذا العالم »

وقال ردا على السؤال الثانى :

« إننا نبنى نجاحنا فى عملنا على أمرين : الأول خارجي وهو انتهاز الحوادث الدولية ؛ والثانى داخلي وهو نشر العلوم والمعارف بين إخواننا المصريين والتشهير بأخطاء الاحتلال الانجليزى لنرقى بالعقول ونبغض الغاصبين الى القلوب ؛ وبذلك تقترب الأمة شيئا فشيئا من الوطن حتى تلتف حوله وتصير وإياه جسما واحدا لاقدرة لأية طائفة من الناس أو أية حكومة مهما كانت قوتها أن تعبث بكيانه أو تفصل أجزاءه »

وقال جوابا على السؤال الثالث :

« أشكر لك كثيرا الخدمة التى عرضتها علىّ بأمريكا ، وأملى أن تحلوّا تلك العقدة العتيقة التى حرمت العالم صوتكم فى المسائل الأوروبية (١) حتى نسمعكم صوتنا فى دياركم بنفس النغمة التى أسمعتم العالم صوتكم يوم كنتم مثلنا ترزحون تحت النير الانجليزى ، وكذلك أؤمل ألا تشهد السماء مرة أخرى دماء البشر تجرى فى سبيل الخلاص من ظلم بريطانيا ، وأن يكون الانجليز أبقى على كرامتهم من أن تلوثها بعد تلك الايمان والعهود الكبيرة أيدى بعض ساستهم الذين يريدون أن يسطر لهم التاريخ ما ليسوا أهلا لعشر معشاره »

فأعجب الامريكانى بهذه الاجوبة السديدة وقال للفقيد : « بارك الله فى شعب أنت منه ، ولترق أمة هذه مبادئها وهذا صراطها فاعمل ودعْ غيرك يعمل ، فان ما أخذ لا يرد التماسا ؛ ولكن بالصوت العالى والنخوة التى تقلق الظالم فى غدوه

(١) يقصد مبدأ منرو الذى يقضى بعدم التدخل فى المسائل الاوروبية

ورواحه ، واعتقد أن الانجليز أسهل الأمم فى رد الحقوق متى وجدوا من ذويها الاباء والكرامة والشمم »

قصد المترجم الى تريستا ومنها الى فيينا ، ومكث بها سبعة أيام اتصل فى خلالها بكبار السياسيين والصحفيين ، ومن هناك أرسل الى مدام جولييت آدم كتابا قال فيه :

« فيينا فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧

« سيدتى المديرة المبجلة

« أستميحك الاذن أن اكتب اليك بعد سكوت طويل ، وصلت الى هنا من مصر وفى عزمى أن اكون بباريس بعد جولة فى بودابست وبرلين — فى منتصف شهر ابريل — وليس لدى وقت يسمح لى أن أحادثك فى حالة وطنى العزيز التعسة الى آخر درجات التعس ، والتى ما كنا نظن أنه واصل اليها ، إن الانجليز يعملون فى وادى النيل كل ما يريدون ، ويرتكبون أفظع الجرائم على الانسانية والعدل ، ويسخرون اكبر سخرية من أوروبا ، وعلى الخصوص والأسفاه من فرنسا ، لأن خطة فرنسا فى هذه الايام قد دفعت بلا جدال الانجليز الى ظلمنا ظلماً أشد مما كان ، والذى زاد الطين بلة أن هذه الخطة التى كلها اخفاق وخيبة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حبا لبلدكم الجميل الكريم »

حديثه مع الدكتور رزنر

قابل الفقيد أثناء مقامه بفيينا الدكتور (رزنر) النائب النمسوى والطبيب الشهير ، وحادثه حديثاً نشرته جرائد فيينا وتناقلته شركات البرق الى أنحاء العالم وكان الحديث بمثابة أسئلة ألقاها الفقيد على النائب النمسوى ، وأجاب عليها النائب فى حديثه ، وقد دلت الاسئلة وطريقة القائها على كياسة الفقيد فى الدعاية للقضية المصرية وعمق أفكاره وإحاطته بالسياسة العالمية

سأله المترجم : ماذا تكون خطتكم اذا عرضت مسألة مصر على بساط البحث فأجابه النائب النمسوى بما خلاصته ان الكثيرين من زملائه أعضاء البرلمان يميلون الى طرح المسألة المصرية على بساط البحث رغم العلائق الودية التى بين الحكومة النمسوية وحكومة الملكة فيكتوريا ، ومتى طرحت نكون فى جانب العدل الذى يقضى بحرية مصر ووضعها تحت ضمان الدول أجمع ، لأن أهمية مصر بالنسبة لأوروبا ماثلة فى قناة السويس التى تربط مصالح أوروبا الصناعية بآسيا المحتاجة لصناعتها ، وليس لأوروبا عامة والنمسا خاصة طريق للشرق إلا قناة السويس ، وعدا ذلك فانه لا يصح أن تتملك القناة دولة بحرية لأنها تخيف العالم أجمع وتصبح سيدة عليه تفعل ماتشاء وخصوصاً الدولة الانجليزية فانه فضلا عن كونها أقوى دولة بحرية فانها كذلك من أكبر دول العالم التجارية

وانساق الحديث الى اشتداد التزاحم بين المانيا وانجلترا فسأله الفقيد :

« هل يكون لمصر حظ يذكر عند قيام النزاع بين ألمانيا وانجلترا فى يوم من الأيام ؟ »

فأجابه النائب النمسوى :

« إنى لا أعرف درجة الامة المصرية من الاستعداد حتى أحكم لها أو عليها ، ولكنى أؤكد لك أنها إذا استمرت على ما نسمعه عنها من السير فى طريق الاستنارة بضوء العلم واتحادها كتلة واحدة كان لها على كل حال الفوز المأمول سواء حدثت بين الدول حوادث أو لم تحدث »

وليمة المترجم فى فيينا

٢٤ مارس سنة ١٨٩٧

أراد مصطفى أن يسمع صوته أكثر عدد ممكن من رجال السياسة فى النمسا فأقام وليمة كبرى فى فندق (متروبول) مساء الاربعاء ٢٤ مارس سنة ١٨٩٧ ، دعا اليها نيفا وثمانين مدعوا من النواب والصحفيين ، ومنهم الدكتور رزنر

المتقدم ذكره ، وبعد أن تناولوا العشاء وقف الداعى وألقى فيهم الخطبة الآتية :

« إن مصر أيها السادة تشكر لكم من صميم أفئدة أبنائها إجابتكم دعوة مصرى منهم جاء بلادكم العزيزة اكثر من مرة واتصل برجالكم المعدودين الذين أنتم من صفوتهم سائلا بكل إلحاح وحق نصرة مسألتنا التى تنحصر فى كلمتين « احتلال مؤقت لايمكث إلا ستة أشهر وله اليوم خمسة عشر عاما أى ثلاثون ستة أشهر » ، إذا كان أيها السادة حبل الكذب طويلا فلابد أن يكون لهذا الطول حد ، وإذا كان الكذب شعار المتمدنين فماذا يكوشعانر المتوحشين المتعصبين كما يتهمنا الانجليز ، ان لى الحق أيها السادة اذا قلت ان العصر الحاضر عصر ظلم وافتيات على الحقوق لاعصر عدل وانصاف وردّ الحقوق الى أهلها ، ان المصريين مشهورون من قديم الزمان بالدعة والاعتدال ، ولهم مآثر على العالم أجمع ان أنكرها الانجليز فلا ينكرها التاريخ الذى هو أعدل شاهد يحكم بيننا وبين أمة ظلمت رايتها التى أقسمت بشرفها ، والتاج الذى يجب احترامه ، فقدمتها ضمانا على صدقها عند مادخلت بلادنا ، ووعدت بالجلاء عنها عندما يتوطد عرش الخديوية ويستتب الأمن ، فها هو ذا الأمن مستتب والأمة بأسرها ملتفة حول أميرها ، انى لاأطيل شرح عيوب الاحتلال فقدشرحت ذلك مرارا ، ولكنى أسأل ضمائركم الحرة أن تكونوا أصوات عدل فى المسألة المصرية ، فاننا نعترف على الدوام بالجميل لمن يؤيدنا كما تجدون منا الى أبد الآبدين أصدقاء أوفياء يذكرونكم بكل خير ويمجدون فيكم تلك الروح الشريفة التى أودعتموها نفس أمير مصر،[1] ألا وهى روح الحرية واحترام ارادة الشعب ، وفى الختام أكرر لكم بلسان الوطن والأمة عظيم الشكر على الود الذى أظهرتموه نحونا لتكون مصر للمصريين »

---

(١) يشير بذلك الى أن الخديو عباس تلقى علومه فى النمسا

وقد رد عليه المسيو رزنر بخطبة كلها عطف وتأييد للقضية المصرية ختمها بالتأمين على كلمات المترجم وأمل لمصر مستقبلا عظيما

رحلته الى بودابست

مارس وابريل سنة ١٨٩٧

سـافر المترجم من فيينا الى بودابست عاصمة المجر يوم الجمعة ٢٦ مارس وودعه على المحطة جميع أصدقائه ومعارفه النمسويين ممن ضمهم الى صف المسألة المصرية ، وما ان وصل الى بودابست حتى وجد فى انتظاره أفراد عائلة كبيرة من العائلات المجرية النبيلة ، وهى عائلة الكونت (كرونزوت) ، وكانت مدام جولييت آدم واسطة التعارف بينهما ، فلما نزل بالفندق استضافته هذه العائلة فى دارها بضواحى بودابست ، وعرفته بعدد كبير من خاصة عائلات المجر وأشرافها ونبلائها ، فاتصل بكثير من السياسيين والصحفيين فى هـذه العاصمة الكبيرة ، وأوجد بها جوا من التأييد والحب لمصر ، وقد أعجب بوطنية الأمة المجرية التى يضرب بها الامثال فى قوة العقيدة والثبات فى الجهاد ، ورحبت الصحف بمقدمه وحبته بكل مظاهر الحفاوة والتكريم ، ومجدت فى شخصيته الوطنية المصرية

فى برلين

ابريل سنة ١٨٩٧

ثم سافر الى برلين فى ٥ ابريل سنة ١٨٩٧ ، وقابل بها لفيفا من الصحفيين والسياسيين ممن تعرف بهم من قبل أو عرفهم فى هذه المرة ودار بينه وبين جريدة (برلينر تاجبلاط) الشهيرة فى ٧ ابريل حديث عن شؤون مصر اذ سأله المكاتب عن الحالة السياسية الحقيقية فى مصر

فأجابه المترجم : « انها حالة فوضى عامة فى ادارة البلاد وقلق شـديد فى نفوس الشعب المصرى ، فقد أصبح بين المصريين وحكومتهم — كما يوجـد

بينهم وبين الأنجليز — هاوية عميقة جدا ، فان حكومة بلادنا — ورجالها من صنائع الأنجليز — تعمل فى مصر كل ماينافى رغبة الأمة ، فأكثر من مرة طلب مجلس شورى القوانين وهو الهيئة النيابية فى مصر اجراء اصلاحات فى الادارةوالتعليم ، والحكومة بدلا من أن تذعن لرغبة الشعب كجميع الحكومات المتمدنة كانت تقابل المجلس باللوم وبكل خشونة وتجرى ضد رغائبه ومطالبه ، والعامل المؤثر فى ذلك معاضدة الانجليز ، فاصبحت الأمة المصرية اليوم لاتحترم حكومتها

وأفاض فى دسائس السياسة الأنجليزية منذ الثورة العرابية الى مابعد الاحتلال ، وكانت الحرب التركية اليونانية قائمة فى ذلك الحين وجرى اكتتاب للجيش العثمانى فى مصر ؛ فسأله المكاتب فى ذلك فقال :

« انه وان كان المصرى لايعرف الا وطنا واحدا وهو مصر فمن الامور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة فى يد الانجليز »

وشرح هذه الفكرة باسهاب فى مقالة نشرتها له جريدة (برلينر بوست نخرختن) الالمانية قال فيها « ان أهم معنى سياسى لاكتتاب المصريين لاعانة الجيش العثمانى هو القيام بمظاهرة من الأمة بأسرها ضد الاحتلال الانجليزى ، فان المصريين يعلمون علم اليقين أن كل دسائس انجلترا فى الشرق ترمى الى امتلاك وادى النيل ، وأن الانجليز لما لم يستطيعوا استمالة السلطان اليهم ضد مصر والخديو أخذوا يعملون لتقسيم الدولة العثمانية آملين أخذ مصر وبلاد العرب واعلان سيطرتهم على الاسلام كله ، وسواس أوروبا لايجهلون مطلقا أنه يصبح من العسير علينا حل المسألة المصرية إذا اتفقت تركيا مع الأنجليز على احتلالهم وادى النيل »

فى باريس

ثم ذهب الى باريس فى ابريل سنة ١٨٩٧ ؛ فألقى فى صحافتها حركة معادية لمصر لمناسبة الحرب بين تركيا واليونان ، وذلك على أثر مقالة نشرتها جريدة الاجبشيان جازيت ونقلتها عنها جريدة (الليبرتيه) كلها طعن فى الفقيد وفى الحزب الوطنى ، وقد عزت اليه والى سائر أعضاء حزبه السعى فى اثارة الخواطر فى مصر ضد الأوروبيين والتحريض على إحداث ثورة .

فبادر الى احباط هـــذه الحركة بكتاب نشره فى جريدة الليبرتيه ذاتها ، كذب فيه مزاعم الاجبشيان جازيت ، ونفى عن المصريين تهمة التحريض على احداث قلاقل واضطرابات ضد الاوروبين،وقد علقت جريدة الليبرتيه على هذا الكتاب بقولها :

« نشرنا هذا الكتاب ليقف قراؤنا على الحقيقة التى شوهها الانجليز والتى تنطق بها كمات هذا الوطنى المصرى الكبير الذى نرحب به ونفسح صحائف جريدتنا له ولكل غيور على الحق الذى نحن من أنصاره »

عودته الى مصر

ثم عاد الى مصر يوم ١٢ مايو سنة ١٨٩٧ ووافقت عودته يوم عيد الاضحى وانتصار الجنود العثمانية فى الحرب اليونانية

اقتراحه على تركيا

اشتراط الجلاء عن مصر مقابل الجلاء عن اليونان

وقد أرسل الى باشكاتب المابين السلطانى تلغرافا بالتهنئة بعيد الاضحى وبانتصار الجيش العثمانى ، وأعرب فيه عن رجائه أن يشترط السلطان على دول أوروبا لعقد الصلح جلاء الانجليز عن مصر ، مقابل جلاء الجيش العثمانى عن بلاد

اليونان ، وقد كان هذا الاقتراح آية فى الوطنية ، إذ دل على أن قضية استقلال مصر كانت تشغل فؤاده طول حياته ، وقد هاج اليونانيون القاطنون بمصر لهذا التلغراف ، وكتبت جريدة (الفـارد الـكسندرى) اليونانية تعليقا عليه اتهمت فيه الفقيد بكراهيته الشديدة لليونان ، واستندت الى أنه يطلب من السلطان بقاء الجنود التركية فى تساليا مادام الانجليز فى مصر ، فأرسل الى جريدة (الفارد الـكسندرى) ردا على مقالها كتابا بتاريخ ١٦ مايو سنة ١٨٩٧ نشرته جريدة (الريفورم) دافع فيه عن موقفه ، وتساءل لماذا تتدخل أوروبا فى المشكلة التركية اليونانية ولا تتدخل فى المسألة المصرية ؟ وقال ان الدول الأوروبية التى تريد أن تجبر تركيا على احترام رغبتها وسحب جنودها من بلاد اليونان يجب عليها أيضا أن تجبر انجلترا على الجلاء عن مصر ، وعقب على ذلك بقوله مخاطبا مدير جريدة الفارد الـكسندرى (وهو من كبار اليونانيين) قائلا :

« هـذا هو رأيى وهذا هو فكرى ، ولعله لايرضيك ولعلك ياحضرة المدير لاتوافق على آرائنا وأفكارنا ، ولـكن يجب عليك أن تحترمها كما أننا نحترم احساساتك وآراءك ، فأنت ترى الاشياء من وجهة المصلحة اليونانية ، وأنا أراها من ناحية المصلحة المصرية ، ومن العدل أن يكون كل منا لوطنه ، لالغير وطنه »

خطبته بالاسكندرية

٨ يونيه سنة ١٨٩٧

وقد رأى من الصحف الاوروبية المحلية حملة شعواء على الأمة المصرية لما أبدته من العطف على تركيا فى الحرب اليونانية ، فاعتزم القاء خطبة فى الاسكندرية دفاعا عن موقف الأمة من هذه المسألة وتوضيحا لعلاقة مصر بتركيا ألقى هذه الخطبة يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧ [1] بمسرح زيزينيا فى اجتماع حافل

(١) المؤيد عدد ٩ يونيه سنة ١٨٩٧

حضره ألفان من صفوة القوم من الاسكندرية والاقاليم ، وبعض النزلاء الاجانب وقوبل أثناء خطبته وبعد انتهائها بالتصفيق والهتاف ، وكان موضوع الخطبة حث المصريين على التواصى بالوطنية والاخلاص لمصر ، ومحاربة اليأس ، واستثارة روح الكرامة والاباء فى نفوسهم ، ودعا الى البذل والتضحية فى سبيل مصر ، وحض على دوام الاتحاد بين المسلمين والاقباط ، وحبب الى الشباب الاقبال على الحياة الحرة ، والاعراض عن الوظائف ، وأهاب بسراة البلاد وأعيانها أن يبذلوا من أموالهم وجهودهم لنشر التعليم القومى فى أرجاء مصر ، ونفى تهمة التعصب الدينى الذى نسبه خصوم مصر الى المصريين بسبب اكتتابهم للجيش العثمانى فى الحرب اليونانية التركية ، وسوغ موقف مصر نحو تركيا قائلا :

« إن مظاهرة الامة المصرية نحو الدولة العلية هى مظاهرة قوية ضد الاحتلال الانجليزى ، واشتراك أفراد الامة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراع عام ضد الانجليز فى مصر »

الى أن قال :

« نحن نسأل الذين ينتقدون اكتتابنا للدولة العلية لماذا غير الانجليز سياستهم نحو تركيا من سنة ١٨٩٣ ، لماذا قاموا من ذلك الحين ضدها بعد أن كانوا يعلنون للملأ كله أنهم أصدقاؤها وأحباء السلطان ؟ أليس ذلك لأن السلطان لم يرض العمل معهم ضد مصر وضد أميرها ؟ أليس لأنه قدر آمال المصريين ورغائبهم حق قدرها ؟ هبوا أن لا علاقة بين مصر والدولة العلية غير العلائق العادية بين الامم ، أليس من واجباتنا الوطنية أن نعترف بالجميل لدولة رفضت القضاء على حياتنا ومساعدة أعدائنا ضدنا ؟ » ثم ضرب مثلا بصداقة الأمة المجرية للاتراك وحبها إياهم لمجرد إيواء تركيا أحرار المجر فى بلادها

وبعد أن انتهى الخطيب من خطبته اقترح على الحاضرين اصدار قرار بالاحتجاج على الاحتلال الانجليزى أشد الاحتجاج وبالاعراب للنزلاء الاجانب

عن عواطفهم الودية نحوهم وأنهم لا يرغبون إلا أن يعيشوا معهم فى سلام ، ويسألون سلطان تركيا أن يطلب من الدول الاوروبيـة الاتفاق على حل المسألة المصرية وتحقيق حريةمصر واستقلالها، فوافق الحاضرون بالاجماع على هذاالقرار

وقد كانت هـذه الخطبة فوزا كبيرا للفقيد ، وأسهبت الصحف الوطنيـة والاوروبية فى وصف الاجتماع ، وطيرت الشركات البرقية نبأ الخطبة الى الخارج ، قالت جريدة (الفارد الـكسندرى) فى هذا الصدد ما يأتى : « قد اندفع الناس أفرادا وجماعات لسماع الخطبة التى ألقاها حضرة الفاضل مصطفى افندى كامل فى مسرح زيزنيا عن المسـألة المصرية ، فـكنت ترى هذا الملهى الجميـل الـكائن بشارع باب شرقى يموج بالأهالى من لابسى الطرابيش وحمـلة العمائم ، مزدحمين فى المقاعـد والألواج ، أو وقوفا على الأقدام ، جائلين بين المنافذ والأبواب ، حتى كان الزحام شديدا ، فلم يخل منه مدخل التياترو ، وعند الساعة التاسعة مساء حضر مصطفى افنـدى كامل ووقف على المسرح ، فقوبل بتصفيق شـديد ، وقدمت له عـدة باقات من الأزهار ، وشاهـدنا على الأخص باقة من الزهور بديعة الشكل تدل على حسن ذوق صانعها ، قدمت له باسم أهل الاسكـندرية ، ثم افتتح الخطيب موضوعه وظل يخطب ساعـة ونصفا بين تصفيق شديد كان يدوى فى نهاية كل جملة ، وكان التصفيق يمتد فى بعض الأحيـان حتى يضطر الخطيب الى الانقطاع عن الـكلام ، أما صوته فحسن جهورى ، ذو رنة قوية ، ولذلك كان يسمع من كل أرجاء الملهى ، حتى أن كل من فى هذا الجمـع العظيم على كثرته استطاع أن يعى كل أقوال الخطيب التى كان يلقيها بعبارات فصيحة خالية من شوائب التعقيد »، ثم أتت الجريدة على خلاصة الخطبة

وكتبت جريدة (الوطن) [1] تحت عنوان (الخطباء فى مصر) مقالةطويلة جاء فيها « قد انشرح كل من سمع خطاب حضرة الوطنى الماهر مصطفى افندى،

---

(١) لصاحبها المرحوم ميخائيل عبد السيد . عدد ١١ يونية سنة ١٨٩٧

كامل لأنه ظهر فى المصريين من هو مقتدر على الاعراب عن نوايا الامة المصرية بالاعتدال والرزانة والحض على مكارم الاخلاق والحث على المحبة والمسالمة »

ونقلت قول الفقيد « إن المسلمين والاقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والاخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد ».

وقال المؤيد تعليقا على تقريظ الوطن « قد نشرنا أيضا ما كتبته جريدة الوطن الغراء فى هذا الصدد ؛ وهو ليس من قبيل تقريظ الخطيب بل هو إعراب حق عن حكم عقلاء الاقباط على تلك الخطبة الوطنية »

وكتب الفقيد الى مدام جولييت آدم يصف النجاح الذى لقيه فى هذا الاجتماع ويدافع عن خطته وخطة الحركة الوطنية حيال تركيا قال :

« الاسكندرية فى ١٢ يونيه سنة ١٨٩٧

« سيدتى المديرة المبجلة

« لابد أن تكون تلغرافات هافاس قد أنبأتك بهذه المظاهرة الوطنية الكبرى التى كانت يوم الثلاثاء الماضى والتى ما كنت أنتظر وقوعها من مواطنىّ لعظيم جلالها ، ذلك أنه لم تكد الصحف تعلن عن الخطبة التى ألقيتها حتى جاءت الوفود من أنحاء الاقاليم للاشتراك فى هذه المظاهرة التى حضرها أكثر من ألفى مصرى ، وقد وافقوا بكل سرور ، وهم محقون فى هذه الموافقة ، على ما عرضته عليهم أخيراً من عدم الرضا بالاحتلال وطلب الجلاء ، وان الاوروبيين حتى اليونانيين منهم لمرتاحون الى تلك المظاهرة وهذا القرار ، انك تعلمين خطتى نحو تركيا ، وما أراه واجبا نحوها ، فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى ، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلائق مع تركيا ، مادام الانجليز محتلين وطننا العزيز

« وانى لا أرتاب فى أن حياة الامة المصرية النضرة التى تجلت للعيان ستملؤك

سروراً : ولذلك كتبت اليك هذه الكلمة ، وأنا أؤمل أن تتفضلى بافراد مقالة فى المجلة أو فى غيرها للوطنية المصرية »

سفره الى أوروبا

يونيه سنة ١٨٩٧

ثم سافر من الاسكندرية يوم ٢٦ يونيه الى أوروبا ليواصل جهاده بها ، فوصل الى الاستانة يوم ٢٩ يونيه ، ونزل بفندق (سمربالاس) بترابيا على البوسفور ، وقصد اليه كثيرون من رجال السياسة الاوروبيين ، وفى مقدمتهم مراسلو الصحف الاوروبية والانجليزية ، وأخذوا يستوضحون آراءه فى المسألة المصرية

وبعد أن قضى أسبوعا فى الاستانة سافر الى بودابست فوصلها فى ٧ يوليه ، ورحبت به صحفها أحسن ترحيب

ذكرى ضرب الاسكندرية

وقد صادف وجوده بها ذكرى ضرب الاسكندرية بمدافع الاسطول الانجليزى (١١ يوليه سنة ١٨٨٢) ، فأرسل تلغراف احتجاج على الاحتلال الى اللورد سلسبرى رئيس الوزارة البريطانية فى ذلك الحين ، قال فيه :

« بودابست فى ١١ يوليه سنة ١٨٩٧

« جناب رئيس الوزارة الانجليزية

« إنى فى هذا اليوم يوم ١١ يوليه الذى هو التذكار الخامس عشر لضرب الاسكندرية أرى من الواجب علىّ تذكير جنابكم بالوعود التى قدمت باسم التاج الانجليزى والشرف البريطانى للجلاء عن وطننا ، وإذ كانت مصر محتلة ظلما وعدوانا ضد رغبتها وضد مصالحها الحيوية فهى تعتبر يوم ١١ يوليه هذا تذكار حداد لها وتذكار عار لانجلترا ، وما دام الاحتلال الانجليزى باقيا فهذا العار يحمله كل فرد من الانجليز أمام المدنية والتاريخ والعالم أجمع

مصطفى كامل » (١)

---

(١) المؤيد عدد ١٩ يوليه سنة ١٨٩٧

وقد أبلغ نص هـذا التلغراف الى الصحف المجرية ، مع شرح وايضاح للمسألة المصرية ، وكتبت الفصول الضافية دفاعا عن مصر وتعريفا بشأنها فى العالم.

كتبت جريدة (بسترلويد) فى هذا الصدد :

« إنا نحن المجريين الذين توارثنا فى دمائنا أبناء عن آباء حب الوطن وتمجيد الوطنية لنعطف بكل جوارحنا على مطالب المصريين ، ونهنئهم بوجود رجال بينهم مثل (مصطفى كامل) الذى نسميه بحق (كوشوت مصر) ، ونسأل دول أوروبا كافة أن تؤازر المصريين مؤازرة فعلية باجبار الانجليز على الجلاء عن مصر وتركها لأهلها ، لأنه من العار أن تظهر أوروبا المتمدنة مظهر الكاذب فى سياستها أمام الشرق ، إن مركز مصر ليس كمركز أى بلد شرقى آخر ، فهى مصدر فوائد كثيرة للعالم ، ولها مزايا فوق كل مزايا أخرى »

وقالت جريدة (ماجيانوك لابجا) :

« إننا نرحب بعمل مصطفى كامل صديق المجر ترحيب الوطنى بالوطنى ، ونقول للانجليز انكم تحسنون كثيراً الى أنفسكم بالجلاء عن مصر قبل أن توغروا صدور الدول عليكم اذا استرسلتم فى البقاء فيها ، وان بلداً مركزه كمصر لا يصح أن يكون فى يد دولة واحدة ، وأملنا كبير فى أن مصلحة الدول المشتركة فى مصر تحمل الحكومة الانجليزية على الوفاء بوعودها ، وانا نعتقد أنه مهما طال الزمن على هذا الاحتلال المضر بالعالم أجمع فلا بد من جلائه يوماً من الايام ، ولذلك لا يصح أن ييأس المصريون من تحرير بلادهم ، مادام فيهم مثل (مصطفى كامل) الوطنى المشتعل وطنية وحباً لبلاد الفراعنة العظيمة »

وكذلك كتبت الصحف النمسوية تؤيد مطالب المصريين

صدى جهاده فى امريكا

وتردد صدى جهاد الفقيد فى الصحف الامريكية ، فنشرت جريدة (نيويورك هرالد) رسالة للمسيو سيمون المعروف بمبادئه الديمقراطية قال فيها :

« ان العالم المتمدن يسمع فى هذه السنين الاخيرة صوتا رنانًا وطنياً من الشرق ، وهو صوت سليل الفراعنة (مصطفى كامل) ، هذا الصوت الذى أسمعه بكل انشراح ، وأقرؤه بكل امعان ، ومما يدهش أن الصحافة الاوروبية عامة والانجليزية خاصة لاتعير هذا النداء الحق ما يستحقه من التشجيع ، بل بالعكس نرى اكثرها يتهمه شخصياً بمآرب غير وطنية، وقد أردت بما اكتبه فى جريدتكم المحترمة أن اكون أحد المشجعين لهذا الوطنى المحبوب ، وأقدم للعالم مناقشة بسيطة فى المسألة المصرية ؛ يقول مصطفى كامل انه مصرى ؛ ونحن لا ننكر عليه ذلك ، ويقول انه يدافع عن بلاده طالبا وفاء الانجليز بوعودهم سائلا أوروبا أن تساعده على تحقيق أمانى مواطنيه ، ونحن بازاء هـذا القول يجب علينا أن نقول (إنك صادق فى دعواك ولا نسألك الاّ انتظـارا) ، لأن انجلترا بمهارتها تخلق كل يوم ما يبعد عنها المناقشة فى المسألة المصرية التى ليست فى الحقيقة إلا مسألة الهنـد أولا ومسألة الشرق ثانيا ؛ فهذا الطريق أو بعبارة أخرى قناة السويس لم تحفر لتكون وقفا على الانجليز ، بل لتـكون طريق رحمة تجارية للعالم كله

« خلقت انجلترا مسألة الترنسفال لتشغل المانيا ، وخلقت مسـألة الأرمن واليونان لتشغل تركيا ، كما تسعى لحفر بئر للروسيـا فى الشرق الاقصى ، وكل هذه المسائل تعطل كثيرا عرض مسألة مصر على بساط البحث واعطاءها حقهـا بين الأمم الحرة التى تتقلب فى نعيم بينما هى تعانى آلاما جساما

« ان مصطفى كامل قائد حركة وطنية فى مصر ، فبقدر سرعة هذه الحركة من العلم والعرفان وتمثيـل حالتى الوطن للناشئين (حالة الشقـاء وحالة الرخاء) تقرب ساعة تحرير ذلك الوطن الجليل

«واذا سأل الانجليز (مصطفى كامل) أين أسلحة مصر وبواخرهـا وذهبهـا لتنغلب أمته على انجلترا وتملك مصر

« فالجواب عندى عن ذلك : ان بواخر مصر هى نيلها ، وأسلحتها ارادة

أبنائها ، وذهبوا بجمال وضعها ، فليتخذ أبناؤها فوق هذه المزايا من العلم دروعا ، ولينازلوا الانجليز بثبات الساكن الصابر ، فان قائد السفينة فى حاجة لعقل سليم وجسم سليم ليقود سفينته ، والا فهى بغيرها غارقة ، ان الوطن بيننا نحن الاوروبيين الراقين عظيم جليل محترم ، مفضل على الحياة والولد والمال ، فما بالنا نحتقره عند غيرنا ولا نود الا أن نحتكر العواطف الشريفة لأنفسنا »

وقد علقت جريدة (نيويورك هرالد) على هذه الرسالة بقولها : « ان غرض مصطفى كامل شريف ؛ وقد قدمناه لقرائنا بلسان جريدتنا ، فهو رجل اذا تكلم أسمع العالم صوته ، ومن عرف أنه ليس بغنى كبير ، ولا وزير حكومة ذات سلطان ، قال معنا انه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهبهم التاريخ من حين الى حين الى الأمم المضطهدة المظلومة ليهدوها طريق السداد ، وانه اذا كان المصريون الى اليوم فى نظر بعض الساسة لا يستحقون ما يبتغونه من سعادة لانحطاط مستواهم العلمى فانا نؤكد من جديد أن مصطفى كامل الذى حادثه مراسلنا بالاستانة فى العام الماضى لا يقل علما عن أعظم سياسى من ساسة أمريكا وأوروبا ، ولكن لسوء حظ مصر جاء فى الزمن الذى بلغ فيه حب الحياة المادية مبلغا عظيما ؛ فأصبحت المدافع والمدمرات تستخدم لاغتيال الحقوق لا لنصرة أمة مظلومة على أمة ظالمة ، ولكننا مع ذلك نقول له ماقاله المسيو سيمون « ان خطوة الى الأمام ولو كل قرن فى سبيل تحرير الوطن لخير من لا شىء » ، فليسر مصطفى كامل ومواطنوه الى حيث يجدون بعون الله « مصر رمسيس » سيدة مهيبة »

هذا بعض نتائج جهاد مصطفى كامل وصداه فى أوروبا وأمريكا ، ولا شك ان تعريف أوروبا بمصر الحديثة يرجع أول الفضل فيه الى جهاده بقلمه ولسانه فى الصحافة والمحافل الأوروبية ، ومن يقرأ هذه النماذج من أقوال الصحف عن مصر والمسألة المصرية تعليقا على دعاية الفقيد يدرك مبلغ الاحترام الذى نالته مصر بفضل هذه الدعاية الكبيرة التى قام بها ذلك الرجل العظيم

فى فيينا وباريس

مكث المترجم فى مدينة بودابست حتى ٢٣ يوليه سنة ١٨٩٧ وسافر منها الى فيينا ، وهناك واصل دعايته للقضيـة المصرية ، ثم برحها الى باريس ، فجاءها فى اغسطس ؛ وبادر بامداد الصحف والأندية بآرائه فى الشؤون المصرية ودفاعـه عن قضية مصر ، فبدأ حملته بحديث مستفيض فى جريدة (الاكاير) الباريسية حمل فيه على السياسة الانجليزية وتصرفاتها فى مصر

كان لهذا الحديث صداه فى النفوس ، فانبرى أحد كبار الكتاب الفرنسيين وهو المسيو (ادوار فلدتوفل) ينتقد السياسة البريطانية فى مقالة نشرها بجريدة (لابيه) تعليقاً على حديث مصطفى كامل ؛ وأيده فى آرائه ، وكذلك كتبت جريدة (الديبش كولونيال) مقالة فى هذا المعنى

خطبته بباريس

ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

ألقى الفقيد بباريس يوم أول سبتمبر سنة ١٨٩٧ خطبة من أقوى خطبه الوطنية فى حفلة أقامها فى الفندق النازل به ، دعا اليها المصريين والعثمانيين الذين كانوا وقتئذ بباريس ، بدأها بالتنويه بانتصار الجيش العثمانى فى الحرب اليونانية ، ثم عرج على ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وهو يوم دخول الانجليز القاهرة ، فقال مشيراً الى هذه الذكرى مستحثا المصريين على الجهاد الوطنى :

« هناك تذكار آخر أراه قريباً منا وأشخصه أمام عينى مكتوبا بحروف الحداد ، ألا وهو يوم ١٤ سبتمبر المقبل : التذكار الخامس عشر لدخول الانجليز مدينة القاهرة عاصمة مصر التعسة ، نعم أرى هذا التذكار وأحس آلاماً شديدة لذكراه ، آلاماً تختلج الفؤاد وتزاحم الفرح والسرور ، فالبسوا ثياب الحداد فى

ذلك اليوم ، واندبوا حظ بلادكم التعسة ، وخففوا من آلامها بالعمل لخدمتها والتفانى فى سبيل خلاصها »

الدعوة الى الجهاد الوطنى

« فمن كان وطنه وادى النيل عارٌ عليه أن يسلمه لسواه ، ويعيش حقيرا ذليلا غريبا فى بلاده ، أجنبياً فى ربوعه وربوع آبائه وأجداده ، ولطالما ردد الفلاسفة أن كلمة الحق تصل الى آذان الافراد والأمم وتبلغ أعماق القلوب ولو بعد قرون ، فنادوا إذن بتحرير الوطن المصرى ، فان لم يسمع صوتكم اليوم فهو مسموع غدا بمشيئة الله

« ولا تظنوا أيها الاخوان أنكم تكونون ابرياء من اثم ضياع مصر اذا سكتم عن المطالبة بحقوقها ولم تعملوا لاخراج الاجنبى من ديارها ، فقد يظن الكثيرون فى مصر أن الذى لايخون وطنه ولا يخدمه ولايدافع عنه يكون بريئا من مصائبه غير مسؤول عن الاخطار التى تتساقط عليه . كلا ! ان الذى يرى النار بعينه ويقف عند حد المشاهدة فلا يعمل لاطفائها هو شريك فى الأثم لمن سعرها ، فكيف بنا ونحن نرى الاجنبى يعتدى على حياة أمتنا ووطننا ويهتك عرض بلادنا ويسلبنا أموالنا وحقوقنا ويستذلّنا ويحسن للحيوان الاعجم اكثر من احسانه الينا ، ألا ان الحياة الذليلة خير منها الموت ، والموت فى سبيل الحياة الشريفة خير من حياة ذليلة »

الشباب والشيوخ فى الجهاد

ثم تكلم عن واجب الشباب فى الجهاد الوطنى فقال :

« واذا كنا معشر الشباب لم نجر على بلادنا هذه المصائب الجمة فلا جرم اننا اذا أهملنا الأمر كنا الجانين على أبنائها من بعدنا ، فلقد سلمنا آباؤنا مصر وفيها بقية من حياة ، فهل يليق أن نسلمها لأبنائنا ميتة لاحراك فيها ؟ ان مصر

كعليل أنتم تعرفون دواءه ، فقدموه لها ولو قُطّعت أيديكم بالسيوف ومُزقت افئدتكم بالخناجر ، ولو ناجيتم سرائركم وتنزلتم الى افئدتكم وتساءلتم من المسئول عن احياء مصر ، أهم الشيوخ أم الشبان ؛ أهم الذين بلغوا غاية العمر وقضوا حياتهم ، أم الذين لهم الشبيبة والقوة والحياة ونشأوا على مبادئ الوطنية السليمة وتربوا على محبة مصر العزيزة ؛ ورأوا غيرهم من أبناء الأمم الحية يضحى فى سبيل بلاده بكل نفيس وعزيز ؟لاريب ان ضمائركم تجيبكم انكم وحدكم أنتم أى كل رجال الشبيبة المصرية المسئولون عن احياء مصر ، وكفاكم من الشيوخ رضاؤهم عنكم وعن أعمالكم »

الاشادة بالوطنية

ثم أشاد بالوطنية ودعا الى اعتبارها فرضاً على كل مصرى صغيرا كان أو كبيرا ، وضرب الامثلة التاريخية على تعلق الأمم بأوطانها فقال :

« ولا يرينّ أحدكم نفسه صغيرا فيقول ومن أنا حتى أدافع عن بلادى وأطالب بحريتها وأسعى لسعادتها ، فذلك فكر خطأ ، فكل مصرى مسئول عن حالة مصر ؛ ولكل مصرى الحق فى خدمتها ، بل عليه واجب إنهاضها واعلاء شأنها ؛ وجميع المصريين أمام مصر سواء ؛ وحنانها لكل فرد من أبنائها لا ينقص عن حنانها للآخرين ، وقد جاءنا التاريخ بالامثال العديدة على قيام أفراد من آخر طبقات الشعب بأكبر الاعمال وأشرفها ؛ وأرانا التاريخ فتاة (هى جان دارك) قد حررت فرنسا وطنها وأخرجت الانجليز من ربوعه ؛ وهذا (كوشوت) محرر المجر بدأ صغيرا لا مقام له فى بلاده ولا مكانة ؛ ولكن وطنيته الطاهرة ، وفؤاده المتقد غيرة على وطنه ؛ وخلوّه من الغرض الشخصى : جعله فى تاريخ بلاده وفى تاريخ الأمم رجلا من عظماء الرجال ؛ وقدوة كبيرة فى تحرير الاوطان ،

والتاريخ مملوء بذكر الرجال الذين نهضوا من الطبقات الفقيرة الى أسمى المراتب بوطنيتهم الصادقة واحساساتهم السامية »

محاربة اليأس

« فاعملوا اذن والأمل ملء قلوبكم ، ولا تيأسوا طرفة عين ، بل ليزدد عملكم بازدياد الخطر ، شأن ذوى النفوس الشريفة والمقاصد العالية »

الوطنية والحياة فى أوروبا

« وانى لست فى حاجة لأن ألفت انظاركم الى ماترونه فى أوروبا من مظاهر الوطنية الجليلة ، ومن معالم الحياة الحقيقية ، فهذا العمران العظيم ناطق بأبدع بيان بأنه من ثمار الوطنية ، وكل مافى هذه الديار من عدل ونظام ، وحرية واستقلال ، ونعيم عظيم ، وملك كبير ، هو ولا ريب من مبتدعات هذا الاحساس الشريف الذى يسوق أفراد أمة بأسرها الى العمل لغرض مشترك ومطلب واحد ، ولا ريب عندى أنكم كلما دخلتم مدافن عظماء الرجال وزرتم قبورهم أعجبتم بهذه الوطنية العالية التى رفعت مقام هؤلاء الرجال وخلدت لهم الذكر الجميل على تعاقب الاجيال ، لاريب انكم أعجبتم بهم وغبطتموهم ، فلقد عاشوا كرماء أوفياء لاوطانهم ، وماتوا مشرفين عالى الاقدار والمقامات ، وبقيت أعمالهم دروسا ومثلا للأبناء والاعقاب ، ولا ريب انكم أملتم أن يظهر فى المصريين كثير من أمثال هؤلاء الرجال ، حتى تبلغ مصر مبلغ تلك البلاد من عزة الكلمة وقوة البطش والسلطان.

« ولا جرم أن أنفع درس يحتاج اليه المصرى من أوروبا هو الوقوف على قوة الاحساس الوطنى فى البلاد على اختلافها ، فأهل هذه البلاد على تفرق مشاربهم وأهوائهم يحبون بلادهم حبا شديداً ، ويستقبل الفرد منهم الموت فى سبيل خدمة بلاده راضيا مسروراً »

« ومن أجلّ ماذكره التاريخ عن إحساسات هؤلاء القوم نحو بلادهم أن قائداً فرنسياً أحس عام ١٨١٥ باقتراب منيته حينما هزم نابليون الهزيمة الأخيرة

واحتلت عساكر الدول الاوروبية المتحدة أرض فرنسا ، فدعا اليه أحد أصدقائه وقال له « إن لى عندك أمرا أسألك بحرمة فرنسا أن تؤديه بعد موتى » قال له صديقه « وماذاك ؟ » فأجابه القائد « إذا جلت العساكر الأجنبية عن أرض فرنسا العزيزة فزر قبرى وناد بأعلى صوتك : « لقد جلا الاجانب عن بلادنا فنم آمنا مطمئنا ، عندئذ تسكن روحى ويتم لى الموت بسلام » ، هذا مثل صغير يكفى وحده لتعريفكم كيف قامت هذه البلاد وبماذا تقوم

« واذا كانت فخامة تلك الأمم المتمدنة ورفعة مقامها وحرية أفرادها وسعادة أبنائها أمورا من شأنها ان تنشطنا على العمل لتحرير مصر وإبلاغها هذا المبلغ البعيد ، فهنالك أمم أخرى تنذرنا بسوء المصير إذا استسلمنا للمحتلين ، وأهملنا أشرف واجب علينا فى الحياة ، فالهند وراءكم ، وايرلندا أمامكم ، تنذركم حالتهما آناء الليل وأطراف النهار بالخراب والدمار والمجاعة والعار والموت إذا رضيتم بالمذلة وسلمتم البلاد للمحتلين ، فحاسبوا أنفسكم وأسألوها : أتفضل العار على الشرف ؟ والمذلة والهوان على العز والرفعة ؟ والموت على الحياة ؟ »

وقد نشرت الصحف الباريسية مقتطفات من هذه الخطبة العظيمة ، وكان لها صدى كبير فى مصر وأثر عميق فى نفوس المصريين ، لما احتوت من آيات الوطنية الصادقة ، وترجمت عن شعور النفس العالية التى تفيض بهذه المعانى الجليلة

سفره الى برلين ثم عودته الى باريس

وبعد أن كتب الفقيد عدة مقالات فى صحف باريس سافر الى برلين ، وأمد الصحف الالمانية بقلمه مما يحتاج نشره الى مجلدات ، ثم عاد الى باريس ، وعاود الدعاية للقضية المصرية فى الصحف الفرنسية

اعتزازه بمصريته

في هذه الأثناء بعث أحد أنصار الاحتلال الى الدكتور « شيونفرت » الرحالة الالماني الشهير بكتاب زعم فيه أن الذين يطالبون بحقوق مصر وفي مقدمتهم مصطفى كامل ليسوا من صميم المصريين ، وقد كتب العلامة شيونفرت كتابا بهذا المعنى نشره في جريدة (فوسيشه زيتنغ) الالمانية في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٧

فلم يكد يطلع عليه المترجم حتى رد عليه لفوره بالكتاب الآتي تعريبه :

« فيينا في ٥ اكتوبر سنة ١٨٩٧

« ياجناب المدير

« اسمح لي أن أرد على ما كتبه مسيو (شيونفرت) في جريدتكم ونشرتموه في عدد ٣٠ سبتمبر الجاري في شأن الوطنية المصرية ، يدعي مسيو شيونفرت أن المصريين القائمين بالدعوة الى الوطنية هم من أصل أجنبي ، وليس لهم بالفلاحين أدنى علاقة ، وقد تكرم حضرته بأن عدني من رجال الفئة المترفعة عن الأمة ، البعيدة الاصل عنها ، أي ممن لا يجري في عروقهم الدم المصري الحقيقي ، وهي دعوى باطلة كل البطلان ، لأن المصريين القائمين بالدعوة الوطنية العاملين ضد الاحتلال الانجليزي الساعين في سبيل تحرير وطنهم مصريون من سلالة المصريين الحقيقيين ، وأغلبهم أبناء الفلاحين ، أما أنا فأفخر وأتشرف بأني ابن ضابط شهم آباؤه فلاحون مصريون ، يظهر إذن جليا أننا لسنا من تلك الفئة الغريبة الاصل عن الفلاحين ، ولسنا كذلك بظلمة الفلاحين في الماضي ، لأنهم إما إخوتنا وإما آباؤنا ، أما اكتتابنا للجيش العثماني فما هو الا ثمرة وطنية يانعة صادقة ؛ نعم هو ثمرة الوطنية الحقة ، لأننا نعلم علم اليقين أن انجلترا لا ترمي بكل دسائسها ضد تركيا الا الى مصر ، واننا بسرورنا وباحتفالاتنا بالانتصارات

التركية نسر ونحتفل بهزيمة السياسة الانجليزية ، أى بأجمل وأبهى شئ يتمناه كل مصرى وطنى على الدوام ، وانى أختم كتابى للدكتور (شيونفرت) بأنى أجله أعظم اجلال غير أنى مندهش جدا من أن رجلا مثله يقول عن الفلاح المصرى انه لا يعنى بشؤون بلاده ، فاذا كان الدكتور (شيونفرت) يحكم علينا بأننا أجانب عن الفلاح لاندرك ما بفؤاده ، فكيف يستطيع هو أن يعرف هذا الفؤاد ويدرك ما به ويتكلم عن عدم عنايته بشؤون الوطن ، هذا وتفضل بقبول احترامى »

« مصطفى كامل»

وقد علقت تلك الجريدة على الكتاب بما تعريبه :

« ان على هذا الكتاب طابع الحق والاخلاص ، ونحن لانشك فى أن المسيو (شيونفرت) قد اقتنع بما فيه ؛ ولذلك نرجو من قرائنا أن يمحوا ما علق بأذهانهم من كتابه ، فان هذا الرد صادر من صاحب الدار ، وهو أدرى بما فيها وعلى الأخص ما يخصه منها »

عودته الى مصر ومرضه

اكتوبر — نوفمبر سنة ١٨٩٧

عاد مصطفى الى مصر فبلغ العاصمة يوم ١٠ اكتوبر واستقبله أصدقاؤه وأنصاره بالحفاوة والاعجاب

ولم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أصابه من اجهاد نفسه فى العمل والكفاح، فأنهك قواه، وأقلق بال اخوانه وأنصاره ، فنصح له الأطباء أن يقضى الشتاء فى حلوان ، فعمل بمشورتهم وقصد اليها حتى أبلّ من مرضه فى أواخر شهر نوفمبر ، فعاد منها سليما معافى ، واستأنف جهاده الوطنى والسياسى ، وكتب الى شقيقه على بك كتابا يصف فيه مرضه ويقول فيه :

« الجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٧

« أخى . لاشك انك قلقت كثيرا حتى بعثت بثلاثة تلغرافات بعد عدة خطابات لتقف على صحتى ، لأنى منذ ثلاثة أشهر لم اكتب اليك كلمة ، انى كنت فى مرض شديد ، يئست معه من حياتى ؛ وقد أصابنى بعد وصولى الى العاصمة بيومين ، وهو مسبب عن كثرة المتاعب التى صادفتها فى هـذا العام ، والتى أؤمل أن تكون ناجحة ، لأنها كما تعلم صادرة باخلاص ، ولا أمل لى فى شىء من ورائها سوى عودة مصر الى زهوها ورجوع السيادة فيها لأبنائها المخلصين »

الفصل السابع

حادثة فاشودة

وجهاد الفقيد سنة ١٨٩٨

استهل الفقيد عام ١٨٩٨ وقد استرد صحته وكله أمل ونشاط فى الجهاد، وكان جهاده سنة ١٨٩٧ قد آتى ثمره، إذ تحركت فى النفوس فكرة الوطنية بتأثير دعوته الصادقة ومقالاته وكلماته وخطبه ورحلاته ورسائله فى الدفاع عن القضية المصرية

خطبته فى حديقة الازبكية

يناير سنة ١٨٩٨

بدا أثر هذه الدعوة أوائل سنة ١٨٩٨، إذ اتفق الشباب المثقف من طلبة المدارس العليا على إقامة حفلة وطنية كبرى كان المترجم خطيبها ورئيسها، واختاروا لها حديقة الازبكية بالمطعم الذى كان مشهورا باسم (سانتى)، وحددوا لها يوم ٨ يناير عيد جلوس الخديو عباس الثانى، وألفوا لجنة لتنظيم هذه الحفلة، وقد أقيمت الحفلة، فكانت آية فى الجلال والبهاء، وبعد أن تناول المدعوون الطعام وقف أحد أعضاء لجنة الاحتفال وهو احمد افندى حافظ عوض (بك) ودعا للخديو ثم أثنى على الفقيد قائلا: «أشكر ضيفنا الكريم الذى رأيناه فى شبابه الغض كثير الأعمال، كبير الآمال، ونرى الليلة فى وجوده بيننا شخص الوطنية الحقة، ومثال الاخلاص لمصرنا العزيزة» (١)

---

(١) المؤيد عدد ٩ يناير سنة ١٨٩٧

وما انتهى من كلامه حتى وقف الفقيد موقف الخطابة ، فقوبل من جميع الحاضرين بعاصفة من التصفيق ، فشكرهم على احساساتهم ، ثم ألقى خطبة مستفيضة من أعظم خطبه الوطنية ، افتتحها قائلا :

« اخوانى الاعزاء

« لقد شكرنى حضرة زميلكم الفاضل على حضورى بينكم الليلة واجابتى دعوة الذين تفضلوا بها الى هذه الحفلة الشائقة ؛ على أن الشكر يجب أن يقدم منى اليكم ، لأنى أرى فى حضورى بينكم شرفا عظيما لى ، وأقدر عنايتكم بدعوتى حق قدرها ، ولطالما تمنيت أن أقضى بضع ساعات مع نخبة المدارس المصرية ، وأناجى أولئك الذين خرجت من صفوفهم ، وما نسيت عهودهم ، وأتحدث معكم بمستقبل مصر ورجاءها المنتظر ، فى ذلك الواجب العظيم الذى يجب علينا جميعا أن نقوم به حق القيام ، وأعنى به واجب خدمة الوطن العزيز »

تمجيد الوطنية

وبعد أن تكلم عن الخديو ونوه بتأييده ميول الشعب عرج على الوطنية وأشاد بها قائلا :

« ان الوطنية هى أشرف الروابط للأفراد ، والأساس المتين الذى تبنى عليه الدول القوية والممالك الشامخة ، وكل ما ترونه فى أوروبا من آثار العمران والمدنية ، ما هو الا ثمار الوطنية ، أصبح اليوم الوطن المصرى ينتظر منكم ومن بقية أبنائه عدلا وانصافا ، أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترفعوها الى منصة الحرية والاستقلال ، وأن تردوا اليها حقوقا وهبها اياها الخالق عز وجل ، ولا ريب انكم معشر المتعلمين ، معشر النابغين فى المعارف والآداب ، أول من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية ، فانكم قرأتم فى التاريخ الامثال الكثيرة للوطنية ، وعرفتم سير أناس عديدين ماتوا محبة لبلادهم واخلاصا لأوطانهم ،

فحيوا بموتهم ، وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال ؛ وأن لاشرف لها بغير الوطنية والعمل لاعلاء شأن الوطن وبنيه »

الوطنية والمال

الى أن قال مستحثا كل متعلم مهما يكن صغيرا على القيام بواجبه الوطنى :

« انكم اذا خرجتم من المدارس ودخلتم صفوف الرجال وشرع أحدكم فى عمل من الاعمال سمع لامحالة من قوم غايتهم تثبيط الهمم واقعاد العزائم : من أنت حتى تعمل هذا العمل؟ واذا كان الاغنياء والكبراء لم يقدموا عليه فكيف تقدم أنت عليه ؟ وهو قول فاسد لأن الوطنية لاتميز فيها بين الصغير والكبير والغنى والفقير ، بل كلنا سواء أمام مصر ، وكل واحد منا مسؤول عن مصائبها مطالب بخدمتها واعلاء قدرها »

وبعد أن ضرب الامثلة بكبار الوطنيين الذين خرجوا من صفوف الفقراء قال : « قد يكون الرجل الصادق الوطنية فقيرا فى المال ولكنه يعيش ويبقى فى التاريخ من أكبر سراة الوطنية » ؛ ودعا فى خطبته الى نشر العلوم والمعارف فانها الوسيلة الى التمسك بالحقوق والكرامة

الدعوة الى الحياة الحرة

ودعا الشباب الى الحياة الحرة والاعراض عن المناصب الحكومية قال :

« لاشك انه لايمكنكم القيام بانارة الامة وارشادها حق الارشاد الا اذا كنتم فى الحياة الحرة مجاهدين بأنفسكم فى سبيل الحياة ، لا عمالا فى ادارة أو ديوان تنقدون فى آخر الشهر رتباً معلوما يقتل فيكم عواطف الاستقلال ويحبس فى نفوسكم الحرية الشخصية والميل الى عظائم الاعمال »

ثم نوه بالحياة الحرة فى أوروبا وما أنتجته من جلائل الاعمال، وختم خطبته بقوله :

« إن أثمن نصيحة تلقيتها فى صغرى وألقيها اليوم على أبناء بلادى المحبوبة

وأختم بها كلامى معكم الليلة هى : العمل بالاتحاد على خدمة الوطن العزيز »

وقد قوبلت خطبة المترجم بتصفيق الاعجاب والحماسة والاستحسان ، وكان لها الاثر الكبير فى نفوس الشباب .

الرد على الحملات الاحتلالية

كانت دعوة مصطفى كامل تقضّ مضاجع الاحتلال وصنائعه ، لأن انتشار الدعوة الوطنية تزلزل مركز الاحتلال القائم على الغصب والعدوان ، فكانوا يعملون على احباط دعوته بالصحف الموالية لهم فى مصر ، وبالحملات الاحتلالية فى الصحف الاوروبية ، وقد تردد فى بعضها اتهامه بأنه يدعو الى ثورة ، مما أخاف الأوروبيين ، فكتبت احدى الصحف الفرنسية وهى جريدة (لوريان) مقالا بهذا المعنى .

فرد عليها الفقيد بكتاب فى ٣ فبراير سنة ١٨٩٨ بدأه بقوله :

« قرأت فى أحد الاعداد الاخيرة من جريدتك حملة على الوطنيين المصريين كتبت بتحيز للاحتلال الانجليزى واشياعه ، وليست عليها مسحة من الحق ، ولما كنت أعتقد أن مبادئكم حرة شريفة ، وانكم تستظلون براية الحرية والاخاء والمساواة ، رأيت أن أرسل اليكم كتابى هذا خدمة للحقيقة راجيا نشره فى المكان الذى نشرتم فيه مقالتكم التى نسبتم الىّ فيها أمورا أنا أبعد الناس عنها وكذلك أبناء وطنى جميعا »

ثم فند مقالة (لوريان) تفنيدا مسهبا فى رده عليها ، وقد نشرته الجريدة المذكورة وعلقت عليه بكلمة جاء فيها :

« إننا نحب المصريين كثيرا ونميل الى خلاصهم وعودتهم الى التحلى بتاج الملك وجواهر العلم ، ولكن لكى نصل الى تحقيق هذا الحل يجب أن يساعدونا من جانبهم بالتؤدة والسكينة ، واننا لاننكر ان أعمال « مصطفى كامل » كلها رزينة حكيمة لاتقل عن جمال أى عظيم ذكره التاريخ فى سبيل تحرير بلاده ، وأن

له فى بلاده عصبية تذكر بالاعجاب والاعظام ، وأنه من أبنـاء فرنسا فى العلم ، ولـكننا ننكر على غيره الشدة فى القول والحماقة فى الرأى »

ونشرت جريدة (لا كوريبرى) الايطالية حديثا للمترجم بعددها الصادر فى ١٥ مارس سنة ١٨٩٨ فى شرح القضية المصرية والدفاع عنها

ظهور كتابه عن المسألة الشرقية

وفى ابريل من تلك السنة ظهر كتابه عن (المسألة الشرقية) ؛ وهو كتاب قيم شرح فيه تطورات المسألة الشرقية وموقف الدول الاوروبية ؛ وبخاصة انجلترا حيالها ، وأفاض فى تعريف المسألة الشرقية وبيان حوادثها فى القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر مستطردا الى ذكر استقلال اليونان ثم مسألة سورية بين محمد على وتركيا : وحرب القرم ؛ ومؤتمر برلين ، ثم شرح المسألة المصرية ، ثم المسائل البلغارية واليونانية ؛ ويرمى الكتاب الى تحبيب الاستقـلال الى الامة واحياء الشعور الوطنى فى نفوس قرائه

جهاده فى اوروبا

يونيه — سبتمبر سنة ١٨٩٨

سافر مصطفى من الاسكندرية يوم الجمعة ٢٤ يونيه سنة ١٨٩٨ ليواصـل جهاده فى اوروبا ، [١] وما ان وصـل الى باريس حتى وقف على خطبة ألقاها اللورد سالسبرى رئيس الوزارة الانجليزية بسبب اخفاق سياسة وزارته بالصين قال فيها تعريضا بالهند ومصر « ان انجلترا لم تعمل السيف فى الصين كما أعملته فى الهند ومصر » ، فانبرى الفقيد للورد سالسبرى ورد عليه بالكتاب الآتى تعريبه ، وقد نشره بالفرنسية فى جريدة (الانترانسيجان) ونشرته عدة صحف باريسية

(١) المؤيد عدد ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٨

« باريس فى ٤ يوليه سنة ١٨٩٨

« جناب اللورد سالسبرى

« اطلعت فى الجرائد على نص خطبة سياسية زعم جنابكم فيها أن انجلترا قد فتحت مصر بالسيف ؛ والوجدان الأبىّ يتجافى عن زعم كهذا ، والوطنيون المصريون يقيمون الحجة عليه بأشد مالديهم من الحزم والعزم ؛ فان بلادكم لم تفتح بلادنا ، وانى أستشهد الدنيا بأسرها على هذا الادعاء ، ان انجلترا لم تكن فى حرب لمصر فى عام ١٨٨٢ ، بل هى تدخلت فى حوادثها تدخلا وديا لتأييد عرش الخديوية ؛ فهل يليق بها وهى على ماتدعى أمة متمدنة أن تقوم اليوم بعد أن حلفت حين حلولها فى مصر بأنها تتركها تحكم نفسها بنفسها ، فتصرح للعالم بالرغم من الشرف والوعد الصريح أنها قد فتحت بلادنا بحد السيف ، والّا كان معنى هذه الكلمات « شرف وتمدن وانسانية » فى عرفك ياجناب اللورد استعباد الامم الواثقة بالتمدن ، ألست القائل فى عام ١٨٨٦ « لنحترم وعودنا المقدسة ولنجلو عن مصر »؟ألست القائل فى شهر نوفمبر من عام ١٨٨٦ للمسيو وادنجتون « ان بنى قومكم يكونون فى ضلال مبين اذا اعتقدوا أننا نريد أن نمكث فى مصر الى ماشاء الله ، فنحن لانبحث الا عن الوسائل التى نخرج بها من مصر بشرف وكرامة » ، أو لستم أنتم الذين قلتم فى البرلمان يوم ١٠ يونيه سنة ١٨٨٧ هذه العبارة : « لايسوغ لنا أن ناخذ على عاتقنا حماية مصر ، حتى على فرض أن عملا كهذا ينطبق على الشرائع الدولية ومصالح بلادنا » ؟ أولستم أنتم الذين قلتم وكررتم القول فى شهر اغسطس سنة ١٨٩٨ : «إن التصريح باقامة انجلترا فى مصر دليل على قلة احترام العهود المقدمة التى ارتبطت بها حكومة الملكة والتى يجب علينا الاذعان لها » ؟

« فاذا كنتم ياجناب اللورد قد نسيتم أو ازدريتم هذه التصريحات الشريفة فانه ينبغى لكم أن تذكروا بأنكم قلتم فى احدى خطبكم الاخيرة « ان الحفاظ

للأمم العظيمة قد كان سببه على الدوام طمعها وشراهتها »

« ولا يغيبن عن البال أن مصر التى كانت فى جميع عصور التاريخ سبب موت الأمم الطاغية ، فانها لا محالة ستكون كذلك فى المستقبل ، ولا يمكن أن تنجو انجلترا من هذا المصير اذا أصرت على احتلال بلادنا ، لأنكم اذا كنتم تعتبرون أن ارادة انجلترا فوق ارادة أوروبا ، فانه لابد أن يأتى يوم تنتصر فيه الوطنية المصرية وحدها على انجلترا العظيمة القادرة ، وربما هززتم كتفيكم ياحضرة اللورد حين قراءة هذا الكتاب ، ولكن كل انجليزى يضع شرف بلاده فوق المصلحة الذاتية الحقيرة يخجل ويستحى بعد قراءته »

« مصطفى كامل »

وكتب الفقيد عدة مقالات فى الصحف الاوروبية دفاعا عن قضية مصر ، ونشر حديثاً فى جريدة (الأكابر) الباريسية عن يوم ١١ يوليه وهو ذكرى ضرب الاسكندرية

ثم ألقى بباريس خطبة سياسية فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، وعاد الى مصر فوصلها يوم ١٨ سبتمبر ، وله فى المؤيد مقالات وطنية قيّمة نشرها فى سبتمبر وأكتوبر من تلك السنة

حادثة فاشودة

وتأثيرها فى الحركة الوطنية

وقعت فى تلك السنة حادثة خطيرة كان لها وقع شديد فى النفوس وأثر بالغ فى مصير المسألة المصرية ، ونعنى بها حادثة (فاشودة) التى اهتزت لها أوروبا بأسرها وكادت تؤدى الى نشوب الحرب من أجلها بين فرنسا وانجلترا

كان السودان المصرى فى عهد الخديو اسماعيل يصل جنوبا الى خط الاستواء وشرقا الى سواحل البحر الاحمر وخليج عدن ، ووصلت حدوده الجنوبية الشرقية الى المحيط الهندى ، وحدوده الغربية الى (واداى) غربى دارفور (انظر الخريطة

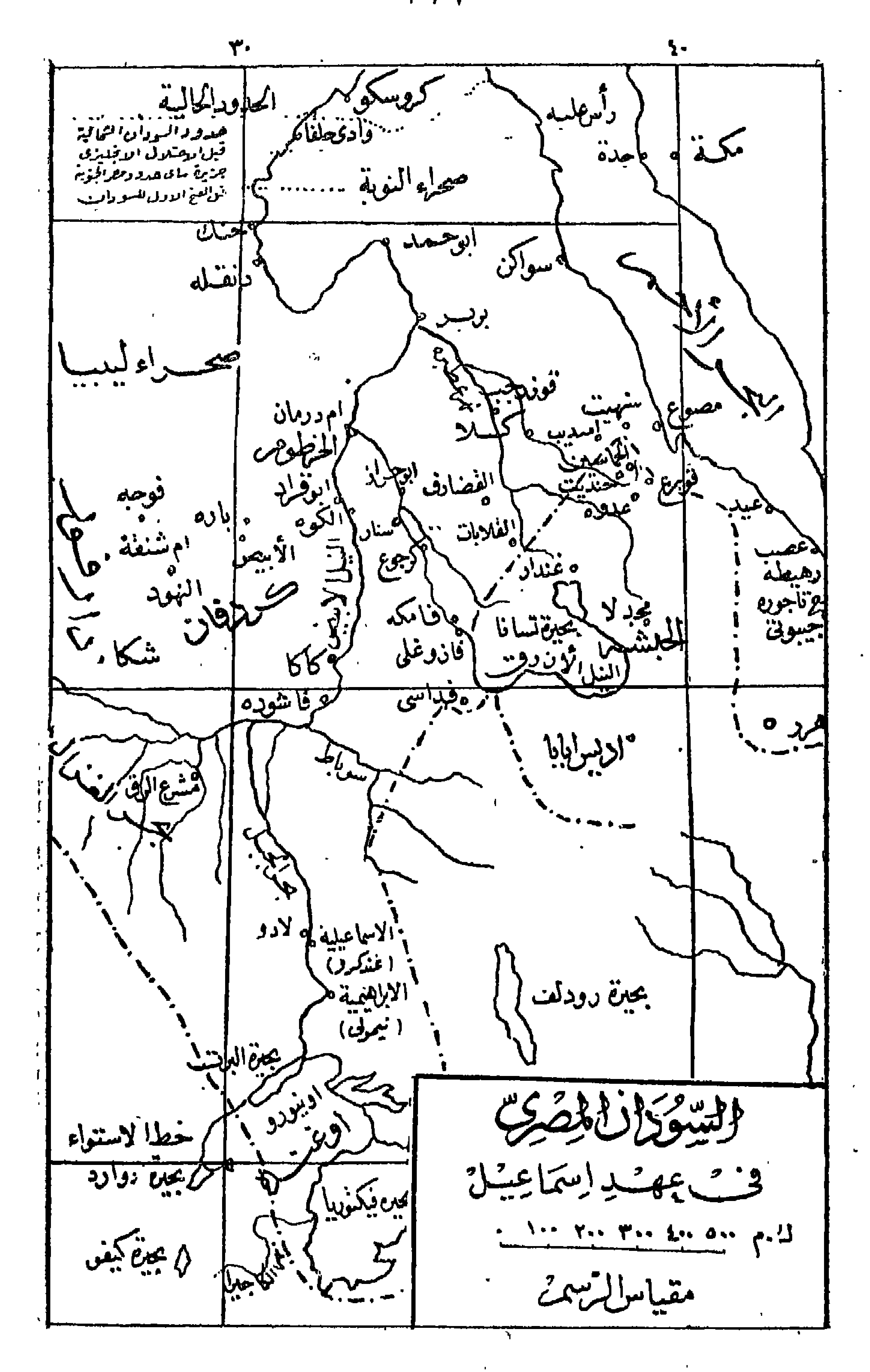
ص ١١٩ وهى مقتبسة من كتابنا « عصر اسماعيل » ج ١ ص ١٣٤)

فلما شبت الثورة المهدية فى السودان ثم اكرهت انجلترا الحكومة المصرية على إخلائه سنة ١٨٨٤ ، اعتبرته انجلترا نهباً مقسما بينها وبين الدول الاستعمارية : فاحتلت أوغنده ومنطقة البحيرات الاستوائية ، والجزء الجنوبى من مديرية خط الاستواء المصرية ؛ ومحافظتى زيلع وبربره ؛ وأخذت ايطاليا مصوع والاريترية ورأس جردفون (جرد فوى) ؛ وفرنسا تاجوره وجيبوتى ، والحبشة بلاد هرر وبنى شنقول

وفى غضون ذلك النهب الاستعمارى اشتد التنافس بين انجلترا وفرنسا على اقتسام مناطق النفوذ بينهما . فاعتزمت فرنسا تجريد حملة لاحتلال مركز هام فى أعالى النيل ، وكانت ترمى بهذه الحملة الى صد التيار الانجليزى فى باطن افريقية ، ثم الى فتح باب المسألة المصرية برمتها ، واجبار انجلترا على تنفيذ عهودها فى الجلاء عن مصر ، ومن هنا جاءت أهمية حملة مارشان على فاشودة

ترددت فرنسا طويلا فى انفاذ هذه الحملة ، فقد فكرت فيها سنة ١٨٩٣ ، وعهدت بها أولا الى القومندان (مونتى) ، ولكنها مالبثت أن عدلت عنها ، ثم تجددت الفكرة فى أواخر سنة ١٨٩٥ ، ومن المؤلم أن الوزارات المصرية كانت خاضعة لأوامر السياسة الانجليزية ، فانجلترا هى التى أوعزت اليها باخلاء السودان ففعلت ، ثم أوعزت اليها باسترجاعه فأعدت جيشها لتحقيق هذه الغاية ، على حين لم تكن مصر فى حاجة الى تجريد جيشها لاسترجاع السودان لو لم تقرر اخلاءه سنة ١٨٨٤ ، وهكذا كانت مصر ضحية السياسة الاستعمارية الانجليزية وضحية الوزارات التى تستسلم لها وتخضع لأوامرها

عهدت فرنسا فى سنة ١٨٩٦ الى الكابتن (مرشان) بالزحف على فاشودة الواقعة على النيل واحتلالها ؛ وقد اختارت هذه النقطة لأهميتها من الوجهة الحربية والجغرافية ، فهى تعد مفتاح النيل الأعلى ، إذ تقع على ملتقى الطرق المختلفة



السودان المصري
في عهد اسماعيل
مقياس الرسم
كروسكو
وادي حلفا
صحراء النوبة
رأس علبه
جدة
مكة
سواكن
ابو حمد
دنقله
بربر
صحراء ليبيا
ام درمان
الخرطوم
كسلا
سنهيت
مصوع
القضارف
القلابات
سنار
الابيض
كردفان
النهود
شكا
فاشوده
اديس ابابا
الحبشه
الاسماعيلية
الابراهيمية
بحيرة رودلف
خط الاستواء
بحيرة البرت
اوغندا
بحيرة فيكتوريا
بحيرة كيفو
بحيرة ادوارد

الواصلة من الخرطوم والحبشة الى جنوبى السودان ، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل ، كنهر سوباط وبحر الغزال وبحر الزراف ، ومن يملكها يضمن النفوذ فى شمالى السودان وجهات خط الاستواء (انظر موقعها على الخريطة ص ١١٩)

صدع الكابتن (مرشان) بأمر حكومته ، وسار على رأس كتيبة من الجند قاصدا فاشودة ، فقضى عامين فى طريقه اليها يعانى المشاق والمتاعب المضنية فى مجاهل افريقية ، حتى بلغها واحتلها فى يوم ١٠ يوليه سنة ١٨٩٨ ، وكان احتلالها إيذانا بفتح باب المسألة المصرية

أدركت انجلترا غرض فرنسا من هذه الحملة ، فبادرت الى العمل لاجلائها ، وهنا ظهرت (مؤقتا) بمظهر المدافع عن مصر المؤيد لها ، فاعترضت باسمها على هذه الحملة ، واحتجت عليها باعتبار أن فاشودة أرض مصرية ، وسار اليها اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى وقتئذ على رأس قوة مؤلفة من ١٨٠٠ جندى مصرى ومائة جندى بريطانى فوصلها فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ ، وهناك التقى بالكابتن مرشان واحتج على احتلاله بلدا مصريا ورفعه العلم الفرنسى « على أملاك سمو الخديو » ، وأبلغه أن هذا الاحتلال يعد انتهاكا لحقوق مصر ، وأنه قد جاء ليرفع العلم المصرى على فاشودة ، وكان مرشان يعلم أن لا قبل له بمقاومة القوة المصرية التى جاءت لاجلائه عنها اذ لم يكن لديه سوى تسعة ضباط فرنسيين ومائة وعشرين جنديا من أهالى السنغال ، فلم يقاوم ، ورفع المصريون عليها العلم المصرى

اشتدت الأزمة السياسية بين انجلترا وفرنسا على أثر هذه الحادثة ، وكان الظن أن تتمسك فرنسا بموقفها ، وتفتح باب المسألة المصرية ، وتضطر انجلترا الى الجلاء عن مصر ، مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة ، وقد استيقن المصريون أن آمالهم فى الجلاء ستتحقق ، اذ كانوا يعتقدون أن فرنسا لا تقدم على هذا التحدى لانجلترا الا وهى مصرة على المضىّ فى سياستها الى النهاية ، وكاد الخلاف بين الدولتين يصل الى امتشاق الحسام بينهما ، فعظم بذلك شأن المسألة

المصرية ، وقويت آمال المصريين فى الاستقلال، ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخر الأمر،وخشيت مغبة الحرب، اذ لم تتقدم حليفتها الروسيا لمعاونتها، فسلمت بوجهة نظر انجلترا ، وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة وتم جلاؤه عنها يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨ ، فكان هذا التسليم أكبر صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية ، لأنه دل على أن فرنسا لاتنوى معارضة انجلترا فى احتلال مصر والتصرف فيها كما تشاء ، ودل على نية الانجليز فى دوام احتلالهم لمصر والسودان ، فزلزل هذا الحادث أمل المصريين فى الاستقلال

ثبات مصطفى كامل فى الجهاد

كان انسحاب مارشان من فاشودة انتصارا كبيرا للسياسة الانجليزية ، وإيذانا باصرارها على البقاء فى مصر والسودان ، وتجاهل عهودها فى الجلاء ، فجنح معظم رجالات مصر الى الولاء للاحتلال البريطانى واكتساب رضاه ، إذ رأوا فى حادثة فاشودة برهانا جليا على رسوخ أقدامه فى البلاد

كتب مصطفى الى أخيه على بك (وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان) كتابا قال فيه :

« . . . ان الاحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسالة فاشودة ، وقد أظهر بعض الكبراء الجبن وكادوا يخونون بلادا أحسنت اليهم بما لا يحلم به غيرهم ، ولكنى ثابت على خطتى حتى الممات ، لان اعتقادى أن ثمر الدفاع وان لم يجنه المدافع الاول أو الثانى فاسوف يجنيه مصرى على مدى الايام ، واننا اذا لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا فى حياتنا فاننا على الاقل نضع الحجر الاول لمن يبنى بعدنا » .

وكتبت مدام آدم كثيرا عن حادثة فاشودة ، ومنها قولها فى مقالة لها فى فبراير سنة ١٩٠٤ عن أغلاط السياسة الفرنسية :

« فاشودة ! انها الضربة القاضية ! لقد قلت فى رسائلى قبلا ان غير واجب

من ساسة فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعا وبصفة حاسمة ، وأبانوا لهم أن بعثة مرشان هى الحاملة لراية استقلال مصر : فصاروا جميعا يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان ، ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين »

وقد كان لها كذلك تأثير كبير فى موقف الخديو ؛ إذ أخذ يذعن للأمر الواقع ويتودد الى الاحتلال ؛ وكان أول مظهر لهذه السياسة الجديدة زيارته للندن سنة ١٩٠٠ ، وفى ذلك يقول مصطفى كامل فى رسالته الى مدام جولييت آدم فى ٢ يونيه سنة ١٩٠٠ « أبعث اليك مع هذا بمقالة تفصح لك عن شعورى والشعور الاهلى نحو سياحة الخديو فى لندن ، تلك السياحة التى آلمتنا كثيرا ، وما ذلك وأأسفاه الّا نتيجة فاشودة »

والواقع ان حادثة فاشودة كانت فوزاً كبيراً للاحتلال وصنائعه فى مصر ، وبعثت اليأس فى نفوس الوطنيين ، واعتقدوا أن لا منجاة لمصر من الاحتلال بعد أن أذعنت فرنسا للسياسة الأنجليزية فى تلك الحادثة ؛ وخمدت جذوة الوطنية فى النفوس ، ولكنها لم تخمد فى نفس مصطفى كامل ، بل ضاعف جهاده وكفاحه بمقدار ما ازدادت العقبات والمصاعب فى طريقه ، وأخذ يفكر من ذلك الحين فى انشاء صحيفة يومية تغذى النفوس والعقول بمبادئ الوطنية والكرامة والأمل والجهاد

وقد كان يتألم اذ يرى كبار المصريين وذوى الشخصيات البارزة منصرفين عن الجهاد ، ويرى نفسه يكاد يكون وحيدا فى الميدان ، لكنه مع ذلك ظل يثابر فى جهاده بالرغم من العوامل المثبطة التى تكتنفه

أرسل فى هذا الصدد الى صديقه وزميله فى الجهاد المرحوم محمد بك فريد كتابا من باريس بتاريخ ١٩ اغسطس سنة ١٨٩٨ (نشرنا صورته بالزنكجرافه ص ١٢٣) جاء فيه :

« وصانى خطابك الكريم المؤرخ ١٢ الجارى ، وانه لايسعنى الّا أن أشكر ودّك الصادق النادر المثال فى مصر ، فهو تعزيتى عن هموم بلادى ، وتسليتى على قعود بنى وطنى عن اجابة ندائى والاجتماع حول راية الوطن لانقاذه واسعاده »

(خطاب الفقيد الى فريد بك فى ١٩ اغسطس سنة ١٨٩٨)

باريس فى ١٩ أغسطس ١٨٩٨

أخى العزيز فريد بك حفظه الله

بعد التحية وتقبيل وجنتيك . وصلنى خطابك الكريم المؤرخ ١٢
الشهر الجارى وانه لا يسعنى إلا أن أشكر ودك الصادق النادر
المثال فى مصر فهو تعزيتى عن هموم بلادى وتسليتى على قعود
بنى وطنى عن إجابة ندائى والاجتماع حول راية الوطن لانقاذه
وإسعاده

وانك لمصيب فى رأيك بشأن دعوة رجال القلم فى برلين . وانى
لمكرر حقاً ان أرى الفرص مناسبة لخدمة الوطن ولا أجد غيرك
فى المصريين نصيراً مساعداً على ذلك . فتجدنى إن تكلمت أو دعوت
أتكلم كئيباً آسفاً وأدعو وأنا عارف بأن ليس فى مصر من يساعد
على القيام بالواجب وإكرام الضيف إلا وانى . فقل لى بالله عليك
ما قيمتنا ونحن لا نقضى شيئاً لخدمة الوطن إذا قورنا بغيرنا من
الذين يضحون أنفسهم وأرواحهم لخدمة أوطانهم .

أخي سأسافر إلى برلين بالرغم عن شدة كدري من عدم وجود
إرادة مشتركة بيننا من يريد له أو من يريد عودة خدمة الوطن وعدم
وجود خطة ثابتة يجري الكل عليها وسأعمل كل ما في جهدي كي
لخدمة البلاد . وما علي إلا الاشتراك
في الإرادة الخالصة من شأن الذي كان أراد أن أكون الوحيد في
خطتي الفرد المطالب بالاستقلال .
وغاية رجائي منكم — إن لم يسمع نداءنا ويخلص أوطاننا — أن يحفظ
لي ودك الصادق وحبك الطاهر
ما الذي يشير إلى المضي ؟ لم يرسل لي حرفا واحدا منذ أن كتبت
إليه .
أبلغ سلامي وتقبل أنت ألف ألف سلام من محب
صديقه لك ومن أخيك الشاكر العارف للجميل
كامل

« وانك لمصيب فى رأيك بشأن دعوة رجال القلم فى برلين ، وانه ليحزننى حقا أن أرى الفرص مناسبة لخدمة الوطن ، ولا أجد غيرك فى المصريين نصيرا يساعدنى على ذلك ، فتجدنى إن تكلمت أو دعوت أتكلم كئيبا أسيفا ، وأدعو وأنا عارف بأنه ليس فى مصر من يساعدنى على القيام بالواجب ، واكرام الضيف ان وافى ؛ فقل لى بالله ما قيمتنا ونحن لا نضحى شيئا لخدمة الوطن اذ قورن بيننا وبين الذين يضحون أنفسهم وأرواحهم لخدمة أوطانهم

« أخي. سأسافر الى برلين بالرغم عن شـدة كدرى من عدم وجود إرادة مشتركة بين من يريدون أو من يدعون خدمة الوطن وعدم وجود خطة ثابتة يجرى الـكل عليها، وسأعمل كل مافى جهدى لخدمةالبلاد ، وما علىّ الاّ الامتثال لارادة الخالق جل شأنه الذى كأنه أراد أن أكون الوحيد فى خطتى ، الفرد المطالب بالاستقلال »

وارسل اليه من برلين فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨ كتابا (صورته بالزنكجراف ص ١٢٥) يقول فيه :

« وعلى أى حال فالمستقبل بيد الله يدبره كيف يشاء ، وما علينا الاّ العمل والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا ، فما ضاع حق لمطالب، وانى كلما زرت عواصم أوروبا ازددت اعتقادا بأن الأمر بيدنا، وأنه لو اتحد مائة منا لاهتزت الارض قاطبة لصوتهم ؛ فما بالك لو اتحدت كلة الأمة المصرية كلها ؛ وانى لأحس بكآبة وحزن عظيمين لوجودى فى هذه البلاد وحدى ، وتعود القوم هنا على مقابلتى دون غيرى ، فعسى الله أن يمدنى بمساعدته ، وأجد من بنى الوطن أنصارا يجاهرون معى علنا بأفكارهم وآمالهم ، وما ذلك على الله بعزيز »

(خطاب الفقيد الى فريد بك فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨)

برلين في ٤ سبتمبر ١٨٩٨

أخي الأعز [illegible]

بعد التحية والتسليم ، والعتاب عن سكوتك كما تعلم عظيم وصلني خطابك الأخير بباريس وأنا على جناح السفر الى برلين ففضلت تأجيل الرد إلى وصولي هذه العاصمة العظيمة ....

وعلى أي حال فالمستقبل بيد الله يدبره كيف يشاء وما علينا إلا العمل والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا فما ضاع حق وراءه مطالب

وإني كلما زرت عواصم أوروبا ازددت اعتقاداً بأن الأمر بيدنا وأنه لو
قامت منا لاهتزت الأرض قاطبة لصوتهم فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة
المصرية كلها . وإني لأحس بكآبة وحزن عظيمين لوجودي في هذه البلاد
وحدي وتعود القوم هنا على مقابلتي دون غيري فعسى الله أن يعدني بمساعد
وأجد من بني الوطن أنصاراً يجاهرون معي علناً بأخطارهم وآمالهم وسلامه
عليه بعزيز

أسافر بعد برلين لفيينا ومنها لبودابست وأبارح بودابست يوم السبت
القادم قاصداً الآستانة العلية فأصلها بمشيئة الرحمن يوم ٢١ سبتمبر
وأملي أني أكون بمصر يوم الأحد ٢٥ سبتمبر

ورد لي خطاب من (جوليوس ليفي) الذي تعرفت به يقول لي فيه
أنه مسافر قريباً إلى مصر ففرحت بهذا الخبر لأن هذا الرجل كتب
لنا ولا بد أن سيملأ صفحات جديدة بأحوال مصر وحقيقة الأمور الجارية فيها
أقبلك ألفاً وأهدي أخانا المفضال ألف سلام ودمتم

لأصدق إخوتك
مصطفى كامل

خطبته بالقاهرة

٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨

كان ختام جهاده عام ١٨٩٨ أن ألقى يوم ٢٣ ديسمبر خطبة وطنية بالتياترو الطلياني بالازبكية ، موضوعها (واجبات المصريين نحو وطنهم العزيز) ، وكان الاقبال على سماعها عظيما ، والزحام شديداً ، وظل يخطب نحو ساعة ونصف ، وجاءت الخطبة بعد حادثة فاشودة ، فحمل على اليأس حملة صادقة ، واستثار في النفوس روح الأمل والواجب ، وفي هذه الخطبة قال كلمته المأثورة (لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة) ، ويتبين لك من عباراته فيها مبلغ ألمه من

روح النفعية والتردد والهزيمة التي كانت فاشية في المجتمع ، وفى ذلك يقول :

« يجب علينا أن نجتمع كثيرا ، ونتدبر فى الأمر طويلا ، فقد توالت الحوادث الجسام ، وتعاقبت البلايا العظام ، وأنذرت الايام مصر بسوء العاقبة وظلمة المستقبل ، اذا دام المصريون رائدهم الشقاق والفراق ، ومنتهى آمالهم قضاء الحياة على أى حال تعيسة كانت أو سعيدة » الى أن قال :

« تنزلوا أيها المصريون الى أعماق قلوبكم ، واسألوا سرائركم ، هل أنتم فى شقاء أم هناء ، وهل بالاستسلام وتسليم الأوطان تقابلون نعمة الله عليكم بمصر وهى جنة الارض وأبدع البلدان ؟ وهل يليق بكم وأنتم سلالة أشرف الأمم أن ترضوا بهذا الهوان وتقبلوا هذه المذلة وأنتم صاغرون؟ »

« تمر الحادثات المزعجات علينا ، وتنفطر لها قلوبنا ، وتحزن منها أشد الحزن أفئدتنا ، ثم لانجد لسانا ينطق بما يختلج به الجنان ، بل نرى سكوتا فى سكوت واستسلاما فى استسلام ، فيزداد البلاء ويتضاعف الشقاء »

ثم تكلم عن استسلام الوزراء والحكام والكبراء للاحتلال ، وسكوتهم عن رفع العلم البريطانى فى السودان بعد استرداده ، قال :

« لقد بالغنا فى الاستسلام وأبدعنا فيه كل ابداع ، وما جنينا الا الخيبة والفضيحة والعار ، فهذه بلاد السودان قد فتحتها مصر بأموالها وبدماء أبنائها الأعزاء ، أى راية تخفق اليوم عليها ؟ وأى شرع يقام اليوم فيها ؟ وأى حق يعترف به للمصريين فى نواحيها ؟ ألم تقض سياسة الاستسلام بأن تجاهد جنود مصر الابطال أجمل وأشرف جهاد وتبذل حياتها رخيصة فى سبيل استرداد السودان ثم تسلم الى الدولة المحتلة هذه البلاد الزاهرة وهى من مصر الروح والفؤاد ؟ فأى فضيحة بعد هذه الفضيحة وأى عار بعد هذا العار ؟ أقام الانجليز الارض وأقعدوها بسبب غردون وثأر غردون ، ونسفوا قبر المهدى نسفاً وأخرجوا رأسه بأشنع صفة وأقبح مثال ، وعقدوا المجامع وألقوا الخطب تحية

وسلاما على روح هـذا الفقيد ، ورفعوا رايات الفرح والنصر للأخذ بثأره ؛ والمصريون ينظرون الى هذه المناظر ويتساءلون : أليس لدماء من مات منا ثمن؟ أليس لرجالنا قيمة ؟ أليس المصرى فى شريعة الله انسانا ككل انسان ؟ أتموت منا الجنود والابطال قبل استرداد السودان وفى سبيل استرداده ولا يذكرون بشىء ؟ بل يقوم منا من يهنئ الانجليز بأخذ ثأر غردون ؟ أيكون دم فرد من الانجليز غالى الثمن رفيع القدر ودماء الآلاف من المصريين لاثمن لها ولاتقابل بغير النسيان ؟ لقد تعاظم الخطب ، وأصبحت الحياة مرة ، وبات الوطن فى أشد الاخطار ، وكل منا يهمل واجباته وينتحل لنفسه عذرا ، فمنا من يطمع فى الثروة والترقى ، ومنا من يخاف الذل والفقر ، ومنا من لايشعر بالمسؤولية ؛ ومنا من استولى على قلبه اليأس والقنوط »

الى أن قال :

« إذا ألقى الخطيب النصيحة على قومه ظن كل انسان أن النصيحة موجهة لغيره لاله ، فيقول (لقد أصاب الخطيب ولكن الأمة ميّتة) ؛ فمن هى الأمة ؟ ألستم من أعضائها وأهم أعضائها ، أو ليست الأمة الفرد متكررا ، فاذا قام كل واحد بواجباته وأصلح المعوج من أموره صلحت أحوال المجموع وردت على الأمة حريتها وسعادتها ولبس الوطن ثياب الحياة والقوة »

ثم دعا فى خطبته الى قيام كل مصرى بواجباته الوطنية ، والى نشر التعليم القومى ، وتربية النشء تربية وطنية دينية ، وفى الجملة كانت هذه الخطبة من أقوى خطبه ، ودلت على مبلغ ما كان يعانيه من المتاعب والآلام فى بعث الحركة الوطنية فى جو مشبع بروح التخاذل والاستسلام وإيثار المصالح الشخصية على المصلحة القومية

الفصل الثامن

جهاده سنة ١٨٩٩

(اتفاقية السودان)

صُدمت الحركة الوطنية فى مستهل سنة ١٨٩٩ صدمةً جديدة بتوقيع اتفاقية السودان فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، تلك الاتفاقية المشهورة التى خولت انجلترا رسميا حق الاشتراك فى ادارة شؤون الحكم فى السودان و رفع العلم الانجليزى الى جانب العلم المصرى فى أرجائه كافة ، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة البريطانية ، ونتيجة ذلك ولا ريب هو سلخ السودان فعلا عن مصر ، واستئثار الحكومة الانجليزية بحكمه و ادارته ، وقد جاءت هذه الاتفاقية منافية للحجج التى كانت انجلترا تتذرع بها فى حادثة فاشودة ، فان حجتها الظاهرة فى تلك الحادثة أنه لايحق لفرنسا احتلال فاشودة لأنها أرض مصرية ، وهكذا أعلنت الحكومة الانجليزية بين ارجاء العالم أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر ، وصرح اللورد سالسبرى فى هذا الصدد « بأن وادى النيل كان ولا يزال ملكا ثابتا لمصر وأن حجج الحكومة المصرية فى ملكية مجرى النيل وان أخفاها نجاح المهدى إلاّ أنها ليست محلا للنزاع منذ انتصار الجنود المصرية على الدراويش » ؛ وهكذا كانت انجلترا تنادى باحترامها لحقوق مصر وتعلن أن السودان أرض مصرية وتنكر على فرنسا احتلالها فاشودة باعتبارها بقعة مصرية ، ولكنها مالبثت أن تنكرت لهذه الحقوق بعد انسحاب فرنسا من أعالى النيل ، فكان أول اعتداء منها على هذه الحقوق اكراهها الحكومة المصرية على توقيع اتفاقية السودان فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، قبل أن تمضى أشهر معدودة على

انسحاب الكابتن مارشان من فاشودة ، وليس يخفى أن هذه الاتفاقية فيها الاعتداء الصارخ على ملكية مصر للسودان ، وفيها فصم لعرى الارتباط الوثيق بين جزئين لا يتجزءان من أرض الوطن الواحد [(١)] ، ولكن استسلام وزارة مصطفى فهمى باشا جعلها تقبل كل ما أراده الانجليز .

فوجئت الأمة بامضاء هذه الاتفاقية : بعد أن وقع عليها بطرس باشا غالى بالنيابة عن الحكومة المصرية ، باعتباره وزير خارجيتها ، واللورد كرومر بالنيابة عن الحكومة الانجليزية ، ولم يذع أمرها الا عقب امضائها ، وكانت الصحف تجهل أمرها ، ولم تنشر شيئا عن مقدماتها ولا المفاوضات بشأنها ، بل لم تحصل مفاوضات ما فى صددها ، وانما هى ارادة اللورد كرومر أملاها على وزارة مصطفى فهمى باشا : فقبلتها بلا مناقشة ولا شعور بالواجب ، وكل ما حصل من المفاوضة بشأنها أن اللورد كرومر سلم بطرس باشا غالى مشروع الاتفاقية كما وضعته وزارة خارجية انجلترا ، فأخبر بطرس باشا الوزراء بالأمر ، فقبلوا المشروع دون أن يطلع أكثرهم عليه ، فكان عملهم أفظع تسليم فى حقوق البلاد ، بعد تسليم وزارة نوبار فى إخلاء السودان ، وكان موقف وزارة مصطفى فهمى باشا مما ساعد الانجليز على الافتيات والاعتداء على حقوق مصر وكرامتها ؛ فقد كانت مهمتها تنفيذ أوامر الانجليز بلا مناقشة ولا ضمير

وقد سئل أحد أعضائها يوما من صديق له كيف تسكت الوزارة عن هذه

---

(١) أراد الانجليز كذلك أن يمحوا من الاذهان ذكرى فاشودة ، فان هذا الاسم أصبح بعد تلك الحادثة التاريخية التى اهتز لها العالم علماً على امتلاك مصر لوادى النيل ، فما زالوا به حتى غيروه ومحوه من خرائطهم ، وأطلقوا على (فاشودة) اسم (كودوك) ، وغيروا أيضا اسم (مديرية فاشودة) فجعلوها مديرية (النيل الاعلى) ، ومما يؤسف له أن الاطالس التى تطبعها الحكومة المصرية تحتوى على هذا المحو والتغيير

الاعتداءات المتكررة ، فأجابه الوزير : « وهل تريد منا أن نفعل فى نهاية المسألة السودانية ما فعلته الوزارة الشريفية فى بدايتها ؟ وهب رئيسنا الآن أصبح شريفا ثانيا ، أو لم يبق فى الأمة نوبار آخر ؟ » ، فتأمل فى روح الخضوع والاستسلام وانعدام الشعور بالواجب فى هذا القول المخزى

نص اتفاقية السودان

ننشر هنا نص اتفاقية السودان لارتباطها بسياق الحديث

وفاق بين

حكومة جلالة ملكة الانجليز

وحكومة الجناب العالى خديو مصر

بشأن ادارة السودان فى المستقبل

« حيث أن بعض أقاليم السودان التى خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التى بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الانجليز والجناب العالى الخديوى

« وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لأجل ادارة الاقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ماهو عليه الجانب العظيم من تلك الاقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال الى الآن ، وما تستلزمه حالة كل جهة من الاحتياجات المتنوعة

« وحيث انه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على ما لها من حق الفتح وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الادارى والقانونى الآنف ذكره وفى اجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل

« وحيث انه تراءى من جملة وجوه أصوبية إلحاق وادى حلفا وسواكن اداريا بالاقاليم المفتتحة المجاورة لهما

« فلذلك قد صار الاتفاق والاقرار فيما بين الموقعين على هـذا بما لهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتى وهو :

المادة الأولى

تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الأراضى الكائنة الى جنوبى الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى :

أولا — الأراضى التى لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ ، أو

ثانياً — الاراضى التى كانت تحت ادارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقدت منها وقتيا ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد ، أو

ثالثا — الاراضى التى قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعدا

المادة الثانية

يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معا فى البر والبحر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها الا العلم المصرى فقط

المادة الثالثة

تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان الى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ، ولا يفصل عن وظيفته الا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية

المادة الرابعة

القانون وكافة الأوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول به والتى من شأنها تحسين إدارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحويرها أو نسخها من وقت

الى آخر بمنشور من الحاكم العام ، وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسرى مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه ، ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمنا تحوير أو نسخ أى قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة ، وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التى يصدرها من هذا القبيل الى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة والى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوى

المادة الخامسة

لا يسرى على السودان أو على جزء منه شئ مامن القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعدا إلا ما يصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها

المادة السادسة

المنشور الذى يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للاوروبيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أودول

المادة السابعة

لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الاراضى المصرية حين دخولها الى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الاراضى المصرية إلا أنه فى حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتية الى السودان عن طريق سواكن أو أية ميناء أخرى من موانئ ساحل البحر الاحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت الى آخر بالمنشورات التى يصدرها بهذا الشأن

المادة الثامنة

فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أيه جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه

المادة التاسعة

يعتبر السودان بأجمعه ماعدا مدينة سواكن تحت الاحكام العرفية ويبقى كذلك الى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام

المادة العاشرة

لايجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأمورى قنصليات بالسودان ولا يصرح لهم بالاقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

المادة الحادية عشرة

ممنوع منعا مطلقا ادخال الرقيق الى السودان أو تصديره منه وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

المادة الثانية عشرة

قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منها على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والاشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها

تحريرا بالقاهرة فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الامضاءات (كرومر) (بطرس غالى)

وقد احتج الفقيد على هذه الاتفاقية احتجاجا شديدا وأسمع العالم الاوروبى صوته الداوى كعادته فى الدفاع عن القضية الوطنية

نشرت جريدة (الجولوا) الفرنسية خطابا للمترجم بالعدد الصادر فى ٦ فبراير سنة ١٨٩٩ هذا تعريبه :

« جناب المدير المحترم

« إن اتفاقيه السودان المزعومة بين مصر وانجلترا قد جاءت برهانا جديدا على عدم مراعاة انجلترا للعهود والمؤتمرات ، الشيء الذي يعتبره المصريون جميعا باطلا لأنه مخالف للنظامات الاوروبية والقوانين الدولية : فانه أولا ليس لحكومة مصر أي حق في عقد اتفاقية كهذه الاتفاقية ، لأنها تخالف نصوص الفرمانات السلطانية الصادرة الى خديو مصر ، واذا قال قائل إن السودان سلخ من مصر بقرار وزارى أو بأمر عال في سنة ١٨٨٤ وأصبح السودان خارجا عن أملاك مصر ولا يصح أن تطبق عليه نصوص الفرمانات السلطانية فاننا وكل رجال القانون نعتبر هذا السلخ غير قانونى لأن نصوص الفرمانات صريحة فى أن ليس لمصر الحق فى التنزل أو استبعاد أى جزء من أجزائها عنها بأرادتها ، اذاً فالسلخ غير جائز وعقد الشركة عمل باطل وفيه اعتـــداء صريح من انجلترا المحتلة للبلاد

« ثم ألم يصرح ميثاق « ترابيا » (١) الذى كانت انجلترا فى مقدمة الدول الست التى وقعت عليه بأنهن يتكاتفن فى المحافظة على أملاك مصر وألا يكون لاحداهن ميزة على الاخرى ، وأنه لا يجوز لأية واحدة منهن أن تبيح لنفسها امتلاك شبر من الاراضى المصرية

« عارضت الحكومة الفرنسية فى قرض تجريدة السودان ، وقد كان حكم المحاكم المختلطة وهى الممثلة لجميع الدول موافقا لرأيها ، فجاءت انجلترا وأقرضت مصر ما احتاجت اليه من المال ، ثم ماذا جرى بعد ذلك ؟ أدخل الانجليز أنفسهم

---

(١) هو العهد المعروف بميثاق النزاهة ، وقد وقع عليه أعضاء مؤتمر الاستانة فى ترابيا على شاطىء البوسفور فى ابان الحوادث العرابية وبمقتضاه تعهدت الدول الست بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال أى جزء من اراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها (راجع فى تفصيل ذلك كتابنا عن الثورة العرابية ص ٣٢٤ وما بعدها)

بعض جنود ليسوا فى العير ولا فى النفير ليسوّغوا هذه النتيجة السيئة التى ليست فى نظرنا إلا اغتيالا للحقوق القومية فى رائعة النهار وسرقة على مشهد من الأمم جمعاء

« إن الجنود الانجليزية اشتركت اسماً فى حملة دنقلة ليسوغ الأنجليز هـذا العمل بعد أن صرح سواسهم أمام العالم كله بأنهم لا يقصدون بارسال جنودهم الى السودان صحبة الجنود المصرية إلا ليردوه الى مصر تنفيذاً للخطة التى رسموها من احتلالهم مصر واجابة لصوت شرفهم ، ألم يقل اللورد سالسبرى بأعلى صوته « إننا نعمل لرد السودان الى مصر ».

« انتظرنا وانتظر العالم كله نتيجة هذا الاسترداد ، فكانت فظاعة انجليزية متناهية ، إذ نبشوا القبور وبعثروا الجثث وأهانوا الموتى وخالفوا فى ذلك تاريخ المتقدمين والمتأخرين من المتحضرين ، ثم قامت معضلة فاشودة بين كتشنر ومارشان أو بعبارة أخرى بين الحكومتين الانجليزية والفرنسية ، وانتهت بتقهقر فرنسا فطمع الانجليز طمعا كبيرا ورفعوا رايتهم على الخرطوم بجوار الراية المصرية وقد رفعوها سوداء ليوهموا أنها حداد على غردون ، وبذلك يكونون آمنين شر هياج الجنود المصرية ! ، أخذوا بعدئذ يوزعون الجنود المصرية هنا وهناك ، حتى اذا خلا لهم الجو ونضج الطعام بين كراسى الوزراء المصريين أكلوا أكلتهم وبدلوا الراية السوداء براية هذه الشركة المشئومة

« هذا ما جرى وانا ننتظر أن تعضد أوروبا الحكومة العثمانية التى لابد أن تحتج احتجاجا شديداً على هذا العمل المخالف للعهود والمعاهدات والشرف كل المخالفة : نعم إن أوروبا اذا لم تعمل ما تحتمه عليها واجباتها استهانت انجلترا بأمرها وأتت من المنكرات فى وادى النيل ما لا يكون السودان بجانبه شيئاً مذكورا ، فان المسألة لم تكن مسألة السودان فقط بل هى مسألة مصر نفسها ، بل مسألة افريقية أيضا ، فان مصر لا تكون بلدا غنيا قادرا على القيام بدفع ديونه الا

اذا كان مالكا لينابيع النيل التى هى فى صميم السودان وإن مشاركة انجلترا لمصر فى تملكه وهى الشرهة الطامعة التي لا يكفيها نصيب أو نصيبان لما يهدد المصالح الاوروبية ويجعل المستقبل مظلما ، وتصبح الدول التى تظن بها اليوم خيراً فى مقدمة الساخطين على جشعها

« كذلك فان لكثير من الدول الاوروبية أملاكا فى أفريقية وهذه الاملاك تصبح لامحالة تحت رحمة الدولة الانجليزية التي لاتريد إلا أن تضع يدها على كل أفريقية ليكون لها منها هند ثانية ؛ وان الحملات العديدة التى حملتها بواسطة رجالها السياسيين على حكومة الترنسفال والاورنج ليست إلا دليلا قويا على حقيقة مطامعها الافريقية

« أما فرنسا فانها بسبب هذه السياسة قد أساءت الى نفسها كثيرا ، فبعد أن كان المصريون يعتمدون بعض الاعتماد عليها وكان الخديو يجدها الدولة الثانية بعد الدولة العثمانية المدافعة عن حقوقه وحقوق أمته ، أصبحوا اليوم وهى أمامهم من حيث التأثير فى المسألة المصرية أقل من أضعف دولة أوروبية ، نعم إنى أصرح بذلك جهارا لأن السياسة القائمة على الجبن والخوف ليست إلا سياسة مضيّعة للحقوق مبددة للنفوذ مزرية بكل كرامة ، وانى لاأقصد بذلك أنه كان يجب على فرنسا أن تحارب انجلترا بشأن فاشودة ، كلا ؛ ولكنى كنت أرى من الحكمة أن تقبل ترك فاشودة بشرط أن يعود كل شىء الى مصر ، حتى اذا حانت ساعة الخلاص عادت مصر الى قوتها وفى يدها كل أملاكها ، ولكن الحال كانت على الضد من ذلك ، إذ تظاهرت فرنسا بالرغبة فى الدفاع عن عمل رجلها الكبير مارشان وشرف رايتها ؛ ثم فى لحظة واحدة تنزلت عن هذا الدفاع بلا ثمن ، فأخجلتنا بالحط من كرامتها وبعثت اليأس من جهتها الى قلوب كثيرة كانت تراها من قبل دولة الهمّة والكرامة ، أما من جهتى فانى

لا أيأس أبدا من مستقبل بلادى ؛ بل بالعكس أجد التمسك بالدفاع عنها فى شدتها أوجب علىّ منه فى رخائها ، وانه اذا كانت انجلترا تلعب بمصالح الدول فانها لا تستطيع أبدا أن تلعب بقلوبنا التى تنمى فيها بعملها الجائر الحنق عليها كل يوم ، واننا اذا كنا نحمل لها اليوم شيئا كثيرا من الكره والحنق ، فاننا فى مقتبل الايام سنكون ألد أعدائها العاملين على نكالها اذا هى بقيت مصرّة على مخالفة وعودها وعهودها معنا ومضيّها فى هذه الشركة الباطلة

« وليعلم الفرنسيون الذين نجلهم ونحترمهم ونحفظ لهم جميلهم السابق أن عمل ساستهم لا يمحو حسناتهم معنا ، ولكن ، وهو ما نأسف له ، لم يبق فى قلوبنا ذرة من الاعتماد عليهم بعد أن أعلنت الايام خيبة سياستهم فى وادى النيل »

« مصطفى كامل »

دعوته الى نشر التعليم القومى

اتجهت عزيمة المترجم منذ سنة ١٨٩٩ الى حث الأمة على نشر التعليم القومى فى أرجاء البلاد ، لكى تقوى الروح الوطنية فى نفوس الجيل الجديد ويستعد الشباب للاضطلاع بأعباء الجهاد ، وكان المرحوم حسين بك القرشوللى أحد سراة الاعيان بالقاهرة أول من لبى دعوته وأسس مدرسة على نفقته بالحلمية ، وأقام لافتتاحها احتفالا فخما فى سراى الحلمية يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٩ عيد الجلوس الخديوى ، وقد أمّه جمع كبير من العظماء والكبراء وأساتذة المدارس والموظفين والاعيان ، وكان المترجم خطيب هذا الاحتفال ، وقد شكر صاحب المدرسة الحاضرين على تلبيتهم دعوته الى حضور الحفلة ، ثم دعا المترجم الى الخطابة ، فوقف وألقى خطبة نفيسة فى الحث على نشر التعليم القومى ، بدأها بشكر صاحب المدرسة على أريحيته ، قال « ولئن قصرنا فى مديحه والثناء عليه فلسوف يذكره التاريخ بالحمد الجزيل ما دام هذا العمل المبارك قائما يبعث النور الى العقول وغذاء التربية السليمة الى النفوس » ، ونوه بالمعاهد والمدارس التى تأسست فى مصر على

عهد محمد على الكبير وكان لها الفضل فى نهضة مصر العلمية ، ثم استحث أعيان البلاد وأغنياءها على البذل فى سبيل إقامة صرح العلوم والمعارف فى البلاد

انشاء مدرسة مصطفى كامل

(مارس سنة ١٨٩٩)

وكان من أثر دعوته الى نشر التعليم القومى أن هزت الأريحية اثنين من الشبان وهما محمد افندى سعيد التومى واحمد افندى صادق فأسسا فى جهة باب الشعرية مدرسة أهلية بسراى العزبى ، وطلبا من الفقيد أن يقبل تسميتها باسمه، فقبل منهما طلبهما بكل ارتياح وأعلنا عن ذلك فى الصحف فى يناير سنة ١٨٩٩ (١)

سارت المدرسة بادارة مؤسسيها نحو ثلاثة أشهر ، ثم رأيا أن تكون ملكا للفقيد يتولى زمامها ويقوم بأعبائها ونفقاتها وادارتها، وأعلنا عن ذلك فى مارس سنة ١٨٩٩ ، فقبل الفقيد هذا العبء الى جانب أعبائه السياسية والوطنية ، لأنه رأى فى إنشاء هذه المدرسة وادارتها توجيها للنشء الجديد الى التربية القومية التى تغرس فى نفوسهم الفضائل الوطنية والدينية، ونشر بهذه المناسبة البيان الآتى :

« حضرة مدير جريدة المؤيد

« علم قراء جريدتكم الغراء أن المدرسة المسماة باسمى بباب الشعرية قد آل أمرها الىّ وأصبح شقيقى هو المدير لها

« وانى أعلم أن حمل المدرسة ثقيل وأتعابها كثيرة ونفقاتها طائلة ، ولكنى قبلتها بكل ارتياح أملا منى فى خدمة أبناء الوطن العزيز وترقية مدارك الناشئين، وانى أتشرف اليوم باعلان الجمهور أن التعليم فى هذه المدرسة مقرون بالتربية ، لانى أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة ، بل ربما كان كثير الاضرار ،

---

(١) المؤيد عدد أول يناير سنة ١٨٩٩

وأقصد بالتربية التربية الاسلامية المحضة لأن أساس التربية الدين ، وكل أمة يتربى أبناؤها على غير قواعد الدين تكون عرضة للدمار والانحطاط

« وقد رأيت بنفسي فى أغلب مدارس أوروبا اهتماما فائقا بتعليم الدين المسيحى للناشئين ، لذلك عولت على جعل الغرض الاول من المدرسة ترقية الملكة الاسلامية عند التلاميذ، وتمكين مبادىء محبة الوطن والاتحاد والائتلاف من نفوسهم ، وتقديم اللغة العربية على كل لغة ؛ مع ترك الحرية لآبائهم فى الاختيار لهم بين اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية ، ورغبة منى فى نفع أبناء الفقراء قررت قبول ثلاثين فى المائة منهم مجانا

« وانى أسأل الحق سبحانه وتعالى أن يوفقنى وجميع المصريين لخدمة الوطن العزيز الذى أرى السعادة الكبرى فى التفانى لأجل سعادته ، هذا وأرجو منكم أن تتفضلوا بنشر هذه الكلمات فى محليات جريدتكم وأن تقبلوا الخ

المخلص

مصر فى ٢٨ مارس سنة ١٨٩٩ « مصطفى كامل »

وقد انتقلت المدرسة فى يناير سنة ١٩٠٠ من سراى العزبى الى سراى السلحدار بشارع أمير الجيوش البرانى ، وعنى الفقيد بأمر هذه المدرسة ووضع لها برنامجا صالحا يجمع بين التعليم وتهذيب الاخلاق ، وكان يقيم فى ختام كل عام دراسى احتفالا سنويا لتوزيع الجوائز على النابغين فى المدرسة تشجيعا لهم على الاستزادة من العلم ، وكانت هذه الاحتفالات تجمع أكابر القوم وكان المترجم يلقى فيها خطبا جامعة تزيد من روعتها وتعلى من قدرها

سفره الى اوروبا

ابريل سنة ١٨٩٩

برح مصطفى ثغر الاسكندرية يوم ٤ ابريل سنة ١٨٩٩ قاصدا أوروبا

ليستأنف جهاده فى محافلها وأنديتها وصحافتها ، فذهب الى فيينا ثم الى باريس فبرلين فبودابست ، وفى كل عاصمة كان يرفع صوت مصر على صفحات الجرائد الكبرى ، ثم ذهب الى الاستانة وحادث مراسلى الصحف الاوروبية والامريكية عن المسألة المصرية

الانعام عليه برتبة المتمايز

وفى يونيه سنة ١٨٩٩ أنعم عليه السلطان برتبة المتمايز فصار (مصطفى بك كامل) ،وما ذاع نبأ الانعام عليه فى مصر حتى ارتاحت له نفوس أصدقائه وأنصاره، ونفوس الوطنيين عامة ، وعدّوه تكريما للحركة الوطنية فى شخصه ، وتلقى التهانى من الجهات كافة

وعاد الى باريس فى يونيه سنة ١٨٩٩ وألقى فى قصر مدام جولييت آدم يوم ١٨ يونيه خطابا سياسيا دفاعا عن مصر ومطالبها ، سمعه الكثيرون من الكتاب والسياسيين الذين كانوا يؤمّون دار هذه السيدة العظيمة

عودته الى مصر

وعاد الى مصر معرجا على الاستانة ، فأنعم عليه السلطان فى اغسطس بالرتبة الأولى من الصنف الثانى،ثم بالوسام المجيد الثانى

خطبته بالقاهرة

١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩

وألقى يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ خطبة رائعة بالتياترو الطاليانى كان لها دوىّ كبير فى جميع المحافل والدوائر ، افتتحها بالكلام عن مصر فى عهد الاحتلال قائلا : « انه كلما تقادم هذا العهد تضاعفت واجباتنا نحو الوطن العزيز، فقد ظهر للعالم أجمع أن انجلترا تعمل للاستيلاء على مصر ووادى النيل ، وترمى الى نزع كل سلطة من أيدى المصريين ، وتحقق للعامة والخاصة أن المدنية

الانجليزية لا تعرف فى سياستها مع الأمم الضعيفة معنى للوعود والعهود، ولا ترعى حرمة للعدل والانصاف »

وطعن فى سياسة أوروبا عامة قائلا :

« كنا نود من صميم أفئدتنا أن يقوم الانجليز بوفاء وعودهم واحترام شرف عهودهم ، وأن يبرهنوا للعالمين أن المدنية الصحيحة هى المدنية القائمة على الفضائل الحقيقية ، المنافية لاغتيال حقوق الأمم ، ولكن من سوء حظ النوع البشرى أن المدنية الحاضرة أبطلت الرق فى الأفراد وأعلنته فى الشعوب ، واستهجنت مخالفة الذمة والشرف فى المعاملات الشخصية وسمحت بها فى المعاملات الدولية »

ثم انتقل الى الكلام عن حالة الأمة المصرية وما هى عليه من التأخر قائلا :

« إن المسألة المصرية الحقيقية ليست هى مسألة الاحتلال ، ولكنها مسألة تأخر الأمة المصرية ، واستحكام الشقاق بين أفرادها ، وما مسألة الاحتلال الانجليزى إلا مسألة فرعية بالنسبة لها ، فان بقاء الأمة متأخرة منحلة الاعضاء يعرضها الى كافة الاخطار فى سائر الازمان ، وتقدمها فى طريق العرفان واتفاق بنيها على خدمتها وتعاضدهم على اسعادها يحميها من الطوارئ والنوازل ويقيها شر الأعداء »

ودعا الى تعميم التربية والتعليم وجعل الدين أساس التربية الصالحة

الفصل التاسع

ظهور اللواء

(يناير سنة ١٩٠٠)

والجهاد الأكبر

بدأ مصطفى كامل حياته الصحفية وهو بعد فى مدرسة الحقوق ، إذ أصدر مجلة (المدرسة) فى فبراير سنة ١٨٩٣ ، كما تقدم بيانه فى الفصل الثانى (ص٣٨) ثم أخذ يرسل مقالاته الى الصحف من مصرية وأوروبية كما أسلفنا ، وكانت (الاهرام) اكثر الصحف ترحيباً بمقالاته ، يليها (المؤيد) ، وقد رأى الفقيد أن لا بد له من جريدة يومية يتصل بالرأى العام بواسطتها باستمرار ، ويغذى بها عقول القراء ونفوسهم ، ثم تكون علماً للحركة الوطنية التى بعثها واقتاد زمامها ، وقد اختار لهذه الجريدة اسم (اللواء) ، فكان اختيارا موفقا ، إذ كان اللواء هو الراية التى التف حولها الوطنيون سنين عديدة طول حياته وبعد وفاته ، وكان ظهور اللواء من أبرز أعمال الفقيد وأكبرها أثرا فى الشعب وفى الحركة الوطنية ، حتى صار أكبر تعريف له بين معاصريه أنه (صاحب اللواء) ، وعلت منزلة (اللواء) فى نفوس الشعب، وصار اسمه محبباً للنفوس ، حتى سمى باسمه كثير من محلات التجارة والمقاهى والمعاهد ، والى الآن لا يزال اسم (بار اللواء) علماً للمقهى المعروف بهذا الاسم أمام دار الاهرام ، واسم (اجزاخانة اللواء) علما على الصيدلية الموجودة بباب اللوق الخ

أعد المترجم معدات (اللواء) عام ١٨٩٩ ، وصدر العدد الأول منه يوم

الثلاثاء ٢ يناير سنة ١٩٠٠ (غرة رمضان سنة ١٣١٧ هـ) ؛ وكانت داره الأولى بالمنزل رقم ١٣ بشارع فهمى بجوار محطة باب اللوق ، ثم انتقل بعد حوالى عامين إلى المنزل الفخم رقم ٢٩ بشارع الدواوين [1] (نوبار باشا الآن) ، أمام وزارة الحقانية ، وهو المنزل الذى عرف بدار اللواء ، وتوفى فيه الفقيد ، وقد علا شأن الجريدة فى عالم الصحافة من أول ظهورها ؛ وأخذت مكانتها فى نفوس الشعب ، ولا غرو فان شخصية صاحبها قد حببتها الى القلوب ؛ وأضفت عليها روعة ومكانة سامية ، وكان المترجم لطول خبرته بالصحافة واتصاله المستمر بها سواء فى مصر أو فى أوروبا قد اكتمل نضجه الصحفى ؛ فضلا عن كفايته وذكائه ومقدرته الفطرية فى التحرير والادارة ، فظهر الفن الصحفى فى اللواء كاملا ، مما كان له أثره فى انتشاره وعلو مكانته ؛ وكان يصدر يومياً باستمرار حتى فى يوم الجمعة ، ولا يحتجب عن القراء الا فى اليوم الأول من عيد الفطر وعيد الأضحى ؛ ثم أخذ يحتجب يوم الجمعة ابتداءً من شهر مايو سنة ١٩٠١ ، وكان يصدر فى أربع صفحات ثم فى ثمانى صفحات باستمرار منذ أواخر سنة ١٩٠٦ ، بعد أن أحضر له آلة طباعة كبرى تطبع فى الساعة الواحدة ١٢٠٠٠ نسخة

وكان الفقيد يكتب افتتاحية اللواء فى أكثر الأيام ويوقع عليها بامضائه ، وممن كانوا يكتبون فيه المغفور له محمد بك فريد ؛ وشوقى بك أمير الشعراء ، واسماعيل باشا صبرى ، وخليل بك مطران ، وأحمد بك نجيب مؤلف كتاب (حماة الاسلام) ، واسماعيل بك شيمى ، والاستاذ ويصا واصف ، والاستاذ محمد فريد وجدى ، ومحمد بك لبيب البتانونى ، ومحمود بك سالم ، وفؤاد بك سليم (باشا) ، ومحمود بك أنيس ، ومحمود افندى سلامة ، واحمد افندى حلمى ، والاستاذ عبد القادر حمزة ، والاستاذ محمد لطفى جمعة ثم عثمان افندى صبرى ، وسيد على ، وأمين عمر (أبو حفص) ، ومحمد علام ، ومحمد صادق عنبر ، وغيرهم ، ثم

---

(١) الآن رقم ٣١ مكان مدرسة عابدين الابتدائية الاميرية

أخذ تلاميذه يكتبون فيه منذ سنة ١٩٠٦، وصار اللواء شبه مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم ، وتبث فيهم روح الوطنية والاخلاق، وتبصرهم بحقائق بلادهم ومساوئ الاحتلال وصنائعه ، وتستحثهم على الجهاد فى سبيل الاستقلال ، وكان الفقيد لايفتأ يذكّرهم على صفحاته بعبر التاريخ ، ويحى ذكريات الحوادث الماضية ،من مفاخر وهزائم ، كذكرى تنصيب محمد على بارادة الشعب ، وهزيمة الانجليز فى معركة رشيد سنة ١٨٠٧ ، ثم ذكريات ضرب الاسكندرية سنة ١٨٨٢ ،واحتلال الانجليز العاصمة ، وكان أيضا يفسح صحائف اللواء لبيان جهاد الامم فى سبيل حريتها ؛ ويضرب الامثال للأمة بما يجب أن يكون عليه الجهاد والعمل ، فضلا عن البحوث العلمية والاقتصادية والاجتماعية والأدبية ، فغذى بذلك عقول المصريين ونفوسهم بروح الوطنية

وأصدر مجلة أسماها (مجلة اللواء) ، وهى مجلة شهرية تشتمل على أهم المقالات التى تنشر فى جريدة اللواء اليومية ، وصدر العدد الاول منها فى فبراير سنة ١٩٠٠ ، وفى سنة ١٩٠٥ أصدر جريدة اسبوعية باسم (العالم الاسلامى) كان ينشر فيها المقالات والانباء التى تهم الامم والدول الاسلامية ، وبخاصة تعريب ماتكتبه الصحف والمجلات الاوروبية عن العالم الاسلامى

ولقد كنتُ حينما ظهر اللواء سنة ١٩٠٠ لا أزال تلميذا بالقسم الابتدائى بمدرسة رأس التين بالاسكندرية ، حيث كان والدى يتولى منصب الافتاء بمحكمتها الشرعية ، ولم أكن قد فطنتُ بعد لقراءة الصحف ؛ وقضيتُ معظم القسم الثانوى أيضا غير ملتفت اليها ؛ وبدأت خلال سنة ١٩٠٤ أذهب الى قهوة بلدية أنيقة بشارع رأس التين، تجاه سراى محسن باشا، فى كل اسبوع مرة ؛ وكان صاحبها «الحاج احمد» يقدم لنا شراب الليمون (الليموناده) وكان يتقنه كل الاتقان حتى صار علماً على قهوته ، ويطلعنا على بعض الصحف ومنها اللواء ، ولكن لم أتبين بعد منهجه، ولا منهج الصحف الأخرى ، ولم تكن فى ذهنى أى

صورة عن مصطفى كامل ، إذ لم أكن رأيته بعد أو سمعته ؛ وكنت وقتئذ فى الخامسة عشرة من عمرى ؛ولما ذهبت الى القاهرة ودخلت مدرسة الحقوق (اكتوبر سنة ١٩٠٤) لفت نظرى اسم قهوة بجوار المدرسة تسمى (قهوة الحقوق) بشارع عابدين ، لصاحبها الخواجه (اندريا) ، فأعجب طلبة الحقوق وأنا منهم بهذا الاسم ؛ واخترناها لنقضى أوقات الفراغ والسمر بها ، وبدأت هناك أقرأ اللواء قراءة فهم وادراك ، فتعجبنى روحه ومقالاته ، ثم صار بمثابة المدرسة التى تلقيت عنها مبادئ الوطنية ، كما أنه كان مدرسة الوطنية للجيل كله

خطبة الفقيد بالاسكندرية

يونيه سنة ١٩٠٠

لم تصرف الفقيد أعماله فى الصحافة عن توجيه الرأى العام بخطبه الوطنية التى كان لها من الوقع والأثر فى النفوس أضعاف ما كان للقلم والكتابة ، فألقى مساء ٢ يونية سنة ١٩٠٠ خطبة سياسية بتياترو زيزنيا بالاسكندرية فى جمع كبير من الوطنيين، وحضرها كثير من الاجانب ؛ وكان موضوعها شرح الحالة السياسية فى ذلك الحين ، وشحذ العزائم لمتابعة الجهاد والاشادة بالوطنية ، ثم الرد على حملات الصحف الاوروبية فى ذلك الحين على الاسلام ، بدأ الخطبة بقوله :

« سادتى وأبناء وطنى الاعزاء

« كلما جئت الاسكندرية ، ورأيت هذه الحياة الحقيقية التى جعلت لكم مقاما محمودا بين بنى مصر ، أعود شاعرا بأن لى فى هذه المدينة الزاهرة أساتذة فى الوطنية ، عنهم تؤخذ دروس محبة الاوطان ، ومنهم تعرف الأمة حقوقها وواجباتها ، وهذا ما أخرنى فى السنين الاخيرة عن الوقوف أمامكم هذا الموقف، ومناجاتكم فى شؤون الوطن العزيز ، ولكنى أشعر بأن تبادل الميول ، وانتقال العواطف الطاهرة من فؤاد الى فؤاد ، واجتماع القلوب فى وقت واحد حول

آمال واحدة ، وسريان روح مشتركة فى هذا المجموع العظيم ، مما يزيدنا اعتقادا على اعتقاد ، وحبا للديار على حب ، ويخفف عن الوطن المقدس آلام مصائبه العظام »

وقال عن إيمانه بالمستقبل :

« إنى أشد الناس أملا فى مستقبل أمتى وبلادى ، وأرى الشعب الذى أنا منه جديراً بالرفعة والسموّ ، حقيقا بالمجد والحرية والاستقلال ؛ ولولا هذا الأمل وهذا الاعتقاد لكنت فارقت الحياة وتركت الدنيا غير آسف على أحد، وكيف لا أكون ذا أمل وهذه أمتى أجد فيها روحا جديدة وحياة صادقة ووطنية ناشئة قوية ، ومن منكم لايرى ماأرى ؟ هل ينكر أحد شعور الأمة بحالتها وانتباهها من رقدتها وقيامها من وهدتها وعملها لخيرها وسعادتها »

ومما قاله فى الرد على حملات الصحف الاوروبية على الاسلام لمناسبة مقالات المسيوهانوتو :

« قد يظن بعض الناس أن الدين ينافى الوطنية ؛ أو أن الدعوة الى الدين ليست من الوطنية فى شئ ، ولكنى أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان، وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا، ويفديه بروحه وما تملك يداه ، ولست فيما أقول معتمدا على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة ؛ ولكنى استشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر ساسة هذا العصر وهو خير رجل خدم بلاده ورفع شأنها ، فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته « لو نزعتم العقيدة من فؤادى لنزعتم محبة الوطن معها »

وقال عن ارتباط المسلمين والاقباط :

« كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو للشقاق والبغضاء ، وهذه الدعوة

مناقضة للوطنية الصحيحة ، فالاقباط إخوة لنا فى الوطن تجمعنابهم أشرف رابطة وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وا كمل اتفاق »

وكانت الخطابة من أبدع وأبلغ خطبه فى الوطنية

سفره الى أوروبا

يونيه سنة ١٩٠٠

سافر الفقيد الى أوروبا عن طريق الاسكندرية يوم ١٦ يونيه سنة ١٩٠٠ كعادته السنوية ؛ وعهد بادارة اللواء فى غيبته الى شقيقه على بك فهمى كامل

وكان لايفتأ يرسل مقالاته الوطنية الى اللواء فى سياحته يناجى بها الوطن ويسدى الى المصريين نصائحه السامية ، فمن ذلك مقالته (صورة الوطن العزيز) كتبها على ظهر الباخرة سميراميس التى أقلته من الاسكندرية ونشرت فى لواء ٢٨ يونيه سنة ١٩٠٠ ؛ ومقالة (وطن كوشوت) أرسلها من بودابست فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٠ عن جهاد كوشوت بطل المجر ، ومقالته (مظاهر المدنية الحقة) من فيينا فى ٣١ يوليه سنة ١٩٠٠ عما يجب أن يفيده السائح المصرى فى أوروبا ، قال فيها « لايدرك الشرقى منا أسرار المدنية الغربية وأسباب قوة ممالكها إلا اذا زار المدارس والمعامل ، هنا وهناك ، ووقف على نظامات الحكومات ، وقرأ دستورها ، وأدرك أن كل جنس منها غيور على عاداته وأخلاقه ، حريص على دينه ولغته ، وأن الفرد يمثل فى نفسه الأمة بأسرها ؛ ويسير فى كل حركاته وسكناته على ناموس ثابت ودستور لايتغير »

وعاد الى مصر فى اغسطس سنة ١٩٠٠ ، واستأنف جهاده الصحفى فى اللواء ، وكتب فى عدد ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٠ مقالة مهمة عن ذكرى احتلال الانجليز العاصمة

دعوة الأمة الى الاعتماد على نفسها

وأقام يوم أول اكتوبر سنة ١٩٠٠ احتفالا فخما فى مدرسته لتوزيع الجوائز

على النابغين من تلاميذها، وقد أمّه جمع كبير من صفوة القوم دل على ما ناله فى نفوس المصريين من محبة واحترام وتقدير لجهاده فى سبيل الوطن ؛ وكان فى مقدمة الحاضرين اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين فى ذلك العهد ، وألقى على بك فهمى كامل خطبة شكر فيها الحاضرين وأفاض فى بيان أعمال المدرسة ، ثم وقف الفقيد وألقى خطبة نوّه فيها بفضل العلم، وجعل موضوعها وجوب اعتماد الأمة على نفسها فى نهضتها ، قال فى هذا الصدد :

« لست الآن واقفاً أمامكم موقف المتباهى بعمله المعجب بصنعه ؛ ولكننى واقف موقف الخادم لأمته ؛ المفدى نفعها براحته ، فقد أسست هذه المدرسة غير مفكر فى صعوبة العمل وخطورة الأمر ، غير ملتفت الى أقوال المثبطين للهمم ، المميتين للعزائم ، ونهضت بها مدفوعا باعتقاد تملك فؤادى وهو أن كل فرد فى هذه الأمة مطالب بخدمتها مهما قصر الآخرون وأهمل المهملون ، وسرت فى طريقى هذا معتمداً على فاطر الارض والسماء ، نصير العاملين ؛ وعون المجتهدين»

الى أن قال :

« إن كل فرد مهما كان صغيرا مطالب بواجب يؤديه لبلاده ووطنه وأمته ، ولو ترك كل مصرى لأبنائه من بعده حب العمل وعدم الاعتماد على الغير إرثاً لأصبحنا وفينا حياة طيبة تحيى الآمال، وتبعث العزائم عند الرجال ؛ وانى لست أرى لبلادى آفة تهددها بالفناء مثل اعتقاد أبنائها أن الحكومة هى كل شئ ، وبيدها كل أمر وعليها كل واجب ، وأنهم لا يسألون عن هذا الوطن أبداً ، على حين أن التاريخ ينطق بأفصح بيان أن الأمة التى تعتمد فى كل شؤونها على حكومتها أمة منزلتها من الحكومة منزلة العبد من سيده ، أما الأمة التى تظهر فى ميدان الحياة بنشاطها وجهادها وأعمالها ، متحدةً مع الحكومة تارة ، عاملةً وحدها تارة أخرى ، هى الأمة التى منزلة الحكومة منها منزلة العبد من سيده ، وها هى الأمم الغربية نجدها تسبق حكوماتها فى فتح المدارس وإنشاء المكاتب

وتأسيس المستشفيات والقيام بكل عمل خطير ، مع أن حكوماتها من الثروة وقوة السلطان بمكان »

دعوته الى احياء الصناعة

ودعا فى اللواء الى إحياء الصناعة فى مصر ونشر التعليم الصناعى فى عدد ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٠٠ ، قال فى هذا الصدد :

« فايجاد روح الصناعة فى البلاد هو بلا مراء اسمى خدمة تقدم اليها واكبر سعادة تجهز لرجال الغد ؛ وقد أدرك الكثير من فضلاء مصر هذه الحقيقة وهذا الواجب ، فتبادلوا الحديث فى أمر تأسيس مدرسة صناعية ، ولكنهم لم يتعدوا ذلك الى العمل ، وأشد المصريين اهتماما بهذا المشروع الجليل هم أعضاء جمعية العروة الوثقى الذين برهنوا بأعمالهم المشهورة على أنهم رجال عمل يعرفون لمصر حقوقها عليهم ولا يقصرون فى تأدية هذه الحقوق ، فوضع لهم صاحب الهمة الحديدية « حسبو بك محمد » مشروع تأسيس مدرسة صناعية لا يكلفهم من المال كثيرا ولكنه يعود على البلاد وأبنائها بالخير الجزيل »

احياء ذكرى الرجال العاملين

كان الفقيد لا يفتأ يدعو الأمة الى احياء ذكرى العظماء والأفذاذ الذين خدموها فى نهضتها ، ويرى فى ذلك دليلا على حياة الأمة ، وقد كتب فى عدد ١٠ مارس سنة ١٩٠١ يؤنب الأمة على إهمالها تخليد ذكرى فقيد المعارف على باشا مبارك ، قال :

« لا شئ يرفع مقام الوطنية فى بلاد مثل احياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا فى خدمتها ، وقضوا أعمارهم فى العمل لاعلاء شأنها وتحقيق آمالها ، ولا شئ يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان فى أمة وجهلها لتاريخها ، وعدم تقديرها للرجال المخلصين فى خدمتها ، وقد بليت هذه الأمة المصرية العزيزة بذلك الداء

العضال ، فتراها لاتذكر الرجال الا اذا كانوا القابضين على أزمة أمورها ، أو المحركين لحركة الرأى العام فيها ، ولا تهتم بالحوادث الا عند حدوثها ؛ فليس للمصائب فى نفوس أبنائها أثر يبقى ، وليس كذلك للعظمة الماضية بقية باقية فى الأفئدة والضمائر ؛ فلا غرابة اذا كان ذلك سبباً من أسباب تأخرها وعلة من علل انحطاطها »

الى أن قال :

« نهض المصريون عند وفاة المرحوم على باشا مبارك نهضة النار فى الرياح ، ونادى كبير منهم بوجوب عمل اكتتاب عام لاقامة أثر يخلد ذكرى هذا الشيخ الجليل الذى خدم العلم والأدب والوطن خدمة لاتنسى ؛ ولا يصح لأمة تريد أن تحيي أن تنساها ؛ فجمع شىء من المال ، ومضت الايام والاعوام ، وهذا المشروع دفين لا يريد القوم أن يظهروه للملأ مرة ثانية ، أو يحدثوا الناس عنه حديثا جديدا ، فماذا تم فيه ؟ وماذا قررت اللجنة المكلفة باخراجه الى الوجود ؟ هل ذهبت من النفوس محبة فقيد المعارف ؟ أم محت الأيام فضله وقضت على عمله حتى نسى ونسيت آثاره ؟ اللهم إن مصر لاتنال من السعادة نصيبها ، ولا تبلغ من الاستقلال مطلبها ، الا اذا جعل أساس تربية أبنائها تخليد ذكرى النافعين من رجالها وبث فى نفوس الناشئين الاقتداء بهم ومحبة الديار محبة العارف لجمالها المحيط بأسرار تاريخها الخبير بعلل تأخرها وأدواء انحطاطها ، والا فمحال أن يبنى على غير هذا الأساس مجد صحيح وعز دائم »

هذا ما كتبه مصطفى كامل عن اهمال الأمة تخليد ذكرى على باشا مبارك ، فليت شعرى ماذا هو قائل عن اهمال الأمة تخليد ذكراه هو ؟ لقد أفنى عمره فى بعث الحركة الوطنية ، وضحى بحياته فى سبيل مصر ، وذوت زهرة شبابه فى فبراير سنة ١٩٠٨ ؛ وصنع له تمثال لتخليد ذكراه ، فبقى التمثال أربعة وعشرين عاماً سجينا

تضن عليه الحكومة باقامته فى احد الميادين العامة والأمة غافلة عن شأنه

* * *

(قد تفضل صاحب الجلالة الملك فاقتضت ارادته الافراج عن تمثال الفقيد واقامته فى أحد الميادين الكبيرة العامة فقرر مجلس الوزراء بجلسة أول سبتمبر سنة ١٩٣٨ اقامته فى ميدان الملكة فريدة (العتبة الخضراء سابقا) ؛ فجاء هذا القرار من مآثر عهد جلالة الملك فاروق حفظه الله)

خطبته فى افتتاح مدرسة الشوربجى ببريم

(ابريل سنة ١٩٠١)

كان مصطفى مشغوفا بنشر التعليم القومى فى البلاد ، داعياً الى هذا الغرض، عاملا على تحقيقه ، اعتبر ذلك فى تشجيعه حسين بك القرشوللى على انشاء مدرسته، وخطبته فى افتتاحها ؛ ثم انشائه مدرسة (مصطفى كامل) ، وقد أسس أحد خيار الاعيان بمديرية البحيرة وهو المرحوم مصطفى بك الشوربجى سنة ١٩٠١ مدرسة مجانية فى بلدته (بريم) — لاتزال قائمة حتى اليوم — وأقام احتفالا فخما بافتتاحها يوم ١٥ ابريل من تلك السنة حضره مدير البحيرة فى ذلك الحين (احمد فائق باشا) وكان من خاصة أنصار الفقيد المعجبين بجهاده ، وحضرها جمع كبير من الاعيان والكبراء ، وقدعى مصطفى كامل الى حضور الاحتفال ؛ فلبى الدعوة ، وكان موضع الاجلال والاحترام من الحاضرين ؛ وألقى خطبة من خطبه العظيمة عن فضل العلم ، وأثنى على منشئ المدرسة ، ونوه بحضور الناس أفواجا الى هذا الاحتفال، اجلالا للعلم واظهارا لما فى صدورهم من حب للوطن والميل لخيره ، وتكلم عن واجبات الامة أفرادا وجماعات نحو الوطن ؛ ودعا فى خلال الخطبة دعوته الوطنية ؛ وبرهن على أن فى الامة حياة حقيقية واستعدادا عظيما للتقدم اذا وجد من يستحثها على العمل ؛ قال :

« سادتى الاعزاء

« انى بكل ارتياح حضرت الى هذا البلد الامين وانتقلت من عاصمة الديار الى هذه الجهة المباركة لمشاركة القوم فى فرحهم واحتفالهم بما يصح أن نسميه « عيد العلم والتربية »

الى أن قال :

« ليس فى تشييد المدارس واقامة المستشفيات والتنافس فى الخيرات النافعة شىء يسر الوطن ويشرح صدره مثل نفى تهمة الموت الادبى عن المصريين ، قال القائلون وردد المرددون « إن المصريين اتفقوا على أن لا يتفقوا » ؛ وسرت هذه الكلمة فى الأمة وتناقلها الصغير عن الكبير وشرحها فلاسفة السوء ، واعتقد الكثيرون صحتها حتى أخذ القوم يتساءلون عن مبلغ هذه الأمة من القوة والحياة ، يتساءلون هل هى الى المجد والارتقاء سائرة ؟ أم الى الموت والحياة والفناء هاوية .

« فأجبهم يامن رفعت للعلم والوطن منارا عاليا ، أجبهم بأن المصريين اتفقوا على أن يتفقوا ، وأن جمعية العروة الوثقى فى الاسكندرية ، وجمعية المساعى المشكورة فى المنوفية ، والجمعية الخيرية الاسلامية فى أنحاء القطر ، تنادى بأن فى الأمة رجالا أحياء ذوى همم عالية ؛ وعزائم صادقة ، أجبهم بأن هذه المدارس الأهلية التى أنشئت فى الديار بهمم الافراد هى الحجج الدامغة على حياة الأمة ووجود من يهتم لأمر تقدمها ونهضتها .

« لاداء أضرّ بالأمة وأشد وبالا عليها مثل داء اعتقادها السوء فى نفسها ، ويأسها من مستقبلها ، فجاهدوا ضد هذا الداء مااستطعتم ؛ واعلنوا عليه حربا عوانا ، وبثوا فى أبناء الأمة مبادئ الثقة بالنفس والاعتماد على المجموع ؛ وربوا البنين والبنات على محبة الوطن »

« الوطن ! الوطن ! كلمة ترددها الألسنة وتكتبها الصحف ؛ وينطق بها

الناس على اختلاف مراتبهم ، ويصيح بها كل انسان ، فماذا للفرد الواحد فى هذه الكلمة ، بل ماذا له فى الوطن نفسه؟، له كل شئ ؛ ونصيبه من فخاره عظيم ، كما أن مسئوليته فى مصائبه كبرى

« ألا يشعر الواحد منا بعظمة حقيقية وسمو كبير إذا قال (بلادى) وكانت بلاده عالية المقدار رفيعة الشأن والاعتبار؟ ألا يجد فى كلمة (بلادى) التصاقا بالوطن واشتراكا فى أفراحه وأحزانه بنصيب كبير ؟ ألا تدل هذه الكلمة وحدها على أن كل واحد منا مطالب بنصرة الوطن وإسعاده ، مسئول أمام الله وأمام الناس عما يناله من سوء وضر ؟

« ألا يكون المصرى موضع الاكرام والاجلال بين شعوب الورى اذا قال (مصر بلادى) وكانت مصر مصدر العلم والنور ، ومقر التمدن والتقدم ، ومثال القوة والعظمة فى الحرية والاستقلال ؟

« أجل ! للصغير كما للكبير من المصريين نصيب فى رفعة الوطن أو انحطاطه ، فلا يدّعينّ أحد منكم أن غيره المسئول دونه عن القيام بخدمة البلاد وإعلاء شأنها ، « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته »

فى باريس

سافر مصطفى الى باريس فى صيف سنة ١٩٠١ ، وانتهز الفرصة لرفع صوت مصر فى الصحافة الاوروبية ، وكانت حادثة فاشودة وما انتهت اليه من تراجع فرنسا وانصرافها عن فتح باب المسألة المصرية قد أوجدت جوّا من اليأس من نجاح مصر فى جهادها ، فرفع الفقيد صوتها من جديد ليعلن عن أمانى قومه ومثابرته على الجهاد

نشرت جريدة (الاكاير) الباريسية فى عدد ٢٩ يوليه سنة ١٩٠١ مقالة فى هذا الصدد قالت فيها :

« حضر أخيرا إلى باريس وطنى مصرى له فى بلاده نفوذ عظيم ، ألا وهو

مصطفى كامل بك صاحب جريدة (اللواء) التى تظهر فى القاهرة ، وهو مشهور فى أوروبا ويعرف اسمه معرفة أكيدة كل المشتغلين بمسائل مصر ، وهو خطيب فصيح اللسان قوى الجنان ؛ طالما جمع صوته الصفوف وارتاح لسماع أقواله الكثيرون من أبناء وطنه وغيرهم ، وقد اهتم الانجليز بالقضاء على هذا الاحتجاج الحىّ ضد احتلالهم مصر ، وحاولوا محو تلك الدعوة للاستقلال ، ولكنهم لم يفلحوا ، ولا مراء فى أن هذا الشاب المصرى هو من أهم أعلام العالم الاسلامى الذين يهمنا موقفهم ، فهو جذاب يستميل محدثيه بسهولة ، وآدابه عالية ، ويتكلم الفرنسية ببلاغة تامة ورقة سليمة »

وقد سأله محرر الجريدة عن شؤون مصر ، فأجابه بصراحة عن كل ماسأله ، وكان أهم سؤال وجهه اليه المحرر «هل المصريون يائسون الآن من مستقبل بلادهم بعد حادثة فاشودة »

فأجابه ـ «كلا إننا لم نيأس ، ولن نيأس أبدا من مستقبل الوطن العزيز ، فاننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية ، ونعرف أن حظ انجلترا فيها سيكون كحظ الدول المتقدمة عليها ، ولكننا اذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا فاننا يائسون كل اليأس من أى تعضيد يأتينا من أوروبا ، وأصبحنا نوجه همتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربيتها بانشاء المدارس فى أنحائها حيث ينشأ الشبان على أشرف مبادئ الوطنية والشهامة ويتعلمون من الصغر تاريخ العظمة السالفة ويربون على الثقة بالمستقبل والايمان بأن لبلادهم فى الايام الآتية مستقبلا باهرا ومقاما عاليا »

احتفال مدرسة مصطفى كامل

(٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢)

برآسة الامير محمد ابراهيم

علت منزلة المترجم فى نفوس المصريين لثباته فى مجاهدة الاحتلال ، وازداد

إقبال القراء على اللواء ، وبدت هـذه المنزلة فى الاحتفال الذى أقامه لتوزيع الجوائز على النابغين من مدرسته يوم الخميس ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢ ، فقد حضر الاحتفال نحو أربعة آلاف مدعو، حتى ضاقت بهم ساحة المدرسة ، واجتذبت وطنيته الى ميدان العمل أميرا من خيرة أمراء الأسرة العلوية؛ وهو الأمير محمد ابراهيم [1] ليرأس الاحتفال ، فكان أول أمير رأس حفلة علمية أقامها زعيم الحركة الوطنية ؛ وهذا يدلك على وطنية الأمير محمد ابراهيم، كما يدل على قوة التأثير المعنوى للفقيد ، وهـذا التأثير من خصائص الزعيم الوطنى ، وقد حضر الاحتفال جمع كبير من الشخصيات الكبيرة فى المجتمع ، نذكر منهم يحيى افندى قاضى قضـاة مصر ، الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الازهر ، الشيخ محمد بخيت ، حسن باشا عاصم ، اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين، اسماعيل باشا صبرى الشاعر المشهور (وكيل وزارة الحقانية) ، محمود شكرى باشا ، فيضى باشا ، عبدالحميد باشا صادق ، عبدالسلام باشا المويلحى ، وغيرهم ، وكانت لجنة الشرف التى تولت توزيع الجوائز مؤلفة من الأمير محمدابراهيم رئيسها وحسن باشاعاصم ومحمود شكرى باشا عضويها

وقد خطب فى الاحتفال على بك فهمى كامل شقيق الفقيد ومدير المدرسة عن اطراد سير التعليم فيها ونجاحها ونوه بالقسم المجانى فيها

وألقى المترجم خطبة فياضة شكر فيها الامير محمد ابراهيم والمدعوين على حضور الاحتفال بعبارة بليغة ثم عرج على دعوته الوطنية يبثها فى النفوس ، وأشاد بنهضة مصر العلمية منذ عهد محمد على

مجاربة اليأس والثقة فى الامة

ثم دعا الى التضامن وتوحيد الكلمة والثقة فى الأمة قائلا : « عجبا وألف

---

(١) ابن الامير ابراهيم باشا احمد ابن الامير احمد رفعت بن ابراهيم باشا الكبير وقد توفى رحمه الله سنة ١٩٠٦، وهو والد الاميرين محمد على ابراهيم وعمرو ابراهيم

مرة عجبا ! كيف تسيء الظن بنفسها أمة تغلبت على الايام والحوادث ، وقاتلت الليالى وما ولدت ، وقاومت تيارات الزمان أجيالا طوالا وأوقفتها وهى فى منتهى قوتها ؟ كيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها انها ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسيا منسيا ، وهى التي اهتز لمجدها الشرق والغرب ، وسارت الركبان بأحاديث مفاخرها ؟ كيف يقضى اليائسون عليها وقد كانت قبل عهد محمد على اكثر أدواء وأقل أملا فى الشفاء من الآن ثم عادت لها الحيــاة والقوة والجاه والعز ورفعة الشأن »

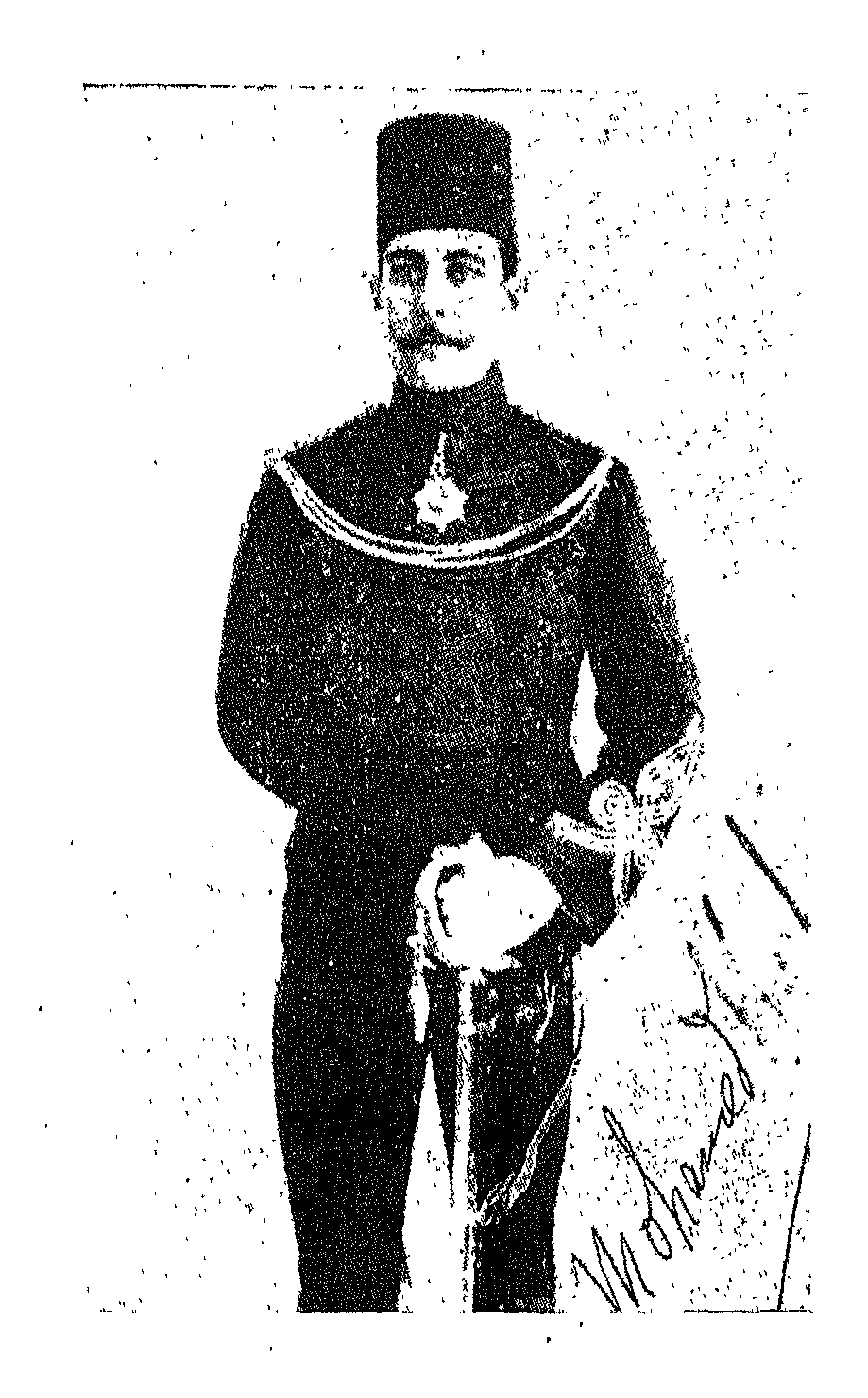
الثقافة الوطنية

« ليست حاجة مصر الى شئ فى هذا الزمان مثل حاجتها الى تخريج رجال متحدى الكلمة متفقى الرأى عارفين بتاريخها معتبرين بعبر حوادثها ناهضين بها مجدين فى سبيل إسعادها ؛ وليس لنا بانشاء هذه المدرسة غاية غير هــذه ، فانما نحن لا نرمى الى تربية موظفين أو إعداد طلاب للشهادات ؛ وان كان يسرنا على الدوام فوز التلاميذ بين أقرانهم المتعلمين فى المدارس الأخرى فى الامتحانات العامة ، ولكننا نرمى الى تخريج رجال خلائقهم محبة الوطن والتمسك بالفضيلة والارتباط بعضهم ببعض والتفانى فى خدمة هــذه البلاد ، نرمى الى تكوين نفوس عالية تأبى الضيم والذل وتهوى الشرف والمجد ، وترى الحياة بغير عز الاوطان وسعدها حياة شقاء وبلاء »

ثم دعا الى إحياء اللغة العربية لنشر الثقافة واحياء الآداب وتقدم الافكار ، وضرب الامثلة بنهضة اللغة القومية فى بلاد المجر إذ كانت أداة للنهضة الوطنية فيها ، وكانت خطبته تقاطع فى معظم عباراتها بتصفيق الاستحسان

خطبة الامير محمد ابراهيم

ونهض الامير محمد ابراهيم ، وألقى بلغة عربية فصيحة خطبة قيمة موجزة كان لها تأثير كبير فى الحاضرين ؛ قال فيها :



الامير محمد ابراهيم

« أيها الساده الكرام

« يسرنى أن أراكم مجتمعين فى هذا النادى ، نادى العلم والادب ، فرحين بنجاح أبنائكم نجاحا يبشر بحسن مستقبلهم وفوز النابغين منهم بالجوائز التى أعدتها لهم المدرسة ، وقد زرت هذه المدرسة منذ عامين وقضيت فيها زمنا تأكدت فيه أن القائمين بأمرها والمدرسين لتلاميذها يقومون بواجباتهم حق

قيـام ، ولذلك تعلقت بها وبمن فيها ، وما سمعت بهذا الاحتفال إلا وأتيت اليه مسرورا مرتاحا

«وانكم تعلمون جميعا أن مصر كانت شمسا تضئ العالمين ، ومنبعا غزيرا للعلوم والمعارف ، ومنبتا للفضائل ومكارم الاخلاق ، ثم قضى الجهل على ذلك كله حتى تولى ملك مصر مولانا العباس الثانى وعمت روح العلوم أنحاء البلاد وأخذ الجهل يتقلص عن هذه الديار العزيزة

« وانى مسرور جدا بحضور هذا الاحتفال واشتراكى معكم فى هذا العمل الجليل ، وآمل أن هذه المدرسة تكون قدوة لكل راغب فى بلوغ المراقى السامية ، وأشكر سعادة مصطفى كامل بك لكونه دعانى لرئاسة هذا المحفل ، وأسأل الله تعالى أن يوفقنا الى مافيه الفائدة تحت رعاية أكبر نصير للعلوم والمعارف مولانا ولى النعم الأفخم الخديو المعظم»

وقد كانت هذه الحفلة وما حفها من المهابة والجلال، ورياسة أمير من الأسرة العلوية لها ، وخطبته ، وخطبة الفقيد فيها ، وحضور جمع كبير من أعلام مصر وأقطابها ، كل أولئك كان مظهراً واضحا بارزا للمكانة العالية التى بلغها مصطفى كامل بين الطبقة الممتازة من المجتمع ، وهـذه المكانة كانت فوزا له وفوزا للحركة الوطنية التى صارت مرادفة لاسمه

الاحتفال بالعيد المئينى لمحمد على

٢١ مايو سنة ١٩٠٢

اقترح المترجم على صفحات اللواء اقامة احتفال قومى كبير يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠ هـ (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) تذكارا لمرور مائة عام على اختيار زعماء الشعب محمد على واليا على مصر ، قال فى هذا الصدد تحت عنوان (العيد المئينى لمؤسس العائلة الخديوية) :

« خير الاعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات الى النور ،

وخروجها من الجهالة الى العلم والحضارة ، وارتقائها في سبيل الحياة العالية ، وارتباطها بعائلة مالكة أجلستها على العرش بارادتها وصافحتها للنهوض الى ذرى العلياء ونوال المنن والنعماء ، واعتمدت عليها فى ارشادها الى واجباتها وحقوقها والمقاصد السامية التى يجب أن ترمى اليها »

وبعد أن أشاد بتاريخ محمد على وما قام به من جلائل الأعمال فى سبيل إنهاض مصر ، دعا الى الاحتفال بالعيد المئينى لولايته قائلا : « وهذا التذكار السامى يوافق ميعاده يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠ ، أى لم يبق على حلوله الا خمسة عشر شهرا [1] ؛ فليفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله اعترافا بفضل محييها واجلالا للوطن نفسه الذى نهض فى عهده نهضته الكبرى ووثب بين الأوطان وثبة الاسد القاهر ، فخير ما يحيى الوطنية فى النفوس ويجمع جموع هذا الشعب العظيم الأسيف ذكرى العظمة الاهلية والمجد الوطنى ؛ ولمثل هذا فليعمل العاملون ويتنافس المتنافسون »

وفى الحق ان ابتكار الفقيد هذه الفكرة يدل على وطنية عالية ونظر صادق وفكر ناضج ، لأن خير ما يحفز الأمم الى الجهاد فى سبيل استقلالها المسلوب هو الاحتفال بذكريات مجدها وعظمتها ، ففى تلك الذكريات تقارن بين ماضيها وحاضرها ، وتدرك الفرق بينهما ، فتتضاعف عزيمتها فى الجهاد للتخلص من حاضرها المهين ، واستعادة مجدها التليد ، فلا غرو أن قوبل الاقتراح بالارتياح من الوطنيين ، كما قابله صنائع الاحتلال بالحقد والسخط ، لأن هذا الاحتفال هو فى حقيقته مظاهرة تاريخية قومية ضد الاحتلال ، وقد تردد صدى الاقتراح فى الصحف الاوروبية المحلية فكتبت عنه (الريفوزم) مقالا جاء فيه :

« لقد اقترح رصيفنا وصديقنا مصطفى كامل بك فى جريدته (اللواء) اقتراحا نوافقه عليه كل الموافقة ، وهو اقامة احتفال عظيم بتذكار مرور مائة عام على

---

(١) كتبت المقالة فى عدد ١٣ شوال سنة ١٣١٨ — ٣ فبراير سنة ١٩٠١

انتخاب أعيان المصريين للرجل العظيم واليا على مصر ، وان محمد على هو مؤسس العائلة الحاكمة فى مصر ، ومنشئ مصر الحديثة نفسها ، وقد أظهر مصطفى كامل فى مقالته الجميلة العمل الكبير الذى قام به هذا الرجل العظيم ، وكيف أنه أنقذ هذه البلاد من الفوضى التى كانت تمزقها ، وأقام فيها نظاما محكما حتى صارت مصر فى عهده من القوة والعظمة بمكان »

وقد نجحت الفكرة نجاحا رائعا ، وألقى مصطفى بمسرح زيزنيا بالاسكندرية خطبة كبرى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ (١٣ صفر سنة ١٣٢٠) وهو يوم التذكار المئينى لولاية محمد على ، موضوعها (عمل محمد علي وواجبات المصريين نحو وطنهم) ، ضمنها ماعمله محمد على لاحياء مصر ، وقارن بين مجدها فى عهده وما صارت اليه من الذل والمهانة فى عهد الاحتلال ، وناشد المصريين أن يهبوا لاحياء مجد مصر واستقلالها ودستورها ، وقد كان الاقبال على سماع الخطيب عظيما ، اذ حضر الاجتماع ثلاثة آلاف ونيف من وجوه البلاد وأعيانها وفضلائها وموظفيها وشبابها ، وهرع اليه كثيرون من مختلف الاقاليم حتى من اسوان ، وقوبلت الخطبة فى معظم مواضعها بالتصفيق والاستحسان ، وبخاصة عند ماذكر الخطيب ضرورة انشاء مجلس نيابى لمراقبة أعمال الحكومة وتقييد أعمالها ، فكانت دعوة الفقيد الى المجلس النيابى فى هذا الاحتفال الكبير اكبر دعاية للدستور ، والخطبة طويلة ممتعة لاسبيل الى ايرادها أو تلخيصها هنا [1] ، وهى خلاصة تاريخية جليلة لاعمال محمد على ، تتخللها استثارة النخوة الوطنية فى النفوس ، وانا نكتفى ببعض فقرات منها كنموذج لروح الخطابة وغرض الخطيب قال :

« من ذا الذى يذكر منا مجد مصر فى عهد ذلك الأمير ولا يذكر أنه مسئول عن زواله مطالب باسترداده »

وقال فى موطن آخر :

« بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان احدثكم اليوم معاشر المصريين

---

(١) نشرنا معظمها فى الفصل الثانى والعشرين

عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته ايام (محمد على الكبير)؛ وقد حاولت انجلترا أن تقضى على هذا الملك الجديد وهذه الدولة الناشئة، وتزيل من سماء المجد والاقبال هذه الشمس المشرقة، فأراها يومئذ بنو مصر أى أمة هم؛ وأراهم محمد على أى أمير هو، فتركت الثغور والبلاد، آسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقة والهمة الحديدية»

وقال أيضا مشيرا الى حالة اليابان حين نهضت مصر فى عهد محمد على:

«أين كانت اليابان يومئذ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة؟ كانت فى دياجى الظلمات وغياهب الجهل، تعد اذا ذكرت فى عداد الاموات، فقف أيها المصرى فوق اطلال التاريخ، وارقب الحوادث: وانظر الى أى حال صارت اليابان، والى أى حال صرنا؛ وماذا كنا نبلغ من الشأن والشأو لو سلكنا ذلك السبيل الذى وجهنا اليه محمد على الكبير»

وصف الخطبة وتأثيرها

كانت هذه الخطبة من اعظم خطب مصطفى كامل لجلال موضوعها، وقد أحدثت فى النفوس تأثيرا كبيرا تردد صداه فى أرجاء البلاد وفى الدوائر الاوروبية، وكانت من أعظم دروس الوطنية التى ألقاها الفقيد فى خطبه الكبرى، ويبدو عظم تأثيرها مما كتبته الصحف فى وصفها وما احتوى الوصف من اجلال للخطبة والخطيب.

كتب الشاعر الكبير خليل بك مطران يصف الاحتفال فى «الاهرام» (١) بقوله:

«اكتب اليكم هذه السطور من موضع مشرف على البحر، مجاور له، أسمع منه مناداة حبابه، ومناجاة نسماته، وأرى من حركته الدائمة المستمرة ما يخيل لى أن على ظهر كل موجة مهداً، يهز صعدا وحبباً: وأن فى المهد أمراً طفلاً، سيكون

(١) عدد ٢٤ مايو سنة ١٩٠٢

بعد حين أمراً كهلا ، فهل ذلك الامر الذى تهزه الامواج وتغذيه الشمس وتنميه الليالى، سيكون أمنية مرجوة لمصر تتحقق، وهل المناداة والمناجاة اللتان أسمعهما أول أصوات البُشرى التى ستعلو بعدحين؟ذلك ماأوهمتنى اياه خطبة مصطفى بك كامل التى سمعتها البارحة بين جمهور لايقل عن ثلاثة آلاف نفس مختلفى الجنس والدين ، اكثرهم من المصريين، وغير قليل منهم الذين حضروا من القاهرة والريف

« وقف يتكلم فى الساعة التاسعة ، وقد ضاق النادى على اتساعه بالناس ، عشرات عشرات فى اللوجات ، جلوسا ووقوفا فى الكراسى وفيما بينها ، صامتين تشوقا الى ما سيسمعون ، منتظمين انتظاما طبيعيا ، ليس من عمل شرطى ولا ترتيب بواب ، بل من هيبة الموقف ورجاء ما يتوقع »

وبعد أن أتى على ملخص الخطبة ختم رسالته بقوله :

« ولما فرغ الخطيب من التكلم صفق الناس حتى كلّت الأيدى ، وخرجوا معجبين باقتداره وسعة صدره وشدة اخلاصه ، معتبرين بما سمعوه من مؤثر العظات أعظم الاعتبار ، وأحاط بالخطيب جمهور من الأصدقاء فهنأوه أحسن تهنئة ، ولا غرو فانه صوت مصر الحىّ ولسان ضميرها المجاهر»

وقالت جريدة (البصير) :

« كان أمس موعد الخطابة التى ألقاها فى تياترو زيزنيا حضرة الخطيب المفوّه رصيفنا الفاضل سعادة مصطفى بك كامل صاحب اللواء الأغر ، فكان الملعب غاصاً بالحضور ، وما ساءنا انشغال المكان المعد لنا بقدر ما سرنا ما رأيناه من الزحام الدال على اعجاب المصريين بالخطيب ، وتشوقهم الى سماع خطبته الوطنية ، فكان يندفع اندفاع السيل بما عرف به من طلاقة اللسان ، ويذكر من أعمال مؤسس البيت الخديوى الكريم وواجبات المصريين نحو وطنهم ما يثير الهمم فى النفوس الخامدة ، ويبعث روح الحياة الى المشاعر المائتة ، مذكراً المصريين أن كل أمة

لا تعتمد على نفسها ولا تثق بمجموعها فلا رجاء لها ولا تبلغ ما تبلغه الأمم المتمدنة فى سبيل الحضارة والعمران ؛ ثم أشار الى الفرق بين مصر اليوم وبينها فى عهد محمد على ، فأحاط بجميع أطراف هذا الموضوع بكلام كان غاية فى البلاغة ورشاقة التعبير ، حتى دوت جوانب المرسح بالتصفيق ، وتساقطت على الخطيب طاقات الزهر بالعشرات ، وفى الجملة فان الخطاب كان بديعا من اكثر وجوهه ؛ ولو لم يرد فيه من التحامل على المحتلين وكبار رجال الحكومة ما نشارك فى الانتقاد عليه فريقا ممن كان حاضرا من العقلاء ، لاسيما وأن الموقف لم يكن يحتمل مثل هذه الابحاث ؛ وفى كل حال فاننا نثنى على حضرة الخطيب وعلى ما رأينا من علائم الوطنية الصادقة التى كانت تبدو بين ثنايا الحضور »

وتردد صدى الخطبة فى الصحف الاوروبية ووصفت الخطبة ونوّهت بالمنزلة السامية التى نالها الفقيد فى اقتياد الحركة الوطنية

قالت جريدة (الفارد الكسندرى) تحت عنوان (مصر المصريين) ما يأتى :

« لخّصنا فى عدد أمس الخطبة التى ألقاها أول البارحة بكل اقتدار ونجاح حضرة رصيفنا الفاضل مصطفى بك كامل ؛ وقد أبنا النجاح الذى ناله الخطيب والذى لم يكن ليشك فيه أحد ، لأن صاحب (اللواء) الوطنى الشاب اعتاد مثل هذا النجاح الخطابى الباهر ، ولكن ما منعنا ضيق الصحيفة عن ذكره البارحة والذى يجب علينا أن نقوله اليوم هو أن الجمهور العديد الذى حضر خطبة مصطفى بك كامل أظهر من العواطف والميول ما يعد استثنائيا بالنسبة لجمهور مصرى ، فان الناس كانوا يعتقدون قبلا أن السواد الاعظم من المصريين لا يعرفون لكلمة (الوطنية) معنى ؛ وان هذا الاعتقاد الذى كان أصحابه غير مخطئين فيه صار لا محل له الآن ، لأنه كان يكفى للانسان أن يرى أول البارحة تيار الوطنية الشديد الذى كان يخترق القاعة ويمر بين كل الصفوف ويشاهد التأثير القوى

البادى على الوجوه كلما كان الخطيب يلقى عبارة وطنية ليعتقد أن المصريين يعرفون معنى الوطن والوطنية ، فأبناء مصر يظهرون الآن بمظهر الرجال العارفين لحقوقهم وواجباتهم واخلاصهم نحو الوطن ، ولسنا بمبالغين اذا قلنا ان للخطيب الشاب الذى صفق له الجمهور أى تصفيق يدا قوية فى تغيير الميول المصرية ، وترقية العاطفة الوطنية ، فان مصطفى بك كامل أقام يجاهد بالرغم عن شبابه الغض نحو عشر سنوات لمصلحة وطنه ؛ واستخدم القلم واللسان والتعليم لهذا الغرض الشريف ؛ فهو يربى العاطفة الوطنية فى جريدته ، ويلقى الخطب عن الوطن وحقوقه ، ويعلم فى المدرسة التى انشأها منذ ثلاث سنوات ٢٧٠ تلميذا ، فهو يعمل بهذه الاسلحة الثلاثة لاحياء الروح المصرية » .

وكتبت بهذا المعنى جريدة (الريفورم)

ووصفت جريدة (الكوريرى اجبسيانى) الايطالية الخطبة بقولها :

« ازدحم الناس ازدحاماً غريباً على تياترو (زيزنيا) حتى لم يبق مكان لجالس ولا محل لواقف ، وما خرج مصطفى بك كامل الى منبر الخطابة حتى حياه هذا الجمهور الاستثنائى العدد بالتصفيق المستمر ، وقد ألقى الخطيب خطبته بقوة جنان وثبات واقتدار ، وكانت الوطنية بادية فى كل أقواله واشاراته ، والحمية ظاهرة على وجهه ، وتأثير خطابته واصل الى أعماق القلوب ، وان النجاح الذى ناله عظيم ، ولا مراء فى أنه يستحقه » .

ولم يفت جريدة (الاجبشيان جازيت) الانجليزية التى تعبر عن الاحتلال أن تنوه بجلال الاحتفال مع التحفظ فى الوصف ، اذ قالت :

« ألقى مصطفى بك كامل خطبته البارحة على عمل محمد على فى تياترو زيزنيا فازدحم المصريون لسماعها ، وبعد أن أثنى الخطيب على الباشا الكبير تكلم فى الاحتلال البريطانى وذكر الموافقة بين تاريخى جلاء الانجليز عن

الاسكندرية فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧ ودخولهم مصر فى ١٤ سبتمبر ء ١٨٨٢ ، وطلب من الحاضرين مساعدته على اخراجهم بالثانى »

دعوته الى الدستور

كان مصطفى مع دعوته الى الجلاء لايفتأ يدعو الى الدستور ليكون أداة الحكم الصالح فى مصر ، كتب فى عدد ٥ اكتوبر سنة ١٩٠٠ من (اللواء) مقالا بعنوان (الحكومة والأمة فى مصر) ذكر فيها وعد اللورد دفرين باسم حكومته أن يؤسس فى مصر مجلس نيابى واخلاف الحكومة البريطانية هذا الوعد كاخلافها وعودها فى الجلاء، ثم قال :

« لعمرى اذا كان الانجليز يودون حقيقة أن يعيشوا مع هذا الشعب المصرى فى وفاق واتفاق ويسيروا به فى طريق السعادة كما يدعون فأول واجب نطالبهم به هو أن يحققوا وعد اللورد دفرين ويجعلوا للحرية والعدالة أساسات قوية متينة لا تستطيع يد بشرية انجليزية أو مصرية أن تمسها بسوء »

وقد دعا الى الدستور فى خطبته فى العيد المئينى لمحمد على يوم (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) كما تقدم بيانه ، وكان على صفحات اللواء يدعو الى المجلس النيابى كأداة لاصلاح عيوب الحكم ، كتب فى عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢ مقالة تحت عنوان (افلاس الاحتلال) أظهر فيها فساد الأداة الحكومية فى المعارف والداخلية وختمها بقوله :

« وعندى أن هذه الادوار المختلفة والادواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة هذه البلاد الى مجلس نيابى تكون له السلطة التشريعية الكبرى ، فلا يسن قانون بغير إرادته ، ولا تحور مادة الا بمشيئته ، ولا يزعزع نظام بغير أمره ، ولا تعلو كلمة على كلمته ، وإلا فان بقاء السلطة المطلقة فى يد رجل واحد سواء كان مصريا أو اجنبيا يضر بالبلاد كثيرا ويجر عليها الوبال »

وكتب تحت عنوان (إنشاء مجلس نيابى) فى عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٤ من اللواء ما يأتى :

« لعل قراء اللواء وغيرهم من أفراد الامة المصرية يذكرون ماقلناه من فوق المنابر وكتبناه فى هذه الجريدة وغيرها عن وجوب انشاء مجلس نيابى منذ عشر سنوات كاملات ، ويسرهم كما سرنا أن هـذا المطلب العزيز صار على ألسنة الـكثيرين من أهل القطر ، لأنه الأنشودة التى يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال ، وسواء كان سابقا أو لاحقا لتخلص البلاد من رق الاحتلال ، فانه الضمانة الوحيدة والـكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة ». الى أن قال :

« ليس للاحتلال مصلحة فى ايجاد مجلس نيابى لهذه البلاد ، ولـكن صوت الامة يعلو على صوته إذا تمسكت به ودعت اليه وطالبت وجاهدت بقوة الرأى والفكر والثبات التى هى أكبر القوى الفعالة فى حياة الامم ، فلتفعل فانما هى تخطو بالوصول اليه اكبر خطوة فى طريق الاستقلال »

مجىء مدام آدم الى مصر
(يناير سنة ١٩٠٤)

رغب مصطفى الى مدام جوليت آدم المجىء الى مصر ليوطد علاقة الود والحب بينها وبين الوطن المصرى ، فلبت الدعوة وجاءت فى يناير سنة ١٩٠٤ ، واستقبلها استقبالا حافلا ، وقد استضافها عمر بك سلطان (باشا) بالمنيا ، وصحبها الفقيد فى هذه الرحلة ومعه الأمير حيدر فاضل لمشاهدة آثار بنى حسن ، وذهبوا الى اسيوط حيث استقبلهم حسين بك فهمى المحامى واحمد بك خشبه والسيد كامل بك خشبه ، وذهبوا الى البلينا حيث تناولوا الشاى بمنزل عبـــد اللطيف بك ابو ستيت ، ثم الى الاقصر حيث استقبلهم بالحفاوة عبد الـكريم بك العمارى ويسى بك انداروس ، وشـاهدوا الآثار المصرية ، وذهبوا الى إسنا فتناولوا



مدام جوليت آدم
(انظر ص ٥١ و ١٦٧)

الشاى بمنزل متولى بك حزين ومدنى افنـدى حزين ؛ ووصلوا فى رحلتهم الى اسوان فكانوا يقابلون فى كل مكان بالحفاوة والاكرام

وقد حضرت احتفال توزيع الجوائز فى مدرسة مصطفى كامل يوم ١٩ فبراير سنة ١٩٠٤ ؛ وكان احتفالا فخما حضره من شخصيات مصر البارزة يحيى افندى قاضى القضاة . والشيخ محمد بخيت . والسيد عمر مكرم . وحسين باشا واصف

واللواء بايغ باشا ، ودانينوس باشا . وحضرت مدام آدم تصحبها مدام يونج زميلتها فى السفر ، وبعض كبار الاوروبيين ، وألقى مصطفى كامل فى هذا الاحتفال خطبة من خطبه الرنانة ، ضمنها وجوب تعليم النشء تاريخ بلاده والعناية بالتربية والاخلاق فى المدارس

وقصدت الفيوم فى أواخر فبراير ، يصحبها مصطفى كامل ومحمد فريد ومدام يونج والكونتس دى كولتور ودانينوس باشا ، ونزلوا ضيوفا على خالد باشا لطفى

وقد رحب بها الفقيد ترحيباً عظيما ، وكتب عنها مقالة بعنوان (ضيفة مصر) بعدد ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤ نوه فيها بشخصيتها الكبيرة قال :

«زارت مصر فى هذه الأيام أميرة من أكبر أميرات الرأى والقلم والسياسة ، ألا وهى مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الطائرة الصيت ؛ زارت مصر وقد عشقتها من قديم ، وشغفت بها من عهد شبابها ، ودافعت عنها بقلمها السيال السنوات الطوال ، فلذلك حق لمصر أن ترحب بها وللمصريين أن يقابلوها بالشكر والاعظام ، أتمت ضيفتنا العزيزة فى شهر أكتوبر الماضى (١٩٠٣) السنة السابعة والستين من عمرها ، ومضى عليها خمسون عاما وهى الكوكب الساطع فى سماء الأدب الرائع ، ونشرت الى اليوم اثنين وعشرين مؤلفا من أرقى المؤلفات وأسماها ، وقد نفدت كلها لكثرة الراغبين فى مطالعتها والمعجبين بها»

الى أن قال : «منحها الخالق كل ما يرجوه الانسان فى حياته ، من مال وجلال ، وعلم وأدب ، وسمعة طائرة ، ونفوذ كبير ، وقد استخدمت كل هذه المواهب فى خدمة وطنها ، فهو قبلتها ، وفى سبيله تضحى كل مرتخص وغال ، لم أر فى رحلاتى العديدة ومقابلاتى الكثيرة شخصا أحب وطنه بهذا المقدار ، ولم أجد ثباتا فى الحب كثباتها فى حب بلادها ، وتفانيا فى الخدمة كتفانيها ، وأملا قويا فى المستقبل كأملها ، ملأ اليأس قلوب الكثيرين من الفرنسيين من

رجوع الالزاس واللورين لفرنسا ، وبقيت هى قوية الآمال ، لاتعرف اليأس ولا اليأس يعرفها ؛ وهكذا الوطنية الحقة تجعل الفؤاد راسخا لايتزعزع ؛ والعقيدة أقوى من الاطواد ؛ كان لضيفتنا الكريمة الشأن الأعلى والدور المهم فى تأسيس الجمهورية الفرنسية والتحالف الفرنسى الروسى ، وكم تقررت أمور خطيرة فى دارها ، لأن كبار الجمهورية وفى مقدمتهم « جمبتا » كانوا يسترشدون بأفكارها ، ويعترفون بأنها صائبة الرأى ، لاتخطئ المرمى : وذلك فضلا عما كان لزوجها المأسوف عليه « ادمون آدم » من المقام العالى والكلمة المسموعة والخدمات الباهرة ، ولولا ثروته الواسعة لما أفلح الحزب الجمهورى فى ظروف كثيرة ؛ أحبت مدام آدم بلادها ، فأحبت كل محب لبلاده ؛ وعرفت الوطنية الراقية ، فأجلتها عند كل وطنى ، ولذلك تجد اسمها محبوبا عند الأمم الناشئة المحتاجة الى المرشد والمعضد ، تجد دارها فى باريس مزدحمة بالقصاد من أنحاء العالم ، كلهم يطلبون منها الارشاد ، ويقدمون لها فرائض الشكر والاعجاب ، اعتقدت أن الحق قاهر مهما قهر فى بادئ الأمر ، وأنه ذو الكلمة الأخيرة فى كل قضية ، فأبعدت القنوط عن نفسها وعمن حولها ، وكم سمعتها تبث الآمال فى قلوب محبيها الكثيرين بأقوالها الصادقة وعباراتها المؤثرة ، فمثل هذه الضيفة العزيزة من تكرم الدنيا ويعز بنو الانسان ؛ واذا كان اكبر صفات المصريين اكرام الضيف وعدم نسيان المعروف ، فلا بدع اذا رأيناهم يتسابقون لاكرامها واعلان شكرهم لها على حبها لبلادهم ودفاعها عنهم ، فانما هم يثبتون بهذه المظاهرات الودية أنها لم تخطئ فى قولها واعتقادها ان المصريين أحياء وأنهم سيبهرون العالم بحياتهم ومستقبلهم فى القريب العاجل » .

وقد أولم الخديو عباس الثانى لمدام آدم وليمة عشاء فاخرة فى قصر القبة مساء ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤ حضرها ستة عشر مدعوا من الأمراء والكبراء وتناول معها الخديو هو وضيوفه طعام العشاء تكريما للضيفة العظيمة

وذهبت صحبة مدام يونج والمترجم وحسين باشا واصف الى بورسعيد ، فأقيمت لهم حفلة فخمة فى المدرسة الواصفية خطب فيها الفقيد خطبة شيقة ، وكان المجتمعون يبلغون عدة آلاف جاءوا تكريما لضيفة مصطفى كامل

وغادرت مصر يوم ٤ مارس سنة ١٩٠٤ بعد أن أقامت فى مصر ستة أسابيع رأت فيها من الفقيد ومن أنصاره ومن الأمة المصرية غاية الحفاوة والاكرام؛ وشاهدت مظاهر الحركة الوطنية التى بعثها مصطفى ، وقد تأثرت مما لقيته فى مصر من الحفاوة ، وماشاهدته من عظمة آثارها القديمة ، وكتبت فى جريدة (الجولوا) الفرنسية مقالة عن الأثر الاول لمشاهداتها قالت فيها :

« إن أرض مصر تضم كل المدنيات السابقة : وسماء مصر هى أول سماء مزقت فيها السحب حيث سمح بذلك للانسان أن يشعر بوجود الخالق ، ولم يعهد التاريخ أمة بلغت من القوة والعظمة ما بلغته الأمة المصرية حتى صبغت العناصر الاخرى بصبغتها ؛ وبقيت فى آن واحد فى حالة الفطرة الأولى ، مالكة نفسها على مر الزمان ، ولم يتحكم الأجنبى فى أمة كما تحكم فيها ، ولم تتخلص أمة من الأجنبى بصورة مستمرة كما تخلصت هى ، وان استرداد مصر لنفسها أمر تكرر الى حد أنه صار قانونا فى تاريخها ؛ وانه ليمكن للانسان أن يؤكد أن مصر ستبقى الى الأبد مصر »

الانعام على الفقيد بالباشوية

أنعم السلطان على الفقيد برتبة الباشوية فى مارس سنة ١٩٠٤ ، فصار يعرف بمصطفى كامل باشا ، وقد كان لهذا الانعام رنة فرح كبيرة فى الأوساط الوطنية ، وزادت مكانته رفعة وعلواً ، لمـا للقب الباشوية من التأثير فى نفوس العامة والخاصة فى بلادنا

الفصل العاشر

الاتفاق الودى

بين فرنسا وانجلترا

(٨ ابريل سنة ١٩٠٤)

وقع فى سنة ١٩٠٤ حادث سياسى خطير كان له أسوأ الأثر فى اتجاه المسألة المصرية ، وكان بمثابة صدمة شديدة للحركة الوطنية ، ونعنى به العهد المعروف « بالاتفاق الودى » المبرم بين فرنسا وانجلترا فى ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ .

كانت العلاقات بين الدولتين تزداد جفاءً على أثر انسحاب فرنسا من فاشودة ، فرأى بعض رجال السياسة فى كلتا الدولتين أن يسعوا فى إزالة أوجه الخلاف بينهما لكى تقاوما نفوذ ألمانيا الآخذ فى الازدياد فى أوروبا والعالم ، والذى كان يهدد مصالح الدولتين ، وكان للملك ادوارد السابع الذى تولى عرش انجلترا سنة ١٩٠١ دخل كبير فى توجيه هذه السياسة ، لما كان يشعر به من الميول نحو فرنسا ، واعتبرت زيارته لباريس سنة ١٩٠٣ فاتحة عهد الاتفاق بين الدولتين ، وأخذت الحكومتان فى تسوية المسائل المختلف عليها بينهما ، وأسفرت مفاوضاتهما عن ابرام « الاتفاق الودى » بينهما فى ٨ ابريل سنة ١٩٠٤ ، وصار هذا الاتفاق عاملا مهما فى اتجاه السياسة الدولية ، إذ كان تكملة للمحالفة بين فرنسا والروسيا ، لمقاومة التحالف الثلاثى بين ألمانيا والنمسا وايطاليا .

وكان الجزء الخاص بمصر هو أهم نصوص هذا الاتفاق ، فقد أعلنت انجلترا فى المادة الأولى منه بأنه « ليس فى نيتها تغيير الحالة السياسية لمصر » ، وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها « بأن لا تعرقل عمل انجلترا فى هذه البلاد لا بطلب

تحديد أجل الاحتلال البريطاني ولا بأى صورة أخرى » ، وهذا الالتزام من جانب الحكومة الفرنسية مقابل التزام الحكومة البريطانية أن لا تعرقل عمل فرنسا فى مراكش ، وتعهدت الحكومة الفرنسية بأن توافق على مشروع الدكريتو الخديوى المرافق للاتفاق ، والمحتوى على الضمانات التي رؤيت ضرورية لصيانة مصالح حملة أسهم الدين المصرى ، وأهم هذه الضمانات تخصيص ضرائب الأطيان لخدمة الدين العام بدلا من الايرادات المختلفة التى كانت مخصصة لها من قبل وهى السكك الحديدية والتلغرافات وميناء الاسكندرية والجمارك وأربع مديريات ، وتعهدت الحكومة المصرية بعدم تخفيض ضرائب الأطيان إلى مادون أربعة ملايين جنيه فى السنة ، إلا بعد موافقة الدول ، وفى مقابل ذلك ترك للحكومة المصرية المال الاحتياطى المتوفر فى صندوق الدين وقدره خمسة ملايين جنيه ونصف تتصرف فيه كما تشاء ، واتفقت الدولتان على بقاء إدارة الآثار المصرية مسندة إلى عالم فرنسى ، وتمتع المدارس الفرنسية فى مصر بنفس الحرية التى تمتعت بها فى الماضى ، وصرحت الحكومة البريطانية فى الاتفاق بأنها تستعمل نفوذها لكى لا تكون حالة الموظفين الفرنسيين الموجودين فى خدمة الحكومة المصرية دون حالة الموظفين الانجليز بها

ومعنى هذا الاتفاق إقرار فرنسا للاحتلال البريطانى فى مصر ، وعدولها عن مطالبتها بالجلاء ، وتبدو من ثنايا نصوصه وعباراته روح الحماية التى انتحلتها انجلترا على مصر ، لأنها تعاقدت عنها وعن شؤونها المهمة دون دخل لها . واتفقت عليها دون رضاها أو علمها ، وهذا من أخص امتيازات الدولة الحامية

تأثير الاتفاق فى مصر

كان هذا الاتفاق من المؤامرات الاستعمارية التى اتفقت عليها الدول الاوروبية لسلب الأمم واغتصاب استقلالها وحقوقها ، وكان من نتائجه أن قوى مركز انجلترا فى مصر ، وظهر تقرير اللورد كرومر فى ابريل سنة ١٩٠٤ فبدت فيه

روح السيطرة ، وتكلم فيه بلسان الحاكم المطلق التصرف ، وطعن في المصريين بأن رماهم بعدم الكفاية للحكم الذاتى ، وكان من نتائجه المعنوية أن رجح فى نفوس الخاصة كفة اليأس ، فتفشت فيهم نزعة الضعف والتخاذل والنفعية والانصراف عن متابعة الحركة الوطنية ، إذ رأوها تتعثر فى طريقها ولا تصادف نجاحا ، ورأى أكثرهم أن الخير لهم فى الانضواء تحت لواء الاحتلال ، فجنحوا للسياسة الخضوع والاستسلام وتمايق الانجليز ، وابتغاء الزلفى لديهم ؛ وسرت هذه الروح الهادمة للحركة الوطنية من صفوف الخاصة إلى طبقات العامة

أثر الاتفاق فى نفس المترجم

أما مصطفى فلم يتراجع أمام الاتفاق ، ولم يتزعزع يقينه فى الجهاد ، لأنه كان قد نفض يده من مساعدة فرنسا منذ حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ ، تلك الحادثة التى أدت الى انسحاب فرنسا فعلا أمام انجلترا وتركها تفعل ماتشاء فى وادى النيل ، وما كان اتفاق سنة ١٩٠٤ الا توكيداً رسميا لما سارت عليه فرنسا فعلا بعد حادثة فاشودة ، فلا غرو أن قابل الفقيد هذا الاتفاق بالثبات والجلد ، ومضى فى جهاده لايلوي على شيء ، وقد كان هذا الحادث السياسى امتحانا جديدا لعقيدته وثباته ، فبرهن على أن وطنيته راسخة كالطود ، ثابتة كالجبال ، وبلغ بذلك قمة الوطنية الصادقة ، واستثار فى النفوس من جديد روح الأمل والجهاد

كتب في هذا الصدد [1] يقول مخاطبا المصرى :

«انظر الى الشعوب التى أصابها ما أصاب شعبك ، تجد البولونى وقد مُزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث ، يجد ويعمل مفكرا كل يوم بل كل لحظة في بولونيا ، يذكر تاريخها ويبكى أيامها الخالية ، ويربى ابنه على حبها والتمسك بحقوقها ، والفنلندي وقد لبس هو وبقية أفراد أمته ثياب الحداد يوم قررت الروسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الامة ، والايرلندى وقد عارض

(١) اللواء عدد ١٨ ابريل سنة ١٩٠٤

انجلترا فى ضغطها على بلاده وسلبها لحقوقه، واستمر يعارض ويجاهد حتى حملها على تجريد اللوردات من أملاكهم بثمن بخس ورد الاراضى الارلندية الى أصحابها الاصليين ، وانظر الى غيرهم وغيرهم، لتعلم أن الامم كبيرة كانت أو صغيرة، حاكمة أو محكومة ، لا تسمو فيها الاخلاق والصفات ولا ينشأ بينها رجال الفكر العالى والعمل الكبير الا بالشعور الوطنى ، فكل عامل على اطفاء نوره محارب لامته وقومه وذويه ، وكل داع اليه مجد فى سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقى الخالد»

خطبة رياض باشا

فى احتفال مدرسة محمد على الصناعية

قلنا عن نتائج الاتفاق الانجليزى الفرنسى ان طبقة الخاصة من الامة قد ازداد فيها الضعف والتخاذل والانصراف الى المنافع الشخصية ، وكان أول مظهر لبروز هذه الروح الهدامة للحركة الوطنية ، خطبة رياض باشا رئيس الوزراء الاسبق فى الاحتفال بانشاء مدرسة محمد على الصناعية ، ذلك أن جمعية (العروة الوثقى) بالاسكندرية أقامت احتفالا كبيرا يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٠٤ لوضع الحجر الاساسى لهذه المدرسة ، وقد رأس الخديو عباس هذا الاحتفال ، فعظم شأنه ، وصارت له صبغة رسمية ، واتجهت أنظار الناس الى ما يجرى فيه ، فألقى رياض باشا أمام الخديو خطبة امتدح فيها اللورد كرومر لغير مناسبة ، وقد كان معتذرا لعدم حضور الاحتفال ، كما امتدح الاحتلال ، مما كان له وقع أليم فى النفوس ، إذ قال ضمن خطبته بين يدى الخديو ما يأتى :

« جناب المحتشم اللورد كرومر اعتذر اليوم عن الحضور فى هذا المحفل لتغيبه عن مصر ، كل يعلم ماله من المقام الأرفع والنفوذ الشامل فى هذه البلاد، وبالأخص ماله من اليد الطولى فى كل ماله مساس بالمصالح والمنافع العمومية ، فهذه اليد الفعالة قد شملتنا، وهى التى كانت لنا معوانا ، بل متمما ومكملا لهذا المشروع، فحق علينا

أن نعرف له هذه المبرة و نقدم لجنابه واجب الشكر ؛ و نثنى عليه أطيب الثناء ، ولا نبرح أن نترجاه بأن لا يترك هذا المولود وهو فى المهد صبياً ، بل يراعيه بعين عنايته ويواسيه ويواليه ، الى أن يتربى ويبلغ أشده و يصير رجلا قويا يقوم بأود نفسه

« مولاى ! اسمح لى أن أتكلم بما يخالج ضميرى بحرية ، إذا نظرنا وتأملنا الآن الى ماجريات الاحوال وطبقنا ماضيها على حاضرها نجد أن الاحوال و الافكار قد تغيرت تغيرا كليا ، واتخذت لها مجرى جديدا نحو التقدم والترقى و بث العلوم والمعارف وانتشارها فى كل بقعة من بقاع البلاد ، وكل مانراه أمام أعيننا من هذه المشروعات العلمية الأدبية والمؤسسات الخيرية الاهلية تتلو بعضها بعضا لا نشك ولا نرتاب فى أنها أثر من آثار هذا الانقلاب ، فلا حاجة بنا الى أن ندخل فى موضوع الشرح والتأويل ، ولا البحث والتدقيق فى علل الامور ومسبباتها ، بل نكتفى الآن بأن ننظر بعين البصيرة والاعتبار الى ما كنا عليه بالأمس ، ومانحن عليه اليوم ، ونهنئ أنفسنا ونتهلل بشرا ونسجد لله شكرا على ماوصلنا اليه من التقدم الباهر مستبشرين بما تدلنا عليه قرائن الاحوال بمستقبل زاهر »

قوبلت هذه الخطبة بالدهشة ، إذ دلت على روح الخضوع والزلفى والاستكانة التي تفشت بين طبقة الوزراء والكبراء فى ذلك العصر ؛ وهى الروح التى ضربت الذلة والمسكنة على البلاد سنين عديدة ، وكانت أقوى سلاح استخدمه الاحتلال لرسوخ قدمه فى البلاد ، هذه الروح هى التى كان يناهضها مصطفى كامل بكل قواه منذ قام يدعو الى مقاومة الاحتلال ، فلا غرو إذ ثارت نفسه لخطبة رياض باشا التى كانت إهانة كبرى للشرف القومى والحركة الوطنية ، وما كان يمكن لمصطفى وهو حامل لواء الوطنية أن يدع هذه الروح تنتشر فى النفوس فتميت فيها الشعور الوطنى وروح الجهاد ، فحمل على الخطبة حملة صادقة

أيده فيها الرأى العام تأييدا قلبيا ، وكتب عنها أول ما كتب مقالة تفيض وطنية واتزانا واعتدالا فى لهجتها ، قال فيها :

« يعرف قراء اللواء من أول نشأته أننا ضحينا فى كل الحوادث ميولنا الشخصية خدمة للمنافع العمومية ، وأثنينا على أشخاص لا نميل الى بعضهم ، واستحكم النفور بيننا وبين البعض الآخر ، وأطريناهم لأنهم قاموا للبلاد بخدمات مشكورة لاعتقادنا أننا نخدم الوطن لا أنفسنا ونعمل لرفعة شأنه واعلاء قدره لا للتشفى والانتقام ، وأن الواجب الاول على كل قائم بعمل عام وكل كاتب يجرى قلمه لصالح الوطن أن يكون منصفا عادلا ، لا يبخس أحدا حقه ، لما فى ذلك من التشجيع على الفضائل والاعمال النافعة والتنفير من الرذائل والنقائص

« ويعرف أصدقاؤنا رأينا بشأن سياسة رياض باشا وأدواره وأطواره فى حكومة البلاد ، وأننا تناسينا ذلك لما رأيناه يساعد جمعية العروة الوثقى ويشترك معها فى مساعيها الجليلة التى قوبلت بالارتياح العام والشكر التام من كافة المصريين ، ولكن لم يكن يدور فى خلدنا أن دولته يتذرع بالعروة الوثقى ومساعيها الحسان ليتملق الاحتلال والمحتلين ويشهر هذا السلاح ليقتل به العواطف العالية لا ليستخدمه لصالح البلاد كما شاء فضلاؤها الذين سلموه إياه

« إن دولة رياض باشا قال مالم يقله مصرى منذ اثنين وعشرين عاما ، وطعن الأمة طعنة قتالة وسخر من أبناء وطنه جهارا ، وانتهز فرصة هذا العيد الوطنى المصرى ليرينا ويشهد العالم كله كيف يتقلب رجال السياسة وكيف يكون التناهى فى تمجيد المحكومين للحكام وعبادة الذين فقدوا استقلالهم لمضيعيه وسالبيه

« إذا كان دولة رياض باشا يريد أن يشرح الصفات الشخصية لجناب اللورد كرومر التى يعرفها محبوه وأعداؤه على السواء فاحتفال أول أمس لم يكن ميدانا لشرح صفات الرجال السياسيين وأعمالهم ، ولو كان يبتغى شكره على مائة الجنيه التى تبرع بها لمدرسة محمد على الصناعية ، فنحن أول من يعترف بالجميل ويعلنه ،

ولكن ليست هذه الاقوال مما يقال للشكر والثناء، وكم من الناس تبرعوا بمثل هذا المبلغ ، فلم لم يُذكروا مثل جنابه ؟ واذا كان المتبرع بمائة جنيه يستحق هذا الثناء الهائل، فكيف نسى دولته من تبرع بمائة فدان (المنشاوى باشا) ولم يشر الى عمله العظيم بكلمة واحدة ؟ أليس هو الذى أحيا الجمعية حياة طيبة وسهل لها سبيل النجاح ؟ لذلك لم يرتب أحد من الحاضرين والسامعين فى أن رياض باشا تعمد انتهاز هذه الفرصة للتقرب من المحتلين والتملق لهم واعلان السياسة التى طالما أنكرها وتبرأ منها ، وأجمع مريدوه قبل مبغضيه علي أن حضوره فى حفلة وداع السير الدون جورست أولا ، وأقواله عن عميد الاحتلال فى حفلة مدرسة محمد على ثانيا ، وتجنبه ذكر المنشاوى باشا لكراهة جناب اللورد له ثالثا ، دلائل كافية على ما يريده من التحبب الى الانجليز لتعود الوزارة اليه »

وقد ثار الرأى العام على رياض باشا لخطبته، وانهالت رسائل الاحتجاج ضده فى الصحف من مختلف الجهات من الاسكندرية حتى اسوان، ودلت هذه الحركة على يقظة الروح الوطنية فى النفوس واستنكارها سياسة التملق للاحتلال وتمجيده

خطبة الفقيد بالاسكندرية

٧ يونيه سنة ١٩٠٤

كان الموقف السياسى يستدعى خطبة من خطب الفقيد يحيى فيها العزائم ويحفز النفوس الى الجهاد رغم الاتفاق الانجليزى الفرنسى الذى فت فى عضد الكثيرين وبخاصة بعد خطبة رياض باشا التى أعلن فيها سياسة التملق للاحتلال

فألقى خطبة وطنية كبرى فى الاسكندرية بمسرح (زيزنيا) مساء الثلاثاء ٧ يونيه سنة ١٩٠٤ ، جعل موضوعها (الموقف السياسى لمصر . وواجبات المصريين)

بدأها بقوله :

« سادتى وأبناء وطنى الاعزاء!

« لقد وقفت بينكم هذا الموقف مرارا ، وعرضت عليكم آرائى فى شؤون الوطن ومصالحه تكرارا ، ولكنى لا اظن أن الحوادث دعت المصريين فى وقت من الاوقات للنظر فى حاضرهم ومستقبلهم واستحثتهم لتبادل الافكار فيما هم عليه وما يصيرون اليه كما دعتهم فى هذا الوقت الذى خاب فيه بعض الآمال ، وتساءل الناس هل قضى علينا أم لايزال لنا مخرج من هاتيك الظلمات وطريق للنجاة من ذلك الحكم الاجنبي وتلك السيطرة الانجليزية »

ثم تكلم عن « الاتفاق الودى » وائتمار انجلترا وفرنسا بمصر ومراكش ، وحمل على السياسة الاستعمارية الانجليزية والفرنسية ، ثم عرج على سياسة الاستسلام التى يسلكها وزراء مصر وكبراؤها ، وقال إن هذه السياسة كان لها دخل فى التحريض على هذا الاتفاق « لأنه لايوجد فى العالم إنسان يخدم من لايخدم نفسه ويدافع عن حق من تنازل عن حقه ، وقد استسلمت حكومتنا للاحتلال استسلاما أبعد عنها كل محب لها ميال لمساعدتها (١) ؛ فاذا لمنا الغير مرة على إغفاله حقوق الماضى وروابطه ، وجب علينا أن نلوم أنفسنا ألف مرة ، لأنه مهما كان ذلك الغير مقصرا فى واجباته الأدبية ومخالفا لتقاليده التاريخية فانه دون رجالنا تقصيرا ومخالفة »

واتخذ من عقد الاتفاق الودى دليلاً ساقته الحوادث على دحض مزاعم من كانوا يدعون أن القائمين بالحركة الوطنية محرضون من حزب الاستعمار الفرنسى ، فقد بطلت هذه الدعوى بعد أن أصبحت فرنسا صديقة لانجلترا « ونحن نحن على حالنا ندافع عن المبادىء التى أعلناها للملأ كله من أول عهدنا بالسياسة الى اليوم »

(١) كانت وزارة مصطفى باشا فهمى تتولى الحكم فى ذلك العهد منذ نوفمبر سنة ١٨٩٥

التضحية والثبات

ثم دعا الى التضحية والثبات قائلا :

« إن الذى يسمع صوت ضميره مناديا فى كل لحظة وآن بوجوب خدمة الوطن واعلاء شأنه يشعر بأن دم آبائه الذى يجرى فى عروقه يطالبه بتضحية النفس لتلك الارض الطاهرة التى لاشرف له إلاّ بها ولا حياة بغيرها ، ولا رفعة بدون رفعتها ، ولا مجد اذا زال مجدها ، إن الذى يسمع ذلك الصوت ويشعر بهذا الشعور لايخاف العقبات والموانع ولا يخشى السباب والمطاعن ، بل يسير فى طريقه ناظراً الى الغاية التى طلبها والبغية التى تعلق بها ، واجداً من سهام الاعداء مايجده الجندى فى جراح الحرب من شرف وفخار »

الوطنية لاتنثنى أمام العقبات

« سخر أعداؤنا من الوطنية التى ننادى بها وندعو الأمة اليها ، وقالوا ماشاء الحقد والعداء ، ومن تخلى فؤاده عنها وجهل حقيقتها جازله أن يقول فيها ماقال مالك فى الخمر ، ولكننا نرى أن محبة الاوطان ليست مما تميل النفس اليه ساعة ثم تنفر منه ساعة ، أو وسيلة للتكسب تنقضى بانقضائه ، إنما الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد لهيبه فى القلب ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه واشتدت كربته ، فاذا كنا افتخرنا بهذا الاحساس العالى وتباهينا به ورمينا كل من جهله أو تجاهله أو خالفه بالخيانة ايام كنا نؤمل الخلاص القريب والجلاء العاجل ، نخليق بنا أن نتعلق به اليوم أضعاف تعلقنا به بالأمس ، ونقول لهذا الوطن الاسيف « كلما تمكن العدو منك تمكن حبك من القلوب وتعددت واجباتنا نحوك واشتد تمسكنا بحقوقك »

« أجل أيها السادة ! لاحياة لأمة من الأمم بغير الوطنية الحقة ، ولامعنى للعيش بدونها ، ولا تتجدد الآمال وتقوم الاعمال إلاّ بها ، لقد كانت أمم أخرى

أتعس منا حالا، ودوننا رقيا وتقدما، يحكمها الأجنبي بيد من حديد ، ولا تجد من أفرادها عالما يرشدها أو كاتبا ينصحها أو مربيا يقودها ، ثم ناداها منادى الوطنية وظهر فيها من ينبهها الى هذه القوة الكامنة وذلك الكنز المدفون ، فقامت بعد الرقاد الطويل ونهضت بعد السكون المديد ، وعملت بعد الكسل والخمول ، وتخلصت من قيود الاستبداد والاستعباد بعد أن ذاقت مرارة الظلم والاضطهاد الاعوام والقرون ! »

الاستقلال والاحتلال

« يسألنا أنصار الاحتلال فى الصباح والمساء ماذا عملتم بوطنيتكم وأى فائدة عادت على القطر منها ؟ وهل رددتم اليه حقا أو استرجعتم منصباً أو أوقفتم الاحتلال فى طريقه وحولتم تياره الجارف ؟

« يسألنا الاحتلاليون ذلك تغريراً بالافهام ، وهم يعلمون أننا لم نكن وزراء للبلاد بأيدينا الحل والعقد، أوساسة فى المناصب نناقش الاحتلال فى مصالح الوطن ومطالبه ، بل نحن قوم أحرار نخاطب الأمة ونوجه مساعينا اليها ، نقول لها على مسمع من العالم كله انها لاتكون حائزة لصفات الأمم الراقية والشعوب القادرة، إلا اذا كان الشعور الوطنى متمكنا من نفوس صغارها وكبارها ، لأنه أقوى الروابط وجامعة الجوامع ، نقول لها ونكرر القول ان مصدر المصائب التى حاقت بوادى النيل كان جهل أمته لحقوقها وواجباتها وانحلال أجزائها بموت الشعور الوطنى فيها ، نقول لها ونقيم البراهين على صحة دعوانا ان الاستقلال وحده هو الذى يحمى البلاد والممالك من كل بلاء ويدفع عنها اعتداء الغير ويرقى ملكة الافراد ويهب الشعوب الحرية والحكومة الدستورية والسيادة الداخلية والخارجية، نقول لها ان الاحتلال عار على الأمة وشنار على كل واحد من أبنائها ، وأنه حجة على عدم كفاءتها ، ودليل على نقص مداركها وعدم استعدادها ، وان الانجليز لا يعملون لصالحها مهما ادعى المدعون ؛ لأننا لم نسمع ولم يرو التاريخ

أن أمة قامت بخدمة أمة أخرى وأن مغتصبا لملك سعى لرده الى صاحبه »

ثم تكلم الخطيب عن ثمار الشعور الوطنى الذى دب فى الأمة وما ظهر من نتائجه فى رقى الأمة وأخذها بأسباب النهوض واتساع حركة التعليم القومى وبذل الافراد والجماعات أموالهم للمنشئات العامة وظهور قوة الرأى العام فى اتجاهه الى التعلق بالاستقلال والسخط على الاحتلال

سياسة الاحتلال

وتكلم عن سياسة الاحتلال وما ترمى اليه من قتل الروح الاستقلالية فى الأمة قال :

« إنما تتقدم الأمم وترقى بالتربية والتعليم وبوجود الرجال العقلاء الكبراء ذوى الافكار الرشيدة الذين يقودونها ويدلونها على منافعها وطرق الارتقاء ، فماذا عمل المحتلون لذلك ؟ هل يستطيعون أن يدعوا أنهم رقوا البلاد وأخرجوا لها رجالا قادرين على قيادة أمورها وارشادها ؟

«أليسوا يحاربون فضلاءها وكل ذى استقلال فيها ويمسخون التعليم فى مدارسها مسخاً ويمحون تربية النفس محواً ويقتلون لغة البلاد قتلاً ويضطهدونها فى شعورها ووجدانها ؟ فماذا ينفع المال اذا بقيت الأمة متأخرة جاهلة قاصرة المدارك ؟ »

الوطنية والجهاد والدعوة الى الاتحاد

وختم خطبته بالدعوة الى الاتحاد وبث روح الوطنية فى النفوس والجهاد فى سبيل الاستقلال . قال :

« أيها السادة . إن ازدياد الثروة المصرية ،وانتشار التربية والتعليم، وارتقاء الصحافة ، وغير ذلك من الأمور الحيوية التى ينشرح لها الخاطر وتنبسط لها النفس ، لاترفع للأمة مقاما ولاتعلى لها شأنا اذا لم تكن الوطنية نبراس الأفراد والجماهير ، وغذاء الأرواح والنفوس ، فليجعل كبيركم وصغيركم نصب عينيه

الاستقلال ؛ لأن الحياة بغيره عناء وعذاب ؛ وانكم مهما بلغتم من سعة العيش ووفرة فى المال وارتقاء فى المراتب لاترى فيكم الأمم الرشيدة الأمة قاصرة اذا دام الاحتلال ، فاعملوا للاستقلال واجعلوه أنشودتكم التى تترنمون بها على الدوام، واتركوا محبته كأثمن وأقدس ميراث ؛ ولا تعدوا السنين عليه ، لأن ما تجدونه طويلا فى حياة الفرد منا يعد يوماً أو بعض يوم فى حياة الشعوب، وثقوا بأننا بالغوه، لأن الله الذى يعاقب الشعوب المنقسمة على نفسها بسلبه يكافئها برده متى اتحدت، واتبعت ارادته وعلمت أنه خير ما وهب الرحمن للانسان »

وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق والاعجاب والحماسة والهتاف العالى من الحاضرين الذين كان يبلغ عددهم أربعة آلاف ، فتأثر الخطيب من هذه المظاهرة الرائعة ، وشكرهم شكرا مكررا قائلا لهم : « إنى أعد التفاتكم الىّ وتعضيدكم لى دينا علىّ ، ربما أعجز عن الوفاء به ، ولكنى اقابلكم على هذا الالتفات وهذه العناية بأن اكون فى المستقبل كما كنت فى الماضى : خادم الوطن الأمين»

وكان الاجتماع نجاحا باهرا للفقيد ، كما كان لخطبته دوى كبير فى المحافل والدوائر الوطنية والاوروبية ، لأنه كان أول صوت جهير لمصر ارتفع بعد الاتفاق الودى الانجليزى الفرنسى

وقد وصفت جريدة (البصير) التى تصدر بالثغر الاجتماع والخطبة بقولها :

« كانت ليلة أمس من الليالى المشهودة فى مدينة الاسكندرية ، وذلك للخطبة الغراء التى ألقاها سعادة رصيفنا الفاضل مصطفى باشا كامل : ولقد كان حضورها عديدين جدا ، حتى لاموطىء لقدم ، ولكن النظام كان شاملا والسكوت تاما ، وقد تكفل جمال الخطبة وحسن انتساقها بحفظ ذلك النظام ، ولعل هذا الوصف خير مايقال فيها ، ثم جاءت على مشتملات الخطبة ، وختمت الكلام بقولها « وعلى الجملة فان الخطبة بمعناها كانت من خير مايقال فى هذا العهد ، وهى جديرة بأن تقابل بمثلها من جهة الفعل ، فنرى فى بلادنا اكثر من منشاوى باشا واكثر

من جمعية العروة الوثقى وأكثر من صاحب اللواء يقوم خطيبا ؛ وعندذلك يتم كل مأمول باذن الله وبشريعة التدريج »

وتردد صدى الخطبة فى الخارج ؛ نشرت جريدة (الفيجارو) الفرنسية تلغرافا من مراسلها بالاسكندرية جاء فيه :

« الاسكندرية فى ٨ يونيه سنة ١٩٠٤

« ألقى مساء أمس مصطفى كامل باشا الخطيب المصرى وصاحب (اللواء) خطبة سياسية كبرى فى الاسكندرية أمام جمهور من المصريين يزيد عن ثلاثة آلاف شخص وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق الشديد ، وأكد الخطيب أن المصريين متعلقون الآن بالاستقلال الاهلى اكثر من ذى قبل ، وقال « إن مصر بالغة مكانتها فى العالم عاجلا أو آجلا بفضل التعليم والتقدم الفكرى » ، وقد صفق الحاضرون تصفيقا حادا لمصطفى كامل باشا الذى يعتبره أبناء وطنه حامل لواء الوطنية المصرية » .

ظهور كتابه عن اليابان

(الشمس المشرقة)

وفى يونيه سنة ١٩٠٤ ظهر كتابه (الشمس المشرقة) عن اليابان ، وضعه لمناسبة الحرب الروسية اليابانية وما ظهر فيها من عظمة اليابان التى بهرت العالم بتقدمها ووطنيتها ؛ وقصد الفقيد من تأليف هذا الكتاب أن ينظر المصريون بعين الاعتبار الى الأمة اليابانية التى لم تكن شيئا مذكورا أيام كانوا أصحاب الحول والطول ، ثم صارت بفضل اتحادها ووطنيتها موضع اعجاب العالم ووثبت الى الصف الاول من الأمم القوية العالية المقام ، وأراد أن يبين للشعب كيف ترقى الأمم المتمسكة بأهداب الوطنية

الاحتفال بعرض الجيش الانجليزى

فى ميدان عابدين

كان من عادة الانجليز أن يحتفلوا بعيد مولد الملكة فيكتوريا ثم عيد الملك ادوارد السابع بعرض الجيش البريطانى بميدان عابدين برياسة اللورد كرومر ، ولم يكن الخديو عباس يحضر هذا الاحتفال ، ولكنه بدأ يحضره لأول مرة فى عيد ميلاد الملك ادوارد السابع يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٤ ؛ إذ جاء الميدان مرتديا بدلة التشريفة الكبرى يحيط به ياورانه ؛ ووقف تحت العلم البريطانى بجوار اللورد كرومر ، وشهد العرض حتى نهايته ، فكان لحضوره هذا الاحتفال الذى يمثل الاحتلال الاجنبى تمثيلا مهينا للكرامة القومية أثر أليم فى النفوس ، وكان موضع انتقاد الوطنيين فى مجالسهم وأحاديثهم ، مما اضطر « المعية » (1) الى اصدار بلاغ رسمى تنسب فيه حضوره الى مصادفة وجوده بسراى عابدين يوم العرض ؛ قالت فيه :

« لما كان من المقرر أن يشرف الجناب العالى الخديوى فى صبيحة أمس سراى عابدين العامرة حيث ينعقد مجلس النظار برياسة سموه ويتناول حضرات العلماء الاعلام طعام الافطار على المائدة ثم يتلو ذلك استقبال المهنئين بالمقدم السعيد وبحلول شهر رمضان المعظم ؛ وكان هذا اليوم مصادفة هو عيد ميلاد جلالة ملك الانجليز ، رأى الجناب العالى حفظه الله أن يحضر الاحتفال المعتاد إجراؤه سنويا فى رحبة السراى لمناسبة هذا العيد ، كما كان ذلك من عادة المغفور له الخديو السابق ، وما وصلت هذه النية الى علم جناب اللورد كرومر حتى بادر فدعا الجناب الخديوى ليستعرض الجنود الانجليزية فتلقى سموه هذه الدعوة بالقبول والارتياح الخ »

---

(١) كانت كلمة المعية تطلق وقتئذ على حاشية الخديو

والأمر الظريف فى اعتذار المعية أنها نسبت حضور الخديو الاحتفال الى (المصادفة) ، كأنه لم يكن معلوماً من قبل أن هـذا اليوم هو عيد ميلاد الملك ادوارد السابع وأن حفلة العرض ستحصل فيه ، وأضعف من ذلك فى الاعتذار أن البلاغ الرسمى يلمح الى ان الخديو توفيق باشا كان يحضر العرض ، وهو عذر غير مقبول ، لأن الخديو عباس لم يتبع سياسة أبيه منذ ولايته العرش ، ولم يفكر فى اتباع عادته فى حضور العرض البريطانى إلاّ فى سنة ١٩٠٤ ، وهذا يدل على تغيير جوهري فى سياسته عقب الاتفاق الانجليزى الفرنسي ، وجنوحه الى الخضوع للاحتلال ، تلك السياسة التى بدأ يتبعها منذ وقعت حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ ، ثم ظهرت بمظهرها العلنى فى حضوره استعراض جيش الاحتلال ، فكأنه أراد أن يعلن بحضوره ولاءه للاحتلال وسياسته

ومما يدل على أن الاعتذار بالمصادفة فى بلاغ المعية لاصحة له أن الخديو قد حضر العرض البريطانى المرة الثانية فى نوفمبر سنة ١٩٠٥ ، ووقف تحت العلم الانجليزى بين قائد جيش الاحتلال واللورد كرومر ، وشهد العرض حتى نهايته. قال اللواء فى هذا الصدد :

« وهذه هى المرة الثانية التى وقف فيها سمو الخديو هـذا الموقف بصفة رسمية ، ولما جرى ذلك فى العام الماضى وشعرت « المعية » بدهشة الناس من هذه الحركة الجديدة فى سياسة مصر نشرت فى الصحف بلاغا (وأتت على نصه) الى ان قال : هذا بلاغ السنة الماضية ، واذا كان من الصعب تحميل « المصادفة » مسؤولية هذا الحادث مرتين ، فمن المرجح أن المعية لاتنشر بلاغا فى هـذا العام وتفضل السكوت على الـكلام . . . »

ثم وقعت حادثة دنشواى فى يونيه سنة ١٩٠٦ ، وأعقبها فوز الحركة الوطنية واشتداد السخط على سياسة الاحتلال بفضل حملات مصطفى كامل ، فكان من نتائج ذلك عدول الخديو عن حضور العرض فى نوفمبر سنة ١٩٠٦ ونوفمبر سنة

١٩٠٧ ، وقد علّقت الصحف الاوروبية على هـذا العدول وفسرته بأنه وقع بتأثير الحركة الوطنية ؛ قالت جريدة (الامبر سيالى) الايطالية فى هذا الصدد :

« ولعل سمو الخديو أراد باطالة اقامته فى الاسكندرية العـدول عن الخطة التى اتبعها فى عام ١٩٠٤ بعد أن لبث على عرش مصر اثنى عشر عاما ، فهل فازت الصحافة الوطنية بنصائحها واحتجاجاتها »

زيارات اللورد كرومر للأقاليم

وكان من نتائج الاتفاق الانجليزى الفرنسى أن أخذ اللورد كرومر يظهر علنا بمظهر صاحب السيطرة والحكم النافذ فى البـلاد ، بعد أن كان يـكتفى بتحريك الأداة الحـكومية والسيطرة على البلاد ومن ورائها

ومن علامات هذا المظهر الجديد زياراته لعواصم المديريات ، فـكان يقابل من المديرين وبعض كبار الاعيان بالحفاوة والاكرام ؛ مما يقابل به الملوك ورؤساء الدول

زار الفيوم فى فبراير سنة ١٩٠٥ ؛ فقابله المدير محمد بك محب والاعيان والعمد ، وخطب فيهم متـكلما عن مشروعات الحـكومة وأعمالها باعتباره صاحب النفوذ الفعلى فيها ، فتـكلم عما تبذله الحـكومة فى مكافحة الجراد ، وابادة دودة القطن ، وإنشاء صناديق التوفير ، وما الى ذلك من المسائل الداخلية الحـكومية ، وشـكره أحد الأعيان بالنيابة عن المديرية على زيارة الفيوم وعلى النصائح التي ألقاها عليهم ، وزار دور الحـكومة كالمستشفى الاميرى ، والمدرسة الاميرية ، وامتحن بعض تلاميذها ، ثم زار المركز والسجن والمجلس البلدى ؛ وكان فى انتظاره أعيان المدينة ، ثم المحـكمة الاهلية حيث استقبله القضاة وأعضاء النيابة ، ثم شرب الشاى فى دار المدير ، وكان الموظفون وكبار الاعيان فى ركابه

وكان الاعيان الموالون للاحتلال يترددون من قبل فى اظهار ولائهم له ، فلما أبرم الاتفاق الودى سفروا فى ولائهم وتسابقوا فى ابتغاء الزلفى لديه

وقد كان ظهور اللورد كرومر بهذا المظهر من الحوادث المؤلمة المهينة للكرامة الوطنية ، المعرقلة للحركة القومية ؛ كتب اللواء فى هذا الصدد يقول [١] : « ظهر جناب اللورد كرومر أول الامس بمظهر جديد لم يره فيه المصريون من أول عهد الاحتلال الى اليوم ، حيث ترك تسيير السفينة المصرية من وراء الوزارة المصرية ، وتقدم بنفسه الى الجماهير يخاطبهم فى الشؤون العامة ويلقى عليهم النصائح والاوامر ويجمع العمد والاعيان بين يديه ليسمعهم ما يريد ، فجناب اللورد كرومر أراد أن يفهم المصريين الآن أن سياسة التستر والانكماش والعمل وراء ستار قد انقضى عهدها ومضى زمانها ؛ وأن المحتلين يقدرون المسئولية ويتحملونها جهارا »

وكتب مصطفى فى لواء ٧ فبراير سنة ١٩٠٥ ينعى هذه الحالة بقوله :

« لا يسع المصرى المحب لبلاده الا أن يحزن أشد الحزن على المركز التعيس الذى وصلت اليه البلاد ، ويندب استقلالا مزقته يد الزمان ؛ وانى لا أدرى بأى آذان سمع القوم أقوال اللورد كرومر ؛ وماذا كان يختلج ضمائرهم إذ ذاك ؟ وهل شعروا بأنه بحركته هذه أعلن موت السلطة المصرية ؟ اللهم انى لو كنت بين تلك الجموع التى أصغت لأقواله لذبت أسى وكمداً وقلت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، لأن وقفته هذه ليست إلا إعلانا قطعيا بأنه صار صاحب الحل والعقد والأمر والنهى الذى لا يعارض فى شىء »

واستمر اللورد كرومر فى رحلته الاحتلالية ، فزار المنيا فأسيوط فأبو تيج فنجع حمادى ، حيث كان يستقبله المديرون والاعيان بالحفاوة البالغة

تقارير اللورد كرومر

ولقد كان من نتائج « الاتفاق الودى » أن تقارير اللورد كرومر السنوية التى كان يرفعها الى الحكومة البريطانية عن شؤون مصر والسودان أخذت تزداد منزلة ومكانة ، بحيث صارت من أهم الوثاق عن أحوال مصر السياسية

---

(١) عدد ٦ فبراير سنة ١٩٠٥

والاجتماعية والادارية ، وصار لها من الشأن ما لتقارير حكام المستعمرات الانجليزية ؛ وكان يخوض فيها فى كل ماله مساس بشؤون الحكومة المصرية والبلاد ، مما لا يصدر إلا عن صاحب السيطرة والنفوذ الفعال فى الحكومة ، وكتب فى تقريره الذى ظهر فى مارس سنة ١٩٠٥ أن وعد بريطانيا بالجلاء عن مصر كان قبل أن تعلم الحالة فى مصر تماما ؛ فلما عرفتها علمت أن وعدها كان فى غير محله وأن تنفيذه يفضى الى اضرار جسيمة

تعيين ياور انجليزى للخديو

وبلغ من تدخل الانجليز فى المعية الخديوية واستسلام الخديو عباس لسياسة الاحتلال أن عين فى تلك السنة (سنة ١٩٠٥) ياور انجليزى للخديو وهو الكولونل وطسن باشا

ظهور كتاب (المصريون والانجليز)

« Egyqtiens et Anglais »

جمع الفقيد فى صيف سنة ١٩٠٥ خطبه التى ألقاها عن المسألة المصرية، والرسائل التى تبودلت بينه وبين كبار الساسة ، وترجمها الى الفرنسية ، وطبعها بباريس كتابا ظهر فى ديسمبر سنة ١٩٠٥ بعنوان (المصريون والانجليز) فى ثلثمائة وعشرين صفحة ، ثم وزعه فى كل جهات العالم، ليعرّف الأمم كافة بالحركة الوطنية المصرية وميول المصريين، وحقيقة مقاصد الحزب الوطنى ، فكان خير دعاية عالمية للمسألة المصرية ؛ وقد وضعت مدام جولييت آدم مقدمة هذا الكتاب، ومما قالته عن الفقيد :

« إنه يجاهد بكل الصور والاشكال ضد « اليأس والقنوط » و « عدم الاكتراث بشؤون البلاد » و « قلة الوطنية » ، تلك الآفات الثلاث التى تهدد مصر، كما تهدد فرنسا نفسها ؛ والتى هى أشد خطرا على الأمم من المغيرين »

وقالت فى موضع آخر عن الحركة الوطنية :

«إنى أنا التى رأيت مصر وأدركت أسرارها وأحببتها وأعجبت بها ، أعتقد بخصوبتها العقلية الاهلية الابدية الخالدة كآثارها الفخمة ، تلك الخصوبة المستعدة لأن تنتج أكبر النتائج بفضل معارف الوطنيين من أبنائها ؛ كما يرى الانسان خصوبة أرضها ظاهرة ومحصولاتها ناضجة فى أسابيع معدودة بفضل فلاحيها»

وكتبت الصحف الاوروبية نبذا كثيرة عن الكتات ومناحيه ، ومن أبلغ مانشر فى هذا الصدد مقالة طويلة بليغة بالفرنسية فى جريدة (الجورنال دى كير) بدأها كاتبها بشعار الفقيد (أحرار فى بلادنا ؛ كرماء لضيوفنا) ومما قال فيها:

«لا أريد أن ألخص الكتاب أو أنتقده اليوم ؛ وليست هذه مهمتى ، فانى سائح أجوب هذه البلاد ، ولكن مصر ليست الديار التى يجوبها الانسان دون أن يتعلق بها ، ولقد أكد لى البعض أن من يرى مصر مرة لا بد أن يعود اليها ؛ فهل سأكون أنا استثناء لهذه القاعدة ؟» الى أن قال :

« قرأت هذه الخطب التى ألقيت الأولى منها عام ١٨٩٥ ؛ والاخيرة عام ١٩٠٤ ، فهى عشر سنوات من حياة الخطيب ، جمعت واختصرت فى هذه الصحائف ، وان عشر سنوات قضيت فى العمل والسعى والجهاد بلا ملل ولا خور فى العزيمة ، لجديرة بأن يقف الانسان أمامها ، ولقد وقفت بازائها ، واختبرتها وقلبتها ، وما رأيت فيها وما استطعت أن أرى إلا الاعراب عن أشرف وأطهر وطنية ، إن فيها قوة وحدة ، وروح الشباب والامل تملأ هذه الصحائف وتهزها ، وتشعر اليد بارتعاش عند تقليبها ، وان القارىء عند ما يطالع هذه الخطب لا يقرأها فى الحقيقة ، بل يسمعها ، لانها بالغة الغاية فى الحياة ، ورغما عن هذه الحرارة وتلك النار المشتعلة ، ورغما من الحدة التى تلازم كل حب شديد ، قد استطاع هذا الخطيب الشاب أن يحافظ دائما على الاعتدال ، ويقف عند الحد الواجب ، فهو حاد اللهجة ، وفى عباراته حركة شديدة أحيانا ، بحيث يشعر بانها تجرى وتعدو وتدوى كالسيل الجارف وقت ذوبان الثلوج ، فيخيل الى الانسان أنها ستأخذ فى

طريقها كل شيء ؛ ولكن السد الذى أقامته نفس شريفة وفكر عال موجود ، فعبارات الخطيب تغلى كالماء ثم تجرى واضحة رائقة، تطرب القلوب ، وتنزل برفق ويتسع مجراها وتروى وتلطف ماتمر عليه ، وهناك أمر آخر يستوجب دهشتى ، وهو أن هذه الحياة واحدة منسجمة متصلة ، فهى خط مستقيم لا انقطاع فيه ، فترى من أول خطبة الى آخر خطبة ضميرا واحدا ، وروحا واحدة ، ليس فيها تناقض ، ولاخطوة واحدة فى غير موضعها ، والى مثل هذا ينتهى التعقل والصراحة والطهارة ، وهو مثال يكاد يكون وحيدا ، وسيكون لهذا الكتاب فى أوروبا رنة طويلة دائمة ، لأن كل ذى عاطفة وطنية يشعر بها ويقدرها قدرها هناك ، قد يختلف البعض مع الخطيب فى افكاره ويحكمون على هذه المسألة أو تلك حكما مخالفا لحكمه ، ولكن اذا كان هذا الرجل وطنيا يقول وينادى بكل قوته بحبه لبلاده ، ويعلم الجميع أنه يهبها شبابه وحياته [1] ، فلا جدال فى أن القوم فى أوروبا يطأطئون له الرؤوس احتراما له، ولو كانوا خصوما له أو أعداء » الى أن قال :

« ان الوطنى المصرى اذا أفلح لايفلح بغير تعريض نفسه للخطر ، فهو معرض له اكثر من الأوروبى لضعفه وقلة الشعور الوطنى فى بلاد لم تتعود حكم نفسها بنفسها ؛ نعم هو معرض للخطر اكثر من الاوروبى ، وان عمله أتعب وأصعب ، فهو لايجب عليه فقط أن يتكلم أمام الجماهير كما يفعل الخطيب الاوروبى ، بل هو مضطر لتربية هذه الجماهير وتعليمها ، وتدريبها على الفكر والاحساس ، وهو مطالب اكثر من غيره باحتراس وحذر نحو بنى وطنه ونحو الاجانب ، وانى أتوجع لعنائه بقدر اعجابى به ، ومهمته لاتعود عليه الآن بالفائدة ، فلابد من نفس كبيرة امتلأت بحب الوطن ، وأخلاق قوية متينة ، ليستطيع شاب أن يكرس حياته كلها لبلاده غير طالب شيئا آخر سوى عظمتها وسعادتها واستقلالها ! »

---

(١) نشرت هذه المقالة فى يناير سنة ١٩٠٦ وتوفى الفقيد فى فبراير سنة ١٩٠٨

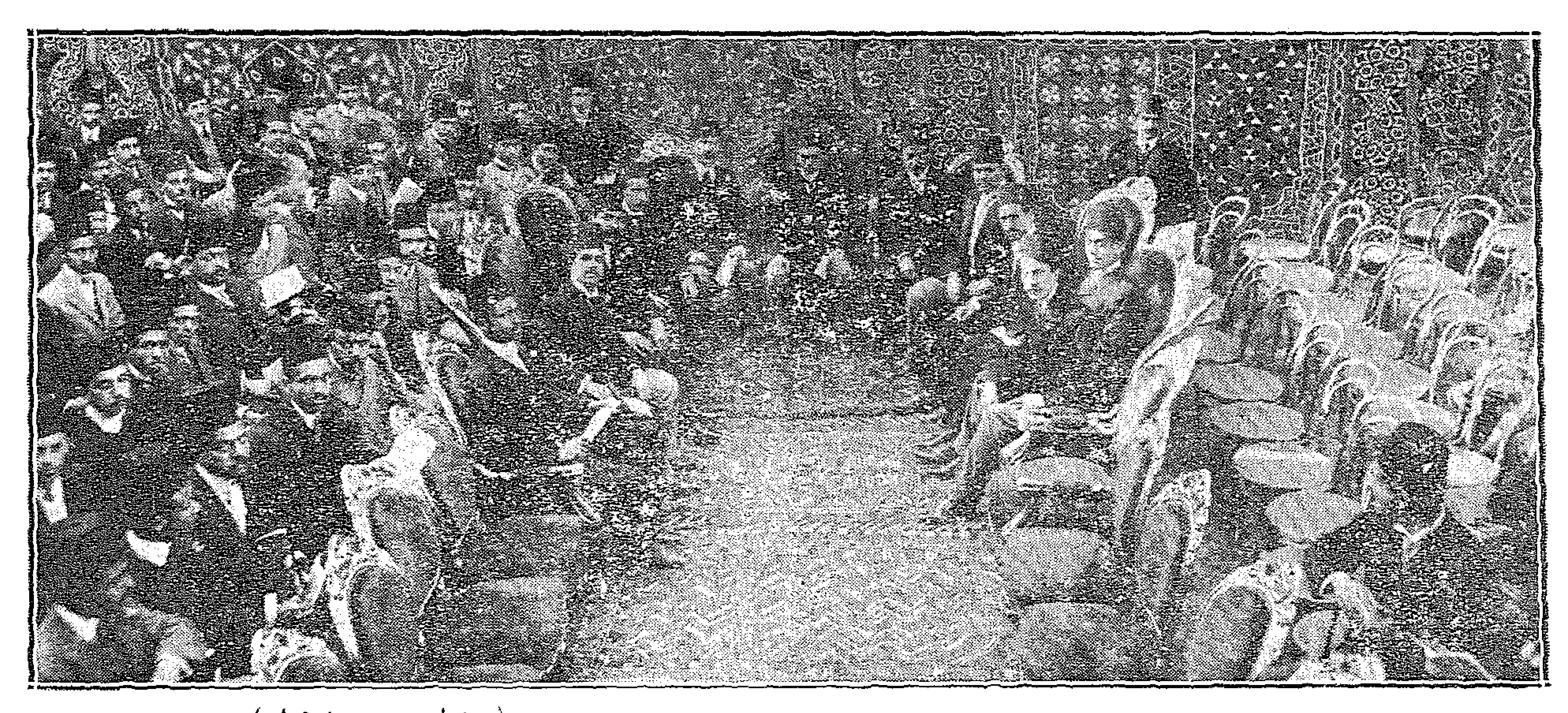
الفصل الحادى عشر

نادى المدارس العليا

وتطور الافكار سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦

تفتحت فى قلوب الشباب زهرة الوطنية التى انبتتها دعوة مصطفى كامل ، وأخذت تجيش بالشعور الوطنى وتتحرك نحو أغراضه وأهدافه ، وبدأت علائم اليقظة والحياة تظهر فيهم بشكل عملى سنة ١٩٠٥ ؛ وكان أول مظهر لهذه الحياة الجديدة أن فكر طائفة منهم فى إنشاء ناد للمدارس العليا ، يجمع بين طلبة هذه المدارس ومتخرجيها

كان هذا النادى من أعظم مظاهر الحركة الوطنية فى ذلك العصر ، وصار بمثابة معهد وطنى علمى أخلاقى تكون فيه جيل من خيرة الشباب المصرى ، وفيه ظهرت حركة فكرية قومية أنتجت على توالى السنين عدة مشروعات جليلة كان لها فضل كبير على النهضة الوطنية ، فقد ظهرت فيه قوة الشبيبة ووحدتها ، وامتزج الطلبة بالمتخرجين فاكتسبوا بهذا الاتصال النضج الفكرى والمعنوى ، وفيه ألقى أعلام الفكر والعلم المحاضرات القيمة فى مختلف العلوم والفنون ، وفيه تأسست جمعية رعاية الاطفال ، وفى قاعاته اجتمعت وقتاً ما لجنة انشاء الجامعة المصرية ، وفيه تأسست مدارس الشعب فأنشئت عدة مدارس لتعليم العامة وقام أعضاء النادى بالتدريس فيها ؛ وفيه نشأ مشروع النقابات الزراعية على يد المرحوم عمر بك لطفى ، وفيه أخذ الطلبة يروضون أنفسهم على الاخلاق والفضائل والتضامن ، وكان فوق ذلك معهداً قومياً لنشر المبادئ الوطنية الصادقة وبثها فى نفوس الجيل



حفلة افتتاح نادى المدارس العليا — ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ (انظر ص ١٩٤)

وترى فى الصدر : المرحوم عمر بك لطفى رئيس النادى وعن يمينه المرحوم عبد الخالق ثروت باشا وعن يساره المرحوم حسن بك رضا المرحوم على بك حسى المصرى . المرحوم اسماعيل بك زهدى . المرحوم احمد بك امين المستشار . سامى بك عصمت . ومن الجالسين فى الصف الأول الدكتور عبد العزيز نظمى بك . محمد بك على دلاور . ومن الجالسين فى الصف الثانى المرحوم هارون سليم باشا . المرحوم الدكتور محمود فتحى المحامى . الاستاذ السيد حسين . ومن الجالسين فى الصف الثالث عبد الرحمن بك الرافعى . مصطفى بك الشوربجى المستشار الدكتور احمد بك سعيد . الدكتور سيد بك شكرى . هاشم بك مهنا وهيب بك دوس . نبيه بك سلام الخ . .

التفكير فى انشاء النادى

(سنة ١٩٠٥)

بدأ التفكير فى انشاء النادى سنة ١٩٠٥ ، وتألفت لجنة لتأسيسه فى اكتوبر من تلك السنة برياسة الدكتور عبد العزيز نظمى بك ، فأخذت تجمع الاكتتابات لتكوين رأس ماله ، وعضدها اللواء فى مهمتها ، وحث الفقيد الأغنياء على المساهمة فى الاكتتاب فيه ، قال فى عدد ١٩ اكتوبر سنة ١٩٠٥ :

« نرى من أوجب الواجبات اعانة هذا النادى ممن يقدرون العلم وذويه ، ولذلك نود أن يقتفى الكبراء والعظماء والوجهاء أثر الذين جادت نفوسهم بما تبرعوا به لهذه الغاية الشريفة حتى الآن ، وبقدر مايتبرع الواحد لهذا النادى المحرومة منه هذه البلاد تعلم قيمة العلم عنده كثرة وقلة ، فنستنهض همم السراة لمد يد المعونة الى هذا النادى الذى سيكون محط رحال أبنائهم »

وقد بلغ ماجمع لتأسيسه مع ربح ليلة تمثيلية أقامتها اللجنة بدار التمثيل العربى ٢٨١ جنيها وذلك الى آخر نوفمبر سنة ١٩٠٥

أول جمعية عمومية للنادى

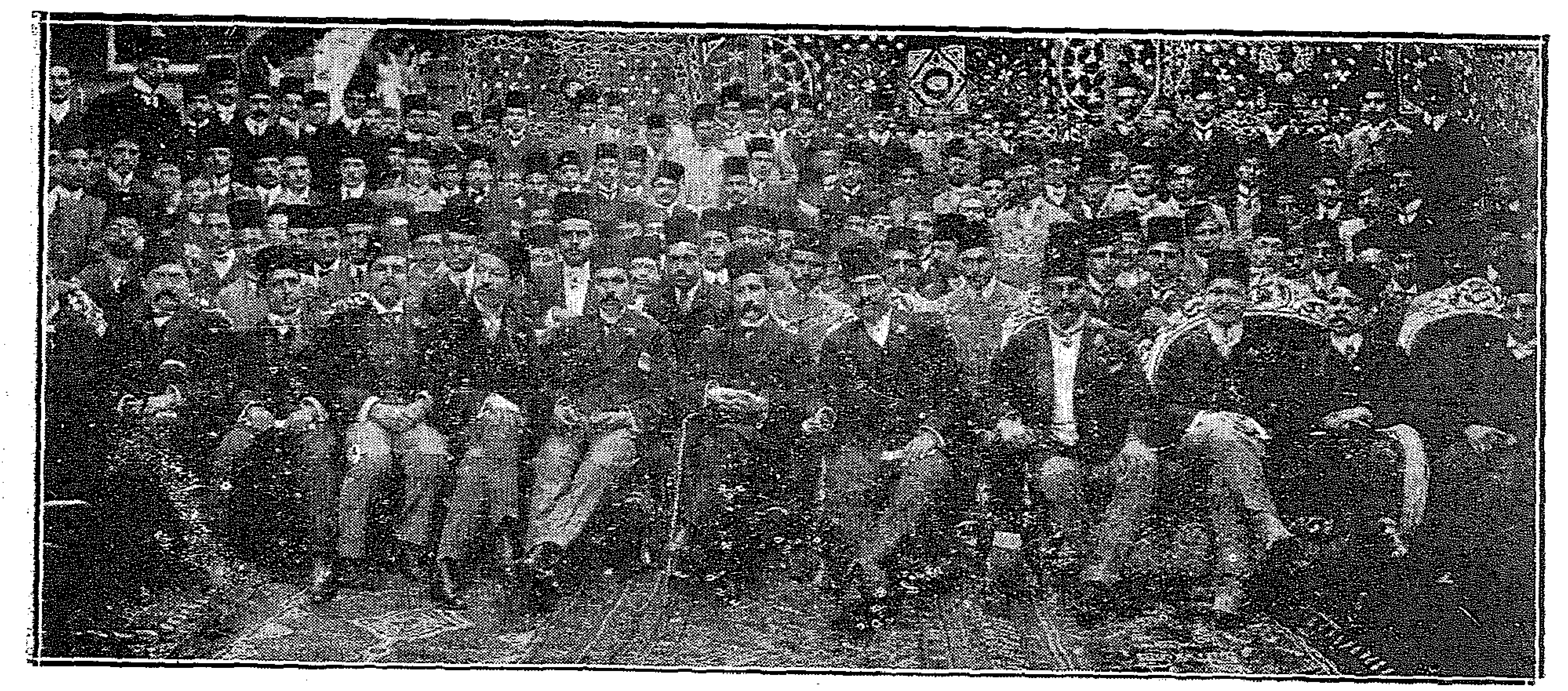
واجتمعت أول جمعية عمومية للنادى بهيئة جمعية تأسيسية يوم الجمعة ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٥ باحدى قاعات مدرسة الطب لانتخاب مجلس ادارة النادى ، وبلغ عدد الحاضرين من الطلبة مائتى طالب ، من مختلف المدارس العليا ، وكذلك حضره لفيف من المتخرجين ، وقد اشتركت فى هذا الاجتماع إذ كنت طالباً بمدرسة الحقوق ومن المشتركين فى تأسيس النادى ، وأسفرت عملية الانتخاب عن اختيار المرحوم عمر بك لطفى رئيسا للنادى ، وكان من خاصة أصدقاء الفقيد ، وموضع الاحترام بين مواطنيه ، فأسبغت رياسته على النادى مهابة واحتراما ، وانتخب هو وعبد الخالق بك ثروت (باشا) عضوين بالمجلس عن متخرجى مدرسة الحقوق ، وأمين سامى بك (باشا) وأحمد عزى بك عن متخرجى مدرسة

المهندسخانة ، والدكتور عبد العزيز بك نظمى والدكتور عبد المجيد محمود عن متخرجى الطب ، ومحمد على دلاور بك وعلى بك حسنى المصرى عن متخرجى مدرسة المعلمين والألسن ، واسماعيل افندى زهدى (بك) واحمد إفندى امين (بك) ع طلبة الحقوق ، وحافظ افندى عفيفى (باشا) وفؤاد افندى صدقى عن طلبة الطب وسامى افندى عصمت (بك) ونجيب افندى مرتضى عن طلبة المهندسخانة وأخذ مجلس الادارة يوالى جمع الاكتتابات من الطلبة والمتخرجين ويعد معدات افتتاحه حتى اكتملت هذه المعدات فى مارس سنة ١٩٠٦

افتتاحه

واتخذ النادى داراً له بالمنزل رقم ٤ بشارع قصر النيل بالقرب من (سافواى اوتيل) القديمة ، وافتتح يوم الخميس ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ ، وكان الاحتفال بافتتاحه يوماً مشهوداً ، إذ حضره الأعضاء المشتركون فيه من الطلبة والمتخرجين وكان الطلبة هم قوام النادى ، وحضر الاحتفال من رجال الحكومة حسين فخرى باشا وزير المعارف وقتئذ ، ويعقوب ارتين باشا وكيلها ، والمستر دنلوب مستشارها ، والمستر متشل انيس وكيل وزارة المالية ومحمود صدقى باشا محافظ العاصمة ، ونظار المدارس العليا ووكلاؤها ، وخطب فى الاحتفال عمر بك لطفى رئيس النادى معلنا افتتاحه ، ثم أعقبه فخرى باشا وزير المعارف فألقى خطبة ترحيب بتأسيسه ، ولما أتم خطبته صدحت الموسيقى العسكرية ، وطاف المدعوون بغرف النادى وأبهائه ، فأعجبوا بحسن تنسيقه ونظامه ، وكان بناء فخما ، تحيط به حديقة غناء ، وبه غرف واسعة ، بعضها للجلوس ، وبعضها لتلاوة الصحف والمجلات ، وبعضها للبليارد والألعاب المباحة ، وفيه غرفة فسيحة للمكتبة جمعت عدداً كبيرا من الكتب العلمية النفيسة ، وكان من مبادئه منع الميسر والخمر منعاً مطلقا

واطرد الاقبال على النادى ، فكان عدد أعضائه حين تأسيسه ٢٤٠ عضواً بين طلبة وخريجين ، فلم يأت آخر ديسمبر سنة ١٩٠٦ حتى بلغوا ٤٧٠ ، وبلغوا



افتتاح نادى المدارس العليا — ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ (صورة أخرى للحفلة) انظر ص ١٩٤

وترى من الجالسين فى الصف الأول المرحوم عمر بك لطفى (فى الصدر) - سامى بك عصمت . توفيق باشا رفعت . على بك حسنى المصرى . محمد بك على دلاور . الدكتور عبدالعزيز نظمى بك . الدكتور وجيه راشد . الدكتور على بك حلمى . الدكتور حافظ عفيفى باشا . الاستاذ صالح جودت . الاستاذ بديع قربة . ومن الجالسين فى الصف الثانى : الدكتور سالم هنداوى بك . الدكتور كامل سامى . فؤاد بك أنور المستشار . هارون سليم باشا . الدكتور الاستاذ محمود فتحى . الدكتور توفيق بك عمر . ومن الواقفين فى الصف الثالث : أمين بك الرافعى . الصادق بك حسين . محمد بك فايز . الاستاذ حاتم يوسف العسكرى . نبيه بك سلام . احمد بك عبدالقادر . الاستاذ عبدالمقصود متولى . ابراهيم بك راتب . سعيد باشا العزبى . محمد بك شركس . حسن بك زكى المستشار . وفى الصف الرابع : الدكتور سعد كامل الخ الخ

٥٤٩ فى آخر ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، و ٦٨٥ فى آخر ديسمبر سنة ١٩٠٨ ، و ٧٧٣ فى آخر ديسمبر سنة ١٩٠٩ ، أى زادوا على ثلاثة أمثال عددهم الأول

وقد بعث تأسيس هذا النادى روحا جديدة من التضامن والود بين الطلبة ، بقيت تجمع بينهم على مر السنين ، وكان ينظم رحلات رياضية يشترك فيها الطلبة وبعض المتخرجين ، فقويت روابط الألفة بينهم باجتماعاتهم اليومية فى النادى ورحلاتهم الرياضية التى كانوا يقومون بها مجتمعين ، وظل النادى قائما يؤدى مهمته خير الأداء حتى أقفل بأمر السلطة العسكرية البريطانية فى أوائل الحرب العامة سنة ١٩١٤

إضراب طلبة الحقوق
(فبراير سنة ١٩٠٦)

كان طلبة الحقوق أول من تشبعوا بالروح الوطنية التى بثها الفقيد فى الشباب ، وظهرت هذه الروح فى تبرمهم بالنظام الذى وضعته وزارة المعارف فى يناير سنة ١٩٠٦ ، وكان الغرض منه استفزاز شعورهم والتضييق عليهم ومعاملتهم بنظام المدارس الابتدائية والثانوية ، فأضربوا عن الدراسة فى فبراير سنة ١٩٠٦ احتجاجاً على هذا النظام ، وقد ساهمت فى هذا الاضراب واشتركت فيه ، إذ كنت من طلبة الحقوق المتذمرين ، وكانت طلباتنا العدول عن النظام الذى وضعته الوزارة والرجوع الى النظام القديم ، وكنا على حق فى تذمرنا ومطالبنا ، وليس أدل على ذلك مما كتبه الاستاذ ادوار لامبير ناظر مدرسة الحقوق[1] فى مقالته التى نشرها عقب استقالته سنة ١٩٠٧ ، وسيأتى بيانها بالفصل الثالث عشر ، اذ قال « ان المستر دنلوب وضع لهؤلاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظاما من النظامات الموضوعة لصغار تلاميذ المدارس الابتدائية ، وأخذ يعاملهم بقسوة

(١) عين ناظرا لمدرسة الحقوق الخديوية فى اكتوبر سنة ١٩٠٦ خلفا للاستاذ جرانمولان الذى وقع الاضراب فى عهده

متناهية . ويستعمل معهم سياسة وخز الابر ، سياسة اضطهاد دنيء ، فكانت نتيجة ذلك ان انضم الى الحزب المعارض للانجليز فئة متعلمة راقية ، وأن يسود على افئدة الشبيبة الحقد والبغض للادارة الانجليزية ، وأن تتحول مدرسة الحقوق معقلا للوطنية المصرية ، بحيث لاتكاد ترى بين الاربعمائة التلميذ الموجودين بها الآن عشرة لايؤمنون كل الايمان بمبادىء مصطفى كامل باشا »

كان هذا الاضراب هو الأول من نوعه ، لأنه شمل مدرسة عالية بأسرها ، وكان موجها ضد سياسة التعليم التي وضعها الاحتلال ؛ وقد أجمع الطلبة جميعا على الانقطاع عن الدراسة، وألفوا لجنة تمثل جميع فرق المدرسة لتنظيم حركة الاضراب ، وعقدوا اجتماعا فى حديقة الازبكية يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦ ألقيت فيه الخطب، وتعاهدنا فيه على التضامن واستمرار الاضراب حتى تجاب مطالبنا ، فكان لهذا الاضراب ضجة فى البلاد ، وتدخل اللورد كرومر فى شأنه، وأمر وزارة المعارف بأن تأخذ الطلبة بالشدة ، فأعلنت الوزارة تعطيل الدروس فى المدرسة من يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦ حتى يوم السبت ٣ مارس وأنذرت الطلبة بأن من يتأخر عن الحضور فى ذلك اليوم يفصل من سلك التلاميذ ؛ وانتقد اللواء هذا القرار وقال انه قرار يوجب أشد الانتقاد لأنه يؤدى الى ابطال تعليم الحقوق فى مصر إذا أصر الطلبة على الاضراب

واتخذ الطلبة جريدة اللواء لسان حالهم فى نشر ظلاماتهم من معاملة الوزارة إياهم ، فكان هذا الاضراب هو المرحلة الأولى العملية لاتصال طلبة المدارس العالية بالحركة الوطنية ، وتشبعهم بالمبادىء الاستقلالية ، وتبعهم فى هذا الاتصال طلبة المدارس العالية الأخرى ، لما أبدوه من العطف على طلبة الحقوق وتأييدهم، وقد أخذ الاضراب من هذه الناحية صبغة عامة ؛ إذ كان دليلاً عملياً على فساد نظام التعليم أدى الى سخط الطلبة وضيق صدورهم من سوء معاملة الوزارة اياهم، وكان بمثابة احتجاج على هذه المعاملة ؛ وقد قابلته الحكومة بالشدة لكى تقمع الروح

الجديدة التى ظهرت فى صفوف الطلبة ، وفى ذلك كتب الفقيد تحت عنوان (مسألة الطلبة) مقالة جاء فيها :

« قضت البلاد أسبوعا كاملا وهى شديدة الاهتمام بمسألة الطلبة ، وقد دل هذا الاهتمام العظيم على أن أمر التعليم أصبح عند الأمة المصرية فى مقدمة أمورها الحيوية ، وان لناشئتها المحل الأول من عنايتها ؛ وان رجال الغد هم موضع الآمال كلها ، لقد أظهر اضراب الطلبة أموراً جمّة وأنتج نتائج عدة ؛ أظهر خلل نظارة المعارف وفساد سياستها وسوء ادارتها وعدم كفاءة المديرين لها ، أظهر أن الطلبة وكلهم ولدوا فى عهد الاحتلال وتربوا بمقتضى النظامات التى وضعها ليسوا كما شاء أعداء مصر والمصريين جبناء أذلاء ، بل إنهم ذوو إباء وشمم وعواطف راقية وإرادة حقيقية ؛ أظهر أن رجال الغد متضامنون متكاتفون عارفون لمعنى الاتحاد والاتفاق ، غيورون على حقوقهم ، محبون للعدالة ؛ متشربون بروح الاستقلال »

وقد انتهى الاضراب برجوع الطلبة الى المدرسة يوم السبت ٣ مارس سنة ١٩٠٦ بناء على وعد المستشار القضائى بالنظر فى طلباتهم ؛ وأراد الاحتلال تثبيت مركز المستر دنلوب وكان الى ذلك الحين سكرتيرا عاما لوزارة المعارف ، وعليه تقع مسئولية اخلال نظام التعليم الذى أدى الى اضراب طلبة الحقوق ، فرقى مستشارا للوزارة فى مارس سنة ١٩٠٦ مكافأة له على أخذ الطلبة بالشدة

حادثة العقبة — مايو سنة ١٩٠٦

ظهرت فى سنة ١٩٠٦ حادثة سياسية مهمة هزت أعصاب الأمة ووضعت من جديد مسألة الاحتلال والجلاء على بساط البحث والمناقشة ، ونعنى بها حادثة العقبة ، وتسمى أيضاً حادثة (طابة) ، وبيانها أن تركيا اعتزمت فى تلك السنة مد سكة حديدية من معان الى العقبة ، وهذه السكة تجعل لتركيا قوة جديدة على حدود مصر ، وتهدد مركز الاحتلال الانجليزى ، فاهتم الانجليز لهذا الحادث ،

وأرسلوا ضابطا كبيرا عهدوا اليه وضع نقط عسكرية على طول الخط من العريش الى العقبة ؛ باعتبار أنها من أملاك مصر ؛ إذهى جزء من طورسينا المعهودة ادارتها الى مصر ، ولكن الجنود التركية احتلت موقع (طابة) على بعد ثمانية أميال غربى العقبة ، وقام لذلك خلاف شديد بين تركيا وانجلترا ، ظهرت فيه هذه بمظهر الدولة الحامية لمصر ، إذ طالبت تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابة ، وتهددت وتوعدت كما لو كانت مصر جزءاً من أملاكها ؛ فكان هذا المظهر من علامات الحماية ، مما أثار سخط الفقيد ؛ فاستنكر موقف انجلترا من هذه الحادثة ؛ ودعا الانجليز الى الجلاء عن مصر بدلا من أن يتظاهروا بالدفاع عن حقوقها ، وكانت تركيا ترمى بعملها هذا الى فتح باب المسألة المصرية من جديد لاجبار انجلترا على الوفاء بعهودها فى الجلاء ؛ ومن هنا جاء عطف الأمة المصرية على موقفها فى هذه الحادثة ، إذ كان موقفها شبيها من بعض الوجوه بموقف فرنسا فى حادثة فاشودة ، وقد كانت تركيا تتوقع أن تؤيدها بعض الدول الاوروبية فى فتح باب المسألة المصرية ، ولكن فرنسا كانت بحكم « الاتفاق الودى » مؤيدة لانجلترا ؛ وطلب سفيرها فى الاستانة من الحكومة التركية الاذعان لمطالب انجلترا ، ووقفت الروسيا موقفا يشبه موقف فرنسا . ولزمت ألمانيا الجمود حيال هذا الخلاف ، مما جعل تركيا تجنح للتراجع ، وانتهت الحادثة بانسحاب الترك من طابة فى مايو سنة ١٩٠٦ ؛ وتأليف لجنة مصرية تركية لتسوية مسألة الحدود على قاعدة معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وتلغراف ٨ ابريل سنة ١٨٩٢ المرسل الى الخديو عباس الثانى والذى خول مصر ادارة شبه جزيرة طورسينا [1] ، وانتهت اللجنة من عملها فى أول اكتوبر سنة ١٩٠٦ إذ تم الاتفاق على الحدود الشرقية على أن تكون خطا يمتد من (رفح) على البحر الابيض المتوسط الى نقطة واقعة غربى العقبة بثلاثة

(١) فصلنا الكلام عن هذا التلغراف وعن ازمة فرمان سنة ١٨٩٢ فى الفصل السادس عشر

أميال ، وبقيت طابة ضمن أملاك مصر ،والعقبة من أملاك تركيا

وقد جاءت حادثة العقبة دليلا ساطعا على كراهة الأمة للاحتلال وللحماية المقنعة التي انتحلتها انجلترا على مصر ، وبرهاناً جلياً على انتشار التعاليم الوطنية التي بثها الفقيد في النفوس

زيادة جيش الاحتلال

كان من نتائج شعور الكراهية الذى بدا من المصريين حيال الاحتلال في حادثة العقبة أن قررت الحكومة البريطانية زيادة عدد جيش الاحتلال، فزادته من ٢٩٠٦ جنديا الى ٤٧٥٨ وزادت النفقات التي تتحملها مصر في هذا الصدد من ٩٧٥٠٠ جنيه الى ١٤١٣٧٥ جنيه ، وجاءت هذه الزيادة دليلاً على اتساع الهوة بين الأمة والاحتلال وتفنيداً لمزاعم أنصاره الذين كانوا يرجفون بأن الأمة راضية عنه موالية لحكمه

الفصل الثانى عشر

حادثة دنشواى

(١٣ يونيه سنة ١٩٠٦)

لامراء فى أن حادثة دنشواى هى من حوادث مصر التاريخية التى لاتنسى على مر السنين ؛ لما كان لها من الأثر البالغ فى تطور الحركة الوطنية ، وفى مركز الاحتلال الانجليزى ؛ فهى نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة ؛ وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومى عمَّ فيها الشعور الوطنى بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راض عن الاحتلال

تفاصيل الحادثة

ترجع هذه الحادثة الى أن بعض الضباط من جيش الاحتلال وبعض الموظفين البريطانيين كانت لهم عادة أن يتجولوا فى بعض القرى والبلاد ليصطادوا الطيور ببنادقهم ، ففى يوم الاثنين ١١ يونيه سنة ١٩٠٦ غادرت كتيبة من نحو ١٥٠ جنديا بريطانيا القاهرة متجهة بطريق البر الى الاسكندرية ، وبعد مسيرة يومين وصلت يوم الاربعاء ١٣ يونيه الى منوف ، فأبلغ خمسة من ضباطها مأمور المركز أنهم يرغبون الصيد فى بلدة (دنشواى) وهى بلدة صغيرة تابعة لنقطة بوليس الشهداء بمركز شبين الكوم، ومشهورة بكثرة حمامها ، وهؤلاء الضباط هم الميجر بين كوفن قومندان الكتيبة ؛ والكبتن بول ، والملازمان بورثر وسميث ويك ؛ والطبيب البيطرى بوسنك ، فطلب المأمور من عبد المجيد بك سلطان أحد أعيان بلدة (الواط) أن يعد لهم مركبات عند السكة الزراعية الموصلة لبلدة (دنشواى) ففعل ؛ فلما وصلوا الى (كمشوش) وقفوا هنيهة وعسكروا بها مع

بقية الجند ، ثم ركب الخمسة الضباط المركبات التى أعدها عبد المجيد بك سلطان مبتدئين من معدية الباجورية ، مارين على ناحية سرسنا ، ومنها الى (دنشواى) ، وكان يرافقهم اونباشى من بوليس نقطة الشهداء ، وترجمان مصرى ، وذهب الاونباشى الى العمدة ليبلغه خبر قدوم الضباط لكى يتخذ التحوطات التى تكفل عدم احتكاكهم بالاهلين ، ولكنه ألفى العمدة غائبا ، ولم ينتظر الضباط حضوره ، ولا رجوع الاونباشى ، وانقسموا فريقين ، فريق وقف على السكة الزراعية لصيد الحمام من خلال الأشجار الملتفة هناك ، وهؤلاء لم يصبهم أحد بسوء ، والفريق الآخر جاس خلال أجران القمح فى دنشواى ليصطادوا اما بها من الحمام ، فاتفق أن حمامتين كانتا واقفتين على جرن مملوك لمحمد عبد النبي مؤذن القرية ، وكان يشتغل به أخوه شحاته عبد النبي ، فجاء أحد الضباط الانجليز وصوب بندقيته على الحمام ، فصاح به شيخ طاعن فى السن يبلغ الخامسة والسبعين من العمر اسمه حسن على محفوظ (وهو أول من حكمت عليهم المحكمة المخصوصة بالاعدام) طالبا منه أن يكف عن اطلاق البندقية ، والا احترق الجرن ، وكذلك صاح به شحاته عبد النبي ، فلم يعبأ الضابط ، وأطلق العيار ، قاصداً إصابة الحمام ، فأخطأ المرمى وأصاب امرأة تدعى أم محمد زوجة محمد عبد النبي المؤذن ، كما أصاب الجرن ، فسقطت المرأة جريحة تتخبط فى دمها ، واشتعلت النار فى الجرن ، فأخذ شحاته يصيح ويستغيث ، وهجم على الضابط وتجاذب وإياه بندقيته ، وأقبل الرجال والنسوة والأطفال هائجين صائحين « الخواجه قتل المرأة ! وحرق الجرن ! الخواجه قتل المرأة وحرق الجرن ! » ، وأحاطوا بالضابط ، وجاء بقية الضباط الانجليز لانقاذ زميلهم ، فتكاثرت جموع الاهلين ، ووصل فى الوقت نفسه شيخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع ، وانقاذ الضابط ، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون بهم شراً ، فأطلقوا عليهم العيارات النارية ، فأصاب واحد منها شيخ الخفر فى فخذه فسقط

الى الارض ، وأصاب عيار آخر اثنين أحدهما من الخفراء ، فصاح الجميع « شيخ الخفر قتل ! شيخ الخفر قتل » ! وحملوا على الضباط بالطوب والعصى الغليظة وأثخنوا من لحقوا بهم ضربا ، فأصيب الماجور بين كوفين قومندان الكتيبة بكسر فى ذراعه ، وجرح الملازمان سميث ويك وبورثر جروحا خفيفة ، وأحاط بهم الخفراء مع زميل رابع لهم وأخذوا منهم أسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ بوليس النقطة وأوصلهم الى المعسكر

أما الكبتن بول والطبيب البيطرى الانجليزى فتركا مكان الواقعة ؛ وكان الأول منهما قد أصيب إصابة شديدة فى رأسه ، وأخذا يعدوان حتى قطعا نحو ثمانية كيلو مترات فى حمارة القيظ ، إذ كانت الواقعة فى صميم الصيف ؛ فلم يكد الكبتن بول يصل الى باب سوق (سرسنا) حتى سقط من الاعياء ، ومات بعد ذلك متأثرا من ضربة الشمس ؛ ولما سقط تركه زميله الطبيب البيطرى وأخذ يعدو حتى وصل معسكر الكتيبة بناحية كمشوش على ضفة الترعة الباجورية

وما كاد نبأ الحادثة يصل الى بقية جنود الكتيبة الانجليزية فى كمشوش حتى سارع الجنود الراكبة الى مكان الواقعة ، ولم يكادوا يقطعون بضعة كيلومترات حتى بلغوا (سرسنا) ، وظنوا أنها دنشواى ، وهناك وجدوا ضابطهم ملقى على الثرى ؛ ورأوا فلاحا مصريا هو (سيد احمد سعيد) يقدم اليه قدحا من الماء ؛ فظنوه من الضاربين ، فأنحوا عليه ببنادقهم طعنا ووخزا حتى هشموا رأسه ومات بين أيديهم ، وذهب دمه هدرا ولم يحاكم أحد من قتلته ، وقد عرف هذا القتيل بشهيد سرسنا

وصل نبأ هذه الحادثة يوم وقوعها الى ولاة الأمور فى المنوفية والقاهرة ، وما ان علم بها رجال الاحتلال وعرفوا أن الكبتن (بول) قد مات عقب الحادثة ، وأصيب الضباط الآخرون ، حتى تولاهم الغضب ، وعولوا على الانتقام من أهل القرية التى وقعت فيها الحادثة انتقاما ذريعا شنيعاً

المحاكمة

ثارت ثائرة الاحتلال من وقوع الحادثة ، على أنها فى الواقع راجعة أولا الى اقتحام الضباط البريطانيين بدون حق غيطان الاهالى وأجرانهم لاصطياد الحمام المملوك لهم ، وذهب المستر متشل مستشار وزارة الداخلية الى مكان الحادثة يوم وقوعها ؛ وجرى التحقيق فيها بمنتهى السرعة ، وأخذ ولاة الأمور يقبضون على الاهلين جزافا ، ونشرت صحيفة (المقطم) يوم ١٨ يونيه قبل أن ينتهى التحقيق أن الأوامر صدرت باعداد المشانق وارسالها الى مكان الواقعة ، فدهش الجمهور لهذا النبأ وتوقع أن أحكاما صارمة بالاعدام ستصدرها المحكمة المخصوصة ، وأن المحاكمة انما هى مهزلة صورية لاظل فيها للعدل ، ولاحرمة للقانون

وكان الامر العالى الصادر فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بتأليف المحكمة المخصوصة التى تحكم فيما يقع من الأهالى من الجنايات والجنح على عساكر أو ضباط جيش الاحتلال لايزال قائما ، (راجع ص ٤١) ، ففى ٢٠ يونيه سنة ١٩٠٦ أى قبل انقضاء سبعة أيام على وقوع الحادثة ، أصدر بطرس باشا غالى وزير الحقانية بالنيابة قراراً بتشكيل المحكمة المخصوصة لمحاكمة المتهمين فيها برياسة بطرس باشا غالى ذاته ، وعضوية كل من المستر هيتر نائب المستشار القضائى ، والمستر بوند وكيل محكمة الاستئناف الاهلية ، والقائمقام لادلو القائم بأعمال المحاماة والقضاء بجيش الاحتلال ، واحمد فتحى بك زغلول (باشا) رئيس محكمة مصر الابتدائية ، وأن يكون انعقادها فى شبين الكوم يوم الاحد ٢٤ يونيه ، وعين عثمان بك مرتضى رئيس اقلام وزارة الحقانية سكرتيرا للمحكمة ، وبلغ عدد من قدمتهم الادارة لمحاكمتهم فى هذه الحادثة اثنين وخمسين متهما ، قدموا جميعا مقبوضا عليهم ، وسبعة من الغائبين

وقد انعقدت المحكمة المخصوصة بهيأتها السالف ذكرها يوم الاحد ٢٤ يونيه بسراى المديرية بشبين الكوم الساعة العاشرة صباحا ، وكان يحيط بها جو

من الرهبة يملأ النفوس فزعا ، والقلوب جزعا، والجنود الانجليزية والمصرية ترابط حولها وعلى مقربة منها ؛ وأخذت فى سماع أقوال الشهود ، وقد ثبت من شهادة الدكتور نولن الطبيب الشرعى أمام المحكمة ، وكان انجليزيا ، أن وفاة الكبتن بول راجعة مباشرة الى ضربة الشمس ، وأنه لولم يصب بها لما حدثت الوفاة من اصابة الرأس التى أصابته فى الحادثة

وكان تحامل المحكمة على المتهمين باديا أثناء سماع الشهود، حتى أنه حين كان أحد الشهود واسمه عبد العال صقر يروى الحادثة بما يدل على تحذيره الضباط الانجليز من الصيد داخل القرية ، قال له المستر بوند « ألا تعرف أن هذه المحكمة تعاقب الشهود الزور ؟» قال (نعم) ، فقال المستر بوند « أنا أعرف المصريين أمثالك كيف تكون شهادتهم » ، واستمرت المحكمة فى سماع الشهود والدفاع ثلاثة أيام حتى يوم ٢٦ يونيه

الحكم

وانعقدت المحكمة فى صباح اليوم الرابع (الاربعاء ٢٧ يونيه) وتلا سكرتير الجلسة الحكم ؛ وهو يقضى على كل من :

اولا — حسن على محفوظ ؛ ويوسف حسن سليم . والسيد عيسى سالم . ومحمد درويش زهران . بالاعدام شنقا فى قرية دنشواى

ثانيا — محمد عبد النبي مؤذن القرية . واحمد عبد العال محفوظ. بالاشغال الشاقة المؤبدة

ثالثا — احمد محمد السيسى . بالاشغال الشاقة خمس عشرة سنة

رابعا — محمد على ابو سمك . وعبده البقلي . وعلى على شعلان . ومحمد مصطفى محفوظ . ورسلان السيد على . والعيسوى محمد محفوظ . بالاشغال الشاقة سبع سنين

خامسا — حسن اسماعل السيسى . وابراهيم حسنين السيسى . ومحمد

الغباشى السيد على . بالحبس مع التشغيل سنة واحدة . ويجلد كل واحد منهم خمسين جلدة

وأن ينفذ الجلد أولا بقرية دنشواى

سادسا — السيد العوفى . وعزب عمر محفوظ . والسيد سليمان خير الله . وعبد الهادى حسن شاهين . ومحمد احمد السيسى . بجلد كل واحد خمسين جلدة بقرية دنشواى ، مع تكليف مدير المنوفية بتنفيذ الحكم فورا

فيكون مجموع من حكم عليهم واحدا وعشرين متهما ، حكم بالاعدام على أربعة منهم ، وبالاشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبها لمدة خمس عشرة سنة على واحد ، وبالسجن سبع سنوات على ستة ؛ وبالحبس مع التشغيل مدة سنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة ، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة

كيف قوبل الحكم

قوبل هذا الحكم بالدهشة لصرامته ، ولأنه فاق كل ما كان يتوقعه المتشائمون ، وخلا من كل إنصاف وعدل ، إذ كانت الحادثة راجعة أصلاً الى عدوان الضباط البريطانيين ، ولم يقع اعتداء من الأهلين إلاّ بعد أن أصيبت إحدى نسائهم وحرق جرن لهم ، ولم يمت من الضباط الانجليز سوى ضابط واحد ثبت من تقرير الطبيب الشرعى الانجليزى أن السبب المباشر لوفاته هو ضربة الشمس التى أصابته من شدة الحر ، وقد دلّ هذا الحكم على أن العدل الانجليزى لا يؤمن جانبه اذا كانت الخصومة تمس صالحا انجليزيا

تنفيذ الحكم — ٢٨ يونيه سنة ١٩٠٦

كان تنفيذ الحكم بطريقة وحشية ، زادت فظاعة المحاكمة ، وفاقت كل ما يتصوره العقل من وسائل الانتقام والتعذيب ؛ وكان التنفيذ فى اليوم التالى لصدور الحكم ، فى المكان الذى مات فيه الكبتن بول ؛ وفى مثل الساعة التى وقعت فيها الحادثة ، ففى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل سيق المحكوم عليهم

بالاعدام والمحكوم عليهم بالجلد الى نقطة الشهداء ، على مسافة نحو عشرين كيلومترا من شبين الكوم ، وأربعة كيلو مترات من قرية دنشواى، وأنزلوا بها بحراسة الجنود البريطانية والمصرية ، حتى إذا اقتربت الساعة الأولى بعد الظهر جيء بهم الى دنشواى ، وهناك نصبت المشنقة وآلة الجلد ، ونفذ الحكم بقسوة وفظاعة ، فبدأ التنفيذ فى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ، ونفذ الحكم فى المشنوق الاول علنا ، على مرأى ومسمع من أهله وذويه، وبين صياح النساء ونواحهن ، وبقى معلقا بينما نفذ حكم الجلد فى اثنين ، ثم شنق الثانى بهذه الطريقة ، يليه جلد اثنين آخرين ، وهكذا حتى تمت المجزرة فى منتصف الساعة الثالثة مساء ، قال المرحوم الاستاذ احمد حلمى المحرر وقتئذ باللواء فى ختام وصفه لمأساة التنفيذ :

« كاد دمى يجمد فى عروقى بعد تلك المناظر الفظيعة ، فلم استطع الوقوف بعد الذى شاهدته ، فقفلت راجعا وركبت عربتى ، وبينما كان السائق يلهب خيولها بسوطه كنت أسمع صياح ذلك الرجل يلهب الجلاد جسمه بسوطه ، هذا ورجائى من القراء ، أن يقبلوا معذرتى فى عدم وصف مافى البلدة من مآتم عامة، وكآبة مادة رواقها على كل بيت ، وحزن باسط ذراعيه حول الأهالى ، حتى أن أجران غلالهم كان يدوسها الذين حضروا لمشاهدة هذه المجزرة البشرية ؛ وتأكل فيها الانعام والدواب بلا معارض ولا ممانع ، كأن لا أصحاب لها ، ومعذرتى واضحة لأنى لم أتمالك نفسى وشعورى أمام البلاء الواقع الذى ليس له من دافع إلا بهذا المقدار من الوصف والايضاح »

ولقد كنت حينما وقعت الحادثة طالبا بالسنة الثانية من مدرسة الحقوق ، وكنت أطالع نبأها فى اللواء فأدهش لمخالفة منهج التحقيق والمحاكمة فيها لما كنا نتلقاه من أصول المحاكمات الجنائية التى تقضى بها القوانين ، وتساءلت مافائدة ماتتلقاه من الدروس والقواعد القانونية اذا كانت لاتطبق على الناس كافة ، ولما تلوت وصف التنفيذ فى اللواء بقلم احمد افندى حلمى اقشعر بدنى من هول

ماقرأت ، وأدركت مبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال، وتحققت أن لا كرامة للأمة ولا لأى فرد من أبنائها بغير الاستقلال

مصطفى كامل وحادثة دنشواى

كان الفيقد فى أوروبا حين صدر حكم المحكمة المخصوصة فى قضية دنشواى ، وقد بلغته أنباء المحاكمة والتنفيذ وهو فى باريس ، وكانت النفوس فى مصر واجمة، يحز فيها الألم وهى ساكتة، كانت تألم ، ولكن ألم اليأس المستضعف ، أمام جبروت الاحتلال وبطشه

وصف المرحوم (قاسم أمين) هذه الحالة النفسية يوم تنفيذ حكم دنشواى بقوله : « رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنوقا ، ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الاصوات ، كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة، مختلط بشئ من الدهشة والذهول ، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة ، وهيئة بائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة ، ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوماً فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل إنسان »

فهذا اليأس ، وهذا السكوت ، وهذا الاستسلام والوجوم الذى استولى على النفوس بعد حادثة دنشواى ، وهذا الشعور الذى بقى مكتوماً ، على حد تعبير قاسم امين ، لم يكن لينهض بالأمة ، ولا ليوقظ فيها روح الكرامة والاباء ، بل كان من شأنه لودام أن يزيدها يأسا وهوانا واستسلاما ، ولكن عبقرية مصطفى كامل هى التى أبدلت من هذا اليأس قوّة ، ومن هذا السكون حياة وثورة

لقد كان لابد من صوت عال يهز قلب الانسانية ، ويشهد العالم على تلك الفظائع ، ويستثير الرأي العام فى مصر وأوروبا ضد الاحتلال عامة ، كان ذلك هو صوت الفقيد ، ورغم أنه ذهب الى أوروبا للاستشفاء ونصح له الاطباء أن

يلزم الراحة والهدوء؛ فانه لم يكد تصله أنباء المحاكمة حتى ثارت نفسه وتحرك قلبه الكبير الى العمل والجهاد ؛ ونهض بكل قوته لكى يسمع العالم صوت مصر، ويعلن حربا شعواء على الاحتلال وسياسته ؛ فكتب فى جريدة (الفيجارو) الفرنسية الشهيرة [1] مقالة كبرى نشرت فى صدر الجريدة بعنوان (الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) عرض فيها حادثة دنشواى على الضمير الانسانى فى العالم ؛ فكانت من أقوى وأبلغ ما كتب الفقيد بلسان مصر، وقد استطرد فيها الى جهاد المصريين فى سبيل الاستقلال ، وأبان أن حادثة دنشواى قد قضت على مزاعم اللورد كرومر فى ما كان يذيعه من أن الفلاحين المصريين محبون للاحتلال الانجليزى ، وأسمع العالم صوت مصر ، إذ قال فيها :

« إن مقصدنا الذى نرمى اليه هو استقلال وطننا ، ومحال أن يوجد شىء ينسينا ذلك المقصد »

ولما كانت هذه المقالة هى فى ذاتها من أهم حوادث الحركة الوطنية ، وكان من نتائجها إقالة اللورد كرومر من منصبه فانا ننشر ترجمتها هنا كاملة ، قال رحمه الله :

الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن

« لقد حدثت حادثة مؤلمة فى قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى (دنشواى) تحركت بسببها عواطف الانسانية فى العالم كله ؛ وقام رجال أحرار الفكر مستقلو الاخلاق والاطوار فى انجلترا رافعين أصواتهم سائلين عما اذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمح بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس !

« وانه لمن الواجب على الذين يشغفون حقيقة بالانسانية والعدل ، أن يدرسوا هذه المسألة ويصدروا فيها حكمهم العادل ، وهى المسألة الشاغلة لأمة بأسرها !

---

(١) عدد ١١ يوليه سنة ١٩٠٦

« فقد ترك ضباط من الانجليز فى يوم ١٣ يونيه الماضى معسكرهم بالقرب من دنشواى بمديرية المنوفية ، وقصدوا صيد الحمام فى الاملاك الخصوصية للاهالى ؛ فأنذر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بان الاهالى قد استاءوا فى العام الماضى من صيد الضباط الانجليز لحمامهم ، وأنهم ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا الى الصيد فى هذا اليوم !

« ورغما من هذا الانذار ، فان الضباط أخذوا يصطادون ، واطلقت العيارات النارية ، وجرحت امرأة ، وحرق جرن ، فاجتمع الفلاحون من كل مكان ، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الانجليز ، جرح هؤلاء فيها ثلاثة من المصريين ، وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الانجليز ، وقد تخلص أحد المجروحين وهو الكبتن « بول » من المعركة ، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلو مترات ، حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجة ، وسقط بعد ذلك ميتا بضربة الشمس ! وما علم العساكر الانجليز بما وقع لضابطهم حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواى ، وقتلوا فلاحا بدقّ رأسه !

« هذه هى الوقائع ، وما علمها أصحاب الامر من الانجليز حتى فقدوا الرشد ، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم ! وبدلاً من أن ينظروا الى الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك ، بالغوا فيها وجسموها ، وأعانت الصحف المخاصمة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التي ستضرب للناس ستكون هائلة ! فلم يكن العدل هو المنشود فى المسألة ، بل الانتقام الفظيع !

« ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر متشل المستشار الانجليزى ، قبل المحاكمة بأسبوع بلاغا رسميا أثقلت فيه كواهل المتهمين بالتهم ، وقصدت صراحة التأثير فى المحكمة والرأى العام ! وبلغ من احتقار احدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر إرسال المشانق الى دنشواى قبل المحاكمة ،

وقد راع الشعب كل ذلك ، فأخذ يتساءل عن الحكم الذى ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة!

« وقد اجتمعت المحكمة فى يوم ٢٤ يونيه ، وأى محكمة ؟ محكمة استثنائية لادستور يقيدها ولا قانون يربطها ! لقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات التى تخطر على البال ! محكمة أغلبيتها للانجليز ، ولا تستأنف أحكامها ، ولاتقبل العفو ! وان المرسوم الذى صدر بتشكيلها فى عام ١٨٩٥ـ بناء على ضغط اللورد كرومر ـ ذلك الضغط الذى لايسمح للحكومة الخديوية مطلقا باظهار أقل مقاومة ـ يحمل قارئه على الظن بأن الجيش الانجليزى الذىألقت اليه انجلترا أمر تأييد الامن فى مصر ، فى خطر مستمر ، جعلهفى حاجة الى محكمة كهذه المحكمة أو لآلة ارهاب

« قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام فى نظر القضية ، وتبين أن الضباط الانجليز هم الذين هاجوا الفلاحين بصيدهم فى ممتلكاتهم ، وبجرحهم إحدى نسائهم ، وان الفلاحين هجموا على الانجليز بوصف أنهم صيادون يختلسون الصيد ، لا ضباط بريطانيون ! واعترف أمام المحكمة أطباء انجليز بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعى للمحاكم بأن الكبتن (بول) مات بضربة الشمس ، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لاحداث الوفاة !

« ولم تترك المحكمة الا ثلاثين دقيقة لاكثر من خمسين متهما ليقولوا ما عندهم ، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس ، حيث أكد أن الضباط الانجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالى ، وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب فى المعركة ، والذين يعتبرهم العدل فى كل بلدخصوما للمتهمين !

« وفى يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين ، وبالاشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبالاشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما على واحد ، وبها لمدة سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة ، وبالجلد على

خمسة ، وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرباج له خمسة ذيول !!

« وقررت المحكمة فى حكمها تنفيذ الحكم فى اليوم التالى ! بحيث لم يمض الا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم !

« ففى الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الاربعاء ٢٧ يونيه جيء بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق ، والثمانية المحكوم عليهم بالجلد ، (عفت المحكمة عن واحد من المحكوم عليهم بالجلد لأن الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله) من شبين مقر مديرية المنوفية الى قرية (الشهداء) التى تبعد أربعة كيلو مترات عن دنشواى ، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع ! وفى الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٨ يونية جيء بهم الى دنشواى ، وكان أصحاب الامر من الانجليز قد أصروا على تنفيذ الحكم فى محل الواقعة وفى الساعة التى وقعت فيها !

« نصبت المشانق ، ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر ، وأحاطت عساكر « الدراجون » الانجليزية بالمحكوم عليهم ، والتفت الخيالة المصرية حول الانجليز ، وتولى المستر متشل مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ ! وقد تقدم اليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده ليتلقى وصاياه الاخيرة ، فرفضا قبول هذا الرجاء الذى هو أعز ما يرجوه الانسان ويحتمه الشرع والعدل !

«وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيولها وشهرت سيوفها وبدىء بعد ذلك بدقيقة فى الشنق ! ...

« فشنق رجل ، ولبث أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالى القرية وهم عن بعد يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب ، وجلد اثنان أمام الجثة !

« وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات ، واستمر ساعة من الزمان! منظر وحشى مهيج للعواطف ، بكى منه بعض الحاضرين الاوروبيين بدموع الحنان ، وأبدوا النفور الشديد مما رأوا ! وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين :

« لعنة الله على الظالمين ! لعنة الله على الظالمين ! »

« إن يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦ ، سيبقى ذكره فى التاريخ شؤما ونحسا ، وهو خليق بأن يذكر في عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية !

« عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عند ما استفاضت انباء تنفيذ الحكم فى دنشواى، ولقد كان من المستحيل على أعداء انجلترا أن يصلوا الى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عاما ! ولكن من العجيب أن يكون الموجدون لها هم رجال من الانجليز ! وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواى أشعارا تخلد ذكرى المناظر الوحشية التي أهينت فيها المدنية والانسانية والعدل بأقسى الصور المهيجة للضمائر والنفوس !

« وإنى جئت اليوم أسأل الأمة الانجليزية نفسها والعالم المتمدن ، إذا كان يصح التسامح فى اغفال مبادىء العدل وشرائع الانسانية الى هذا الحد ؟

« جئت أسأل الانجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا إذا كانوا يرون بسط النفوذ الأدبى والمادى لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية ؟

« جئت أسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الانسانية ، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط إذا حدثت فظائع فى بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى ألف مرة ، أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لأن يسقط الى الأبد تلك المدنية الاوروبية فى أعين العالم كافة !

« جئت أسأل الأمة الانجليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها فى مصر يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما الى قوانين استثنائية ووسائل همجية — بل وأكثر من همجية — ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الانسان ؟

« انى معجب بكل اخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الانجليز الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشنيعة التى مثلت فى مصر ! ولكن لما رأى السير ادوارد جراى [١] أن الرأى العام انقاد لهم وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر، وقف فى مجلس العموم وتكلم عن التعصب الاسلامى المزعوم فى مصر، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح أن لا يشتغلوا بمسائل مصر، حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية، أو بعبارة أخرى سلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق فى مصر، أمام خطر أصرح أنا علنا بأنه موهوم!!

« ان هذا الخطر الموهوم ليس فى أيدى أصحاب الأمر من الانجليز الا وسيلة لتسويغ هذه الفظيعة المستنكرة، وفظائع أخرى تقع فى المستقبل !!

« انه لا وجود لهذا الخطر ! وما الغرض من هذه الفظائع الا احداثه !

« وانى أؤكد بحق أقدس شىء فى الدنيا أنه لا وجود للتعصب الدينى فى مصر، نعم ان الاسلام سائد فيها لأنه دين الاغلبية العظمى ؛ ولكن الاسلام شىء والتعصب شىء آخر، لقد انخدع السير ادوارد جراى فى هذه المسألة ! وانى أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتى : هل لو كان فى مصر تعصب حقيقة أ كانت تستطيع انجلترا أن تحاكم ٥٢ مسلما أمام محكمة استثنائية مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم ؟

« هل تنفيذ الحكم فى دنشواى بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافيا وحده لاشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود ؟

« ألم تكن كل هذه التحريضات كافية لاخراج الشعب المصرى عن أطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقة ؟

«ولماذا لم يثر ذلك التعصب الذى تكلم عنه السير ادوارد جراى معارك كمعركة دنشواى أثناء مسألة طابة، حيث كانت الأغلبية الكبرى من المصريين

---

(١) وزير خارجية انجلترا وقتئذ .

فى جانب تركيا ، مع أن الجنود الانجليزية كانت تمر دائما فى كل جهة بكل أمان واطمئنان ؟

« لقد أثبتت المرافعات فى قضية دنشواى بكل افاضة وبيان ،أنه لا دخل للاسلام فيها ، وأن الضباط الانجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعضيداً !

« إنه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقا دقيقا كاملا فى المسألة ، وان مصر على بعد يومين من أوروبا ، فاليأت اليها الانجليز المحبون للعدل الراغبون فى عدم ثلم الشرف البريطانى ، وليذهبوا الى المدائن والقرى ، وليروا بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين والمصريين كافة ، وليقتنعوا بأنفسهم بأن الشعب المصرى ليس متعصبا أبداً ؛ ولكنه شعب كريم أبىّ ينشد العدل والمساواة ، ويطلب أن يعامل كشعب حر لا كقطيع من الأغنام ! وانه يعمل بكل عزيز لديه لتحقيق هذا المطلب الأسمى ؛ مطلب الحرية والاستقلال !

« أجل ، إن الشعب المصرى شاعر الآن بكرامته ، وذلك أمر لا يمكن انكاره بأى حال ؛ إنه يطالب معاملة أبنائه أسوة بالاجانب ، وهو طلب عدل وغير مبالغ فيه أبدا !

« لقد تكلم السير ادوارد جراى فى موضوع حماية الاوروبيين ضد المصريين ! ولكن هل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوروبيين القاطنين مصر ؟ ألا يعيشون فى أتم صفاء مع المصريين ؟ ألا تحميهم الامتيازات الأجنبية ؟ ولكن من يحمى المصريين ؟ ألا نرى فى بعض الاحيان مجرمين من الاجانب — يحتج النزلاء جميعا على جرائمهم — يعتدون على المصريين ويقتلونهم ثم يفلتون من عقاب المحاكم المصرية ؟ وأى عقاب ستعاقب به الجنود الانجليزية التى قتلت الفلاح على مقربة من دنشواى وكذلك الضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال ؟

« ان اللورد كرومر دافع عن نفسه فى تقريره الاخير ضد الذين يطعنون على السلطة المطلقة التى يتصرف بها فى أمور مصر قائلا : ان البرلمان والرأى العام فى انجلترا يراقبان اعماله ، كما أن الصحافة المصرية تراقبها أيضا

« ولكنها مراقبة باطلة لأنه ما كاد البرلمان البريطانى يعرض ويحتج على أعمال وحشية كهذه ، حتى قال اللورد كرومر للسير ادوارد جراى بأن التعصب مخيف على شواطئ نهر النيل ؛ وانه يجب على البرلمان ملازمة الصمت ! وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوانين مخالفة للعدل والانصاف !!

« لذلك يقضى شرف الامة الانجليزية عليها بأن توازن بين الاقوال الرسمية وأقوالنا ، وتقوم بأجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية المطروحة أمامها الآن بكل استقلال !

« لقد قضى اللورد كرومر الاعوام الطوال وهو يؤكد بأن الامراء والكبراء فى مصر هم وحدهم المبغضون للاحتلال ، لانه سلبهم سلطتهم ، أما الفلاحون فانهم يحبونه حبا جما ويدعون بدوام العصر الحاضر !!

« وبناء على ذلك فانه لم يكن اعتداء فلاحى دنشواى على الضباط الانجليز الا لأنهم رأوا احدى نسائهم مجروحة ، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا أقصى درجات البشاعة، ويحق للعالم كله أن يقابلهما بمزيد السخط ! واذا كان الأمر على العكس وأتى الفلاحون ذلك طوعا لعاطفة حقد دينى أو وطنى فيتحتم على اللورد كرومر أن يعترف بأنهم يمقتون الاحتلال وأن إدارته أدت الى اخفاق ليس له مثيل ! ويحق عندئذ للمستر « ديلون » أن يقول مؤكدا : « إن خطبة السير ادوارد جراى هى أتعس شرح لمركز انجلترا وسياستها فى مصر »

« على أن الذين يقطنون مصر كافة ويحبون الصدق والحقيقة ، يعترفون بأن حادثة دنشواى لم تكن مطلقا نتيجة حركة عدائية ضد الاوروبيين؛ وان المصريين

هم أكثر أمم الأرض اعتدالا وتسامحا !

«ان الخطة الوطنية التي يجرى عليها أصحاب النفوذ والتأثير فى الرأى العام المصرى واضحة جلية ، فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم انهاض شعبنا وتعريفه حقوقه وواجباته ، وارشاده الى المقام اللائق به فى العالم ، واننا أدركنا من أكثر من قرن أنه لايمكن للأمم أن تعيش عيشة كرامة اذا لم تسلك طريق المدنية الغربية ، وأننا أول شعب شرقى صافح أوروبا ، واننا مستمرون على السير فى الطريق الذى سلكناه ! واننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقى ننال احترام العالم وحرية مصر ، ومقصدنا الذى نرمى اليه هو استقلال وطننا ، ومحال أن يوجد شىء ينسينا ذلك المقصد الاسمى !

« ان عطفنا على الشعوب الاسلامية لأمر طبيعى ولا تعصب فيه ، وانه لايوجد مسلم مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الاسلامية فى عصبة واحدة ضد أوروبا ، والذين يقولون ذلك اما جاهلون أو راغبون فى إيجاد هاوية بين العالم الاوروبى والمسلمين !

« إنه لاسبيل لنهضة الشعوب الاسلامية بغير حياة اسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقى !

« وان لمصر مكانا خاصا بها فى الشرق ، فهى التى وهبت العالم قناة السويس ، وفتحت السودان للمدنية ، وفيها طبقة راقية الفكر : وتقدم الامة بالامة يمشى فيها سراعا ، ومن المستحيل أن تحكم مصر وهذا حالها كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة فى أعماق أفريقيا وليس بينها وبين أوروبا اتصال ! ألم ير الناس الانجليز ينفعلون ويهيجون ضد ما يجرى فى جهات الكونغو وغيرها من البلاد ؟ فكيف يسمحون اذن بحدوث أفظع الجرائم فى مصر ؟

« انه من الواجب على أوروبا كلها أن تهتم بمصر . فان صوالحها فيها جسيمة ، والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها وان القوانين الاستثنائية

والاعتساف لا يؤديان إلا الى هياج الشعب المصرى وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية

« اننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية ، نطالب دستورا ينقذنا من السلطة المطلقة ، ولاشك انه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدل فى انجلترا الا أن يكونوا معنا ويطلبوا مثلنا ألا تكون مصر — تلك التى وهبت العالم أجمل وأرقى مدنية — أرضا تمرح الهمجية فيها ، بل بلادا تستطيع المدنية والعدالة أن يبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة »

« مصطفى كامل »

دوت المقالة فى أوروبا دويا عظيما ، وتناقلتها الصحف فى مختلف البلدان ، وكان لبلاغتها، وعباراتها المؤثرة ، وصدورها من زعيم الحركة الوطنية ، والتعليق عليها فى معظم الصحف الاوروبية والبريطانية، صدى بعيد فى الرأى العام الاوروبى والانجليزى ، وتزلزل من بعدها مركز اللورد كرومر فى مصر وانجلترا

ونصحت جريدة (التريبون) الانجليزية بوجوب منح مصر حكومة مستقلة، وكتبت مجلة المجلات الانجليزية بقلم الكاتب الانجليزى الشهير المستر ستيد مقالة ذكر الانجليز فيها بوعودهم لمصر منذ بدء الاحتلال ، وأخذت الصحف العالمية الأخرى تنشر الفصول المسهبة عن مصر والمسألة المصرية

وكان للمقالة وللحملة الفقيد عامة صدى فى البرلمان البريطانى ، فانبرى بعض النواب الاحرار يلقون على اللورد كرومر تبعة الحادثة ؛ ويستنكرون المحاكمة والتنفيذ ، وتغير الموقف حيال الحادثة ؛ فقد كان السير ادوارد جراى وزير خارجية انجلترا قد أسكت البرلمان بتصريح له يوم ٥ يوليه سنة ١٩٠٦، إذ طلب بلهجة شديدة عدم البحث فى مسألة دنشواى بحجة أن التعصب الدينى ضارب أطنابه فى مصر وأنه لولاه لما وقع الاعتداء على الضباط الانجليز ، ومرت فترة

جمود بعد هذا التصريح ، ولكن لم يكد صوت مصطفى كامل يدوى فى أوروبا استنكاراً لفظائع الاحتلال فى الحادثة حتى أعلن بعض النواب الاحرار أنهم لايقيدون أنفسهم بالسكوت فى مسألة تهم الانسانية والعدالة وشرف انجلترا ، وقد ساعدهم على الخروج من صمتهم أن مصطفى كامل قد نفى بحجج بليغة تهمة التعصب الدينى عن المصريين

مصطفى كامل فى لندن

بعد أن نشر الفقيد مقالته عن حادثة دنشواى فى جريدة الفيجارو قصد لندن ليستمر فى نضاله ، وليرفع صوت مصر فى عاصمة الدولة المحتلة ، فوصلها يوم ١٤ يوليه ، وكان يقصد مقابلة رجال السياسة وحملة الاقلام ، لتفهيمهم الحقائق عن مصر ودحض المفتريات التى كن يذيعها دعاة السوء عن الأمة المصرية من رميها بالتعصب الدينى وأخذها بالشدة

كتب فى هذا الصدد تحت عنوان (ارفعوا أصواتكم) [1] قال « لقد لبثت الامة الانجليزية عدة سنوات تعتقد فيما تنشره الصحف عنها ويقوله السياسيون لها ان الامة المصرية فرحة بالاحتلال ، حتى حدثت حادثة دنشواى واهتزت لها المملكة البريطانية كلها وتساءل القوم فى كل ناد « اذاً الامة المصرية غير فرحة بالاحتلال »، نعم ان الامة المصرية نافرة من الاحتلال ، ومن واجبات المصريين أن يعلنوا أسباب ذلك النفور ويقولوا بأعلى أصواتهم أن اكبرها وأهمها ضياع استقلالنا ، ذلك الاستقلال الذى أخذته انجلترا وأقسمت أن ترده اليناقويا مصانا لا يستطيع أحد أن يمسه بسوء ، ليقل المصريون للأمة الانجليزية انه اذا كان ساستها قد نسوا أو تناسوا عهودهم ووعودهم فاننا معشر المصريين لم ننسها ، ليقولوا بحرية وصراحة واستقلال كل ما يعتقدون وما به يشعرون ، حتى تعلم الامم كلها أنهم أحياء يناضلون عن حقوقهم ، ولا يقبلون المذلة والعار »

---

(١) اللواء عدد ٢٦ يوليه سنة ١٩٠٦

وصل مصطفى الى لندن ، وقابل الكثيرين من رجال السياسة وأعضاء البرلمان البريطانى والصحفيين ، وحادثهم فى حادثة دنشواى وحوادث مصر وسياسة انجلترا فيها ، ومطالب المصريين ، ونفى عنهم تهمة التعصب الدينى التى كان يروجها ضدهم دعاة السوء ، وانتهز فرصة هذه الحادثة ليرفع صوت مصر عاليا مطالبا باستقلالها ، فهو لم يحصر دعايته فى الحادثة بذاتها ، بل وسع نطاق الجهاد واتخذها سبيلا للمناداة بحقوق مصر واستقلالها ، وترجم مقالته (الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) الى الانجليزية، ووزعها على جميع الوزراء وأعضاء البرلمان ورجال الصحافة

حديثه فى جريدة الديلى كرونكل

ونشرت جريدة (الديلى كرونكل) حديثا له فى عددها الصادر يوم ٢٠ يوليه سنة ١٩٠٦ وقدمت له بمقدمة قالت فيها

« وفد مصطفى باشا كامل رئيس الحزب الوطنى فى مصر الى لندن أخيرا بقصد عرض مقاصد وسياسة مواطنيه المحبين لبلادهم على الأمة الانجليزية ، وهو شاب مصرى متعلم تعليما أوروبيا عاليا بحيث يصعب تمييز الفرنسى المتعلم تعليما عاليا والمتربى تربية سامية عنه سواء فى المعرفة والعلم واللغة أو الافكار بوجه عام ، وهو صاحب ومحرر جريدة عربية تصدر فى القاهرة تسمى (اللواء) وهى أهم الصحف العربية وفى مقدمة الصحف التى تعد لسان حال السواد الاعظم من المصريين الذين مبدأهم « مصر للمصريين »

ثم نشرت الحديث وهو يدور حول دحض تهمة التعصب الدينى التى أراد خصوم الحركة الوطنية أن يصفوها به ، وبرهن على تسامح المصريين الدينى ، وعرج على حادثة دنشواى وفظاعة المحاكمة والتنفيذ فيها ، ثم سأله محرر الجريدة عن برنامج الحزب الوطنى ، فأجاب « بأن أول غرض يرمى اليه هو طبعا العمل لاستقلال مصر ، وقد وعدت الحكومة الانجليزيه المرة بعد مرة وعداً مقدسا سواء فى البرلمان أوفى

المكاتبات الرسمية بأن ترد مصر للمصريين ؛ وبقطع النظر عن هذه الوعود فان المصريين عامة متحدون فى طلب الاستقلال ، وهل تظنون أن أى انجليزى يستطيع أن يتحمل ضياع حريته وفقدانها كما نتحمل نحن ذلك الآن ؟ لاشك أنه لا يوجد انجليزى يحتمل ذلك » ، وختم حديثه بقوله

« اننا نطلب استقلالا اهليا ودستورا حرا ، ولقد نالت مصر فى عهد الخديو توفيق باشا برلمانا ، وهذا البرلمان قد انحل لمادخل الانجليز بلادنا ، ولكن اللورد دفرين وعد عام ١٨٨٣ بتشكيل برلمان جديد ، ولم يتم شىء من هذا الوعد الى الآن ، بل ان اللورد كرومر تمكن من جمع سلطات الحكومة كلها فى قبضة يده وأخذ يحكمنا كمالك مطاق التصرف بمعناه الحقيقى ؛ ولاريب فى أن مطالبنا يعلمها الانجليز الذين يحبون الحرية »

احتفال الشرقيين بالفقيد

فى لندن

أعجب الشرقيون عامة بدفاع الفقيد عن قضية مصر واستقلالها وكرامتها ، وأكبروا فيه البطولة والاقدام ، اذ رأوه يجوب العواصم ويرفع صوت مصر جهيرا عاليا فى أوروبا وانجلترا ، ورأوا فى جهاده مفخرة لكل شرقى ، فلما جاء لندن أقامت جمعية الوحدة الاسلامية الهندية حفلة كبرى لتكريمه يوم ٢٤ يوليه سنة ١٩٠٦ بفندق (كريتريون) ، حضرها لفيف من عظماء الشرقيين والانجليز ، نذكر منهم السيد عبدالله المأمون السهروردى رئيس الجمعية ، وعبدالحق حامد بك أشهر شعراء الترك ، والمستر بيلس من أعضاء مجلس العموم ، والسير (بها ونجرى) من كبار الهندوكيين و نائب الهنود فى لندن ؛ والمستر (سوينى) رئيس الجمعية الوضعية ؛ والمستر (بانديت كرشنا فرما) رئيس جمعية استقلال الهند ، والمستر (كارل باند) الكاتب الشهير وغيرهم ، وحضرها كثيرون من صفوة الشبيبة المصرية والشرقية ، وبلغ عدد الحاضرين نحو ٢٥٠ مدعوا من علية القوم ، فكانت

من افخم الحفلات : واستقبل فيها الفقيد بأعظم مظاهر الحفاوة والاجلال

ولما اكتمل الجمع وقف صاحب الدعوة السيد السهروردى وألقى بالعربية خطبة حيّا فيها صاحب الترجمة ؛ قال:

« ان أفئدتنا لم تبتهج فرحا لزيارة أمير أو وال من ولاة الاسلام بمقدار ابتهاجنا بزيارة سعادتكم لهذه البلاد ، لانكم أمير أمراء الوطنية ، وأسد غابة الحرية ، وبطل المدافعين عن حقوق الانسانية ، ولقد أحسنتم فى قدومكم الى هنا بقصد ايقاف الامة الانجليزية على حقيقة الشؤون المصرية واغراض وآمال ومطالب المسلمين ، وانى اؤمل بل واثق باصغاء الانجليز لنداء المسلمين وأن لا يجعلوا للتعصب الدينى والتحامل سلطانا على شعورهم دون العدالة والاستقامة ، واذا فرض ولم تصلوا الى بغيتكم هذه فان ذلك لا يثبط من همتكم ، ولا يفت فى عضدكم ، فان زيارتكم لانجلترا لا تخلو من فائدة قط . لأن صوتكم لا يصل من عاصمة هذه الدولة الى اخوانكم فى الدين فى أقصى أنحاء المعمورة فقط ، بل سيجد له صدى فى قلوب محبي الاوطان فى الممالك الاخرى الذين هم شركاؤكم فى الآلام والمصائب ، ودولة الوطنية أوسع من دولة الاسلام ، فلتعد الى بلادك المحبوبة ولتستمر فى جهادك فى سبيل الحرية ، واذكر فى ساعة اليأس والقنوط والضيق أنك لست منفردا وحدك ، بل ان أسمى أميال القاطنين على ضفاف نهر الرين والطونه (الدانواب) والجانج والفرات والبوسفور وقرن الذهب ، تشارك ابن وادى النيل فى مساعيه ، وان أعينهم لمتجهة نحو أفق مصر ، منتظرة بزوغ فجر الحرية وصدور الاشارة من أرض الفراعنة الاولين ، بانقاذ أبناء اسماعيل[1] ، ودخول المصريين فى الحرية التى وعدوا بها !

« ولقد تغلب لسانى على جنانى ، فألقيت عليكم أيها السادة خطابى باللغة

---

(١) العرب

العربية ، مع العلم بأن السكوت فى حضرة ديموسثين [1] مصر هو أفضل بلاغة وأحسن بيان »

خطبة صاحب الترجمة

فوقف صاحب الترجمة وألقى باللغة العربية كلمة شكر قال فيها :

« أيتها السيدات . أيها السادة

« اسمحو لى أن أشكركم من صميم فؤادى شكرا لا يوفيه اللسان ولا يؤديه البيان على تفضلكم بالاجتماع هنا للتسليم علىّ ومقابلة أعمالى الصغيرة بعنايتكم ورعايتكم وانعطافكم ، وانى شعرت فى كل وقت بعدم استحقاقى لشئ من ذلك كله ، لأن القيام ببعض الواجب — وما أنا قائم به كله — جزء من فرض مقدس لا يشكر الانسان عليه ، ولكنكم أردتم أن تحيّوا فى شخصى المصريين المحبين لبلادهم العاملين لرفعتها المتشوقين لاستقلالها المغرمين بالدستور والحرية ، ولذلك أستقبل مظاهرتكم السامية بجزيل الشكران ، وأسألكم باسمهم أن تعتقدوا أننا لا ننسى أبد الدهر هذه العواطف التى أبديتموها بحضوركم الى هذا النادى، وازدحامكم الى هذا الحد الذى لم يكن يخطر لى على بال ، وانى أشكر بنوع خاص حضرة السيد عبدالله المأمون السهروردى الذى رأيت فيه من الحمية والغيرة ما ملأ قلبي سرورا ، وزاد فى قوة آمالى ، وأرجوه أن يعذرنى فى عدم توفيته حق الشكر على ماقاله ، لان العجز عن الشكر أبلغ شكر

«انى عندما ماحضرت الى لندن لم أكن أحلم بحضور اجتماع كهذا ، أرى فيه أمم الاسلام والعرب ممثلة فى آن واحد، وأخاطب فيه الانسانية، فى أبنائها الراقين النابغين ، فترونني أعد هذه الليلة وحيدة فى العمر ، جديرة بالذكر أبد الدهر »

ثم تكلم طويلا عن الامم الاسلامية والشرقية ، ونوه بواجب المتعلمين فى انهاضها والاخذ بيدها فى سبيل التقدم والحرية ،وعرج على نهضة مصر وأمله فى فوزها ،ثم قال «وانى واثق بفوزها القريب العاجل،وظهورها بين أمم الارض

---

(١) أحد كبار خطباء اليونان

بارق مظهر ، كما انى على يقين من أن محبي الانسانية والمدنية الصادقين فى حبها يميلون بكل جوارحهم الى هذا الفوز ويساعدون على الوصول اليه غير ناظرين الى الاعتبارات الصغيرة الدنيئة التى يقيمها ذوو الغايات فى طريق الامم الناهضة »

وكرر فى ختام خطبته شكره على الحفاوة البالغة التى قوبل بها ، ولم يكد يتم خطبته حتى دوت القاعة بتصفيق الاعجاب من كل جانب ، ووقف السيد عبدالله السهروردى فترجم خطابه الى الانجليزية

ثم وقف الدكتور بولن من كبار المستشرقين وألقى خطبة أعرب فيها عن مزيد اعجابه بخطبة صاحب الترجمة ، وقال « انه وان كان الكثيرون من الحاضرين لم يستطيعوا تتبع معانى كلمات الخطيب كلمة كلمة الا أنهم جميعا شعروا بأنهم انما كانوا منصتين لخطيب نادر المثال والقوة والكفاءة ، وأنهم تأثروا من حسن اقتداره الواضح وشدة اخلاصه ورنات لهجة اللسان الجليل الذى كان يخطب به ، لسان النبى اسماعيل »

وأفاض فى ذكر محامد الاسلام وفضائل النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم وقف المستر (بندت كرشنا فارما) أحد علماء الهنود وزعيم جمعية استقلال الهند ومحرر صحيفة (انديان سوسيولوجست) واثنى على صاحب الترجمة ثناء كبيرا ، وأعقبه الماجور السيد حسين باجزامى وألقى كلمة شكره فيها على جهاده

وبعد أن انتهى الخطباء من خطبهم وقف المترجم وألقى باللغة الفرنسية كلمة شكر ثانية قال فيها

« أيتها السيدات . أيها السادة

« انى أكرر لكم جزيل شكرى على هذه الرعاية البالغة والاكرام العظيم ، وانى رغما عن كل ماقاله الخطباء العظماء لا اعتبر هذه الحفاوة موجهة الى شخصى ، بل اعتبرها موجهة الى أبناء جنسى والى الشعور الوطنى الذى يدفعنا على الدوام لخدمة مصر بما فى الوسع والامكان

«وان الوطنية لشعور تنحنى أمامه الأمم كلها والاجناس على اختلافها، لأنه الشعور بقيمة الانسان وكرامته ، الشعور بنعمة الله وعنايته ،الشعور بمعنى الوجود نفسه ،وسواء كان الرجل يابانيا أو صينياً أو هنديا أو جاويا أو مصريا أو انجليزيا أو فرنسيا أو ألمانيا ، أو من أى جنس كان ، فانه يقابل بالاعظام متى كان ممثلا للشعور الوطنى، لأنه حامل لأطهر وأشرف شعور رفع الانسان الى أعلى مكان ، وانى لست الا حاملا للواء الوطنية ، وقد تفضلتم هـــذه الليلة بتكريم هذا اللواء وتشريفه ، فأشكركم باسمه شكراً وافرا ، واسأل الله أن يوفقنا الى تحقيق آمالنا العزيزة واسعاد أوطاننا المحبوبة »

وكانت هذه الحفلة من أعظم ما لقيه الفقيد تكريما لجهاده فى سبيل مصر.

وليمة (كارلتون) وخطبة المترجم

وأقام المترجم وليمة فاخرة بلندن فى فندق كارلتون يوم الخميس ٢٦ يوليه سنة ١٩٠٦، دعا اليها بعض الشخصيات ذات النفوذ فى المحيط السياسى البريطانى،من أعضاء مجلس اللوردات ومجلس العموم والصحفيين ؛ وبعد أن تناولوا الطعام، وقف خطيباً ، وألقى بالفرنسية خطبة جامعة بدأها بقوله :

« أيها السادة . اسمحوا لى أن أشكركم على الشرف الذى أوليتمونى اياه، بقبولكم دعوتى ،وانى لسعيد حقاً بانتهاز هذه الفرصة لأحدثكم فى شؤون مصر واعلان الحقيقة عن عواطف المصريين وأفكارهم ، وان ذوى الأغراض ينشرون، على الدوام فى أوروبا عامة وفى انجلترا خاصة الاغلاط والا كاذيب بشأن أحوال مصر ، واحساسات المصريين ، ولكننا واثقون من أن الحقيقة القادرة القاهرة تتغلب فى النهاية دائما وتفوز وتهدم هذه الأبنية أبنية الاختلافات والتهم الكاذبة »

الاستقلال والمال -

وبعد أن نفى عن المصريين تهمة التعصب الدينى تكلم عن الاستقلال فقال::

« ان الحركة الموجودة فى مصر حقيقة هى حركة وطنية أهلية لانزاع فيها ،

فان الشعب المصرى متمسك باستقلال بلاده أشد التمسك ، واذا كان بعض الساسة الانجليز يتظاهرون الآن بنسيان الوعود والعهود التى قطعها رجالكم السياسيون علنا ونادوا فيها برد مصر الى المصريين ؛ فاننا لم ننسها نحن أبداً ، بل لايزال كل مصرى يكررها وسيكررها على الدوام ؛ عالماً بأنه لاتسقط العهود المعطاة وكلمة الشرف « بمضى المدة » ؛ قائلا مع اللورد دفرين « ان الاستقلال لا ثمن له »

« ولو فرضنا ولم تكن هذه الوعود والعهود قدمت فعلا من رجال سياستكم فأى مطلب وأى غرض يرمى المصرى اليه ؟ أليس استقلال بلاده ، لقد ألقت الحالة المالية فى مصر على عيون الكثيرين من الناس هنا غشاوة ؛ فتراهم مندهشين من أن المصريين غير سعداء فى عهد الاحتلال ، وان السامع لأقوالهم ليحسب مصر « سوقا » لا وطنا ، فأرجوهم أن ينظروا الى الأشياء بامعان ؛ ويدرسوا الحالة الأدبية لمصر ، ويدركوا على الخصوص انه لاتوجد ثروة فى العالم ولا رخاء ينسى الانسان كرامته ومهمته فى الدنيا وحرية بلاده »

السودان

ثم تكلم عن السودان فقال :

« وانه لكى يدرك الانسان أسباب تألم المصريين من الاحتلال الانجليزى يجب عليه أن يتذكر أولا ان السياسة البريطانية نزعت منا ظلما السودان ، وهو روح وطننا ؛ وكم ضحينا فيه من الأموال والرجال ؛ فليس لمصر الآن فيه الا مهمة واحدة ، وهى اعطاؤه جيشا لتسكينه وتنظيمه ، والمال اللازم لادارته ، وان فؤاد كل مصرى ليمتلئ حزنا وأسى عندما يفكر فى هذا الجزء من وادى النيل المحكوم على حدة المسلوب من مصر السائدة فيه انجلترا »

ثم تكلم عن محو الحكومة الأهلية فى مصر ؛ ورد على اللورد كرومر ،

وطعن فى سياسة الاحتلال عامة فى مصر ، وتكلم عن حادثة دنشواى وفظاعة المحاكمة والتنفيذ فيها ، واحتج على وجود المحكمة المخصوصة ؛ وطلب اعادة النظر فى القضية.

الامتيازات الأجنبية

وتكلم عن الامتيازات الأجنبية فقال :

« ان من المسائل المرتبطة بالعدالة مسألة محاكمة المجرمين الأجانب فى مصر ، فان المصريين ينفعلون ويسخطون كلما أفلت مجرم أجنبي من يد القانون المصرى بفضل الامتيازات الاجنبية ، وقد اقترح اللورد كرومر محوها وانشاء مجلس دولى يعطى سلطة التشريع بحيث تمنح أوروبا الدولة البريطانية وكالة عنها فى مصر ، وهذا الاقتراح لا يقبل من أوروبا ؛ ولكن هناك حلا عمليا للمسألة ، وهو اعطاء المحاكم المختلطة حق النظر فى الجنايات والجنح التى يرتكبها الأجانب ، وان هذه المحاكم حائزة لثقة العموم ؛ وانى أعتقد أن أوروبا لا تتردد فى اجابة هذا الطلب العادل اذا عرض عليها »

الدستور وحقوق المصريين

« لم ينس أحد من الناس ان مصر طلبت الدستور فى خلال ثورة سنة ١٨٨٢ ونالته ، ولكن انجلترا أبطلته ووعدت بلسان اللورد دفرين باعادته لمصر متى حانت الفرصة ، وقد مضى أربعة وعشرون عاما ونحن فى انتظار هذا الدستور ؛ ونلاحظ بأشد الألم والحزن ان السلطة المطلقة لمعتمد بريطانيا فى مصر تمتد كل يوم وتنمو ؛ وانه لا يوجد شىء يضمن للمصريين السكينة والسلام والعدالة والسير الحسن لكافة الأعمال سوى دستور قوى متين يعطى الشعب حق مراقبة الحكومة فى أعمالها وتصرفاتها ، وان مصر لأوفر تقدما ومدنية من بعض امارات البلقان التى منحتها الدول الأوروبية وانجلترا على رأسها الحرية ؛ وان

كل ثروات العالم لا تنسينا أبدا كرامتنا وحقوقنا ، ولقد كان من مصلحة انجلترا تقدم مصر ماليا لتنال ثقة حملة أسهم الدين المصرى ولتستطيع فتح السودان وتعميره بأموال مصر ؛ ولكنها لم تنفذ التعهدات التى أخذتها على نفسها بشأن التقدم المعنوى للمصريين

« فمعارضة الوطنيين المصريين للاحتلال طبيعية ولا غرابة فيها ؛ واذا كان القوم المتمدنون يجدون من الأمور العادية الطبيعية وجود حزب معارضة فى انجلترا وفى بقية البلاد المتمدنة ، فأى عجب فى وجوده فى مصر ؟ واذا كان أنصار التوسع فى سلطة انجلترا ومد نفوذها فى الآفاق يريدون جعل سيادتها عامة فى كل مكان ، فكيف يجد البعض من الأمور الخارقة للعادة مطالبتنا باستقلال وطننا ؟

« ان انجلترا لم تفتح مصر ولم تغزها ، بل دخلتها كدولة محبة لتوطيد عرش الخديوية ومساعدة الشعب المصرى على أن يعيش عيشة الأمم المتمدنة ، فهى عقدت بارادتها ومحض رغبتها دينا على نفسها نحو مصر ونحو الانسانية ، فمصر لا تسأل احسانا بمطالبتها بحريتها ، بل تطلب حقا معترفا به ولا نزاع فيه ، تطلب حقها فى الحياة والوجود ، وانى على يقين من انكم لو كنتم محلنا لشعرتم بنفس شعورنا ، ولسلكتم مسلكنا ؛ لانه لا يوجد الا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الانسان ، الا وهو « استقلال الوطن وعظمته »

وما انتهى الخطيب من خطبته حتى دوى التصفيق فى القاعة كلها ؛ وقام المستر جون روبرتسن النائب الحر بمجلس العموم الانجليزى ورد على خطبته بكلمة هى مزيج بين تأييد الخطيب والدفاع عن وجهة النظر الانجليزية ، قال :

« ياحضرة الباشا

« انى أتكلم باسم زملائى وأبناء وطنى لأؤكد لكم اننا سمعنا خطبتكم باهتمام ممزوج بالعطف ، واننا نبحث قبل كل شئ عن معرفة حقيقة الاحوال فى بلادكم ، ولذلك نريد أن نسمع صوت الجهتين (أى المصريين والانجليز) ، واننا

نؤمل أن أبناء وطنكم يخاطبوننا دائما بصراحة ويعرفوننا افكارهم وشكاويهم ؛ لأن مقصدنا وغرضنا هو خير مصر ليس الا بمراقبة الادارة العمومية ما دام لنا نفوذ فيها ، وما دمنا محتلين البلاد ؛ ومن رأينا ان المراقبة الانجليزية أفادت المالية المصرية كثيرا ، وانا نريد أن نفعل مثل ذلك فى الحياة الاجتماعية والتربية والادارة والعدالة ، إذ يجب أن لاتبقى انجلترا هناك لمصلحتها نفسها

« أما مسألة دنشواى فانكم ياحضرة الباشا تعرفون جيدا مقدار القلق الذى قوبلت به أخبارها ، واننا لايمكننا أن نتكلم فى هذا الصدد مادمنا لم نر التقارير الرسمية ؛ ولكن يمكننى أن أؤكد لكم وجود الانعطاف الفعلى الخالص من قبل العدد الأكبر والاعظم من الشعب البريطانى ، وأننا نقدر آمالكم ومطالبكم حق قدرها ، ونؤمل على الدوام أن نرى يوما بفضل التبصر والتدبر تحقيق بغية الانجليز والمصريين وأتمنى لها « الاستقلال المضمون لمصر »

وقد كان لهذه الوليمة وخطبة الفقيد فيها دوى هائل فى مصر ، ونالت أعجاب الرأى العام ، اذا كبرت الامة من زعيمها المجاهرة بحقوق مصر فى العاصمة البريطانية وبين جمع من كبار الانجليز ؛ ونفدت نسخ اللواء الذى نشرت فيه الخطبة ، وانهالت الطلبات على ادارته بطبعها فى كراسة على حدة ، وتوزيعها على الجمهور ، كما تلقى اللواء تلغرافات ورسائل عديدة بتأييد موقف الفقيد والاعجاب بجهاده ، وزادهم اعجابا به انه قام يناضل بمفرده عن حقوق بلاده ، ويرفع صوت مصر فى عواصم أوروبا ، ويقوم بعمل كان يجب على رجالات الامة أن يشاركوه فيه ويحتملوا معه عبئه

مغادرته لندن ، وسفره الى فيشى

أجهد الفقيد صحته فى نضاله صيف سنة ١٩٠٦ ، فغادر لندن وقصد الى فيشى للاستشفاء ، وهناك استقبله المصريون المصطافون بها بالحفاوة البالغة والحماسة ،

وهنأوه على فوزه فى جهاده ، وكان فى حاجة الى الراحة بعد العناء ، على أنه لم يترك الكتابة والدفاع عن قضية مصر ، فما ان رأى فى جريدة (الديلي جرافيك) الانجليزية مقالة عن المسألة المصرية زعمت فيها أن المصريين يعملون على تغيير النير الانجليزى بالنير التركى ، حتى انبرى للرد عليها بمقالة عنوانها (مصر للمصريين) نشرت فى عدد ١٥ اغسطس سنة ١٩٠٦ ، فند فيها هذه المزاعم ، وصرح « باننا نريد أن تكون « مصر للمصريين » ونرفض قطعيا كل نير اجنبي وكل سيادة اجنبية ، وان الذين يظنون أن الشعب المصرى يمقت انجلترا لانها دولة مسيحية ليسوا الا مخطئين خطأ جسيما ، فان الشعب المصرى يمقت المحتل الذى قوض دعائم استقلال وطنه ، واذا كانت مصر محتلة بأية دولة أخرى لكان شعور المصريين هو ذاته ، لأن ضياع الاستقلال لا يمكن احتماله بأى حال من الاحوال »

وقد كتب هذه المقالة وهو فى حاجة الى العلاج والاستشفاء فى فيشى ، ولكنه لم يكن يعرف لنفسه راحة وهوادة الى جانب أداء الواجب نحو الوطن

عودته الى مصر

اكبرت الامة جهاد المترجم أثناء مقامه فى أوروبا صيف سنة ١٩٠٦ ، فسرت فى النفوس فكرة الاحتفال به عند عودته تكريما له ، اذ رفع صوت مصر عاليا ورفع رأس الامة فى أوروبا والعالم ، وتألفت لجنة فى اغسطس سنة ٩٠٦ بدعوة من المغفور له محمد بك فريد لجمع اكتتاب عام لهذا الغرض ودعوته الى وليمة كبرى عند رجوعه واهدائه هدية فاخرة اعرابا له عن تكريمه ، وبدأت اللجنة بجمع الاكتتابات ، فلما علم الفقيد بنبأ هذا المشروع أرسل من باريس خطابا بتاريخ ٢٤ سبتمبر الى فريد بك يعتذر فيه من عدم قبول هذا التكريم ويطلب أن تقوم اللجنة بدعوة الأمة الى انشاء كلية (جامعة) اهلية ، وان تتحد

الجهود لتنفيذ هذا المشروع ، وهذا الخطاب آية فى الوطنية والشعور الشريف.
(وقد نشرناه بالزنكجراف ص٢٣٣) قال فيه

«عزيزى فريدبك

«تحية وسلاما واحتراما واعظاما وبعدفقدطالعت اليوم فى اللواء بعد عودتى من « هندى » انه تأسست لجنة فى مصر بقصد عمل اكتتاب عام لدعوتى الى وليمة واهدائى هدية اعلانا لارتياح المصريين من‌ا قيامى بخدمة بلادى العزيزة. وانك تفضلت فقبلت أن تكون أمينا لصندوق هذه اللجنة

«فاسمح لى أن أرجومنك أن تتنازل بتبليغ أعضاء هذه اللجنة ومن تكرموا بتلبية دعوتها انى اشكرهم من صميم فؤادى على جميل انعطافهم نحو اضعف خدمة الوطن العزيز وجزيل رعايتهم نحو رجل لايرى فيما عمل الا جزءا من واجب عظيم جسيم يطالب كل مصرى بتأديته

«وانى ماشعرت لحظة واحدة فى حياتى بانى مستحق لشئ من الالتفات أو الشكر على دفاعى عن حقوق مصر ومطالبتى باستقلالها ومناداتى بوطنية أبنائها لانى انما أقوم بفرض مقدس ، وماخطوت الى اليوم الخطوة الأولى فى سبيل اسعاد مصرنا العزيزة التى امتلأت رحابها بعظام الاباء والاجداد

« وأى فضل لمثلى وأصغر جندى فى الجيوش يلقى علينا جميعا اكبر درس واسمى عظة لانه الحامل لراية الوطن المدافع عن شرفه ومجده واستقلاله المفدى لحياته صيانة لحياة الملايين من الشيوخ والنساء والاطفال

« فاذا كان هذا شأن كل فرد من أفراد الجيوش ووظيفة كل جندى من جنودها فكم تكون واجباتنا نحو الوطن عديدة وعظيمة نحن الذين استفدنا من نعم الوطن اكثر من غيرنا وامتزنا بالعلم والعرفان وقدرنا حقوق الديار ورأينا نور الحقيقة ساطعا أمامنا وشاهدنا عظمة الشعوب الراقية وقارنا بين حالهم وحالنا وتقدمهم وتأخرنا

«شكرا لكم وألف مرة شكرا ، ولكنني لااستطيع أن أقبل ثناء لا استحقه وا كراما لم افعل شيئا لنيله ، ولايمكنني أن أرضى بأن يكون الشعور الوطني مما يكافأ الرجل عليه وهو لايكون رجلا الا به

« نعم انى اعلم انكم تحيون فى شخصى الضعيف الفكرة الوطنية الشريفة وتريدون أن تعلوا شأنها وترفعوا لواءها كما أن اعدائى والطاعنين على انما يحاربون فى الحقيقة هذه الفكرة وذلك الشعور لانى لست شيئا على حين أن الوطنية هى فى حياة الأمة كل شئ

« ولكن ماتبتغون كائن لاريب فيه؛فقد ارتفع لواءالوطنية المصرية رغما عن كل معاند ومعارض وعلم العالم كله ان المصريين احياء يشعرون ويرغبون المجد من السّبل الصالحة المؤدية اليه واقتنعت الامم اننا نطلب الحياة والدستور والحرية بالعقل والروية ونسعى الى اسعاد وطننا بالعلم والجهاد القانونى وهى نتيجة ما كان ليصدق أعداء مصر والمصريين أنها تكون بعد أن ظن الجاهلون باسرار حياة الامم وارتقائها ان مسألة استقلال مصر قد قبرت واستراح ساسة الانجليز منها

«نخير هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والامة المصرية المحبوبة هى أن تقوم اللجنة التى شكلت بدعوة الامة كلها وطرق باب كل مصرى لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والاغنيـــاء على السواء وتهب الأمة الرجال الاشداء الذين يكثرون فى عداد خدامها المخلصين ممن لايخافون فى الحق لوما ولا عتابا ويعملون لمداواةادوائها وجمع أمرها وبثروح الوطنية العالية فى كافة ابنائها ، لأن كل مليم يزيد على حاجة المصرى ولا ينفق فى سبيل التعليم هو ضائع سدًى والأمة محرومة منه بغير حق

«هذه هى الهدية الوحيدة التى يليق بالوطنيين الصادقين اهداؤها لمصر

والمصريين ، هذه هى الهدية الفريدة التى تملأ الفؤاد فرحا وانشراحا وفيها ارقى مظاهر الحياة والشعور.

« فلتنس الاحزاب انقساماتها ولينس الصحافيون خصوماتهم ولتلق الاحقاد (ولو يوما واحدا) فى هوة لا يسمع منها لغو ولا دوى ، ولتجتمع الامة لاتمام هذا العمل الفخم ، وتحقيق ذلك المشروع الذى كله خير ونفع عميم.

«وليذكر الذاكرون ان بين أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال فى وجوههم أبواب العلم والنور رؤوسا لو تحلت بالعرفان لكانت فخار مصر الى ابد الزمان ليذكر ذوو الاحساس والوجدان ان فى مصر كنوزا لم تستخرج للآن وانها لو اخرجت للناس لملأت الارض نورا ، وان هذه الكنوز مدفونة بين مساكن الفقراء ، ان الكلية — الجامعة — هى البناء الذى ادعو المصريين جميعا الى تشييده وما اكبر سعدى واعظم هنائى لو ساعدتنى الايام على وضع حجر فيه مع العملة الابرار الذين يعملون لخير البلاد ليس الا ولا يسألون أحدا (جزاء ولا شكورا) هذا وارجوك أيها الصديق أن تتفضل بقبول أصدق سلام واوفى احترام من محبك واخيك »

« مصطفى كامل »

باريس فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦

وقد قوبل الخطاب بالارتياح والاعجاب وتحول المشروع الى المساهمة فى جمع الاكتتابات لتأسيس الجامعة المصرية

ووصل الفقيد الى الاسكندرية صباح يوم الاثنين ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٦ وقدم توا الى العاصمة بقطار الساعة التاسعة صباحا ، فاهتزت مصر لمقدمه ، وأخذت الوفود والجماعات والافراد تؤم دار اللواء لتحية الزعيم والاعراب له عن شكر الامة واعجابها بجهاده

(خطاب الفقيد الى فريد بك فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦)

باريس فى ٢٤ سبتمبر ١٩٠٦

أخى الأعز وحبيبى

ألف تحية وألف سلام. وبعد فقد وصلت خطاباتك وقرأت اليوم هنا اللواء وسررت بالمقالات. وإن وجودك الصادق وأفكارك الطاهرة ووطنيتك العالية لمما يكفينى فى الحياة لذة ونعيما وسعادة وسرورا. فألف شكر والشكر كثيرا على الذى احتملت من شدائد وبالأخص على مكافحة الجرائد التى نشرت بلاغتك المختص بالوطنية والأمة وإن شعورى نحو بلادى يزداد كل يوم والاحتياج إلى قوة أو تشجيع والحمد لله على ذلك

تقبل التحية من أخيك المخلص مصطفى كامل

عزيزى فريد بك

تحية وسلاما واحتراما وإعظاما. وبعد فقد طالعت اليوم فى اللواء بعد عودتى من "هنداى" أن ثمة لجنة فى مصر بقصد عمل اكتتاب عام لدعوتى إلى وليمة وإهدائى هدية

اعملوا لارشادي المصرية عند قيامي بخدمة بلادي العزيزة. وإذ تفضلت فقبلت أن تكون أمينة صندوق هذه اللجنة

فاسمحي لي أن أرجوك أن تتنازلي بتبليغ أعضاء هذه اللجنة ومن تكرموا بتلبية دعوتها اني أشكرهم من صميم فؤادي على جميل انعطافهم نحو أضعف خدمة الوطن العزيز وجزيل عطفهم نحو جنودي فيما عمل الاخير من واجب عظيم جسيم يطالب كل مصري بتأديته

واني ما شعرت لحظة واحدة في حياتي باني مستحق لشيء من الالتفات أو الشكر على دفاعي عن حقوق مصر ومطالبتي باستقلالها ومساواتي بوطنية أبنائها: لأني انما أقوم بفرض مقدس. وما خطوت الى اليوم الخطوة الأولى في سبيل إسعاد مصرنا العزيزة التي امتلأت جوانبها بعظام الآباء والأجداد!

وأي فضل لمثلي وأصغر جندي في الجيوش يلقي علينا جميعاً أكبر درس وأسمى عظة. لأنه الحامل لراية الوطن المدافع عن شرفه ومجده واستقلاله الفدى بحياته صيانةً لحياة الملايين من الشيوخ والنساء والأطفال

فإذا كان هذا شأن كل فرد من أفراد الجيوش ووظيفة كل جندي من جنودها، فكم تكون واجباتنا نحو الوطن عديدة

ووطنية؟ نحن الذين استفدنا من نعم الوطن أكثر من غيرنا
وامتزنا بالعلم والعرفان وقدرنا حقوق الديار ورأينا نور
الحقيقة ساطعاً أمامنا وشاهدنا عظمة الشعوب الراقية
وقارنا بين حالهم وحالنا وتقدمهم وتأخرنا

شكراً لكم وألف من شكراً! ولكني لا أستطيع أن
أقبل ثناءً لا أستحقه وإكراماً لم أفعل شيئاً لنيله. ولا
يمكنني أن أرضى بأن يكون الشعور الوطني مما يكافأ الرجل
عليه وهو لا يكون رجلا الا به

نعم انى أعلم أنكم تحيون فى شخصى الضعيف الفكرة
الوطنية الشريفة وتريدون أن تعلوا شأنها وترفعوا لواءها
كما ان أعدائى والظالمين علىّ انما يحاربون فى الحقيقة هذه
الفكرة وذلك الشعور. لانى لست شيئاً على حين ان
الوطنية هى فى حياة الأمة كل شىء

ولكن ما تبغضون كائن لا ريب فيه. فقد ارتفع لواء الوطنية
المصرية رغماً عن كل معاند ومعارض وعلم العالم كله ان المصريين
أحياء يشعرون ويرغبون التجدد من السبل الصالحة المؤدية إليه
واقتنعت الأمم اننا نطلب الحياة والدستور والحرية
بالعقل والروية ونسعى الى اسعاد وطننا بالعلم وإجلال
القانون. وهى نتيجة ما كان ليصدقه اعداء مصر والمصريين

انكم تكونون بعد ان فطن الى هؤلاء بأسرار حياة الأمم وارتقائها أن مسألة استقلال مصر قد قربت واستراح ساسة الانكليز منها

فخير هدية أقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية المحبوبة هي أن تقوم النخبة التي تشكلت بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصري لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء وتهب الحكومة الرجال الأشداء الذين يكونون في عداد جنودها المخلصين ممن لا يخافون في الحق لومة ولا عقابا ويعملون لمداواة أدوائها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية في كافة أبنائها. لأن كل مليم يزيد عن حاجة المصري ولا ينفق في سبيل التعليم لوطنكم سيذهب الأمة محرومة منه بغير حق حيث هي الهدية الوحيدة التي تليق بالوطنية الصادقة أحياؤها للعلم والتربية. هذه هي الهدية الثمينة التي تملأ الفؤاد فرحا وانشراحا وترفعها أرقى مظاهر الحياة والسعود

فلتنس الأحزاب انقساماتها ولينس الصحافيون خصوماتهم ولتنق الاحقاد - ولنعمل يدا واحدا - في هدوء لا يسمع منه لغو ولا دوي. ولتجتمع الأمة لإتمام هذا العمل الفخم.. وتحقيق ذلك المشروع الذي كله خير ونفع عميم

ولنذكر الذاكرون ان بين أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال
في وجوههم أبواب العلم والنور رجالاً لو تحلت بالعرفان
لكانت فخاراً لمصر الى أبد الزمان . لنذكر وفود الاحساس
والوجدان ان في مصر كنوزاً لم تستخرج بعد ، ولو أخرجت
للناس لملأت الأرض نوراً ، وان هذه الكنوز مدفونة
بين مساكن الفقراء !

ان الكلية هي البناء الذي أود للمصريين جميعاً تشييده
وهو أكبر سعدي وأعظم هنائي لو سعدت الأيام على وضع
حجر فيه مع العملة الأبرار الذين يعملون لخير البلاد ليس
الا ولا يريدون من أحد جزاء أو شكوراً »

هذا وأرجوك أيها الصديق أن تتفضل بقبول أصدق سلامي
وأوفى احترامي من محبك وأخيك

مصطفى كامل

باريس في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦

نتائج حادثة دنشواى

اسلفنا القول بأن حادثة دنشواى من الحوادث التاريخية التي لاتنسى على
مر السنين، لما كان لها من الأثر البالغ فى تطور الحركة الوطنية ، ونريد هنا أن
ننتقل من الاجمال الى التفصيل ، فنذكر ماهو ذلك الأثر البليغ ، أو بعبارة
أخرى ماهى نتائج حادثة دنشواى ، واذا تكلمنا عن نتائج حادثة دنشواى
فكأننا نتكلم عن نتائج (جهاد مصطفى كامل فى حادثة دنشواى)؛ لأن من الحق
أن يقال انه لولا هذا الجهاد لما كان للحادثة من نتيجة سوى تغلغل روح

الخضوع والرهبة فى نفوس المصريين ، وقد كان هذا مايقصده الاحتلال اذ أراد أن يضرب الحركة الوطنية بانتقام فظيع يلقى الرعب فى النفوس ويجعل الامة تستشعر بسوء المصير لكل من تحدثه نفسه بمقاومة الاحتلال ، ولكن جهاد مصطفى فوّت على الانجليز قصدهم ، فكان للحادثة من النتائج غير ما ظنوا وتوقعوا

(١) اشتداد ساعد الحركة الوطنية

فاولى هذه النتائج أن الحركة الوطنية اشتد ساعدها بانضمام جمهرة المصريين اليها ، إذ شعروا بأن مصطفى كامل كان على حق فى جهاده للاستقلال ، وأن المصرى لا كرامة له حقا بازاء الاحتلال الاجنبى ، ولا مراء فى أن سريان هذا الشعور هو فوز كبير للحركة الوطنية

لقد كان الاحتلال قبل هذه الحادثة مطمئنا الى ثقة السواد الاعظم من المزارعين والاعيان فى عدله وانصافه، حتى أن اللورد كرومر كان يعتز بأنه مؤيد من أصحاب « الجلاليب الزرقاء » — يقصد الفلاحين — ولكن حادثة دنشواى كشفت عن حقيقة نيات الاحتلال وهى أنه لايرضيه من المصرى سوى الخضوع والاستسلام ، ولا يرضى منه أن يشعر يوما بالعزة والكرامة ، واذا تحرك فيه هذا الشعور كان جزاؤه الظلم والتنكيل ، فالحادثة اذن قد حببت الاستقلال الى نفوس المصريين، وجعلتهم يعتقدون ان لا كرامة للأمة ولا لأى فرد منها الا فى ظل الاستقلال ، وهذا فوز وتأييد للفكرة الوطنية واخفاق لانصار الاحتلال وصنائعه

(٢) اهتمام الصحف العالمية بالمسألة المصرية

وثمة نتيجة ثانية وهى اهتمام الصحف الاوروبية والانجليزية بالمسألة المصرية، فقد بدأت تكتب المقالات والرسائل والبحوث المستفيضة عن شؤون مصر ومطالبها

كان الرأى العام فى أوروبا قبل أن يرفع مصطفى صوت مصر يعتقد أن مصر

من البلاد المتأخرة التى لاتفقه معنى الوطنية والاستقلال ، وانها لاتختلف عن بقية المستعمرات التى أعدت لأن تحكمها الدول الأوروبية ، وكان الظن أن الاحتلال قد استقر فى مصر ، وان نظام الحكم الذى وضعه اللورد كرومر قد نجح أيما نجاح ، ولكن حادثة دنشواى قد نبهت الأفكار الى فساد هذا النظام والى ان مصر ساخطة عليه ، وانها تطالب بحريتها واستقلالها ، فعظم بذلك شأن مصر فى نظر العالم ، وازداد المصرى احتراما فى نظر الاوروبيين ، لأن أوروبا لا تحترم الا الشعوب التى تحرص على حريتها واستقلالها

(٣) تغيير سياسة الاحتلال

وأدركت الحكومة البريطانية أن سياستها فى مصر تحتاج الى تبديل وتعديل ، واعتزمت انفاذ هذا التعديل ، ولكنها أخذت الأمور بسنّة التدريج ، كما هى عادتها كلما أرادت تغيير سياستها ، وقوام هذا التغيير أن بقاء اللورد كرومر فى منصبه أصبح أمراً غير مرغوب فيه ، وان الاعتماد على خضوع وزارة مصطفى فهمى باشا للسيطرة الانجليزية لايفيد الاحتلال فى كل الأحوال ، وانه لابد من اسناد بعض المناصب الرئيسية الى المصريين واطلاق يدهم فى شؤونها ، فلعل ثورة الخواطر تهدأ ، ويخف الضغط البريطانى على الأداة الحكومية ، فيؤدى ذلك الى تخفيف السخط على الاحتلال

(٤) تأسيس الجامعة المصرية

نعتقد اعتقادا جازما أن تأسيس الجامعة المصرية كان احدى نتائج حادثة دنشواى ، فقد تنبهت الافكار عقب الحادثة الى وجوب المساهمة فى كل ماينهض بالأمة ويرقى بها الى مصاف الامم الراقية لكى تتحرر من العبودية التى وصلت اليها ، فظهر فى ١ كتوبر سنة ١٩٠٦ اى عقب حادثة دنشواى بنحو ثلاثة اشهر جماعة على رأسهم سعد زغلول وقاسم أمين وكانا مستشارين بمحكمة الاستئناف ، يسعون فى تأسيس جامعة مصرية ، فاذا لاحظت ما كتبه قاسم أمين عن شعوره

محو تنفيذ الحكم فى قضية دنشواى (ص ٢٠٧)امكنك أن تدرك أن نفسه قد أتجهت حين عظم وقع الحادثة الى المساهمة فى عمل عام ينفع الامة فى جهادها : فاختار العمل لاحياء مشروع الجامعة المصرية

ويلزمنا تقريراً للحقائق و انصافا للعاملين أن نقول ان أول من دعا الى هذا المشروع ومهد له الافكار هو مصطفى كامل ، فقد اقترح فى عدد ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ من اللواء انشاء جامعة مصرية بأموال الامة ؛ قال فى هذا الصدد ما يأتى :

« مما لا يرتاب فيه انسان أن الامة المصرية ادركت فى هذا الزمان حقيقة المركز الذى يجب أن يكون لها بين الامم ؛ وأبلغ الادلة على ذلك نهضتها فى مسألة التعليم وقيام عظمائها و كبرائها و اغنيائها بفتح المدارس و تأسيس دور للعلم باموالهم ومجهوداتهم ، ولكن قد آن لهم أن يفكروا فى الوقت الحاضر فى عمل جديد الأمة فى أشد الحاجة اليه ؛ الا وهو انشاء جامعة للأمة بأموال الأمة ».

وأخذ يبين ضرورة إنفاذ هـذا المشروع الجليل ودعا المفكرين وأصحاب الرأى الى موافاته بآرائهم فيه وطرق الوصول الى تحقيقه

وفى يناير سنة ١٩٠٥ عاود الدعوة الى المشروع [١] ، واقترح أن تسمى الجامعة (كلية محمد على) لمناسبة مرور مائة سنة ميلادية على ولاية محمد على الكبير عرش مصر (١٣ مايو سنة١٨٠٥) ؛ وكتب عدة مقالات شرحا وتأييدا للمشروع ، قال فريد بك فى هذا الصدد فى خطبته يوم ١٧ ابريل سنة ١٩٠٨ « تعلمون ان المرحوم مصطفى كامل باشا هو صاحب مشروع الجامعة المصرية وقال به من عهد ان شرع فى الاحتفال بمرور مائة سنة على تولية محمد على باشا على مصر »

وقد أيد الامير (حيدر فاضل) دعوة مصطفى كامل ؛ فكتب غير مرة سنة

---

(١) اللواء عدد ٨ يناير سنة ١٩٠٥

١٩٠٥ فى تحبيذ المشروع واستنهض همم الامراء والاغنياء الى الاكتتاب له ؛ وجمعت فعلا فى سنة ١٩٠٥ الاكتتابات لهذا الغرض من بعض الامراء والسراة بلغت نحو ثمانية آلاف جنيه ؛ ثم وقف المشروع لعدم تعضيد الخديو اياه

وفى سبتمبر سنة ١٩٠٦ حين دعا فريد بك الى تأليف لجنة للاحتفال بعودة الفيقد الى مصر عقب جهاده فى حادثة دنشواى كتب اليه من باريس الخطاب السالف الذكر بتاريخ ٢٤ سبتمبر يعتذر فيه من عدم قبول هذا الاحتفال ويقترح فتح اكتتاب عام لتأسيس الجامعة المصرية

تجددت الفكرة كما أسلفنا عقب حادثة دنشواى ؛ وكان أول من تبرع للمشروع مصطفى بك كامل الغمراوى احد سراة بنى سويف اذ تبرع من تلقاء نفسه بخمسمائة جنيه ودعا سراة البلاد واعيانها الى أن يجود كل منهم بمثل هذا المبلغ ؛ ثم تألفت لجنة تأسيس الجامعة ، واجتمعت لاول مرة بمنزل المغفور له سعد بك زغلول (وكان لايزال مستشارا بمحكمة الاستئناف) يوم الجمعة ١٢ اكتوبر سنة ١٩٠٦ ، واختير سعد بك زغلول (باشا) وكيلا للرئيس ؛ وقاسم بك أمين سكرتيراً للجنة ؛ وتركت الرآسة ليتولاها أحد الامراء ، ونشرت الدعوة الى الاكتتاب وبدأت به فعلا فى أول جلسة ، وكان هذا الاجتماع نواة تنفيذ المشروع

(ه) تعيين سعد زغلول باشا وزيرا للمعارف

مما لاشك فيه أن تعيين سعد بك زغلول وزيرا للمعارف كان من النتائج المباشرة لحادثة دنشواى ، فقد أرادت الحكومة البريطانية تعديل سياستها فى مصر ، وكانت تعلم أن من اسباب سخط الامة على هذه السياسة حصر السلطة فى يد المعتمد البريطانى والمستشارين الانجليز ؛ فارادت أن تسند بعض المناصب الكبيرة الى الاكفاء من المصريين ، وتترك لهم جانبا من السلطة ؛ لعلها بذلك تخفف من سخط الامة على الاحتلال ، وتجتذب فى الوقت نفسه الى صفها بعض

رجالات مصر ، ومن المحقق ان اللورد كرومر هو المقترح تعيين سعد بك زغلول وزيرا للمعارف ، وهذه واقعة مسلم بها من الجميع ، وقد صدر الامر العالى بتعيينه فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٠٦ ؛ فملابسات تعيينه تدل على أنه نتيجة من نتائج حادثة دنشواى ، لان سعد بك زغلول كان مستشارا بمحكمة الاستئناف منذ سنة ١٨٩٢ ، واللورد كرومر كان معتمداً لانجلترا فى مصر منذ سنة ١٨٨٣ ، ومع ذلك لم يفكر فى اسناد الوزارة الى سعد بك زغلول المستشار ؛ الذى كان منقطعا الى قضائه فى محكمة الاستئناف ؛ فالتفكير فى تعيينه بعد وقوع حادثة دنشواى بنحو أربعة اشهر دليل على انه أثر من آثارها ، وهو جزء من التغيير الذى انتوت الحكومة البريطانية ادخاله فى سياستها بمصر عقب الحادثة ، ومن هنا يمكنك ان تدرك ما للمصطفى من الفضل فى هذا التعيين.

(٦) استقالة اللورد كرومر — ابريل سنة ١٩٠٧

كان لحملات الفقيد على سياسة الاحتلال فى حادثة دنشواى وفى شؤون مصر عامة صدى كبير فى الرأى العام الاوروبى والبريطانى ، وألقت حادثة دنشواى على شخصية اللورد كرومر عبئا كبيرا من التبعات الجسام ؛ لامن الوجهة السياسية فحسب ، بل من الوجهة الانسانية ، فرأت الحكومة البريطانية اقصاءه عن منصبه ، انقاذاً لسمعتها أمام العالم المتمدن ، وتخفيفاً لهياج الشعور الوطنى فى مصر ؛ وقد استقر رأى الوزارة البريطانية (وكان يرأسها وقتئذ السير هنرى كامبل بانرمان زعيم الاحرار) على هذه النية عقب استفاضة الانباء عن فظائع التنفيذ ، ولكنها ارجأت تنفيذ نيتها حتى يعود اللورد كرومر الى مصر استبقاءً لكرامة رجالها ، وقد عاد الى مصر مزوداً بتعليمات جديدة تبعا لتغيير سياسة الاحتلال كما أسلفنا ، ثم قدم استقالته فى ابريل سنة ١٩٠٧ عقب تقديمه آخر تقرير له عن شؤون مصر سنة ١٩٠٦ .

كان استعفاء اللورد كرومر انتصارا كبيرا للحركة الوطنية ، فقدتولى منصبه

فى مصر منذ ١٨٨٣ وبقى فيه الى سنة ١٩٠٧ أى أنه ظل يشغل هذا المركز مدة اربع وعشرين سنة كان فى خلالها الحاكم المطلق لمصر ؛ فلا شك أن اقصاءه عن هذه السلطة بعد هذه المدة الطويلة هو اعتراف بقوة الحركة الوطنية

كتب الفقيد فى عدد ١٢ ابريل سنة ١٩٠٧ من اللواء تحت عنوان (استعفاء اللورد كرومر) مقالة افتتحها بقوله

« ما حدثت حادثة دنشواى ودوى دويها فى العالم كله وقامت لها قيامة الاحرار فى انجلترا وعرف المتمدنون فى أنحاء الارض مقدار بشاعتها وفظاعتها وشدة انفعال المصريين من الحكم والتنفيذ فيها حتى ذاع وشاع أن مدة اقامة اللورد كرومر فى مصر محدودة وأنه لا يلبث أن يترك وظيفته لما أصاب سياسته من الخيبة والفشل »

وقال ذاكراً خلاصة تاريخ اللورد كرومر فى مصر :

« ماذا نذكر من سياسة اللورد كرومر وخطته فى مصر ؟ نذكر أنه الضارب لعرش الخديوية بيد من حديد ؛ نذكر أنه الذى فتح السودان برجالنا وأموالنا ثم جردنا من كل حق وسلطة فيه ؛ نذكر انه الذى سلب الحكومة المصرية والوزارة الاهلية كل وجود ونفوذ وحياة ؛ نذكر أنه الذى حرم الفقراء من التعليم فى مدارس الحكومة ، وحارب اللغة العربية ؛ نذكر أنه الذى قرب الذين يضحون بأشرف العواطف لخدمة المطامع الذاتية ، نذكر أنه الذى رمى المصريين بكل جهل وتقصير ؛ وأعلن للملأ وجوب سيادة الانجليزى على المصرى ولو كان هذا رئيس ذاك ، نذكر أنه الطاعن على الدين الاسلامى فى تقريره الاخير ذلك الطعن الذى هاجت له عواطف المسيحيين مثل المسلمين ؛ نذكر أنه الذى عمل بما فى وسعه لمقاومة المطالب الوطنية وانكار كفاءة الامة واستعدادها لنيل الحقوق النيابية ، نذكر أنه الذى سعى لقتل العواطف الوطنية بالمال وظن أن الثروة وحدها كافية لارضاء أمة وشراء ضمائر شعب ؛ نذكر بنوع خاص أنه الذى أراد الانتقام من

شعور الناشئة المصرية فى حادثة اضراب الطلبة فرفى دنلوب مستشارا للمعارف ؛ وأراد الانتقام من عواطف الامة كلها فكان ما كان فى دنشواى مما يذكره الخاص والعام ؛ نذكر انه لم يكتف بذلك كله بل تعمد أمام هذه الامة ، وهى حزينة كئيبة على منكوبى دنشواى ، مكافأة من سلكوا فى هذه الحادثة المشئومة المسلك الذى يحبه جنابه وتنفر منه الامة كلها »

وقد كان الفقيد منصفا فى مقاله ، اذ ذكر للورد كرومر ماله بعد أن ذكر ما عليه قال :

« هذا ما نذكره للورد كرومر ويذكره كافة المصريين ؛ ولكننا نذكر له بكل انصاف أنه لبث طول حياته مثالا للنزاهة الذاتية ؛ حتى يصح أن تضرب به الامثال من هذه الوجهة لكافة الحكام وذوى السلطة ، ولو شاء جنابه لكان أغنى أغنياء الارض بما فى قبضته من جاه ونفوذ ؛ ولكنه فضل الشرف الذاتى على المال ؛ وخيراً فعل »

ثم قال « ونذكر له أيضاً انه عمل ما عمل فى مصر ليجعلها مستعمرة انجليزية إن لم يكن اسما ففعلا ، فهو كان على خلاف تام مع احرار الانجليز الذين يرون فى مصافاة المصريين نفعاً لانجلترا اكبر واسمى من معاداتهم بسلب حقوقهم »

الاتحاد

وختم الفقيد مقالته بقوله

« مهما كانت الخطة التى تنوى الدولة الانجليزية اتباعها فى مصر فاننا لانرى لبلادنا سلامة ونجاحا الافى اتفاق المصريين واتحادهم وتضامنهم فى المطالبة بحقوقهم والمناداة بميولهم بكل همة وصراحة وبلاخوف ولا حياء ، لان الامة لا تبلغ مأربها الا اذا كانت قادرة على نيله ، وليس فى مظاهر القوة مظهر أرقى واسمى من المجاهرة بالحق والدفاع عن مصالح الاوطان بكل قلم ولسان »

وخلف اللورد كرومر فى منصبه السير الدون جورست ، وقد افتتح عهده بالنصح بالافراج عن مسجونى دنشواى

الفصل الثالث عشر

جهاد الفقيد عام ١٩٠٧

خطت الحركة الوطنية سنة ١٩٠٧ خطوات موفقة، وحفلت بالجهود الجبّارة التى بذلها الفقيد فى بث روح الوطنية فى النفوس والدفاع عن حقوق مصر ؛ وكانت هذه السنة فوزاً كبيراً ونصراً مبيناً للحركة الوطنية

ففيها عظم اهتمام الرأى العام فى أوروبا وانجلترا بالمسألة المصرية، على أثر دعاية الفقيد العظيمة ، وظهر تيار من الاستنكار العام لسياسة الاحتلال فى مصر بفضل ما نشره عن فظائع دنشواى ، واشتد تأييد الأمة لدعوته ، وازداد اقبال القراء على اللواء ، إذ رأوا فيه صوت الوطنية الحقّة وعلمها الخفاق ، وتضاعفت منزلة الفقيد فى نفوس الأمة مما ظهر فى الحفاوة البالغة التى قوبل بها عند عودته من أوروبا فى أكتوبر من تلك السنة

وفيها أصدر الفقيد جريدتى (ليتندار اجبسيان) و (ذى اجبشيان ستاندرد) بعد أن أسس لهما شركة كانت أكبر شركة صحفية تألفت حتى ذلك الحين فى مصر والشرق

ظهور ليتندار اجبسيان
وذى اجبشيان ستاندرد

اعتزم مصطفى بعد حادثة دنشواى اصدار صحيفتين يوميتين احداهما بالفرنسية والأخرى بالانجليزية للدفاع عن حقوق مصر واطلاع الرأى العام الأوروبى على حقائق الشؤون المصرية، ورد المفتريات عن مصر ؛ وقد تولدت عنده هذه الفكرة عقب زيارته للندن فى يوليه سنة ١٩٠٦ ، فكاشف بها صديقه وزميله فى الجهاد

محمد بك فريد فى (فيشى) صيف هذا العام ، فحبذ المشروع وشجعه على تنفيذه ، وهو مشروع ضخم يستدعى همة كبيرة وكفاية عالية ومقدرة فى الادارة والتحرير وقوة فى المال ، وقد اضطلع الفقيد بهذا العمل الكبير الى جانب اصداره اللواء وقيادته للحركة الوطنية ومراسلته لأهم الصحف الأوروبية العالمية

وقد أسس من أجل ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٠٦ شركة مساهمة لاصدار الجريدتين ، تألف رأس مالها من عشرين ألف جنيه اكتتب بها المساهمون فيها ، وكلهم من صفوة المصريين ؛ وقد حنق اللورد كرومر من هذا المشروع ، فزعم بلسان الصحافة الانجليزية ان الخديو عباس الثانى هو الذى بذل المال لمصطفى لانشاء الجريدتين ، فدحض الفقيد هذه المزاعم الباطلة ونشر أسماء المساهمين ومقدار ما اكتتبوا به وهم : مصطفى كامل باشا . محمد بك فريد . عمر سلطان باشا . محمود بك أنيس . على بك فهمى كامل . محمد بك احمد الشريف . اسماعيل بك صادق . ابراهيم بك حليم . احمد فائق باشا . حسن حارس باشا . سيف الله يسرى باشا . محمود بك أبو النصر . محمد بك سعاد . مصطفى بك رشيد . يوسف بك حافظ . محمد بك عبد اللطيف الصيدلى . اسماعيل افندى كامل . احمد بك حجازى . حسن محسن باشا . محمد بك خورشد . عثمان بك أبو شنب . فؤاد بك المنشاوى . اسماعيل افندى حافظ . خالد بك سعيد . عبد الحميد بك عمار . ابراهيم افندى نيازى . حسن بك جمجوم . يوسف بك ذهنى . قلينى باشا فهمى . جلال الدين بك عارف . توفيق بك حموده . حافظ افندى مصطفى

واختار لتحرير الصحيفتين محررين من خيرة الكتاب الاوروبيين ، وذهب خصيصا الى أوروبا يصحبه المغفور له محمد بك فريد فى ديسمبر سنة ١٩٠٦ لاستقدام المحررين واستحضار معدات الصحيفتين ، وبدأ ظهورهما فى مارس سنة ١٩٠٧ ، فكانت ليتندارد اجبسيان تصدر فى المساء وذى اجبشيان ستاندرد فى الصباح

ظهرت ليتندارد يوم ٢ مارس سنة ١٩٠٧ وذى اجبشيان ستاندرد صباح اليوم التالى ، وفى صدرها مقالة للفقيد ختمها بقوله :

« ليس فى جهادنا لحرية وطننا ما يخيف أحدا من الناس ، فان التسامح والكرم من الصفات التى تفتخر بها مصر على الدوام ، وان المكان هنا لمتسع لكل العاملين ولكافة الرجال المستقيمين النزيهين ، وسيرى جميع الذين يعيشون فوق أرض مصر البديعة مقدار تمسكنا فى الحال والاستقبال بمبدئنا الذى تضمنته هذه الكلمة « أحرار فى بلادنا . كرماء لضيوفنا ! »

خطبتان لصاحب اللواء

وأقام المترجم بفندق الكونتنتال يوم ٢ مارس احتفالا لمناسبة ظهور الجريدتين ، جمع صفوة القوم من مصريين وأجانب ، وألقى فيه خطبة بالفرنسية قال فيها :

« ان قصدنا من تأسيس هاتين الجريدتين هو احاطة العالم المتمدن وكافة الذين يهتمون بشؤون مصر علما بخطتنا الوطنية التى غير خصومها شكلها وقلبوا حقيقتها ، فقد مثلونا فى أغلب الأحيان كأننا اعداء لأوروبا نريد جمع كافة قوى الاسلام ضدها ، واحداث انقلاب عام ؛ واظهرونا لمن يجهلون لغتنا كأننا ننادى بالبغضاء والتعصب الدينى ، فنحن جئنا اليوم نكذب بصورة قطعية هذه التهم الدنيئة ، ونثبت للعالم كله أن مطلبنا الوحيد بل مطلبنا العالى السامى هو أن نرد لمصر مكانة فى العالم تليق بتاريخها وماضيها ومركزها ، وأن كل مجهوداتنا موجهة لهذه الغاية »

الى أن قال :

« اننا لسنا بثوار ولا أعداء للأوروبيين ، بل ان كل ما نريده هو أن تنال مصر حريتها واستقلالها ، مصر مهد المدنية والنور ، ومصدر كل تقدم انسانى ، اننا الوارثون لمدنيتين كبيرتين بديعتين : المدنية الفرعونية والمدنية العربية ، فمن حقوقنا ومن واجباتنا أن نجلس بين الأمم المتمدنة ونطالب بحقنا فى هذه المدنية »

وختم خطبته بقوله :

« ان العمل الذى نعمل له يرمى إلى جعل مصر بلاداً كبيرة حرة كريمة ، وان الاتفاق بين المصريين والاوروبيين هو من أهم مبادئنا الأساسية ؛ فاسمحوا لى اذن أيها السادة أن أدعوكم لأن تحيّوا معى ذلك اليوم الذى لا بد من مجيئه والذى يرى فيه العالم طرا شروق شمس الحرية والاستقلال فى مصر »

وخطب بعده المسيو سانت أوجان أحد محررى ليتندار ، والمستر شارل رودى المحرر بجريدة ذى اجبشيان ستاندرد

ثم وقف الفقيد وخطب للمرة الثانية باللغة العربية خطبة قال فيها

« ان اصدار جريدتين بلغتين اجنبيتين فى وادى النيل يعد عملا صغيرا وكبيرا فى آن واحد ، انه أيها السادة صغير فى جانب اهتمامكم به ، ولكنه عظيم لأنه من الاعمال التي تقوم بها هذه الامة فى سبيل الخدمة الوطنية ، وهو صغير فى جانب آمالنا العظيمة وأمانينا الكبرى وهى المطالبة بالاستقلال !

(تصفيق طويل)

« ايها السادة ! اسمحولى ان أقول لكم انكم تخجلوننى بهذا التصفيق الطويل لأننى أرانى لم أقدم شخصيا لهذه البلاد خدمة وطنية جديرة بهذا الاهتمام ، وانى أرى نفسى فى (الف باء) من خدمة تلك الأمة العزيزة ، وأرجوكم أن تطلبوا منى المزيد لا ان تصفقوا لى ، فربما عاقنى هذا الاستحسان عن الاستمرار فى تلك الخدمة الشريفة »

الامل

ثم قال

« ان البلاد اذا أصابتها مصيبة انقسم أهلها الى فريقين ، فريق الأمل وفريق اليأس ، فكونوا أيها السادة من الفريق الأول ، واعلموا اننى لا أسألكم سوى

أن تكونوا من هذا الفريق ؛ أسألكم أيها السادة أن يكون لكم امل ، اسألكم ان تقولوا ان لنا أملا وقوة ثقة بالله ويقينا بالمستقبل »

الاتحاد

الى أن قال :

« أيها السادة ، لم يتطلع العالم المتمدن لاحوال هذه البلاد ولم يتنبه لشؤونها مثل تطلعه وتنبهه فى هذه الايام ، فقد ظهرت آثار هذا الاهتمام فى سائر المظاهر ولم تخف على أحد ؛ فاعلموا ان أول واجب عليكم نحو هذا الوطن العزيز هو واجب الاتحاد ، لان الاتحاد قوة ليس وراءها قوة ، ليترك كل وطنى الحزازت والضغائن الصغيرة ؛ لان هناك شعورا أقوى وأشرف من تلك الامور الا وهو انقاذ الوطن المصرى ، اعلموا أيها المصريون الاعزاء انكم اذا أردتم أن تنالوا غايتكم وتصلوا الى غرضكم فليس لكم الا الاتحاد وهو الغرس الذى ينبت ثمره قبل أن تفرغوا من زرعه ، ان الله سبحانه وتعالى خلقكم لتكونوا أحراراً سعداء، لا ارقاء تعساء ، فاذا عملتم باوامره تعالى نلتم هذه الامنية الكبرى وفزتم بالنجاح ؛ فكونوا كلكم أملا ، واعملوا لهذا الغرض الشريف وتلك الغاية السامية ؛ وانا الكفيل لكم بالوصول الى الاستقلال المنشود لامحالة ان شاء الله »

وقد قوطعت كلمات الفقيد بالتصفيق الشديد ، وبعد ان اتم خطبته دعا الحاضرين الى تناول الشاى ولبثوا يتحادثون الى منتصف الساعة السابعة مساء ، وانتهت الحفلة فى ابهى رونق من الجمال والجلال

حفلة تكريم اللورد كرومر وخطبته — مايو سنة ١٩٠٧

استقال اللورد كرومر كما اسلفنا فى ابريل سنة ١٩٠٧ ، وقد قوبل نبأ استقالته من الأمة بالابتهاج العام ، فجهدت الحكومة نفسها فى مقابلة هذه الحركة الطبيعية بحركة معارضة لها ، باقامة حفلة تكريم له ؛ فتألفت من أجل ذلك

لجنة حكومية لاقامة هذه الحفلة ، اعضاؤها وزراء الحكومة وقتئذ وهم مصطفى فهمى باشا رئيس الوزارة ، وحسين فخرى باشا ، وسعد زغلول باشا ، واحمد مظلوم باشا ، وابراهيم فؤاد باشا ، ومحمد العبانى باشا ، وبعض كبار الشخصيات البريطانية ، ولفيف من كبار الاعيان المصريين الموالين للاحتلال ، مثل رياض باشا رئيس الوزارة الاسبق ، ومحمد شواربى باشا ، ومحمود سليمان باشا ، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش

وقد اقيمت الحفلة بالاوبرا مساء ٤ مايو سنة ١٩٠٧ ، وخطب فيها الكونت دى سريون مدير شركة قناة السويس ، ثم مصطفى فهمى باشا رئيس مجلس الوزراء ، وقد شكر اللورد فى خطبته « على خدماته لمصر » ، وقال « ان عملكم المجيد سيخلد اسمكم الكريم ويدعو مصر اليوم كما يدعوها فى مستقبل الايام الى الاعتراف لكم بهذا الجميل » ، وختم كلمته بقوله « لاغرو اذا اغتنمنا هذه الفرصة لنعرب لكم فيها عن شدة تعلقنا بكم ولنقول اننا لانزال نعتبركم كواحد منا »

وخطب اللورد كرومر فى هذه الحفلة خطبة طويلة جارحة للكرامة الوطنية ، مؤلمة للنفوس الأبية ، امتدح فيها الخديو توفيق باشا ونوبار باشا ورياض باشا ، ثم مصطفى فهمى باشا ، وقال عنه « انه خدم بلاده بطريقته المعهودة من السكينة والهدوء والابتعاد عن التعرض لغيره والدخول فيما لا يعنيه » (يريد بذلك استسلامه المطلق لسياسة الاحتلال) ، وامتدح بطرس باشا غالى ، ثم سعد باشا زغلول ، ورمى المصريين عموما بنكران الجميل لانهم لا يعترفون بفضل الاحتلال ؛ وقال فى هذا الصدد « ان أولاد العميان يولدون عادة مبصرين » مؤملاً ان الجيل المقبل يعترف بفضل الاحتلال ، وعرج على ماسماه (حقائق الحالة المصرية) ، فقال ان أولاها هى أن الاحتلال البريطانى يدوم الى ماشاء الله ؛ وثانيتها انه مادام الاحتلال باقياً فالحكومة البريطانية تكون مسئولة عن الخطة التى تجرى عليها الادارة المصرية

وقد قوبلت الخطبة من المصريين بالاستياء الشديد والسخط والاستنكار

تعيين المستر هيل

ناظراً لمدرسة الحقوق — يوليه سنة ١٩٠٧

وقع فى تاريخ التعليم فى مصر حادث هام صيف سنة ١٩٠٧ آلم نفوس المصريين ؛ ذلك ان الاستاذ ادوار لامبير العالم القانونى الفرنسى كان يتولى نظارة مدرسة الحقوق الخديوية ، وكان من خيرة النظار الذين تولوا ادارة المدرسة ، ونال من أجل ذلك محبة الطلبة واحترام المدرسين ؛ وبذل جهده لينهض بالمدرسة الى المستوى اللائق بها ، فوقع خلف بينه وبين المستر دنلوب مستشار وزارة المعارف ، اذ وقف له بالمرصاد ، وأحرجه وأساء معاملته، مما أدى الى استقالته من منصبه ، وكان الظن أن يسند هـذا المنصب الى عالم مصرى ، ولـكن المستر دنلوب املى ارادته فى تعيين خلف للمسيو لامبير فوقع اختيار وزارة المعارف على المستر هيل احد أساتذة مدرسة الحقوق ، وكانت هذه أول مرة يتقلد فيها انجليزى هذا المنصب الـكبير

قابل الرأى العام وطلبة الحقوق هذا التبديل بالاستياء الشديد ، وكتب الطلبة المقالات العديدة احتجاجاً عليه ، ذلك ان مستر هيل لم يكن على كفاية تسمح بتقليده هذا المنصب الـكبير، لاسيما وقد كان حديث العهد بالحصول على شهادة الحقوق ، فتعيينه لهذا المنصب الذى كان يوجد من علماء القانون الوطنيين من هو أجدر منه به، كان ضربةً مصوبةً الى التعليم والـكرامة الوطنية ، وقد أحدث هذا التغيير ضجة كبيرة فى مصر وفى فرنسا ، وكتب الأستاذ لامبير مقالة عنه فى جريدة (الطان) الباريسية الـكبرى، كانت بمثابة صحيفة اتهام لسياسة الاحتلال فى التعليم ولتصرفات المستر دنلوب ، وقد أذاع فيها من الفضائح ما لم يسبق لعالم أجنبى كبير أن ينشره على الملأ بلسان قومه ، وانا ناشرون هنا هذه المقالة لأهميتها قال :

« تركت هذه الوظيفة والأسف يكاد يمزق فؤادى، لأن البقاء فيها لم يعد فى وسع رجل مثلى جعل حياته وقفا على العلم ، ولأنى ما كنت بقادر على حفظ هذا المنصب ذى الراتب الضخم ما لم أرض بأن أكون آلة صماء لسياسة غير قويمة ومكدرة لصفاء العلاقات بين المصريين والأوروبيين

« ان الموظف الانجليزى القابض فعلا على الادارة الحقيقية لوزارة المعارف وهو المستر دوجلاس دنلوب كان قبل قدومى إلى مصر بعام قد حارب ناظر مدرسة الحقوق السابق (الاستاذ جرانمولان) بثبات نادر ، فغلبه على أمره وسلب منه سلطته ثم اغتنم تلك الفرصة التى آلت فيها هذه السلطة الى العدم فأخذ يهيج عواطف الطلبة ويستفزها باصداره لهم أوامر متناهية فى القسوة والغلظة ولا مسوغ لها ، حتى جرهم إلى الاضراب ، ثم اتخذ اضرابهم ذريعة للتشفى من سلفى الذى كان حاقداً عليه ؛ ولم يكن حظى من المعاملة بأسعد من حظ هذا السلف ، إذ كثيرا ما وضعنى المستشار الانجليزى بسوء تصرفاته ، ولا أدرى إن كانت مقصودة منه أو غير مقصودة ، فى مراكز حرجة عجزت عن الخروج منها وعن توقى نتائجها ، إذ كنت مقيداً كل التقييد بلوائح تنزع من يدى كل سلطان حتى فى المسائل الفنية الصرف التى أدخلت أيضاً فى اختصاص أقلام الوزارة ، وقد حارب المستر دنلوب تقدم التعليم الفرنسى فى مدرسة الحقوق بلا تبصر ، على حين أن تعليم الحقوق فى هذه المدرسة لايزال ويجب أن يبقى تعليما فرنسياً ما دامت قوانين البلاد لم تغير تغييراً كلياً ، لأنها عبارة عن ملخص لقوانيننا ، ولأنه لا توجد لهـــا شروح ومؤلفات بالعربية الا فى النادر ، وقد مثل (أى المستر دنلوب) رواية مضحكة للتعليم العالى فى مدرسة الحقوق ؛ فوقف تعيين ما يحتاج اليه القسم الفرنسى من الموظفين تتميما لما ينقص من عددهم المحدد قانونا ؛ وحجته فى ذلك ان مصير هذا القسم الى الزوال فى القريب العاجل ؛ واكتسح من القسم الاكبر وهو الذى تدرس فيه الحقوق الفرنسية باللغة الانكليزية ، الأساتذة الاكفاء الذين قاموا

بأمره فى مبدأ تأسيسه ، وهم من القضاة الذين أفادتهم اقامتهم الطويلة فى الديار المصرية خبرة بأسرار قوانيننا، واستبدل بهم شبانا من الانكليز يعينون بمجرد تخرجهم من الكلية الانكليزية فيقدمون الى مصر ، وهم والطلبة المكافون بتعليمهم سواء فى الجهل بالقوانين المصرية ، بل ان فريقا من هؤلاء المعلمين لم يبلغ الى الآن فى معرفة لغتنا حدا يستطيعون معه ترجمة المؤلفات الفرنسية التى يستعان بها على التدريس ترجمة غير مقلوبة ، ولقد بذلت كل جهد فى سبيل ترقية شؤون المعلمين اما بتخصيصهم لتدريس فرع واحد أو بتقليل عدد الدروس التى يكلفون بها حتى لا يصعب عليهم تحضيرها، أو توسيع مجال المباراة بينهم بترقية النجباء منهم أو بمنع الأسباب التى تدفع المعلمين الانجليز الى ترك المدرسة بمجرد استفادتهم شيئاً من المبادئ القانونية يتمكنون بها من الدخول قسراً فى المحاكم الأهلية ، بذلت كل سعى فى هذا السبيل ، فذهبت مساعىّ كلها ادراج الرياح بازاء عناد مستر دنلوب وتعنته

« كان هذا الرجوع بالعلم الى الوراء يقتضى التبصر والحكمة ومعاملة الطلبة بالحسنى ، خشية أن تهيج غضبهم حالتهم السيئة وانحطاط التعليم فيهم، خصوصا وفى مصر الآن حركة فكرية ترمى الى طلب العلوم والعرفان ، ولكن مستر دنلوب وضع لهؤلاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظاما من النظامات الموضوعة لصغار تلاميذ المدارس الابتدائية وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية ويستعمل معهم سياسة وخز الابر ، سياسة اضطهاد دنىء ، فكانت نتيجة ذلك ان انضم الى الحزب المعارض للانجليز فئة متعلمة راقية وأن يسود على أفئدة الشبيبة الحقد والبغض للادارة الانجليزية ،وأن تتحول مدرسة الحقوق معقلا للوطنية المصرية ، بحيث لاتكاد ترى بين الأربعمائة التلميذ الموجودين بها الآن عشرة لا يؤمنون كل الايمان بمبادئ مصطفى كامل باشا

« حاولت مراراً أن ألفت نظر المستشار الانجليزى الى الاخطار التى تنشأ

عن اتباع خطته فى نظام التعليم فلم أنل منه شيئا اللهم الا بعض تجاوز وقتى عن بعض مسائل ، ولكنه لم يخلص مطلقا فى التنازل نهائيا عن خطة كلها ايلام وارغام ولذلك كنت أتوقع دائما من وراء عمل مستر دنلوب واستفزازه للخواطر من هذا القبيل أن تعصف فى مدرستى عواصف جديدة أشد خطرا من العاصفة التى عصفت بها فى سنة ١٩٠٦ وكانت تلقى علىّ مسئولية ذلك أمام الرأى العام المصرى

«انتهى مستر دنلوب أخيرا بالتعرض لكرامتى تعرضا مؤلما ، وذلك انه أراد ان يجعلنى بالرغم عنى شريكا له فى الدسائس التى يدبرها ضد وزير وطنى هو سعادة سعد زغلول باشا ؛ ذلك الذى اختارته الوكالة الانجليزية بفعل تأثير الرأى العام عليها والذى لم يشأ أن يكون آلة لا ارادة لها ، فلكى ينزع من هذا الوزير كل سلطة ويغلبه على كل أمر ؛ أكره رؤساء الموظفين فى الوزارة على أن يتألبوا حزبا واحدا لعرقلة كل عمل لرئيسهم الرسمى ، ولم يكن حظى من هذا الاكراه أقل من حظ زملائى ، فكنت أتلقى أوامره قبل تحرير تقاريرى الرسمية ثم كان يجبرنى على تقديمها له قبل ارسالها للوزير لينقح فيها ما يشاء ؛ بل لقد حدث لى أحيانا أنى بعد ان حررت أوراقى وبعد أن خرجت من مكتبى وسجلت فى الوزارة عدت فغيرت ونقحت منها ما شاء المستشار ، كل ذلك مما لا طاقة لى على احتماله ، لم يكتف مستر دنلوب بذلك ، بل كان يريد منى انى مادمت راغبا فى البقاء طويلا بجانبه يجب أن أتدنى الى حد تضحية ضميرى وتعريض نفسى فى كل حين للظهور بمظهر الخائن الاثيم أمام الوزير ، نتج عن هذه الاسباب التى بينتها أن علائقى مع مستر دنلوب كانت دائما مشوبة بالكدار ، على أنها توترت فجأة اثر خلاف حدث بسبب مسألة تعيين بعض المعلمين ، فقد ترك ثلاثة من المعلمين وظائفهم ووضعت لائحة جديدة للتدريس تزيد بها عدد الحصص ، فاضطررت والحالة هذه أن أطلب للسنة الدراسية ١٩٠٧ — ١٩٠٨ معلمين اثنين على الاقل ، فبعد أن وعدنى مستر دنلوب وعــــدا صريحا باجابة طلبى عاد فنكث وعده قائلا ان

الظروف السياسية لا تسمح باستخدام معامين أوروبيين زيادة على الموجودين ، ثم هو لا يقبل بحال من الاحوال استخدام الوطنيين للتدريس فى مدرسة الحقوق، الا أنى لم اذعن لهذه النتيجة وتمكنت بفضل مساعدة أحد كبار الموظفين الانكليز من حمل مستر دنلوب على تعيين معامين من أصل مصرى فى مدرسة الحقوق ، ولكن بعد أن اضطررت أن اتساهل معه فى مسائل كثيرة اخصها تعهدى له باساءةالشهادة فى كل مصرى ينتظر ان يتقدم للتدريس بمدرسة الحقوق اجابة للدعوة التى أعلنها وزير المعارف فى الجريدة الرسمية ؛ شدد مستر دنلوب حملته علىّ كما شددها على سلفى ؛فبعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع وأيقنت أنى أصبحت عاجزا عن حماية موظفى مدرسة الحقوق وتلاميذها من مظالم مستر دنلوب استخرت الله فى السفر الى وطنى؛ ثم حدثت بعد ذلك حادثة يستنكرها الذوق السليم وقد أبلغها الى الجرائد بصورة لو احتملتها لضيّعت كل كرامة لى عند زملائى وتلامذتى ، فلذلك أصررت على تنفيذ رغبتى فى الاستقالة وقدمتها فعلا ، فقبلت بمزيد الارتياح ؛وفى اليوم التالى عين بدلاعنى مدرس انكليزى لا أجد جملة تصدق عليه خيرا من هذه الجملة التى نسبت بحق أو بغير حق الى السير الدون جورست وهى

« ان مستر هل جاهل وانه خير لنا أن يكون كذلك ليكون أسهل قيادا»

«ولقد عتب علىّ نفر من أبناء وطنى فى القاهرة وأخذوا علىّ تضحية مصالح فرنسا المهمة فى سبيل عواطفى الذاتية وقالوا انى تركت وظيفة من أسمى وظائف التعليم فى مصر كانت للآن محفوظة للفرنسيين رغبة فى الخلاص من مهمة لم ترق لى ؛ ولست أرى رأيهم هذا فى تقدير المصالح الفرنسية ، فانه كما كان من اللازم لنشر نفوذ أمتنا فى الشرق أن يتولى مدرسة الحقوق الخديوية رجال أمثال فيدال باشا وتستو فى وقت كانت أيديهم فيه مطلقة حرة يعملون ما يشاءون لنشر علومنا القضائية ، كذلك لا يليق بشرف فرنسا ولا يوافق تأييد نفوذها

في مصر أن يرضى علماؤها بأن يقتل مستر دنلوب روح الاخلاق ويهدم صروح العلم تحت ظلالهم »

ولقد كان لهذه المقالة المهمة، وصدورها من ذلك العالم الفرنسي الكبير، ونشرها في كبرى الجرائد الفرنسية. وتعريبها في اللواء ، أثر كبير في فضح سياسة التعليم التي كان يجرى عليها الاحتلال ؛ وكان للفقيد اليد الطولى في نشر المقالة في جريدة الطان لنفوذه الادبي لدى مديرها ، وهو الذي قدم اليه الاستاذ لامبير وبوساطته نشرتها الطان في مكان بارز من صحائفها

كتاب المترجم الى السير هنرى كامبل بانرمان

في خريف سنة ١٩٠٧ أرسل الفقيد كتابا مفتوحا الى السير هنرى كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية بتاريخ ١٤ سبتمبر لمناسبة ذكرى احتلال الانجليز القاهرة سنة ١٨٨٢ ، جاهر فيه بالاحتجاج على استمرار الاحتلال ، وطالب الحكومة البريطانية بلغة رصينة متزنة بتحقيق وعودها في الجلاء ؛ ولما كان هذا الكتاب من الوثائق المهمة في تاريخ الحركة الوطنية فانا ننشر تعريبه قال :

« يا حضرة الرئيس

« ان هذا اليوم يوم ١٤ سبتمبر هو يوم مخلد الذكر في التاريخ سواء بالنسبة لمصر أو لانجلترا

« فاسمحوا لى أن أذكركم بأنه في آن واحد تذكار مرور مائة عام على جلاء الجنود البريطانية عن مصر ، ذلك الحادث الذى وقع يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧ ، والتذكار الخامس والعشرون لدخولها مدينة القاهرة ، الذى حصل يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢ ، فلهذا التذكار شأنان ، واذا كان يذكّر المصريين بمجد آبائهم الذين عرفوا كيف يدافعون عن الوطن ويجبرون انجلترا على العدول عن غزو مصر من قرن مضى ، فانه يحملهم أيضا على التفكير في تلك التصريحات الرسمية التي صدرت عند حصول الاحتلال الحالى لبلادهم ، وفي كلمة الشرف

والتعهدات التى أخذتها على نفسها بريطانيا العظمى

« إن لانجلترا يا حضرة الرئيس فى تذكار ١٤ سبتمبر هذا من الفخار أقل مما لمصر ، فان الشعب المصرى لم يجد فى انجلترا فاتحا غزا بلاده بقوة السلاح ، بل دولة صديقة أرادت مساعدة الخديو على توطيد الامن والنظام ووعدت علناً بمغادرة البلاد متى توطدت أركان الامن ، ولقد مضت خمس وعشرون سنة ولم ينفذ هذا الوعد ، وان القليل من الانجليز ليفكرون الآن فى الأقسام التى فاهت بها الملكة فيكتوريا والخطب التى ألقاها وزراؤها وأكدوا فيها ان استمرار الاحتلال الانجليزى فى مصر يكون «عاراً على التاج والشرف البريطانيين»

« ولكننا نحن معاشر المصريين نفكر فى هذه الأقسام وتلك الخطب ، نفكر فى ذلك العهد الذى يسمو على كل المعاهدات وهذا العقد الذى يعلو كل العقود ؛ ورغما عمن يقولون ان السياسة ليست الا « كذبا واحتيالا وخداعا » فاننا نظن انه لايمكن لأمة متمدنة كبيرة أن تفكر فى تشويه تاريخها باختلاس لامثيل له ولا يمكن تعريفه لجسامته ، وها هو التاريخ يقول بأعلى صوت ويبين الخطر الذى تلحقه مصر بالدول الطامعة اللواتى حاولن امتلاكها ولم تفلح واحدة منهن فى استعبادها بصفة نهائية ؛ ولكن لعل دروس التاريخ لا تكفى فى نظر انصار التوسع فى الاستعمار من الانجليز لأن تثبت أنه لا يمكن أن يملك مصر أحد سوى المصريين ، الا أن يقظة الأمة المصرية من شأنها أن تظهر لهم من الآن مستقبلها القائم على الحرية والاستقلال ؛ وان مصر تحافظ على آمالها اكثر مما كان ذلك فى أى زمان ، وترقب المستقبل بثقة لا يزعزعها شئ ، وذلك رغما عن المصائب كافة ، وعن جميع التدابير السياسية والمناورات الدولية ، بل أؤكد ان المصائب قد قوت الروح الوطنية المصرية ، وكل العارفين بأحوال مصر يعترفون بأن « دنشواى » أفادت فى تقدم « الوطنية » اكثر من المجهودات الكبرى التى بذلها الوطنيون

« وان المسألة المطروحة اليوم أمامكم ياحضرة الرئيس وأمام الامة الانكليزية هى معرفة ما اذا كانت انجلترا تريد أن تجعل مصر صديقة أو عدوة لها ؛ هى معرفة ما اذا كانت انجلترا تدرك مصالحها العالية وتقدر الفوائد التى تكتسبها من الاتفاق مع أمة تزداد كل يوم عددا وثروة وقوة ، فتوفى بوعدها وتحترم شرفها ، أو اذا كانت تصرّ على العناد وتحارب كرامتها ، وتجاهد ضد أمة تفيض حياة ومصرّة على نيل حريتها .

« وانه اذا كانت انجلترا قد اعتبرت الجلاء ممكنا فى عام ١٨٩٠ وحددت هذا الميعاد فى اتفاقية « درومندوولف » لانسحاب الجنود البريطانية ، فكيف يمكنها أن تدعى ان وقوع هـذا الامر الموافق للشرف ولحقوق الشعب المصرى غير ممكن الآن ؟ أى انجليزى حر يستطيع أن يزعم بجد أن ساعة الجلاء عن مصر لم تأذن بعد فى حين ان المستر جلادستون قد اعترف فى خطابيه اللذين كتبهما لى فى عام ١٨٩٦ أن ساعة الجلاء « آذنت من عدة أعوام »

« يقول السير ادوارد جراى انه لو تركت انجلترا مصر للمصريين لسادت الفوضى والرشوة فى البلاد ، وهذا التأكيد لايفسر ألا بشىء فاضح ، وهو عدم اقتدار انجلترا بعد احتلال دام خمسة وعشرين عاما على القيام بمهمتها فى مصر ، أو القضاء على الامة المصرية بانها ليست أمة قادرة على حكم نفسها بنفسها وخليقة بان تنال مكانتها بين الشعوب المتمدنة ، ومن المحال ان يقبل رجل عادل مستقل الفكر هذه النظرية التى هى مسبّة مزدوجة لانجلترا ولمصر ، وفضلا عن ذلك فانه لايجهل احد من الناس اننا نطلب لمصر حكومة دستورية حرة ، واننا لانقبل حكم الاهواء والاستبداد ابدا ، وان الارادة الوحيدة التى نريد ان نخضع لها هى ارادة الامة ؛ وان العقل لايقبل مطلقا ان السلطة المطلقة المتقلبة حسب الاغراض والاهواء ، التى يتصرف بها المعتمد البريطانى ، تكون أفضل وانفع من دستور اهلي مؤسس على المبادىء الحرة ، اذ القول بذلك يعادل القول بان

حكومة الصين خير من حكومة انجلترا ، وانكم قلتم ياحضرة الرئيس فى احدى خطبكم انه لا يمكن ابدا ان تعوض حكومة حسنة حكومة أهلية ، واقول أ ايضا انه لايوجد شئ فى العالم ينسى الاستقلال لشعب عارف بحقوقه ، وان حكومة الاجنبى ، ولو كانت مثال اللطف والرقة ، بخلاف ما هى فى مصر ، مبغوضة وممقوتة على الدوام ، لان سلاسل الاستعباد هى سلاسل على كل حال ، سواء كانت من ذهب أو من حديد ، ولا اظننى مبالغا اذا اكدت ياحضرة الرئيس ان افضل صديق لانكلترا هو الذى ينصحها باحترام شرفها ووعودها ويقول لها بكل اخلاص ان كل ماتستطيع عمله ضد مصر لايوقف بلادنا فى طريق التقدم والحرية الذى سلكته بكل عزم ، وان امة كأمتنا ، جمعت مدة قرون عدّة ، قوى من الصبر والهمة والارادة ، لاتعرف اليأس ولاتقف امام أى عائق لاسترداد استقلالها ، وان لانجلترا الحرة ان تقرر اذا كان هذا الاستقلال سيتم بارادتها أو ضدها ، ولقد رأيت من الضرورى ياحضرة الرئيس ان اذكركم فى هذا اليوم المخلد الذكر بالنسبة لكم وبالنسبة لنا بوعود الحكومة البريطانية وبما تنتظره مصر الوطنية من المستقبل .

«واننا تألمنا كثيرا من « كذب السياسة » ، فلا نلجأ للمهارة والاحتيال والكذب ، وان كرامتنا وشرف قضيتنا ليحتمان علينا الصراحة والصدق والاستقامة .

وتفضلوا ياحضرة الرئيس بقبول عظيم احترامى

باريس فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧ « مصطفى كامل »

نشرت جريدة (الفيجارو) هذا الكتاب فى صدر عددها المؤرخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧ ، فكان بمثابة بعث جديد للمسألة المصرية ، لان شخصية الفقيد ، وحججه الدامغة ، استرعت الانظار الى قوة الكتاب وصاحبه ، وقد تناقلته الصحف الاوروبية ، فنشرت خلاصته الصحف الفرنسية الكبرى كالطان والديبا والاكلير والايكودى باريس وغيرها ، وعلقت عليه باستحسان عام ،

ونقلت كبريات الصحف الانجليزية كالتيمس والستاندرد والمورننج بوست والديلي نيوز خلاصته ضمن الرسائل التلغرافية الواردة اليها من مراسليها بباريس، وعلقت الديلي نيوز عليه تعليقا مشربا بروح الود والتأييد، وعارضته التيمس فى مقال لها؛ وتردد صداه فى الصحف الألمانية والنمسوية والايطالية، وكان له دوى كبير فى مصر، اذ جاء على اثر نجاح الفقيد فى بعث قضية دنشواى فى العالم، فكان حديث الناس فى المجالس والصحف، ووجه الحركة الوطنية وجهة الجلاء، أى فى الطريق الذى رسمه الفقيد من قبل

عظم منزلة الفقيد

استقباله عند عودته الى مصر — اكتوبر سنة ١٩٠٧

اكبرت الأمة جهاد مصطفى فى اوروبا سنة ١٩٠٧؛ بعد جهاده عقب حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦، فلم يكد يعلم الجمهور بحضوره الى الاسكندرية ومجيئه الى القاهرة حتى ذهبت جماهير الوطنيين جماعات ووحدانا الى محطة العاصمة قبيل وصوله اليها يوم ١٧ اكتوبر سنة ١٩٠٧، دون دعوة أو سابق اتفاق؛ لاستقبال الزعيم، واخذ اقبال جماعات المستقبلين يشتد ويتعاظم قبل قدوم القطار؛ حتى صار كل من شاهد هذه الجموع الزاخرة يدهش لكثرة الزحام، وكأن كلا منهم كان على موعد مع الآخرين، مع انه لم يكن ثمة موعد ولا اتفاق، وهال موظفى المحطة ذلك الزحام الذى لم يسبق له نظير، ووجد عمال صرف تذاكر المقابلة حيرة كبيرة فى تلبية رغبات طالبى التذاكر، وقبيل قدوم القطار بلغ الزحام أشده على أرصفة المحطة، وبلغ عدد المستقبلين نيفا وثلاثة آلاف، بحيث كان هذا الجمع الزاخر يستوقف النظر لكثرة عدد المجتمعين، وحضورهم جميعا مسوقين بشعور تكريم صاحب اللواء؛ دون أن يدعوهم الى ذلك داع من لجنة أو جماعة أو افراد، وكان معظمهم من علية القوم وصفوة الشباب، يتقدمهم المغفور له محمد بك فريد، وما كاد القطار يصل الى افريز المحطة حتى دهش

الفقيد لكثرة هذه الجموع التى جاءت لتحيته ، واغرورقت عيناه بالدموع من التأثر ، ولم يكد يقف القطار حتى ضج الجمع بالهتاف « ليحيي صاحب اللواء ، ليحيي الرئيس ، ليحيي الباشا »، وكرروا هذا الهتاف قبل وقوف القطار وبعد وقوفه ؛ ولما تقدم اصدقاء الزعيم واخصاؤه لتحيته تعذر الوصول اليه لانه كان محوطا بسور من الجماهير المتلاحمة المتزاحمة ؛ الى حد جعل الجباه تتصبب عرقا ، وما زالت الجماهير تحيط به الى ان وصل الى خارج المحطة وهناك وقف قائلا:

« انى اشكركم من صميم فؤادى على مظاهرتكم السامية ، وادعوكم لان تقولوا « لتحيي مصر » ، انكم تعرفون جميعا انى لست الا اضعف خادم لهذه البلاد العزيزة ،وانى انما أقوم ببعض الواجب لها ؛ فكل تحية منكم هى موجهة لها بالذات ولا يمكنى ان اقبلها الا بهذه الصفة ، فاسمحوا لى أن أشكركم باسم مصر شكراً جزيلا واسأل الله أن يحقق آمالى وآمالكم وادعوكم لأن تقولوا معى « لتحيي مصر . ليحيي الاستقلال » ، فرددت الجموع هـذا الهتاف عاليا ؛ وقد وقفت حركة المحطة نحو نصف ساعة لم يستطع فيها أحد من ركاب القطار على ما فيه من الكبراء والعظماء أن يبرح مكانه ،حتى انصرفت تلك الجموع ، وكان هـذا الاستقبال هو الأول من نوعه فى الاستقبالات الوطنية الرائعة ،اذلم يسبق أن قوبل زعيم فى عهد الاحتلال بمثل هذه المظاهرة الكبرى ، وبخاصة لأنها حصلت من غير سابق اتفاق أو دعوة أو دعاية أو توريط ، بل كانت وحى الشعور الوطنى الصادق الذى اختلج فى نفوس المصريين تقديراً لجهاد الفقيد وتشبعا بروحه الوطنية

الفصل الرابع عشر

تأسيس الحزب الوطنى

(حزب الجلاء)

كان اسم (الحزب الوطنى) يطلق منذ بداية ظهور مصطفى كامل على جماعة الوطنيين الذين ينادون بالاستقلال والجلاء ؛ وكان الفقيد يعتبره موجوداً منذ الساعة الأولى ، والصحف الأوروبية تعبر عن أنصاره بالحزب الوطنى ؛ على انه لم يكن ثمة حزب منظم له رئيس وأعضاء ومجلس ادارة ، لكنه كان موجوداً بالفعل كفكرة تضم حولها الأنصار والمجاهدين ، قال مصطفى كامل فى هذا الصدد فى لواء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧ : « ان الحزب الوطنى المصرى الذى جعل أول مراميه وأسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها اليها موجود فيها فعلا من ثلاثة عشر عاما مضت ، فهو وان لم يظهر بشكل نظامى وبلائحة ولجنة ادارة قد ظهر بأعمال اتفق أعضاؤه على خدمة البلاد بكل قوة ، قاوم الاحتلال فى أوروبا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين ، وارتبط بروابط اكيدة مع جملة من سواس أوروبا ، ولما حدثت حادثة (فاشودة) ضعفت همم بعض رجال الحزب كما انفصل عنه بعض أفراد لتمكن اليأس من قلوبهم ، وثبت فى موقفه من اعتقد أن فى نهضة الأمة بنفسها سلامتها وبلوغها كل مأربها »

وقال فريد بك فى هذا الصدد : « قضى رحمه الله خمس عشرة سنة من حياته أى منذ كانت سنه تسعة عشر عاما فى تكوين الحزب الوطنى فابتدأ بأن جمع حوله بعض اخوانه المخلصين وكون منهم جماعة مخلصة له ولعمله »

ثم فكر سنة ١٩٠٠ فى جعل الحزب حزبا منظما على غرار الأحزاب

لأوروبية ، وكتب فى عدد ٢ يوليه سنة ١٩٠٠ من اللواء مقالا بعنوان (حزب وطنى حر فى مصر) أعرب فيه عن أمنيته فى تأسيس هذا الحزب ، كتب مقاله هذا من (بودابست) حيث أعجبه ما رآه من وطنية الشعب المجرى ،قال فى هذا الصدد :

« ان تاريخ هذا الوطن المجرى هو اكبر مدرسة لرجل مثلى وهب حياته لخدمة وطنه واعلاء شأنه »،وختم مقاله بقوله « هل يسمح لى الزمان بان أرى فى مصر هـذا الحزب الوطنى الحر الشريف المبادئ المتحد الاعضاء الناهض بالأمة الى مراقى النجاح والفلاح ؟ انى اعرف ان اليائسين سيقولون ان (تأسيس حزب كهذا أمر محال) ولـكنى اذا كنت لا أيأس من خلاص بلادى فمحال علىّ ان أيأس من تحقيق هذا الأمر الجليل »

وفى سنة ١٩٠٧ اعتزم تنفيذ فكرته بوضع نظام للحزب الوطنى ، وفى ذلك يقول فى لواء ١٠ اكتوبر سنة ١٩٠٧ « ولما كان لكل عمل وقت فقـد جاء الوقت لان يوضع للحزب الوطنى نظام تام يجمع كافة رجاله وانصاره ومحبيه الذين مضوا السنوات وهم مشاركون لنا فى العمل بكل انواع المشاركة ، وانى من ساعة وصولى الاسكندرية (١٧ كتوبر سنة ١٩٠٧) الى هذه الساعة وكل واحد من رجال هذا الحزب وابطاله الـكرام يطالبنى بوضع هذا النظام بصورة نهائية حتى يتم التعاون بين جميع المخلصين لبلادهم المحبين لامتهم المتشربين مبادئ الشهامة والارادة والصـدق والاقدام فتكون الخدمة أجل واكبر ، والعمل أفيد واعظم »

خطبته الـكبرى بالاسكندرية — ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧

وقد اعتزم عقب عودته من اوروبا القاء خطبة كبرى بالاسكندرية، جعلها بمثابة دعوة عامة الى الانضمام الى الحزب الوطنى ، واتخذ (الجلاء)مبدأ للحزب ، حتى صار أصحّ تعريف له انه (حزب الجلاء)

كانت هذه الخطبة اكبر خطبة سياسية وطنية القاها فى حياته ، واحدثت من التأثير مالم تحدثه أية خطبة أخرى ؛ وهى لاتزال ماثلة فى الاذهان اكثر من أية خطابة أو كتابة للفقيد ؛ وقد حدد لالقائها مساء الثلاثاء ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ بمسرح زيزنيا ؛ وما ان اعان اللواء عن موعد القائها حتى انهالت الطلبات من الراغبين فى سماعها ؛ وفى مساء ذلك اليوم ازدحم المسرح على سعته بالحاضرين الذين جاؤا من كل صوب لسماع تلك الخطبة ، وجلّهم من علية القوم وفضلائهم وذوى المكانة الأدبية ،والشباب المثقف، وكل ذى وطنية صادقة ، حتى زخر المكان بهم ولم يتسع لهم ؛ فوقف الكثيرون منهم فى حديقة المسرح وفى الشوارع المجاورة له ، وبلغ عدد الحاضرين نحو سبعة آلاف ؛ وهو اكبر عدد اجتمع لسماع الخطيب ، وما ان ظهر على منصة الخطابة فى منتصف الساعة التاسعة مساء حتى ضج المكان بالتهايل والتصفيق الشديد وهتفوا جميعا « لتحيي مصر . ليحيي خدام الوطن . لتحيي الوطنية »

ثم أخذ الفقيد يلقى خطبته ، ولم يكن يقف عند موضع يحسن الوقوف عنده الادوى المكان بالتصفيق واظهار علامات الرضا والاستحسان ؛ ولما تكرر التصفيق اضطر الفقيد أن يتقدم الى السامعين بالرجاء ان لا يصفقوا ففعلوا ، ثم عادوا الى التصفيق ، واستغرق القاء الخطبة نحو ساعة ونصف

والخطبة هى اقوى خطب الفقيد واعظمها شأنا ، بل كانت اعظم خطبة القيت فى مصر والشرق منذ أقدم العصور ، بدأها بشكر الحاضرين ، ثم تكلم عن حياة مصر الوطنية بعد الاتفاق الودى الفرنسى الأنجليزى ، ونوه بالخطوات الواسعة التى خطتها الحركة الوطنية رغم هذا الاتفاق ؛ بعد ان كان الأنجليز يظنون انه سيقضى على امل الأمة ، وأبان ان اعتماد الأمة على نفسها هو سبيلها الى الاستقلال

قال فى هذا الصدد :

« ان العزلة التي صرنا اليها بعثت فينا روحا جديدة وارشدتنا الى الحقيقة التي لاقوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها ولاوجودلنفر من الناس اذا لم يتبعوها ، وهى ان الأمم لاتنهض الا بنفسها ولا تسترداستقلالها الا بمجهوداتها ، وان الشعب كالفرد لايكون آمناً على نفسه الا اذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة »

ودعا الأمة فى خطبته الى الانضمام الى الحزب الوطنى

وقد تضمنت الخطبة كلمات رائعة للفقيد لاتزال وستظل مضرب الأمثال فى قوة الوطنية والثبات فى الجهاد ، وسنوردها فى الفصل الحادى والعشرين تحت عنوان (كلماته الخالدة)

وصف الاجتماع وتأثير الخطبة

كان للخطبة تأثير بالغ فى النفوس وفى الأندية السياسية والدوائر الأوروبية قالت جريدة « الريفورم » فى وصفها ما يأتى :

« لايتاح للمرء فى كل يوم أن يحضر خطبة سياسية فى مصر ، والحق يقال ان مصطفى كامل باشا هو الوحيد الذى اتبع طريقة الخطابة ، وهو الذى وحده يسمعنا الخطب السياسية فى مصر ، فكما رأيناه منذ عشر سنوات فى تياترو زيزنيا يخطب ، رأيناه مساء أمس فى التياترو نفسه خطيباً سياسيا ، وبديهى ان الصحفى لايدع فرصة تفوته من هذا القبيل ، بل ان أقل المخبرين والصحفيين مهارة يرى نفسه مضطراً الى الكتابة عن خطبة رجل تمكن من جمع اكثر من ستة آلاف انسان فى مظاهرة وطنية ، أضف الى حشد هذا العدد العظيم جمع عدد من رجال الشرطة ، فالصحفى الذى لايخبر قراءه بمثل هذا الاجتماع هو صحفى مقصر فى واجبات وظيفته

« وعلى هذا نقول لقرائنا انه ما وافت الساعة الثامنة مساء حتى تقاطرت

جماهير الوطنيين الى تياترو زيزنيا فملأوا الألواج والكراسى وازدحم الملعب بهم أى مزدحم ، حتى لم يبق موطئ لقدم ، بل لقد غصت المماشى والحديقة بالناس يأتون أفواجا حتى امتلأ بهم الشارع ، وقد كان الحاضرون بين باشوات وبكوات عقلاء وافندية متحمسين ، قادمين من جميع جهات الوجه البحرى لسماع خطبة « الرئيس » كما يلقبونه بذلك ، وكان فى الحضور صفوة المحامين والاطباء الوطنيين فى الدلتا والقاهرة ؛ وكانت نظرات الذكاء تلمع من خلف نظاراتهم الذهبية ، وفيهم كل الشبيبة المصرية من جميع المدارس ، أولئك الطلبة الذين ابتدأوا يشعرون بالحياة وتنطبع فى قلوبهم العواطف الصادقة ، والعقائد السليمة

« كان المنظر فخما جليلا منظر هذه الطرابيش الحمراء التى ملأت الملعب جميعه ، وبينها هنا وهناك بعض العمائم البيضاء ، كان المنظر جامعا بين زهور مختلفة من ازهار الانسانية ، كان داعيا الى الدرس الفلسفى والاجتماعى ، وما أجدر منه بذلك وهو يمثل الألوف من العقول البشرية ، ما أجدر منه بالتأمل والتفكير وهو يجمع فى جملته طلبة المدارس المصرية هؤلاء الطلبة الذين سيكونون غدا رجال مصر وقوتها ، هم الذين كانوا اشد استحسانا وتصفيقا لخطبة مصطفى باشا كامل ، واكثر تحية واجلالا له ، ان اذن الاوروبى المتعودة سماع الفصاحة الغربية قد لا تألف الفصاحة الشرقية ولا تتأثر كثيرا بنبرات صوت الخطيب الشرقى وتنقله بين ارتفاع وانحدار وغير ذلك مما يناسب مقام التأثير على السامعين ، ولكن هذا الشأن لا يصدق علينا نحن الذين عشنا فى مصر عشرات من السنين وألفنا سماع الفصاحة الشرقية وما فيها من قوة التأثير وحسن الانشاء والتوقيع وجذالة اللفظ ورقة المعنى ، ولقد كان الخطيب جامعا لكل ذلك وتأثيره شديدا فى الحاضرين يمكن اتباع اثره على وجوههم من دقيقة الى اخرى ، كان تأثيره بحيث لم تكف الايدى عن التصفيق له تصفيقا صادقا صادرا من اعماق القلوب خالية من كل تملق

« ان لهذا الرجل قوة حقيقية على جمهور الوطنيين ، ومن ينكر ذلك فهو ينكر الحقيقة الساطعة ، ان كلامه مؤثر فى النفوس تأثيرا عظيما ، على اننا نرى حقا علينا مدحه ، لانه لم يلعب بهذه العقول التى ملكها ، ولم يستخدم تأثيره فى الحاضرين لطبع اثر سىء فى النفوس ، بل كان كلامه غاية فى الاعتدال ، لم يستعمل عبارة حادة ولا استخدام الفاظا جارحة ، وقد دامت خطبة رصيفنا الى الساعة العاشرة أى انه ظل يخطب اكثر من ساعة ونصف دون أن يتولاه أقل تعب ، ولما انتهى من خطابه صفق له الحاضرون تصفيقا حادا ، وارتفعت الاصوات قائلة ليحيى مصطفى كامل . ليحيى الحزب الوطنى . ويقدر عدد الذين حضروا هذه الخطبة بنحو سبعة آلاف انسان ، وقد انصرفوا بهدوء لم تعد منه فائدة للقوة التى حشدها البوليس »

وكان للخطبة صدى كبير فى اوروبا وخصصت لها جريدة (الطان) الفرنسية مقالها الافتتاحى ، واقتبست فقرات منها ، وأفاضت بنوع خاص فيما ورد فى الخطبة عن علاقة الاسلام بالمدنية ، وكذلك فعلت جريدة (الفيجارو) ، ووصفت (الاكلير) الاجتماع واشارت الى المظاهرة الكبرى التى قوبل بها الفقيد واقتبست فقرات من الخطبة ، ونشرت جريدة الديلى نيوز الانجليزية مقالة افتتاحية بحثت فيها حركة الاصلاح التى ظهرت فى العالم الاسلامى ؛ وعدت مصطفى كامل باشا الرئيس السياسى للنهضة الاسلامية ؛ وقالت انه اقوى صحافى فى العالم الاسلامى ، وقالت عن الخطبة انها غاية فى الفصاحة ، واستطردت من ذلك الى انتقاد السياسة التى ترمى الى صبغ مصر بالصبغة الانجليزية ، وطلبت العفو عن مسجونى دنشواى وتعليم العلوم فى المدارس المصرية باللغة العربية

أول جمعية عمومية للحزب الوطنى — ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧

وما ان دعا الفقيد الأمة الى الانضمام للحزب الوطنى حتى انهالت طلبات الانضمام اليه من كل جانب ، وعقدت أول جمعية للحزب بمصر يوم الجمعة ٢٧

ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء ، وكان اجتماعا حافلا تمثلت فيه طبقات الأمة من اعيان ومزارعين وسراة ومحامين وتجار واطباء ومهندسين وارباب اعمال وصناع وما الى ذلك ، واحصيت تذاكر الدعوة التى قدمها المجتمعون فكان عددها ١٠١٩ تذكرة ، وبلغ عدد الاعتذارات البرقية والبريدية (٨٤٦) اعتذاراً ؛ وافتتح مصطفى كامل الجمعية العمومية بخطبة نوه فيها بوجود الحزب الوطنى من قديم ، ثم اشار إلى ضرورة تنظيمه ، وقال عن أغراض الحزب « اننا لسنا حزبا سياسيا فقط بل نحن قبل كل شئ حزب حياة للأمة وانهاض لها ؛ فلا نغفل التعليم بين سائر الطبقات لحظة واحدة ؛ وهو يرمى إلى الاستقلال اس كل سعادة ؛ ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصرى جاهلا تحت سماء مصر ، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الاخرى ، هو يرمى قبل كل شئ إلى أن يكون المصرى انسانا باسمى معانى الكلمة ، وأقصد بالمصرى ليس فقط ذلك الذى تراه فى المدائن يجدّ ويعمل ، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلاّح الذى قضى القرون من السنين وهو يعتقد انه ملك للحاكم ومتاع لا ارادة له ، فأسمى عمل نقوم به هو انهاض ذلك الفلاح العزيز واعلاء مكانته ، فهو هو ممثل النشاط المصرى ، ومصدر كل خير ونعيم ؛ فليحيى عصر ينطق فيه التاريخ بان الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلا حرا بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته ».

ثم قال :

« اننا إذا دعونا الناس للدخول فى هذا الحزب لا ندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة ؛ بل ندعوهم باسم وطنيتهم ؛ باسم شرفهم ، باسم حقوق وطنهم ؛ باسم كرامة الانسان ؛ باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم ؛ باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم »

ثم نفى تهمة الثورة التى ينسبها بعض خصومه اليه وتشبيهه بحزب العرابيين ،

وحمل على سياسة الاستسلام للاحتلال ؛ واستنكر الحكم المطلق ؛ ودعا إلى التمسك بالنظام الدستورى ، وحث على الثبات والاتحاد ، وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق الشديد والاستحسان المتواصل

ثم ألقى محمود بك أنيس كلمة مجد فيها أعمال الفقيد وجهاده فى سبيل مصر ، وانتخب الحاضرون بالاجماع مصطفى كامل باشا رئيسا للحزب الوطنى مدى الحياة ، فوقف الفقيد وارتجل فيهم الكلمة الآتية

« أيها الاخوان

« انكم حملتمونى طول حياتى حملا ثقيلا على كاهلى ، فأنا قبل كل شئ ، أشكر لكم ثقتكم بى هذه الثقة التى كانت عونا لى فى كل أعمالى ؛ وأقول لكم انكم أنتم قوتى وساعدى بصفتكم من خير أمة أوقفت لخدمتها حياتى وقواى وعقلى وقلبى وقلمى ولسانى وصحتى ، وكم من صديق قال لى اشفق على صحتك التى لا تدخر وسعا فى بذلها ، ولكن الواجب لبلادى ووطنى ينسينى هذه النصائح الثمينة ، فأنا الآن إذا قبلت اختياركم لى رئيسا فانما هو لثقتى بأن كل واحد منكم أصبح حياتى وشعورى واعتمادى ؛ بل صار كل منكم فى الشعور الوطنى أكبر من « مصطفى كامل »

ثم وقف فؤاد بك سليم (باشا) وأخذ يتلو لائحة الحزب مادة فمادة والحاضرون يبدون رأيهم فيها وبعد المناقشة صدقوا على نصها النهائى ، وأهم ما جاء فيها ان رئيس الحزب هو مصطفى كامل مدى الحياة وان الجمعية العمومية للحزب تجتمع مرة فى كل سنة فى شهر ديسمبر باسم (المؤتمر الوطنى) ، واختصاصاتها انتخاب اللجنة الادارية والتصديق على ميزانية الحزب وأعماله والنظر فى اقتراحات الأعضاء وتقرير كل أمر نافع للبلاد ؛ وتناقش الجمعية فى كل اجتماع المسائل الحيوية كافة للقطر المصرى ؛ ويبدى الأعضاء آراءهم فى كل أمر مهم ؛ وتؤلف من ابحاثهم وأقوالهم مجموعة سنوية باسم (تقرير الحزب الوطنى) ، وتؤلف اللجنة الادارية

من ثلاثين عضواً عدا الرئيس ، وتنتخب لمدة ثلاث سنوات وتجتمع مرة فى كل شهر على الأقل ، وتنتخب وكيلين للحزب وسكرتيراً وأمين صندوق من بين أعضائها ، ولجنة تنفيذية من ثمانية أعضاء من بينهم الوكيلان والسكرتير وأمين الصندوق لتنفيذ قرارات اللجنة الادارية ، وتجتمع مرة فى كل أسبوع على الأقل ، وينشأ ناد للحزب ، وفروع له فى الأقاليم

وبعد التصديق على اللائحة انتخب الحاضرون الأعضاء الثلاثين للجنة الادارية الأولى وهم : محمد بك فريد . احمد فائق باشا . حسن حارس باشا . سيد باشا شكرى . على باشا آصف . عمر بك سلطان (باشا) . محمود بك أنيس . فؤاد بك سليم الحجازى (باشا) . الاستاذ ويصا واصف (رئيس مجلس النواب الأسبق) . الدكتور حسين يسرى بك . محمود بك محرم رستم . يوسف بك ذهنى . على بك فهمى كامل . على بك حشمت . محمود بك حسيب . عبدالحميد بك عمار . محمد بك حافظ رمضان (باشا) . شمس الدين بك حموده . اسماعيل بك لبيب . محمد بك خلوصى . محمد بك رشوان . عبدالرؤوف بك السيوفى . يوسف بك حافظ . ابراهيم بك حفظى . عبدالله بك طلعت . على بك لهيطه . اسماعيل بك الملوانى . محمد بك عبداللطيف . محمود بك فهمى حسين . الدكتور احمد فهمى الجهينى . وانتهى الاجتماع فى الساعة السادسة مساء ، وانتخبت اللجنة الادارية محمد بك فريد واحمد فائق باشا وكيلين للحزب وفؤاد بك سليم (باشا) سكرتيراً ، وعمر بك سلطان (باشا) أميناً للصندوق

وفى ٤ فبراير سنة ١٩٠٨ استقال عمر بك سلطان (باشا) من أمانة الصندوق مع بقائه عضواً باللجنة الادارية ، وانتخب على بك المنزلاوى ومصطفى بك الخادم المحامى عضوين فى اللجنة الادارية بدلا من سيد باشا شكرى وعبدالرؤوف بك السيوفى المستقيلين من عضوية اللجنة

الافراج عن مسجونى دنشواى

ما فتئ الفقيد يطالب بالعفو عن مسجونى دنشواى لـكى يمحى أثر من آثار الظلم الذى وقع بالأبرياء من شهداء هذه الحادثة ، ودعا المصريين الى تقديم العرائض الى الخديو بهذا الطلب ، وقد لبّت الأمة دعوته وأقبل المصريون على رفع العرائض الاجماعية الى الخديو فى هـذا الصدد وبلغت عدتها ١٤٨ عريضة وقع عليها ١٢٦٧٠ من المصريين ، وتردد صدى هذه الحركة فى أوروبا وانجلترا ، إذ طالب بعض النواب الاحرار فى البرلمان البريطانى بالافراج عن مسجونى هذه الحادثة ، وكان من نتائج هذه الحركة المزدوجة أن تقرر فى شهر ديسمبر سنة ١٩٠٧ العفو عنهم ؛ على أن ينفذ العفو فى يوم عيد الجلوس الخديوى (٨ يناير سنة ١٩٠٨) ، وكان اللواء أول من زف الى الامة هذه البشرى ؛ ولما اجتمعت الجمعية العمومية للحزب الوطنى فى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء كان من قراراتها ارسال كتاب شكر إلى الخديو على هذا العفو ، وارسال تلغرافات شكر إلى السير هنرى كامبل بانرمان رئيس الوزارة الانجليزية والمستر نورمن النائب بالبرلمان الانجليزى والى مدير جريدة الديلى نيوز على سعيهم فى استصدار هذا العفو

وقد افرج عن المسجونين الباقين يوم ٧ يناير لا يوم ٨ ؛ لـكى لا تحـدث مظاهرات فى اليوم المحدد للافراج عنهم ، وكان عددهم تسعة ، منهم ثلاثة كانوا فى سجن الدلتا وهم محمد عبد النبى . واحمـد عبد العال محفوظ . وكان محكوما عليهما بالاشغال الشاقة المؤبدة ، ومحمد مصطفى محفوظ وكان محكوما عليه بالسجن سبع سنوات ، وواحد كان فى سجن ابى زعبل وهو العيسوى محمد محفوظ وكان محكوما عليه بسبع سنوات ، وخمسة كانوا بليمان طره منهم واحـد محكوم عليه بالاشغال الشاقة خمس عشرة سنة وهو احمد محمد السيسى ؛ والباقون كان محكوما

على كل منهم بالسجن سبع سنوات وهم عبده البقلى ورسلان السيد على وعلى على سمك وعلى على شملان

وقد قوبل نبأ الافراج عنهم بالاستحسان والابتهاج العام فى البلاد ، وهرع الذين خرجوا من السجن إلى القاهرة قاصدين دار (اللواء) ليقابلوا الفقيد و يقدموا له شكرهم على دفاعه المجيد عنهم، و يعربوا له عن اعترافهم بجميله ،إذ كان صاحب الفضل فى اطلاق سراحهم ، ولكن الزعيم كان طريح الفراش فى مرضه الاخير ، فلم يستطيعوا مقابلته واعربوا للواء عن شعورهم نحو منقذهم العظيم

الفصل الخامس عشر

القضاء المحتوم

(١٠ فبراير سنة ١٩٠٨)

كانت صحة الفقيد يعتريها التعب والاعتلال من الجهد الذى حملها اياه، وتدل برسائله الخاصة على أن صحته كانت فى حاجة إلى الراحة والعلاج قبل الوفاة بعدة سنوات ، ولـكنه كان ماضياً فى سبيله، لايبالى ان يحملها مالاتطيق من التعب والعناء.

كتب إلى مدام جولييت آدم من فيشى فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٣ يقول :

« يجب أن أقضى معظم هـذا الشهر فى (التيرول) مع صديقى فريد بك الذى تشرفت بتعريفه اليك منذ سنتين ؛ لان الاطباء قد رأوا انه من الواجب ان أمضى فى الجبل بعض الزمن اذا أخذ التعب يستولى على أعصابى ؛ ولهم الحق فى ذلك فانى لم اشفق على نفسى »

وكتب اليها فى ٢٥ يونيه سنة ١٩٠٥ كتابا قال فيه:

« إن العمل قد أضنانى إلى حد أشعر معه بسرعة الحاجة الى ترك الوسط الذى اعيش فيه ، وكأن الطبيعة قد خالفت سنتها ؛ إذ جعلت قوة روحى أكبر من قوة جسمى »

وقد سافر فى يوليه من تلك السنة الى اوروبا وقصد إلى لوزان وعرض نفسه على الدكتور بورجيه ليعالجه من مرض فى امعائه كان يشتد به احيانا فيؤلمه كثيرا ؛ وفى صيف سنة ١٩٠٦ ذهب الى اوروبا للاستشفاء والعلاج ، وكان فى حاجة قصوى الى الراحة ، ولـكن حادثة دنشواى جعلته يقطع على

نفسه سبيل الراحة والعلاج . فنهض نهضة الاسد وبذل تلك الجهود الهائلة التى لاتصدر الا عن أقوى الناس صحة وجسما ؛ ولما سافر الى باريس ولندن فى شتاء سنة ١٩٠٦ يصحبه محمد بك فريد لاختيار محررى جريدتى ليتندار اجبسيان وذى أجيشيان ستندارد عاوده المرض فى اثناء الرحلة ؛ ولزم الفراش بباريس عدة أيام عاد بعدها الى الجهاد والكفاح

وفى صيف سنة ١٩٠٧ ذهب الى فرنسا كعادته كل عام للاستشفاء والجهاد ، وكانت هذه آخر رحلة له باوروبا ؛ وكان يشعر بدبيب المرض يعتريه احيانا ، ذكر المسيو ادولف ادرير (مراسل الاتيندار فى باريس) انه قابله وقتئذ بباريس فكان يقول له « انى اشعر ان المرض قد دبّ الىّ ، تُرى هل أعيش حتى أرى أول نجاح لجهودى ؟ ليحصد الآخرون نتائج جهادى ؛ ولكن ليكن لى وقت كاف للغرس والزرع » ، وكان هذا القول نذيرا بخطورة مرضه ، وقد قابله فى شهر اغسطس فى افيان على بحيرة جنيف حيث قصدها للعلاج ؛ وكان يلزمه أن يمكث بها واحدا وعشرين يوما للاستشفاء بحماماتها ؛ ولكنه لم يمكث غير عشرة أيام لشعوره بضعف قواه ؛ فسافر الى أعالى جبال سويسرا ، ولم يلبث بها غير بضعة أيام ، لانه لم يكن يستريح اينما توجه ؛ قال المسيو ادرير « وجاء شهر سبتمبر فعدتُ واياه الى باريس ولم اتركه حتى ساعة سفره ؛ وكان دائما متوعك الصحة ، فكنت أرى هذا الوجه الذى ترتسم عليه الشجاعة والذكاء والاقدام ممتقعا شاحباً ، وقد سافر منهوكاً ، الى حيث لا يعود الينا ابدا »

وقد عاد الفقيد الى مصر فى اكتوبر سنة ١٩٠٧ ؛ فقابله الشعب باعظم مظاهرة قوبل بها فى حياته ؛ واخذ يبذل الجهود الجبارة لتنظيم الحزب الوطنى ، حتى اذا لم يكن فى عمره متسع لايخشى عليه من الانحلال ، وألقى خطبته الشهيرة بالاسكندرية يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ وعلامات الضعف بادية على محياه ؛ وقد لمحها اصدقاؤه الاقربون

واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر ، ولكنه كان يغالب المرض ويجاهد جهاد الأبطال ، ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ، ترك سرير مرضه ونزل الى ساحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية وألقى خطبته كأقدر وأقوى خطيب ، حتى دهش السامعون لبلاغته وبراعة القائه وقوة جنانه ، مع ما كان باديا عليه من الضعف ، وكانت هذه آخر خطبة ألقاها رحمه الله ؛ ثم اشتد به المرض عقب الاجتماع وعاد الى غرفته مريضاً ولم يغادرها ؛ وقد بلغه فى صباح اليوم التالى للاجتماع نبأ وفاة صديقه ونصيره الكبير لطيف باشا سليم أحد مؤسسى الحزب الوطنى وأحد أعلام الحركة الوطنية ، فجزع لوفاته جزعا شديداً ، وازداد ما به من مرض حزناً على صديقه العظيم

وكان وهو على سرير المرض لايدع العمل والتفكير ، فقد أرسل وهو طريح الفراش قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجا برقيا قويا ضد تصريحات فاه بها السير ادوارد جراى فى مجلس العموم البريطانى اتهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتى ، فرد عليه بأن مصر تماثل فى الاستعداد للحكم الذاتى كثيراً من الأمم الاوروبية ، وان مصر ستظل تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالها

الوفاة

وأخذ المرض يشتد ويلح عليه حتى أعيى الطب والاطباء ؛ الى أن حمّ القضاء ، وأسلم الفقيد الروح فى الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ (٨ محرم سنة ١٣٢٦) ؛ فانتشر نعيه بسرعة البرق فى العاصمة والاقاليم ، وطيّرت الاسلاك البرقية خبره الى الخارج ، وملأ النبأ الفاجع جنبات وادى النيل ، ويا لها من لحظة رهيبة حين فوجئنا بالنعى ونحن فى مدرسة الحقوق ، فقابلناه بالذهول والوجوم ، وفاضت دموعنا حزناً وأسى على الفقيد الذى كان لنا إماماً وطنياً ، وأباً روحياً ، وما كاد يذيع نعيه حتى عم الحزن أرجاء مصر ، فكان له فى كل نفس مناحة وفى كل قلب مأتم

جنازة الزعيم

كان الاحتفال بتشييع جنازة مصطفى كامل يوماً مشهوداً فى تاريخ الحركة الوطنية ، كان مظهراً رائعاً لشعور الوطن نحو الزعيم ؛ انبعث من القلوب المكلومة والأفئدة الحزينة لفقده ، أرادت الأمة أن تشيعه الى مقره الاخير ، وأن تظهر وفاءها لباعث نهضتها الوطنية ، وموقظها من رقدتها ، وأدرك الناس كافّة حتى الذين كانوا لا يؤمنون برسالة مصطفى أن بطلها وزعيمها الشاب جدير حقاً بتقدير الوطن ، ولم يكن هذا الشعور مقصوراً على طبقة دون أخرى ، بل تناول طبقات الامة كافة ، شمل المتعلمين وغير المتعلمين ، وتناول الكبار والصغار ، والرجال والنساء .

لم يكد يذيع خبر الوفاة بين طلبة المدارس حتى قرروا بمحض شعورهم اعتبار يوم تشييع الجنازة يوم حداد عام ، عطلت فيه المدارس كلها حزنا على الزعيم ، وقرروا جميعاً الاشتراك فى الجنازة التى حدد لها عصر يوم الثلاثاء ١١ فبراير ، فسرنا فيها جميعاً مدفوعين بشعور واحد ، شعور الحزن للفجيعة والوداع للراحل العظيم

ومع عظم منزلة الفقيد ، لم يكن متوقعا أن تكون الجنازة بالضخامة والروعة والعظمة التى تجلت فيها ؛ وكان مقرراً أن تسير من طريق سراى عابدين ومنها الى باب الخلق ، فمدافن الامام الشافعى ، واختير هذا الطريق بدلا من طريق السيدة زينب ، التماساً لاتساع الشوارع وطولها منعا للزحام ؛ ولكن بوادر الحال دلّت على ان هذه الشوارع مهما اتسعت فانها لاتكفى للجموع الزاخرة والألوف المؤلفة التى قدمت من نواحى العاصمة كافة ، ومن الضواحى والثغور والأقاليم ، واكتظت بها الشوارع المحيطة بدار اللواء قبل الموعد المحدد لتشييع الجنازة بأربع ساعات ، فرؤى الغاء القرار السابق واختيار أطول طريق للجنازة بين دار اللواء

ومدافن الامام ؛ ليتسنى للجموع الحاشدة الاشتراك فيها ، وهو طريق شارع الدواوين (نوبار باشا الآن) حيث كانت دار اللواء [1] ، فشارع المدابغ فشارع المناخ ، فميدان الاوبرا فشارع البوستة فميدان العتبة الخضراء (الملك فريدة الآن) فشارع محمد على فميدان المنشية ومنه الى مدافن الامام ؛ وهذه المسافة لاتقل عن اثنى عشر كيلو مترا ، وخصصت حكمدارية بوليس العاصمة أكبر قوة من العساكر المشاة والفرسان ، وأضافت اليها عدداً كبيراً من جنود الاحتياطى وقلم المرور لتنظيم سير الجنازة ، وأوقفت عددا آخر من البوليس فى منافذ الطرق على طول الخط للمحافظة على النظام ؛ ولكن كل تقدير لعظم المواكب كان أقل من الواقع

واخذ العظماء والكبراء والمثقفون وطبقات الأمة كافة يفدون الى دار اللواء ؛ حتى غصت بهم على سعتها ؛ وفاض جمهم المتدفق الى شارع الدواوين فملأه ، ثم ضاق بجموعهم الزاخرة ؛ فامتلأت بهم الشوارع المجاورة ، وتعطل المرور من جميع الشوارع التى تتصل بطريق الجنازة ، واوقفت مركبات الترام فى جميع خطوط العاصمة ، وماحانت الساعة الثالثة بعد الظهر وهو الوقت المحدد للبدء بسير الجنازة حتى لم يبق موضع لقدم ، وبدأت الجنازة فى المسير ، فتقدم المشهد الجنود الفرسان ، فتلاميذ مدرسة « مصطفى كامل » ؛ فتلاميذ المدارس الابتدائية الاميرية والاهلية ، فطلبة مدرسة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى ، فالمدارس الثانوية وهى التوفيقية والخديوية والسعيدية ؛ وكثير من طلبة مدرسة رأس التين بالاسكندرية ومدرسة عبد العزيز والمدرسة الالهامية ، ومدارس الاقباط الكبرى ، وفيكتوريا والفرير ؛ ثم المدارس العليا وهى الحقوق والطب والمهندسخانة والزراعة والصنائع ، ثم عساكر البوليس وتلاميذ مدرسة البوليس ؛ ثم نعش الزعيم مغطى بالراية المصرية محمولا على اعناق طلبة مدرسة الحقوق ؛ مندوبين لذلك من قبل جميع طلبة المدارس العليا ، وكانت كل مدرسة

---

(١) مكان مدرسة عابدين الابتدائية الآن

تحمل علما مجللا بالسواد وفيه شارة تدل عليها ، وقد صنعت هذه الرايات خصيصا للاشتراك فى الجنازة ، كما أن مدرسة الزراعة رفعت امامها شجرة مجللة بالسواد . ثم سار المشيعون خلف النعش ، يتقدمهم المرحوم محمد بك فريد ، وكان عددهم فى بدء الجنازة يزيد عن عشرات الألوف ، الا أن ذلك الجمع المائل لم يكن الا قطرة من بحر ممن انضم الى الجنازة اثناء مسيرها ، حتى زخرت الشوارع بالمشيعين ، ولما تعذر سيرهم فى موكب الجنازة وقف معظمهم على جانبي الشوارع من دار اللواء الى مدفن الفقيد ، وبلغ عدد المشيعين نحو ٢٥٠٠٠٠ (ربع مليون) نفس، عدا الالوف الذين كانوا على جانبي الطريق وفى نوافذ المنازل والفنادق وشرفاتها ، وفوق اسطحتها ، وفى المنعطفات المترامية الاطراف ، وجملة القول ان الشوارع الواقعة بين دار اللواء وقبر الفقيد كانت العين لا تقع فيها الا على أجسام متراصة من المشيعين ، أو كتعبير المسيو ريمون كولرا رئيس تحرير جريدة (ايجبت) فى وصف الجنازة « ان شوارع القاهرة فيما بين دار الفقيد وقبره كانت مفروشة ببساط أحمر » اشارة الى الطرابيش الحمراء ، ومع اشتداد هذا الزحام الذى لم يسبق له نظير، كان النظام مستتبا ، والسكون شاملا رهيبا ، ولم يكن يسمع اثناء سير الجنازة سوى بكاء الباكين والباكيات وزفراتهم ونواحهم الصادر من أعماق قلوبهم ، وكلهم يبكى شباب الزعيم ووطنيته ، فكان هــذا الاحتفال الرهيب أعظم وأروع جنازة فى تاريخ مصر الحديث ، وصفها المرحوم قاسم أمين بقوله « ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق ، المرة الاولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى ، أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها الى جميع انحاء القطر هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من احشاء الأمة ، من دمها واعصابها ، هو الامل الذى يبتسم فى

وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل »

سارت الجنازة حتى جامع «قيسون» بشارع محمد على حيث اقيمت الصلاة على الفقيد ، ثم تابعت سيرها فى بحر زاخر من الجموع والدموع حتى مدفن الزعيم بقرافة الامام الشافعى ، واستمر سيرها أربع ساعات ، ولما وصلت ساحة المدفن كانت على رحبتها غاصة بفريق من المشيعين ممن سبقوا الموكب تفاديا من الزحام ، وتعذر دخول الجموع الحاشدة الى رحبة المدفن ، وابى طلبة المدارس الا أن يدخلوا ، ولما لم يكن ذلك ميسورا لاشتداد الزحام، انتدبت كل مدرسة وفدا ينوب عنها ، وكان حملة النعش منهم قد كثر عددهم ، وابوا الا ان يظلوا حامليه داخل المدفن حتى حافة الضريح الطاهر ؛ فاجيبوا الى طلبهم بعد تذليل الصعاب فى اجابته، اذ كان الزحام الهائل داخل رحبة المدفن يحول دون ذلك

وعند ما اجتاز النعش ساحة المدفن وادخل مكان الضريح ووضع على حافته، ضج المكان بالبكاء والنحيب ، وفى هذا الوقت وقف الشاعر الكبير اسماعيل باشا صبرى،وكان صديقا حميما للزعيم ،ليلقى كلمة الوداع، فالقى البيت الاول منها وهو :

أداعى الاسى فى مصر ويحكَ داعياً هددتَ القوى اذ قمت بالامس ناعياً

ولم يكد يلقيه حتى ظهر عليه التأثر الشديد والاعياء ولم يتم رثاءه

قصيدة حافظ بك ابراهيم

ثم قام شاعر النيل حافظ بك ابراهيم وألقى قصيدته الرائعة فى رثاء الفقيد، قال .

أيا قبرُ هذا الضيف آمالُ أمةٍ فكبّرْ وهلّل والقَ ضيفَكَ جاثيا

عزيزٌ علينا أن نرى فيك مصطفى شهيدَ العُلاَ فى زهرة العمر ذاويا

أيا قبرُ لو أنا فقدناه وحده لكان التأسى[1] من جوى الحزن شافيا

(١) التأسى بمعنى الصبر على المصيبة

ولـكن فقدنا كلَّ شيء بفقده وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا
فياسائلى أين المروءةُ والوفا واين الحجاوالرأْى؟ وَيْحكَ هاهيا
هنيئًا لهم [١] فليأمنوا كل صائح فقدأُسْكِتَ الصوتُ الذى كان عاليا
ومات الذى أحيا الشعورَ وساقه الى المجد فاستحيا [٢] النفوسَ البواليا

* * *

مدحتُكَ لما كنتَ حيافلم أُجِدْ وانى أُجيدُ اليومَ فيكَ المراثيا
عليكَ [٣]؛ وإلاَّ ماللذا الحزنِ شاملاً وفيكَ ؛ وإلاَّ ماللذا الشعبِ باكيا
يموت المُداوى للنفوس ولا يُرى لما فيه من داء النفوس مُداويا
وكنا نيامًا حينما كنت ساهدًا [٤] فأسهدتنا حُزْناً وأمسيتَ غافيا [٥]

* * *

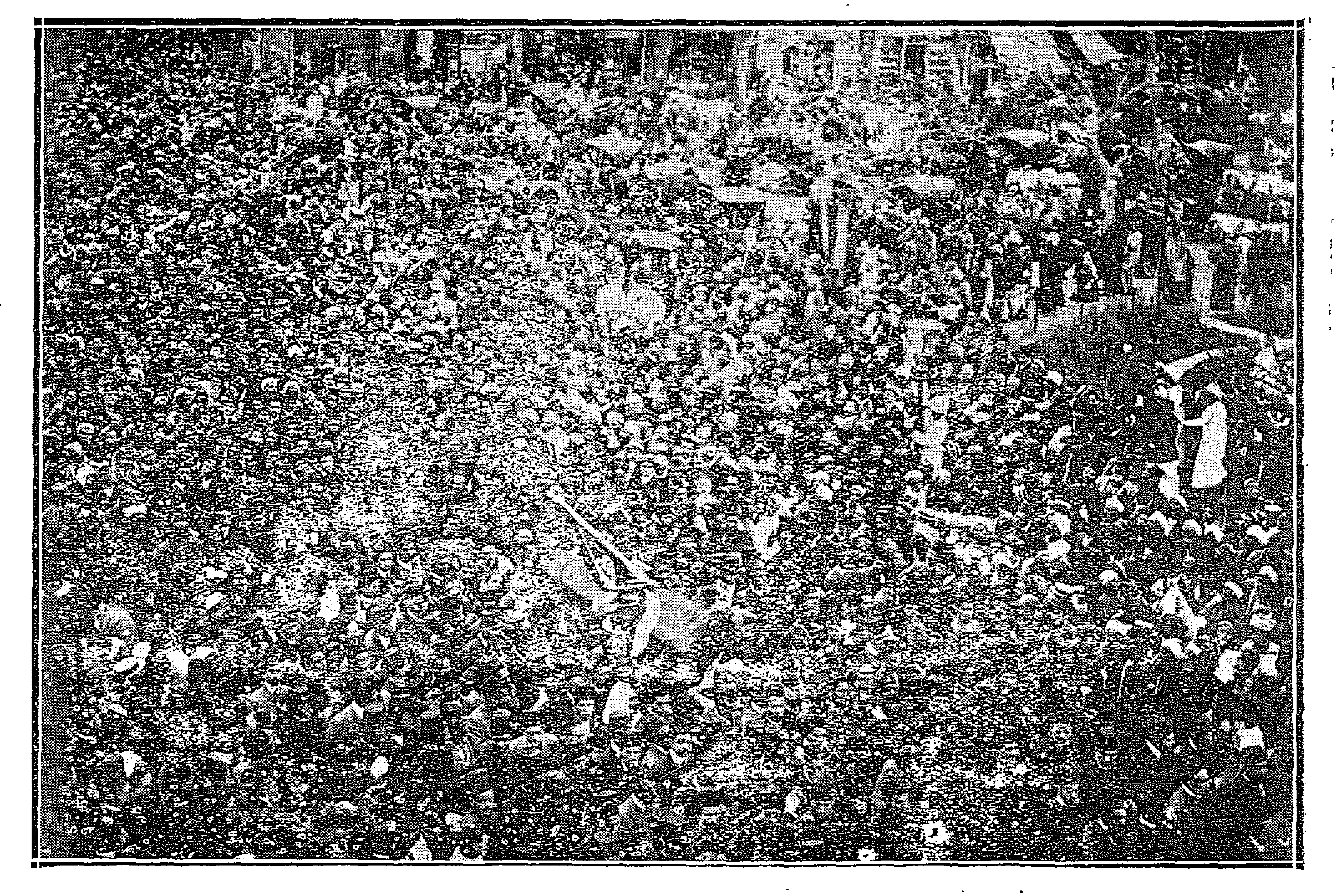
شهيدَ العلا ، لازال صوتك بيننا يَرِنُّ كما قد كان بالأمس داويا
يهيبُ بنا : هـذا بناءٌ أقمتُه فلاَ تَهدِموا بالله ما كنتُ بانيا
يَصيح بنا : لا تُشعِروا الناس أننى قَضَيْتُ وان الحىَّ قد بات خاليا
يناشِدُنا بالله الاّ تَفرّقوا وكونوا رجالاً لاتَسُرّوا الأعاديا
فرُوحىَ من هذا المقام مطِلّةٌ تُشارفكم [٦] عنى وان كنتُ باليا
فلا تحزنوها بالخلاف فاننى أخاف عليكم فى الخلاف الدواهيا

* * *

أجلْ أيها الداعى الى الخير إننا على العهد ما دمنا فَنَمْ أنت هانيا

---

(١) يريد الانجليز
(٢) استحيا أى أحيا
(٣) عليك أى عليك الحزن
(٤) ساهدا أى ساهرا
(٥) غافيا أى نائما
(٦) تشارفه أى تنظر اليه من علو



جنازة المغفور له مصطفى كامل باشا — ١١ فبراير سنة ١٩٠٨

(هذه الصورة وصورتا الاحتفال بافتتاح نادى المدارس العليا أهداها الينا الاستاذ عبدالمقصود متولى عضو اللجنة الادارية للحزب الوطنى ومن خيرة تلاميذ الفقيد)

بتأؤك محفوظٌ وطيفكَ ماثلٌ وصوتُك مسموعٌ ، وإن كنتَ نائيا
عهدناك لاتبكى وتُنكر أن يُرى أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فرخِّصْ لنا اليومَ البكاءَ وفى غدٍ ترانا كما تهوى جبالاً رواسيا
فيانيلُ إن لم تجْرِ بعد وفاتِه دماً أحمراً لاكنتَ يانيلُ جاريا
ويا (مصرُ) إن لم تحفظى ذكر عهده إلى الحشر لا زال انحلالُك باقيا
ويأهلَ (مصر) إن جهلتم مصابكم ثقوا أن نجم السعد قد غارَ هاويا
ثلاثون عاماً (١) بل ثلاثون دُرّةً بجيد الليالى ساطعات زواهيا
ستَشهَدُ فى التاريخ أنك لم تكن فتًى مُفرداً بل كنتَ جيشاً مُغازيا

ثم وقف المرحوم احمد افندى حلمى احد محررى اللواء ومن خاصة تلاميذ الزعيم ، وألقى كلمة مؤثرة فى وداعه ، ثم أنزل جثمان الفقيد الى مثواه الأخير بين الضجيج والنحيب ، ووضع المشيعون الأزهار والرياحين على قبره ؛ وعادت الجموع تبكى زعيم الحركة الوطنية ، ولبست العاصمة فى ذلك اليوم الرهيب ثوب الحداد العام

رثاء الزعيم وحفلات التأبين

اهتزت البلاد وروّعت لوفاة الزعيم ، فجادت قرائح الشعراء والأدباء والكتاب بالمراثى الصادرة من أعماق القلوب ؛ وممن رثاه من أعلام الأدب شوقى بك أمير الشعراء ، وكان من أصدق أصدقائه وأكثرهم اعجابا به ؛ وقد حزن عليه حزنا شديداً ، وترجم عن شعوره بقصيدة تجلت فيها حكمة الشعر وروعة البلاغة ، نشرت يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يوما ،

---

(١) اشارة الى عمر الفقيد وهو رقم تقريبى لانه توفى فى الرابعة والثلاثين من عمره

فأثرت فى النفوس تأثيرا عميقا ، وجددت أحزان الأمة ، ننشرها هنا لأنها قطعة من تاريخ الزعيم ، وصورة حية بريشة أمير الشعراء

رثاء شوقى لمصطفى كامل

(الحياة فى الموت)

المشرقان عليك ينتحبان	قاصيهما فى مأتم والدانى
ياخادم الاسلام أجر مجاهد	فى الله من خلد ومن رضوان
لما نعيت الى الحجاز مشى الاسى	فى الزائرين وروع الحرمان
السكة الكبرى [1] حيال رباها	منكوسة الاعلام والقضبان
لم تألها عند الشدائد خدمة	فى الله والمختار والسلطان
ياليت مكة والمدينة فازتا	فى المحفلين بصوتك الرنان
ليرى الاواخر يوم ذاك ويسمعوا	ماغاب من قس ومن سحبان [2]

***

جار التراب وأنت أكرم راحل	ماذا لقيت من الوجود الفانى
أبكى صباك ولا أعاتب من جنى	هذا عليه كرامة للجانى [3]
يتساءلون ابالسلال قضيت أم	بالقلب ام هل مت بالسرطان
الله يشهد أن موتك بالحجا	والجد والاقدام والعرفان

***

ان كان للاخلاق ركن قائم	فى هذه الدنيا فأنت البانى

---

(١) بريد سكة حديد الحجاز

(٢) قس وسحبان خطيبان من أبلغ خطباء العرب

(٣) الجانى اشارة الى الفقيد ، اى أنه ضحى بحياته وشبابه فى سبيل مصر

بالله فتّش عن فؤادك فى الثرى　هل فيه آمالٌ وفيه أمانى
وجدانُك الحىّ المقيم على المدى　ولربَّ حىٍّ ميّتِ الوجدان

***

الناسُ جارٍ فى الحياة لغاية　ومضلّلٌ يجرى لغير عنان
والخلدُ فى الدنيا وليس بهيّنٍ　عليا المراتب لم تُتَح لجبان
فلو ان رسلَ الله قد جبنوا لما　ماتوا على دين ولا ايمان
المجد والشرف الرفيع صحيفة　جُعلت لها الاخلاق كالعنوان
وأحبُّ من طول الحياة بذلة　قِصَرٌ يريك تقاصرَ الاقران
دقّاتُ قلب المرء قائلةٌ له　ان الحياة دقائق وثوانى
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها　فالذكر للانسان عمرٌ ثانى
للمرء فى الدنيا وجم شؤونها　ماشاء من ربح ومن خسران
فهى الفضاء لراغب متطلع　وهى المضيق لمؤثر السلوان

***

الناس غادٍ فى الشقاوة رائحٌ　يشقى له الرحماء وهو الهانى
ومنعّم لم يلق الا لذة　فى طيها شجَنٌ من الاشجان
فاصبر على نُعْمَى الحياة وبؤسها　نعمى الحياة وبؤسها سيان

***

ياطاهرَ الغدوات والروّحات وال　خطرات والاسرار والاعلان
هل قام قبلك فى المدائن فاتح　غازٍ بغير مهنّد وسنان
يدعو الى العلم الشريف وعنده　أنّ العلوم دعائم العمران
لفّوك فى علم البلاد منكّساً　جَزعَ الهلالُ على فتى الفتيان

ما أحمرّ من خجل ولا من ريبة — لكنما يبكى بدمع قانى (١)
يُزجون نعشك فى السناء وفى السنا — فكأنما فى نعشك القمران
وكأنه نعش (الحسين) « بكر بلا » — يختال بين بكى وبين حنان
فى ذمة الله الكريم وبره — ماض من عرف ومن احسان
ومشى جلال الموت وهو حقيقة — وجلالك المصدوق يلتقيان

***

شقت لمنظرك الجيوبَ عقائلٌ — وبكتك بالدمع الهتون غوانى
والخلْق حولك خاشعون كعهدهم — اذ ينصتون لخطبة وبيان
يتساءلون بأى قلب تُرتقى — بَعْدُ المنابرُ أم باى لسان
فلو ان أوطانا تُصَوَّر هيكلا — دفنوك بين جوانح الاوطان
أو كان يُحمل فى الجوارح ميت — حملوك فى الاسماع والاجفان
أو صيغ من غرّ الفضائل والعُلى — كفنٌ لبست أحاسن الاكفان
أو كان للذكر الحكيم بقية — لم تأت بعد رُثيتَ فى القرآن

***

ولقد نظرتك والردى بك محدق — والداء ملء معالم الجثمان
يبغى ويَطغى والطبيب مضلل — قنِطٌ وساعات الرحيل دوانى
ونَواظرُ العُواد عنك أمالها — دمعٌ تعالج كتمه وتعانى
تُملى وتكتب والمشاغل جمة — ويداك فى القرطاس ترتجفان
فهششتَ لى حتى كأنك عائدى — وأنا الذى هدّ السقام كيانى
ورأيتُ كيف تموت آساد الشرى — وعرفتُ كيف مصارع الشجعان

---

(١) قانى أحمر

ووجدتُ فى ذاك الخيال عزائما ... ماللمنون بدكهن يدان

***

وجعلتَ تسألنى الرثاء فهاكه ... من أدمعى وسرائرى وجنانى
لولا مغالبةُ الشجون لخاطرِى ... لنظمتُ فيك يتيمة الازمان
وانا الذى ارثى الشموس اذا هوت ... فتعود سيرتها من الدوران

***

قد كنتَ تهتف فى الورى بقصائدى ... وتُجلُّ فوق النيرات مكانى
ماذا دهانى يوم بِنْتَ فعقَّنى ... فيك القريضُ وخاننى امكانى
هَوِّنْ عليكَ فلا شمات بميت ... ان المنية غاية الانسان
من للحسود بميتة بُلِّغتَها ... عزت على كسرى انو شروان
عوفيتَ من حَرَب الحياة وحرْبها ... فهل استرحت أم استراح الشانى

***

ياصَبَّ مصر وياشهيدَ غرامها ... هذا ثرى مصر فنم بأمان
إخلع على مصر شبابك عاليا ... والبس شباب الحور والولدان
فلعل مصراً من شبابك ترتدى ... مجداً تتيه به على البلدان
فلو ان بالهرمين من عزَماته ... بعضَ المضاء تحرَّك الهرمان
عَلَّمتَ شبان المدائن والقرى ... كيف الحياة تكون فى الشبان
مصر الاسيفة ريفها وصيعدها ... قبرٌ أبرُّ على عظامك حانى
أقسمت انك فى التراب طهارةٌ ... مَلَكٌ يهاب سؤاله المَلَكان

حفلة التأبين الكبرى — يوم الاربعين

أقام الحزب الوطنى حفلة تأبين كبرى للفقيد يوم الاربعين لوفاته (الجمعة ٢٠ مارس سنة ١٩٠٨) ، وألف لجنة لتنظيمها برآسة المرحوم محمد بك فريد ، وقد تجدد الحداد على الفقيد فى ذلك اليوم ، فكنت ترى معظم المحال التجارية مغلقة وعليها علامات الحداد ، والاعلام منكسة تجللها شارات السواد ، وعربات الركوب موقدة المصابيح مجللة باشرطة سوداء ، والشباب من فتيان وفتيات لابسين شارات الحداد ، وكان محددا لحفلة التأبين الساعة الثالثة عصر ذلك اليوم بالساحة الواسعة التى تحيط بضريح الزعيم بمدافن الامام الشافعى ، وكان البرنامج أن يتألف موكب الاربعين ويسير بنظام من دار اللواء بشارع الدواوين (نوبار باشا الآن) الى مدفن الزعيم ، وهناك ينتظره المدعوون للحفلة ؛ فمنذ الساعة ١٢ الظهر أخذت وفود الطلبة وجموع الوطنيين يحتشدون فى الشوارع المجاورة لدار اللواء ، ثم انتظم منهم موكب رهيب يشبه فى عظمته وعدده موكب تشييع الجنازة ، وسار فى نفس طريقها الى مدافن الامام ، وتقدمه طلبة المدارس الابتدائية ثم الثانوية ثم الخصوصية ثم العالية ، ثم الأزهر ، ولكل مدرسة علمها ، ثم جمعيات الشبيبة وجماعات الصناع وجمعيات الاقاليم وجمعية النهضة الوطنية ببولاق ، تتلوها عربة الفقيد مجللة بالسواد لا يركبها أحد علامة على فقد صاحبها العظيم ، ثم الوفود من أحياء العاصمة والاقاليم ، وبدأ سير الموكب فى الساعة الاولى بعد الظهر تماما وسار بنظام رهيب حتى وصل الى المدفن فى الساعة الثالثة والدقيقة ٤٥ ، فكانت مظاهرة حداد قومية لم يسبق لها مثيل ، وقد أعد الحزب الوطنى مكان الاحتفال بعد أن ازال البناء الذى فى تلك الساحة لكى يتسع لعشرة آلاف من المدعوين ، وعند الساعة الثالثة بدأ الاحتفال قبل مجىء الموكب ، فافتتح بتلاوة ما تيسر من القرآن الكريم

خطبة محمد بك فريد

وكان أول الخطباء المغفور له محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى ، فالقى الخطبة الآتية

« أخوانى الاعزاء

« ان اجتماعكم هذا لأكبر دليل وأسطع برهان على أن رئيسنا المرحوم مصطفى كامل باشا لم يمت ، نعم لم يمت من جمعت كلمته هذه الالوف المؤلفة من الناس ، بل هذه الملايين العديدة من الخلائق ، بعد ان كنت لا ترى اثنين يتفقان على عمل ما ، حتى ضرب بتخاذلنا المثل وقالوا ان المصريين اتفقوا على أن لا يتفقوا ، ولكن الفقيد بث هذه الروح الجديدة بين جميع طبقات الامة المصرية بثباته وعدم تزعزع عزيمته امام ما صادفه من العقبات ولاقاه من الصعوبات التى انا أعلم بها من غيرى

«وضع مصطفى كامل نصب عينيه خدمة مصر وايقاظها من سباتها منذ كان بمدرسة الحقوق الخديوية ، بل منذ كان بالمدارس الثانوية ، وسار فى طريقه الشريف طريق التفانى فى خدمة البلاد لا يلوى يمنة أو يسرة ، حتى توج الله أعماله بالنجاح ورأى غرسه يانعا قبل أن يترك هذا العالم الفانى ، نعم ان مصطفى كامل لم يمت بل روحه ترفرف علينا وتنظر الينا من الملكوت الاعلى تشجعنا على السير فى الطريق المستقيم الذى رسمه لنا ، ولن نترك هذا الغراس الشريف غراس الوطنية الحقة يزول أو يعوقه أى عائق عن النمو ، ولو فعلنا ذلك لارتكبنا أكبر خيانة نحو الوطن المحبوب

« ان هذه الفكرة السامية ، فكرة خدمة الوطن حتى الممات ، كانت تملأ جنانه ووجدانه منذ بدأ فى عمله ، فقد كتب لى جوابا فى ٢١ اكتوبر سنة ١٨٩٦ من فيينا قال فى آخره : «انى مستمر الى يوم الوفاة على خدمة بلادى ، وان غيرتى على حقوقها تزداد يوما بعد يوم ، ولا يقلل من عزمى تهاون بقية المصريين ابدا ، بل انى سائر الى الامام حتى أنزل القبر ، وبعد موتى يكون على روحى واجب الاستمرار وواجب دعوة الاحياء الى العمل او ان شئت قل واجب إحياء من هم أموات فى قالب أحياء»

«لقد نجح مصطفى فى عمله ، فقد أصبح القوم كلهم احياء ، أصبح القوم كلهم

متفقين على التعاون والتضافر على خدمة هذه البلاد العزيزة ، فاستمروا يا اخوانى فى هذا الطريق السوى ؛ ولا يقعدنكم عن العمل تثبيط بعض ضعفاء العزيمة أو انتقاد بعض الجاهلين والمتجاهلين لمقاصدنا الشريفة ، فان سرنا بعزيمة واتحاد لا يلبث اهل القطر أجمعهم أن يصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضنا بعضا وننال ما كان يسعى اليه فقيدنا

«وكتب الى فى جواب آخر من بودابست فى ٢٦ اكتوبر سنة ١٨٩٦ ردا على من كانوا ينكرون عليه فائدة عمله قائلا « ولكنهم جهلوا أن لى روحا هى من نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة فى ظلمات الظلم والاستبداد ، جهلوا أن روحى تنادى الى يوم الممات ماشا كلها من الارواح الشريفة لتتحد معها على القيام بهذا العمل الشرعى الحق ، وماذا أقول لك وانت تحس بما لا يستطيع القلم كتابته وانت اذا تلوت هذه الاسطر سالت الدموع من عينيك ، ما ذا اكتب وأنا كلما شاهدت هذه البلاد وشاهدت فيها علم الوطنية عاليا مرفوعا ازداد لهيب فؤادى وتفتت منى الكبد »

هذه أقواله من نحو اثنى عشر عاما ، فحق لمصر أن تبكيه بدل الدموع دما ، ووجب عليها أن تقيم له التماثيل فى كل المدن الكبرى ، ووجب على كل مصرى أن يضع صورته أمامه ليقتبس نور الحرية من خدماته التى كانت أشعتها تخترق الحجب فتصل الى أعماق القلوب ، ووجب علينا أن نستنير بما كتبه من المواعظ والحكم الوطنية ، نعم ان صورته لن تغيب عنا ، بل هى منقوشة على صفحات قلوبنا ، كما أن أقواله مكتوبة باحرف من نور على أفئدتنا ، ولكن فائدة التماثيل هى لمن يأتى بعدنا ولم ير بعينيه ذلك الذكاء ولا هاتيك الشهامة التى كانت تنبعث من محياه فتحرك القلوب الجامدة ، لقد شهد له ألد أعدائه بقوة التأثير بخلابة منطقه وقوة حجته ونفوذ روحه الى نفس المتكلم فيخرج من لدنه مقتنعا معترفا بفضله ان لم يكن جهرا فسرا

« اخوانى الاعزاء

« لقد اجتمعتم هنا لتأبين المرحوم مصطفى كامل وذكر فضائله نظما ونثرا ، ولكن انى للشعراء والأدباء ان يوفوه حقه من الثناء والمديح وهو من النوابغ الذين يبعثهم الله كل حقبة من الزمان لاحياء موات الأمم والقيام بواجب إحياء من هم أموات فى قالب أحياء

« ان أحسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير فى الطريق السوى الذى رسمه ومهده لنا ، وأن نضم صفوفنا حتى لايدخل بينها منافق أو مخاتل ، ونسير كرجل واحد الى فتح قلعة الحرية وامتلاك ابراجها وتحصينها بالنظام النيابى الدستورى حتى لايمكن اخراجنا منها ثانيا ، ان أحسن تأبين لفقيدنا العزيز ترتاح اليه روحه الشريفة الطاهرة هو أن نبرهن للعالم أجمع أن مصطفى كامل لم يمت وان روحه اتحدت بروح كل فرد منا فأصبحنا كانا مصطفى كامل ونكون بذلك قد حققنا ما كتبه لى بالجواب السابق ذكره (وبعد موتى يكون على روحى واجب الاستمرار وواجب دعوة الاحياء الى العمل)

« فيا أيها الفقيد المحبوب ويا أيتها الروح الطاهرة ، قد تحقق ما كنت تؤمله وما قضيت زهرة شبابك للوصول اليه ، وأصبحت الأمة بعناصرها الثلاثة مسلمين ومسيحيين واسرائيليين كلها مجتمعة كرجل واحد متحدة الافكار والقلوب ، لايمنعها عن الحصول على رغائبها مانع ، ولا تقف فى وجهها قوة ، فقوة الأمة فوق كل قوة ، وأمتنا المصرية قد شعرت بقوتها وتركت اليأس ظهريا اتباعا لقوله رحمه الله (لامعنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة)

« اخوانى

« قال تعالى فى محكم التنزيل (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) وقال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا).

قصيدة اسماعيل باشا صبرى

وبعد أن انتهى فريد بك من خطبته تلاه الشاعر الكبير اسماعيل صبرى وطلب الى حافظ ابراهيم أن يتلو قصيدته ، فتلاها بصوته الجهورى قال :

أجلْ انا من أرضاكَ خلا موافيا ويُرضيكَ فى الباكين لو كنتَ واعيا
وقلبى ذاك الموردُ العذبُ لم يزلْ كما ذُقتَ منه الحبَّ والود صافياً
سِوى أنه يعتادُه الحزنُ كلما رآك عن الحوض المهدَّد نائيا
ويعثر فى بعض الخطوب اذا مشى الى بعض مايهوَى فيرجعُ داميا
وإن رامَه سِربُ المسرات لم يجد محلا به من لاعج الهمّ خاليا
ألا علّلانى بالتعازى وأقنعاَ فؤادىَ ان يرضى بهنّ تعازياَ
والا أعينانى على النوح والبكا فشأنكما شأنى وما بكما بيا
وما نافعى ان تبكيا غير اننى أُحبّ دموعَ البر والمرءَ وافياَ

* * *

أيا (مصطفى) تالله نومُك رابنا امثلُك يرضى أن ينام اللياليا
تكلمْ فان القوم حولكَ أطرقوا وقلْ ياخطيبَ الحى رأيكَ عاليا
لقد أوشكت من طول صمتٍ وهجرة تخالُك أعوادُ المنابر فانيا
وتبكيك لولا ان فيها بقيّةً تُعلّلها من ذلك الصوت داويا
فهل الفّتْ مابين جفنيكَ والكرى محالفةٌ أم قد أمنتَ الاعاديا

* * *

فقدناك فِقدانَ الكمىّ سلاحه وسارى الدياجى كوكبَ القطب هاديا
وبتنا وقد باتت رفاتك فى الثرى سقاها الحَيا[1] نستبطئُ الدمع هاميا

(١) المطر

ولولا تراثٌ من امانيك عنــدنا ... كريمٌ بكينا اذ بكينا الأمانيا

طواكَ الرّدى طيَّ الكتاب تضمّنت ... صحائفُه من كل فخر معانيا

مضاءٌ إذا البيضُ انثمت لاصولها ... غَضِبنا إذا سّماكَ قومٌ يمانيا

ورأىٌ يجلّي اليأسَ واليأسُ ضاربٌ ... على الافق ليلاً فاحمَ اللون داجيا

اذا ماتقاضينا ولم تك بيننا ... ذكرناهما (١) حتى نجيد التقاضيا

فليتك إذ أعييتَ كل مساجل ... قنِعتَ فلم تعيِ الطبيب المداويا

وليتك اذ ناضلت عن مصر لم تفِض ... مع الخبر قلباً يعلم الله غاليا

* * *

لقد ضاع اخلاصُ الطبيب وحذقُه ... سدى فبكى الفخرَ الذى كانَ راجيا

ولم تنتهز تلك العقاقيرِ فُرصةً ... تُرى الناسَ فيها فضلَ (بقراط) باديا

نحيّيك سيفاً بات فى الترب مُغمداً ... تَقلّدَه فيما مضى الحقُّ ماضيا

قصيدة حافظ ابراهيم

ثم ألقى شاعر النيل حافظ ابراهيم قصيدته ، قال :

نَثَروا عليكَ نوادىَ الأزهار (٢) ... وأتيتُ أنثُر بينهم أشعارى

زَيْنَ الشباب وزَيْنَ طُلاّب العلا ... هل أنتَ بالمهج الحزينة دارى

غادرتنا والحادثاتُ بمَرْصَد ... والعيشُ عيشُ مذلّة وإسار

ما كان أحوجنَا اليك اذا عَدا ... عادٍ وصاح الصائحون : بدار

أين الخطيبُ وأين خلاّبُ النُّهى؟ ... طال انتظار السّمع والأبصار

يالله مالك لاتجيب منادياً ... ماذا أصابك يا أبا المغوار

---

(١) أى ذكرنا المضاء والرأى

(٢) نوادى الازهار أى الرطبة المبللة بالندى

قُمْ وامحُ ما خَطَّت يمينُ (كرومر) جَهْلاً بدين الواحد القهار
قد كنتَ تغضبُ للكنانة كلّما هُمَّتْ وهَمَّ رجاؤها بعثار
غضَبَ التقىّ لربّه وكتابه أو غَضْبَةَ (الفاروق[1] للمختار)

* * *

قد ضاق جسمك عن مداك فلم يُطقْ صبراً عليك وأنت شُعْلَةُ نار
أودى به ذاك الجهادُ وهدّه عزمٌ يهد جلائل الأخطار
لعِبتَ يمينك باليراع فأعجزت لعب الفوارس بالقنا الخطّار[2]
وجَريْت للعَلْياء تبغى شأوها فجرى القضاءُ وأنت فى المضمار
أو كلما هز الرجاءُ مهنداً بدرتْ اليه غوائلُ الأقدار

* * *

عزَّ القرارُ علىّ ليلةَ نعيه وشهدتُ موكبه فقرّ قرارى[3]
وتسابقت فيه النعاةُ فطائرٌ بالكهرباء ، وطائرٌ ببخار
شاهدتُ يومَ الحشر يومَ وفاته وعلمت منه مراتبَ الاقدار
ورأيت كيف تَفِى الشعوب رجالها حقّ الولاء وواجب الاكبار
تسعون ألفاً حول نعشك خُشّعٌ يمشون تحت (لوائك) السيّار
خطّوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزنِ أسطاراً على أسطار
آناً يُوالون الضجيجَ كأنهم ركبُ الحجيج بكعبة الزوّار
وتخالُهم آناً لفرط خشوعهم عند المصلّى يُنصتون لقارى

(١) الفاروق عمر بن الخطاب ، المختار النبى عليه الصلاة والسلام .
(٢) القنا الرماح
(٣) أى استقرت نفسه بعد أن شهد وفاء الامة للفقيد فى موكب الجنازة.

غاب الخشوع عليهم فدموعهم تجرى بلا كَلَح[1] ولا استنثار
قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم ما بين سيْلٍ دافق وشَرار
أسعى فيأخذنى اللهيب فأنثنى فيصدنى متدفق التيار
لو لم أَلُذْ بالنعش أو بظلاله لقضيتُ بين مراجلٍ وبحار

***

كم ذات خدرٍ يوم طاف بكَ الردى هتكتْ عليك حرائرَ الأستار
سفرتْ تودع أمّةً محموله فى النعش لا خبراً من الأخبار
أمِنتْ عيونَ الناظرين فمزّقتْ وجهَ الخمار فلم تَلُذْ بخمار[2]
قد قام مابين العيون وبينها سِترٌ من الأحزان والأكدار

***

أدْرجتَ فى العَلَمِ الذى أَصْفَيْتَه منك الودادَ فكان خيرَ شعار
علمان[3] من فوق الرءوس كلاهما فى طيّه سرٌّ من الأسرار
ناداهما داعى الفراقِ فأمسيا يتعانقان على شفير هارِ
تالله ماجزع المحبّ ولا بكى لِنوىً مروّعة وبعد مزار
جزع (الهلال) عليك يوم تركتَه ما بين حرِّ أسىً وحرِّ أوار[4]
متلفتاً متحيّراً متخيّرا رجلا يناضل عنه يوم فخار
أن الثلاثين التى بك فاخرت باتتْ تُقاس بأطول الأعمار

---

(١) الكلح العبوس أى تجرى الدموع بطبيعتها بلا عبوس
(٢) الخمار أى الحجاب
(٣) يريد بالعلمين الفقيد فهو علم الوطنية والثانى علم مصر
(٤) الاسى الحزن والأوار الظمأ والتعطش أى التعطش الى الفقيد

ضُمَّت الى التاريخ بضع صحائف بيضاء مثل صحائف الأبرار
شبَّهتُهن بنُقْطةٍ عطرية وسعتْ محصَّل روضةٍ معطار (١)
خلَّفتَها كالمشْق يحذو حذْوها راجي الوصول ومقتفي الآثار
ماذا على الساري — وهُنَّ (٢) منائرٌ — لو سار بين مجاهل وقفار

* * *

ما زلتَ تختارُ المواقف وَعْرة حتى وقفت لذلك الجبّار (٣)
وهدمت سوراً قد أجاد بناءه فرعون (٤) ذو الأوتاد والأنهار
ووصلت بين شكاتنا ومشايخ في (البرلمان) أجلّة أخيار
كشفوا الغطاء عن العيون فأبصروا ما في الكنانة من أذى وضرار
نبذوا كلام (اللورد) حين تبينوا حَنَقَ المغيظ ولهجة الثرثار
ورما هُمُ بمجلدين (٥) رَموهما في رُتبة الأصفار لا الاسفار

* * *

واهاً على تلك المواقف انها كانت مواقف ليث غابٍ ضاري
لم يَلْوه عنها (٦) الوعيدُ ولا ثنى من عزمه قولُ المريب : حذار
فاهنأ بمنزلكَ الجديد ونَمْ به في غبطةٍ وانعم بخير جوار

(١) الروضة المعطار هي الكثيرة الازهار والرياحين
(٢) هن اشارة الى الثلاثين عاما أي ماذا على الساري في المجاهل والقفار اذا اهتدى بنور هذه الاعلام
(٣) يريد بالجبار اللورد كرومر الذي كان حكمه مطلقا في مصر
(٤) شبه اللورد كرومر بفرعون
(٥) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر
(٦) أي لم يصرفه عن مواقفه الوعيد والتهديد

واستقبل الأجرَ الكبير جزاء ما ضحّيتَ للاوطان من أوطار
نِعْمَ الجزاءُ ونعم ما بُلّغتَه في مَنزِلَيك[1] ونعم عُقبى الدار

ثم وقف المسيو كولرا رئيس تحرير جريدة الايجيبت وألقى كلمة تأبين بالفرنسية بالنيابة عن الصحافة الاوروبية ، وهنا أقبلت طلائع الموكب ، فاشتد الزحام وعظم التلاحم ، وامتلأت المنافذ بالقادمين ، ولما ضاق المكان وعظم تدافع الجماهير قررت لجنة التأبين اختتام الاحتفال خوفا من وقوع حادث من شدة الزحام ، اذ اختلطت جموع الموكب بالحاضرين ، ونشرت اللجنة خطب المؤبنين وقصائدهم وهم بحسب ترتيب ورودهم في البرنامج . محمد بك فريد . اسماعيل باشا صبرى . احمد لطفى السيد بك . المسيو كولرا مندوب الصحافة الاوروبية ، محمود بك أبو النصر . قصيدة شاعر النيل حافظ ابراهيم . كلمة الاستاذ أخنوخ فانوس . قصيدة محمد بك أبو شادى . كلمة مندوب طلبة المدارس (الاستاذ محمود خيرت). كلمة الشيخ مصطفى القاياتى عن الازهر . كلمة الاستاذ مرقس بك حنا (باشا). قصيدة الدكتور السيد بك رفعت . قصيدة شاعر القطرين خليل بك مطران (وقد نشرناها فيما يلى) قصيدة حسن بك حمدى . قصيدة الشيخ سليمان على مطير يد. شيخ قبيلة عربان الضعفاء ببنى سويف . كلمة محمد افندى لمعى المهندس . قصيدة السيدة زينب فواز عن السيدات . كلمة ابراهيم افندى فهمى عبد الهادى التلميذ بمدرسة مصطفى كامل . كلمة على باك فهمى كامل شقيق الفقيد

هذا وقد اقيمت للفقيد حفلات تأبين عدة فى مختلف الاحياء والعواصم والاقاليم

---

(١) أى الدنيا والآخرة

قصيدة خليل بك مطران

(حق الوطن وحق الاخاء)

أَعْلي مكانَتَكَ الالَـهُ وشَرَّفا فانعم بطيب جواره يا (مصطفى)
اليومَ فُزتَ بأجر ما أسلفتَهُ خيراً وكلٌّ واجدٌ ما أسلفا
وجُزيتَ من فانى الوجود بخالد ومن الأسى الماضى بمقتَبل الصفا

***

أَعظِمْ بيومك فى الزمان ومن له بك واصفاً ذاك الجلال فيوصَفا
حيث الوفود من الملائك اقبلوا حافّين حولك فى السرير وعُكَّفا
وتحملوك على الأشعّة وارتقوا سِرباً يجوز بك الدرارى موجفا
فوردتَ وِرْدَك فى الخلود منعَّماً والارض مائدةٌ عليك تأسفا
لم تُلْفِ قبلك أمّةً فى مشهد يذْرو الرجالُ به المدامع ذرّفا
يمشون من حول الجنازة ضائقاً بهم الرحيبُ من المسالك مصرفا
متثاقلين من الوقار وانما ساروا بطيفٍ ناحلٍ أو انحفا
بحرٌ من الاحياء نعشُك فوقَه فُلْك يظلله اللواء مرفرفا
يبكون فى آثاره العَلَمَ الذى آثارُهُ من رفعةٍ لا تُقتفى
سعَت الخوادرُ حاسراتٍ والاسى مُلْقٍ على الابصار ستراً أغدفا
ولئن سفرنَ ولم يَخلْنَ فانه خطبٌ ألان بروعه صُمَّ الصفا
فزع الشباب الى الشيوخ بثأرهم من دمعهم ان خانهم متكفكفا
ومن الغضاضة ان دعا داعى العلا بعد الفقيد فتىً بهم فتوقفا
جزع النصارى واليهود لمسلم هو خير من والى وأوفى من وفى

بكوا المرجّى فى خلافٍ عارضٍ ليزيل ذاك العارضَ المتكشّفا
واشتد رُزءُ المسلمين وحزنهم لما مضيتَ ولست فيهم مخلفا
مَن بعد كاتبهم وبعدَ خطيبهم يُعلِى لهم صوتا وينشرُ مصحفا

***

من يبرئ الاسلامَ من تهم العدى ويردُّ نقد الناقدين مزيفا
يبدى لأعين جاهليه فضلهُ ويزيلُ ما يلدُ التناكرُ من جفا
ويثير من غضب الغضاب لمجده هِمماً تعيدُ له المقام الأشرفا
لكنّ من أقلام جندكَ حوله سُمراً تهزُّ لكل خطبٍ معطفا
ولعل حراً لايدينُ به انبرى ليذودَ عنه خصمهُ المتعسفا
قِفْ أيها الناعى عليه جمودهُ فلقد تجاوزت المدى متفلسفا
إن يَعترِ الشمس الكسوفُ هنيهةً أيكون منقصةً لها أن تُكسفا
وهل الكسوف سوى تَعرض حائل يثنى أشعّتها الى أن يكشفا
لم تنزل الأديانُ الا هاديا للعالمين ورادعاً ومثقّفا
بشعارِ حىَّ على الفلاح وما بها ان قصر الاقوامُ عنه فأُخلفا
وبكل أمر موجبٍ اصلاحهم ان خالفوه فما استحال ولا انتفى
قد كان للاسلام عهدٌ باهرٌ نلنا به هـذا الرقىَّ مسلفا
ملأ البلاد إنارةً وحضارةً ومُنَى السماحةِ عودهُ مستأنفا
فالخيرُ كل الخير فيه مقبلاً والشرُّ كل الشر أن يتخلفا
يدعو البقاء الى التكافؤ بالقوى بين العناصر أو يهينَ ويضعفا
والخلقُ جسمٌ ان ألمَّ ببعضه سَقمٌ ولم يُتلافَ عمّ وأتلفا

بشرى البرية بعد مُزْمِنِ دائها بسلامة الاسلام وهى لها شفا
ان أَغضبت تلك السلامةُ جائراً ارضت خبيرا بالحياةِ ومنصفا
يامن نهضتَ بنصرهِ وأَبَنْتَه حقَّ الابانة هل تبالى مرجفا
مازلتَ فى مصرٍ تقيمُ منارَه حتى انارَ الكونَ منها مُشْرِفا

* * *

مصر العزيزةُ قد ذكرتُ لك اسمها وأرى ترابَكَ من حنين قد هفا
وكأننى بالقبر أصبح منبراً وكأننى بك مُوشِكٌ أَن تهتفا
مصرُ التى لم تحظ من نجبائها بأعزَّ منك ولم تعزَّ بأحصفا
مصرُ التى لم تبغ الا نفعها فى الحالتين ملاينا ومعنفا
مصرُ التى غسلت يداك جراحها بصبيبِ دمعك جاريا مستنزفا
مصرُ التى كافحتَ لُدَّ عُداتها متصدراً لرماتها مستهدفا
مصرُ التى سُقْتَ الجيوش مناقبا ومُنىً لتكفيها المُغير المجحفا
مصرُ التى أحببتها الحبَّ الذى بلغ الفداءَ نزاهةً وتعففا
حتى مضيتَ كما ابتغيتَ مؤلِّفا من شملها مالم يكن ليؤلَّفا
امنيّةٌ اعيتْ خلالك دونها لو لم يضافرْها رداك فيُسعفا
وهى التى لو أُقسمت لنما بها شعبٌ يعزُّ بنفسه مستنصفا

* * *

منْ كان أجرأَ منك يوم كريهة بالحق لاشكسا ولامتصلفا
من كان أقدرَ منك تصريفا لما يعيى الحكيمَ مدبرا ومصرِّفا
من كان اطهرَ منك خلقا جامعا فيه مهيبَ الطبع والمستظرَفا
من كان أزهد منك ألا فى الذى يجدى البلادَ فتبتغيه مُلْحِفا

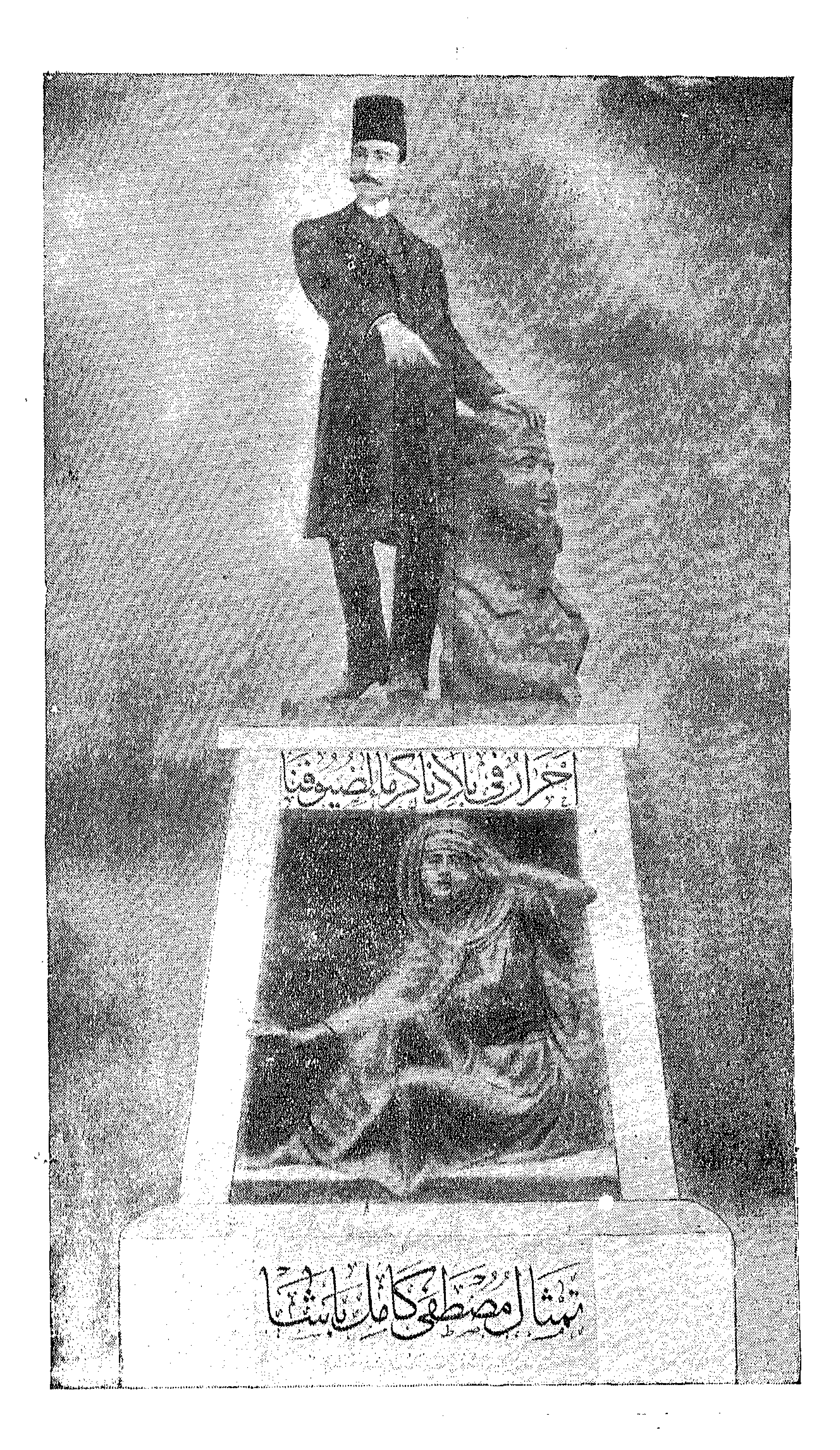
من كان أسمحَ منك منّاعاً لما ... تهوى ومعطاءً لغيرك مُسرفا
من كان أصدق منكَ لا متنصلاً ... مما تقولُ ولا تعاهدُ مخلفا

***

لهفي على فخر الصبي هادي النهى ... عالي اللواء حمى المروءة والوفا
يامن نعى تلك الفضائلَ والعلى ... اغدت معالمهنّ قاعاً صفصفا
لالا وحقك ياشهيدَ وفائه ... ورجائه كذبَ النعيُّ وأرجفا
ما أنتَ بالرجل الذى يمسى وقد ... مُلىء الوجودُ به ويصبح قد عفا
انى اراكَ ولا تزال كعهدنا ... بك فى جهادك أواشد وأشعفا
ثابرْ على تلك العزائم ذائداً ... عن مصرَ تضربُ فى البلاد مطوّفا
أصدر صحائفك التى تحيي بها ... نضوَ الطريق وتدفع المتخلفا
تجرى بها الانهارُ وهى دوافقٌ ... هماً وتوشك ان تطمَّ فتجرفا
وتكاد أسطُرها تهبُّ نواطقاً ... ويكاد يعزفُ كلُّ حرفٍ معزفا
فاذا حنوتَ على الحمى متحبباً ... فهو النسيم وقد ذكا وتلطفا
وكأنما الالفاظ مما خففت ... نقش المدادُ رسومها وتخففا
تستامُ من أثوابها أرواحُها ... وتعاف تحليةً لئلا تكشفا
قم للخطابة فى المجامع وامتلك ... تلك النفوس مروّعاً ومشنفا
أعد القديمَ من الممالك والقرى ... ذكرى وعرّفنا الحياة لنعرفا
شدّد عزائمنا وقاتلْ ضعفنا ... حتى نبيتَ ولا نرى متخوّفا
ما هذه الآياتُ يرمى لفظُها ... شرراً وتهوى الشهبُ فيها احرفا
ماذلك الترصيعُ ليس مرصّعاً ... ما ذلك التفويفُ ليس مفوّفا
وحيٌ بأجنحةٍ اذا ما أطلقتْ ... هبطت رواسب عنه والمغزى طفا

تحيي حرارتها ويهدي نورها ... متماهلَ الاشراق أو متخطفا
تالله ما انتَ الخطيبُ وانما ... وقَفَ القضاءُ من المنصّة موقفا
عن نطقه تقعُ الصروفُ مواعظاً ... وكأمره أمرُ الزمان مصرَّفا
ياحبذا لو كلُّ ذاك لم يَزلْ ... لكنه حلمٌ مضى مستطرفا
والآن نحن لدى ثراك نحجه ... متلهبين تشوقا وتشوفا
نُثني وهل يوفي ثناؤك حقه ... وبأي الفاظ المحامد يُكتفى
ماذا يعيضك من شبابك نظمنا ... فيكَ الرثاءَ منسّقا ومصفّفا
ويُعيض منك وكنت جوهرة الحمى ... صوغُ الكلام مرصّعاً ومزخرفا
يا أخلصَ الخلصاء أبكى بُعدَه ... كبكاء مصر تحرُّقاً وتلهفا
هذا مثالك لاح يرعانا وقد ... كشف الجوى عنه الحجاب فأشرفا
جاد المثالُ برسمه تاجاً له ... وكستهُ ناسجةُ الطهارة مُطرَفا
يامن رماهُ عُداتُه بتطرّف ... حققتَ آمالَ الهُدى متطرّفا
كهواك للأوطان فليكنِ الهوى ... لا مفترىً فيه ولا متكلّفا
يجري على قَدرِ المطالب نامياً ... ويجلُّ في مجراهُ عن أن يصدفا
انشأتَ من مصرِ الشتات بفضله ... مصرَ الفتاةَ حمىً يُعزُّ ومألفا
احدثتِ فيها أمةً أندى يداً ... للصالحات وبالعظائم أكلفا
عرّفتَ أهليها حقيقةَ قدرِهم ... وكفاهمُ من قدرهم أن يُعرَفا
نفحاتُ روحك خامرتْ أرواحهم ... فهم مرامُك ساءَ دهرٌ أو صفا
حصنٌ أشمُّ تساندت أجزاؤه ... عِلماً وأمّنهُ النُّهى أن ينسفا
فارقُدْ رُقادك إنَّ ربّك قد محا ... بك ذنبَ مصر كما رجوتَ وقد عفا

***


احرار في بلادنا كرما لضيوفنا
تمثال مصطفى كامل باشا

تمثال مصطفى كامل

اتجهت الافكار منذ وفاة مصطفى الى اقامة تمثال له تقديراً لجهاد مؤسس الحركة الوطنية ، وبدأ الكثيرون بالاكتتاب للتمثال قبل أن تتألف لجنة لاقامته، وقد قدرت الأمة على اختلاف أحزابها فضل الزعيم ، فاتجهت الفكرة الى جعل المشروع قوميا لايختص به حزب من الأحزاب ؛لأن مصطفى كامل كان زعيم حركة قومية لازعيم حزب فحسب

فتألفت لجنة لاقامة تمثاله واجتمعت فى ١٦ فبراير سنة ١٩٠٨ برآسة اسماعيل باشا صبرى الشاعر الكبير ؛ومن أعضائها محمد بك فريد . والدكتور محمد علوى باشا. وحسن بك عبدالرازق . (باشا) ومحمود بك أبو النصر . وعلى بك فهمى كامل.ومرقس حنا بك (باشا) . والأستاذ ويصا واصف . واحمد بك لطفى السيد (باشا).ويوسف صديق بك(باشا) .والياس بك عوض (باشا) وفؤاد بك سليم (باشا). وعبد العزيز فهمى بك(باشا) . .وعمر بك سلطان (باشا).واحمد بك عبد اللطيف المحامى الشهير ، وأخذت فى جمع الاكتتابات للتمثال

وعهد فريد بك نيابة عن اللجنة الى المسيو سافين المثال الفرنسى الشهير بباريس صنع التمثال من البرونز ،فأتمه فى ابريل سنة ١٩١٠ وعرضه فى معرض الفنون الجميلة بباريس فحاز الاستحسان العام ؛ وهو يمثل الفقيد واقفا يخطب مشيرا بيده اليمنى ومرتكزا باليسرى الى تمثال لأبى الهول كأنه يوقظه؛ وعلى القاعدة صورة من البرونز تمثل مصر منصتة الى الخطيب تشير بيدها اليمنى كأنها تطلب من العالم أن ينصت اليه مثلها ، والصورة والتمثال آية فى الفن والجمال

ويبلغ ارتفاع التمثال دون قاعدته مترين وثمانين سنتيمترا ،ويبلغ مع القاعدة ستة أمتار وستين سنتيمترا ، وقد بلغت تكاليف صنعه ونقله ٢١٢٠ جنيه (عشرين ومائة والفى جنيه)

وجاء التمثال الى القاهرة فى يناير سنة ١٩١٤ على عهد وزارة محمد سعيد باشا

وطلبت اللجنة من الحكومة تخصيص ميدان من الميادين العامة لاقامة التمثال ، ولكن الحكومة صمت آذانها عن تلبية نداء اللجنة ، وظل التمثال سجينا فى مدرسة مصطفى كامل مدة أربع وعشرين سنة ، حتى اقتضت ارادة جلالة الملك العادل فاروق الأول حفظه الله الافراج عنه واقامته فى ميدان عام من ميادين العاصمة ، فقرر مجلس الوزراء بجلسة أول سبتمبر سنة ١٩٣٨ تنفيذاً للرغبة الملكية السامية اقامة التمثال فى ميدان الملكة فريدة (العتبة الخضراء سابقا) ، وكان لهذا القرار رنة استحسان عام فى ارجاء البلاد ، وابتهل الجميع بالدعاء لجلالة الملك على أن تم على يديه هذا العمل الجليل

الفصل السادس عشر

الخديو عباس الثانى

ان تاريخ مصر السياسى فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى له ارتباط وثيق بتاريخها الوطنى فى عهد مصطفى كامل ، لذلك كان لزاما علينا أن نفرد فصلا للخديو عباس ، يكون بمثابة صفحة من تاريخ مصر السياسى فى ذلك العهد حتى سنة ١٩٠٨ حيث ينتهى هذا الكتاب (١)

نشأة الخديو عباس الثانى

هو ابن الخديو توفيق باشا البكر ، ولد فى ١٤ يوليه سنة ١٨٧٤ ، وكانت ولايته الخديوية يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٢ ، وهو اليوم التالى لوفاة توفيق باشا ، فلم يكن قد بلغ الثامنة عشرة الميلادية حين ولايته الاريكة الخديوية ، وكان قد بلغها بالحساب الهجرى

ارتقاؤه العرش

وقد بلغه نبأ وفاة والده وهو فى (فيينا) عاصمة النمسا حيث كان يتلقى العلم فى كلية (الترزيانوم) التى كان يؤمها أبناء الملوك والامراء ، فبادر بالعودة الى مصر ، واتخذت انجلترا من حداثة سنه ذريعة لتسويغ بقاء الاحتلال ، كما اتخذت من كل حادثة وكل سبب ذريعة الى ذلك ، فكتبت الديلى تلغراف تقول : « لقد أصبحت سلطتنا أكثر ضرورة فى الوقت الذى يجلس على العرش امير شاب غير مجرب » ، وقالت البول مول جازيت « ان ارتقاء الخديو الشاب عرش

---

(١) أما الحوادث التى وقعت بعد ذلك فموضعها فى كتاب (محمد فريد) ان شاء الله

مصر يجعل بقاء الاحتلال أكثر ضرورة من أى وقت مضى فلا يجوز منذ الآن الكلام عن الجلاء » وقالت الجلوب « ان وفاة توفيق قد هدم آخر حجة للجلاء »

وصل الخديو الى الاسكندرية ثم الى القاهرة يوم ١٦ يناير سنة ١٨٩٢ ، وأخذ يضطلع بمهام الاريكة الخديوية ، وكان مصطفى فهمى باشا رئيسا للوزارة منذ اواخر عهد الخديو توفيق ، فقدم استقالة الوزارة اتباعا للعرف الجارى عند تغيير ولى الأمر ، فأقر الخديو بقاءها وبدأ الخديو عباس عهده بالاستمساك بحقوق مصر ومعارضة السيطرة البريطانية

الحوادث المهمة فى عهده

أزمة فرمان سنة ١٨٩٢

تأخر ورود الفرمان السلطانى المنبىء بأسناد الخديوية المصرية الى عباس الثانى ، وراجت الاشاعات المختلفة عن أسباب تأخيره ، ثم تبين أن تركيا رغبت فى تعديل الحدود بينها وبين مصر من جهة طور سيناء ، ودارت المفاوضات بينهما فى هذا الصدد قبل تحرير الفرمان ، على أن تتخلى مصر عن العقبة لتركيا ، اذ كانت فى الأصل تابعة لولاية الحجاز وانما أعارتها تركيا لمصر فى عهد اسماعيل ورخصت لها بوضع حاميات من الجند فى (الوجه) والمويلح وضبا والعقبة وشبه جزيرة طورسيناء لتأمين المحمل والحجاج بطريق البر ، وقد استعادت تركيا الوجه وضبا والمويلح ، ثم أرادت استعادة العقبة ، فقبل الخديو ذلك ، وأراد بهذا التساهل أن لايوجد بينه وبين تركيا خلافا فى بداية عهده ، مما قد يستفيد منه الاحتلال ، فانفرجت أزمة الفرمان مؤقتا ، وجاءت الأنباء من الاستانة بان السلطان قد أعد الفرمان وعهد بالمشير احمد ايوب باشا أن يحضر به الى مصر

وصل المندوب السلطانى الى الاسكندرية ومنها الى القاهرة يوم الاثنين ٤ ابريل سنة ١٨٩٢ ، أى بعد اكثر من شهرين من ولاية الخديو ، ولكن

لم يحل مجيئه الأزمة، بل تطورت الى شكل أشد ، وتأخرت بسببها تلاوة الفرمان ، وذلك ان الحكومة البريطانية علمت بأنه قد وضع فى صيغة تدل على رغبة تركيا فى استرداد شبه جزيرة سيناء كلها ، ولم يكن السفير البريطانى فى الاستانة قد اطلع على صيغة الفرمان ، فلما علم بها أبرق الى اللورد سالسبرى رئيس الوزارة الانجليزية بفحواها ، وأرسل هذا برقية الى السير افلن بارنج (اللورد كرومر) بالمعارضة فى تلاوة الفرمان حتى تصدر ارادة سلطانية بترك ادارة شبه جزيرة سيناء الى مصر ، فوقعت لذلك أزمة خطيرة ، وتدخل السير بارنج فى الأمر، وبعث الى تيجران باشا وزير خارجية مصر فى ذلك الحين بخطاب بتاريخ ١١ ابريل يبلغه فيه صورة الفرمان وينهى اليه أنه يختلف عن الفرمان الصادر الى توفيق باشا ، اذ كان يتضمن اسناد خديوية مصر اليه طبقا لحدودها القديمة مع ملحقاتها (وهـذه الملحقات تشمل شبه جزيرة سيناء) ، أما فرمان الخديو عباس فانه يعين املاك مصر طبقا لحدودها القديمة المذكورة فى الفرمان الصادر الى محمد على باشا والخريطة الملحقة به والاراضى التى الحقت بها بموجب الفرمان الصادر فى ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٨١ أى قبل أن تعهد الى مصر بادارة شبه جزيرة سيناء ، ولفت اللورد كرومر نظر تيجران باشا الى هـذا التناقض وانهى اليه انه مكلف بابلاغه ذلك تنفيذاً لتعليمات وزارة الخارجية البريطانية ، وسأله اذا لم يكن وصل تفسير لذلك من الباب العالى الى الحكومة المصرية

ولما بلغ تركيا تشدد انجلترا فى هـذا الصدد صدرت ارادة سلطانية باسناد ادارة شبه جزيرة سيناء الى الخديو، فانفرجت الأزمة وأرسـل تيجران باشا فى ١٣ ابريل الى السير بارنج يبلغه أن الحكومة المصرية تلقت من الصدر الأعظم رسالة تلغرافية بتاريخ ٨ ابريل يبلغها فيه الارادة السلطانية بترك ادارة شبه جزيرة سيناء الى الخديو كما كانت لاسلافه من قبل ، فرد عليه السير بارنج بأنه قد احيط علما بفحوى الارادة السلطانية ، وانه بناء على ذلك تستمر شبه

جزيرة سيناء كما يحدها الخط الممتد من شرقى العريش الى رأس خليج العقبة تحت ادارة مصر ، على أن تكون طابية العقبة الواقعة شرقى الخط المذكور من ملحقات ولاية الحجاز ؛ وان حكومة جلالة الملكة قد بلغت الباب العالى قبولها ذلك ، وبناء عليه يبلغه بقبول التحديد المذكور والاضافة اللذين حصلا بمقتضى تلغراف الصدر الأعظم المؤرخ فى ٨ ابريل الذى تعتبره الحكومة البريطانية ملحقا وجزءاً من الفرمان ، وانه ليس لديها معارضة فى اعلانه رسميا باضافة التلغراف المذكور اليه ، وعلى ذلك تلى الفرمان مع الارادة السلطانية المصححة له يوم الخميس ١٤ ابريل بسراى عابدين ، وبهذا انتهت أزمة فرمان سنة ١٨٩٢

أزمة اقالة الوزارة الفهمية

يناير سنة ١٨٩٣

كان مصطفى فهمى باشا يتولى رآسة الوزارة كما أسلفنا حين ولى عباس الثانى الحكم ؛ وهى وزارة موالية وخاضعة للنفوذ الانجليزى خضوعاً تاما ، فلم يكن مصطفى فهمى يصدر فى أى شأن من شؤون الحكومة الا عن ارادة اللورد كرومر ، كما أن الموظفين البريطانيين كانوا اصحاب الحول والطول فى الوزارات ، وقد ظهر ولاء مصطفى فهمى للانجليز فى محاولته اقصاء الخديو الجديد عن كل سلطة ، فكأن الخديو الحقيقى هو المعتمد البريطانى

ساءت هذه السياسة الخديو عباس ، ووجد من ميول مصطفى فهمى الانجليزية مايجعل تعاونه معه مستحيلا ، واحتمل بقاءه على رأس الوزارة سنة ، ثم لم يطق عليه صبرا ، واعتزم اقصاءه عن منصبه ؛ فأوفد اليه يوم ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ محمود شكرى باشا رئيس الديوان التركى وأبلغه رغبته فى أن يستقيل مراعاة لصحته (وقد كان مريضا حقا ولكن فى دور النقاهة) ، فاجاب الرسول انه

سيفكر فى الأمر ، وأن الأوفق لسموه أن يستشير فى ذلك اللورد كرومر [1] ، فلم يكن من الخديو الا أن أرسل اليه على الفور كتابا باقالته. لاعتلال صحته ، وعهد فى اليوم نفسه الى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية الاسبق تأليف الوزارة الجديدة ، فألفها فى اليوم ذاته على النحو الآتى :

حسين فخرى باشا للرآسة والداخلية . احمد مظلوم باشا سر تشريفاتى الخديو للحقانية . بطرس باشا غالى للمالية . وبقى تيجران باشا للخارجية . ومحمد زكى باشا للاشغال والمعارف . ويوسف شهدى باشا للحربية كما كانوا فى الوزارة الفهمية ، وهى أول وزارة تألفت فى عهد الخديو عباس لأن وزارة مصطفى فهمى باشا كانت مؤلفة فى أواخر عهد الخديو توفيق ثم أقرها عباس عند ولايته الحكم .

كان لهذا التبديل دوى كبير فى مصر وفى الدوائر الأجنبية ، وبخاصة الانجليزية ، لأنه تم من غير استشارة اللورد كرومر واطلاعه ، واكتفى الخديو بابلاغه نبأ تأليف الوزارة بعد أن تم تعيينها فعلا ، وقد قوبل هذا الانقلاب من المصريين بابتهاج كبير ، إذ كان مصطفى فهمى باشا بغيضا الى الأمة لمالأته الاحتلال ، وأثار ثائرة اللورد كرومر ، لأنه كان يعتمد على خضوع مصطفى فهمى واخلاصه للاحتلال ، فى حين انه لم يكن يظن فى حسين فخرى باشا هذه الميول ، وقد رأى من ناحية أخرى انه لم يؤخذ رأيه فى هذا التبديل ، وان هذا يعد خروجا على الحماية المقنعة التى ضربتها انجلترا على مصر ، وعلى التقاليد المتبعة فى عهد الخديو توفيق ، فقابل الخديو واعترض على هذا التبديل ، وأبرق الى اللورد روزبرى وزير خارجية انجلترا بما وقع وطلب تعليماته فى هذا الصدد ، وفى انتظار هذه التعليمات أمر الموظفين البريطانيين فى الحكومة بعدم الاعتراف بالوزارة الجديدة وعدم التعاون معها

ولما تلقى اللورد كرومر تعليمات حكومته توجه يوم ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ إلى

---

(١) حديث محمود شكرى باشا فى المؤيد ـ عدد ٢ ابريل سنة ١٨٩٣

سراى عابدين ، وقابل الخديو وأبلغه صورة برقية وردت اليه من وزير الخارجية بأن الحكومة البريطانية تعارض فى تعيين نخرى باشا ، وتطالب بحقها فى الرقابة على اختيار الوزراء المصريين طبقا لتلغراف اللورد جرانفيل المؤرخ فى ٤ يناير سنة ١٨٨٤ ، وبأنه فى حالة امتناع الخديو عن العمل بنصائحكم «فعليه أن يحتمل أخطر العواقب»

فأجاب الخديو بأنه يستعمل حقه فى اختيار وزرائه ، ولا يحق لأحد أن ينازعه فى هذا الحق الذى يستعمله لمصلحة البلاد ، فأجابه اللورد كرومر متوعداً، وحذره عواقب مقاومة انجلترا ، وانه فى هذه الحالة يجازف بسلطته وبشخصه ، وانصرف بعد أن حدد للخديو مدة أربع وعشرين ساعة ليتدبر الأمر

وقد بدا التناقض واضحا جلياً فى موقف الاحتلال بإزاء الخديو ، إذ أن انجلترا كانت تسوغ احتلالها بدعوى المحافظة على حقوقه ، ثم ها هى تفتات على أساس سلطته، أى على حقه فى اختيار وزرائه وتفرض عليه الوزراء الذين تريدهم، وكان هذا الموقف تحديا صريحاً لحقوق الخديو واعتداء صارخاً على استقلال مصر وعلى المعاهدات التى كانت تحدد مركزها الدولى ، وبدت خطورة الأزمة حينما استفاضت الأنباء عن مقابلة اللورد كرومر للخديو وعن البرقية التى أبلغه اياها، فاستدعى الخديو رياض باشا ثم نوبار باشا وقابلهما على انفراد ، وكذلك قابل بعض معتمدى الدول الأجنبية ، وذهب تيجران باشا وبطرس باشا غالى الى الوكالة البريطانية وقابلا اللورد كرومر للوصول الى حل للازمة

وقد طلب اللورد كرومر فى بداية الأمر اقالة وزارة نخرى باشا وارجاع مصطفى فهمى باشا ، فرفض الخديو هذا الشرط ، وانتهت الأزمة بحل وسط اتفق عليه الطرفان، إذ استقال نخرى باشا وقبل الخديو استقالته ، على أن يعهد الى رياض باشا تأليف الوزارة الجديدة وأن يقدم الخديو بلاغا الى اللورد كرومر وضع هذا صيغته ، يبدى فيه رغبته فى أن يوجه عنايته لايجاد أصدق العلاقات الودية

مع الحكومة البريطانية وأن يتبع فى المستقبل نصائحها فى المسائل المهمة ، وقد بقى أمر هذا البلاغ مكتوما الى أن انفرجت الأزمة

تأليف وزارة رياض باشا

وعلى ذلك تألفت وزارة رياض باشا فى ١٩ يناير على النحو الآتى : رياض باشا للرياسة والداخلية . محمد زكى باشا للاشغال والمعارف . يوسف شهدى باشا للحربية . تيجران باشا للخارجية . بطرس باشا غالى للمالية . أحمد مظلوم باشا للحقانية

شعور الأمة ازاء هذه الأزمة

كان موقف الخديو فى هذه الأزمة موقفا مشرفا ، إذ لم يقبل بقاء وزارة عرفت بالخضوع والولاء لارادة الاحتلال وتنفيذ سياسته ، فأقالها واستعمل حقه الشرعى فى تعيين وزارة يرى فيها الاستقلال عن النفوذ البريطانى ؛ فلا غرو أن أثار موقفه حماسة الشعب وتأييده والتفافه حوله . وقد بدا هذا الشعور أثناء اشتداد الأزمة حين ذهب الخديو من سراى القبة الى سراى عابدين فى صبيحة يوم الأربعاء ١٨ يناير سنة ١٨٩٣ ، فأقبلت وفود الأمة من الامراء والعلماء والاشراف وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وقضاة محكمة الاستئناف والمحاكم الابتدائية وكبار الموظفين والاعيان والتجار من العاصمة والاقاليم ، جاءوا مدفوعين بشعورهم لتأييد الخديو فى موقفه ، وقد غصت بهم السراى واستقبلهم الخديو طائفة بعد طائفة ، فكان يسمع منهم عبارات التأييد ويشكرهم على عواطفهم ؛ ومما قاله لرجال القضاء انه يدافع عن الحقوق الشرعية للبلاد لا لشخصه وانه لم يعمل غير الواجب عليه ، واستمرت المقابلات منذ الصباح حتى الساعة الثانية بعد الظهر [1] ، فكانت مظاهرة رائعة من الأمة ، وتلقى الخديو المئات من برقيات التأييد والتهنئة من مختلف ارجاء القطر

---

(١) المؤيد عدد ١٨ يناير سنة ١٨٩٣

وفى يوم الجمعة ٢٠ يناير — وكانت الازمة قد انتهت بتأليف وزارة رياض باشا — أدى الخديو فريضة الجمعة فى مسجد الحسين رضى الله عنه ، فاستقبله الشعب بالحماسة والتهليل واجتمعت الألوف فى المسجد وعلى جانبى الطريق من السكة الجديدة الى الموسكى الى الأزبكية وهتفوا له الهتافات العالية فى المسجد وعلى طول الطريق ، وألف طلبة المدارس العالية مظاهرة [1] هتفوا فيها له وأيدوه فى موقفه ، ثم هاجموا ادارة جريدة المقطم لنزعتها الاحتلالية وانحيازها الى اللورد كرومر فى الازمة

وفى مساء السبت ٢١ يناير حضر الخديو تمثيل رواية (عايدة) فى الاوبرا ، فكانت أيضا مظاهرة رائعة له اشترك فيها الوطنيون والاجانب من النظارة ، إذ وقف الجميع حين دخل اللوج الخديوى وصدحت الموسيقى بالسلام وهتفوا له هتافا عاليا ودوى المكان بالتصفيق المتواصل ، فاجابتهم الموسيقى بالسلام الخديوى ، مثنى وثلاث ورباع ، وكلما عزفت زاد الهتاف والتصفيق طالبين اعادة السلام الخديوى حتى أشار الخديو اليهم بالجلوس ، وظلت وفود الاعيان والمهنئين ترد الى سراى عابدين لتهنئة الخديو وتأييده [2]

موقف الدول

ذاعت أنباء الأزمة فى اوروبا ، ولكن الدول الأوروبية قابلتها بالجمود وعدم الاكتراث ، واحتجت تركيا على هذا التداخل ، فاجابت الحكومة الانجليزية بان اللورد كرومر لايقصد التعدى على حقوق الخديو وان اسناد رآسة الوزارة الى رياض باشا يعتبر حلا نهائيا للأزمة ، واستفسرت الحكومة الفرنسية من الحكومة الانجليزية عن موقف اللورد كرومر تجاه التغيير الوزارى ، فاجابتها بانه من الواجب مراعاة رأيها فى تعيين رئيس الوزراء ، على أن الصحف الفرنسية قد ناصرت مصر فى هذه الأزمة وحملت على الحكومة الانجليزية

---

(١) هى المظاهرة التى أسلفنا الكلام عنها بالفصل الثانى ص ٢٨

(٢) المؤيد عدد ٢١ يناير سنة ١٨٩٣

أما الصحف الانجليزية فكانت تحمل على الخديو حملات شديدة لاقالته وزارة مصطفى فهمى باشا ووصفت هذا العمل بانه اهانة لممثل انجلترا فى مصر ، وقد زادت انجلترا بعد هذه الحادثة عدد جيش الاحتلال فى مصر اجابة لطلب اللورد كرومر وتأييداً لموقفه

أزمة الحدود سنة ١٨٩٤

لم تـكد تنتهى أزمة اقالة الوزارة الفهمية حتى ظهرت أزمة أخرى أبلغ فى الدلالة على الضغط الانجليزى ، ونعنى بها أزمة الحدود ، وبيانها أن الخديو كان منذ تولى العرش شديد العناية بأمر الجيش ، وكان كثيرا ما يرتدى الشوار العسكرى كأحد ضباط الفرق ويمر على وحدات الجيش وقت التعليم وفى المناورات ، ويعنى بحالة الجنود والضباط ونظامهم وتعليمهم ومعيشتهم ويوجه عنايته الى تدريب الجند وتلاميذ المدرسة الحربية ، فتعلقت به قلوبهم ، فنقم الضباط الانجليز من الخديو هـذه الخطة ، وتألفت منهم لجنة برآسة السردار (اللورد كتشنر) ، وعرضوا شكواهم على اللورد كرومر المعتمد البريطانى ، فأضمروا انتهاز أقرب فرصة لاذلال الخديو والنيل من مهابته أمام الجيش ، لـكى تعود لهم السيطرة الـكاملة عليه ، وقد رأوا فى حادثة الحدود الفرصة المرتقبة لتنفيذ وعيدهم ، ذلك أن الخديو اعتزم السياحة بطريق النيل فى الوجه القبلى فى شتاء سنة ١٨٩٣ـ٩٤ ، وبدأ الرحلة يوم ٩ يناير سنة ١٨٩٤ ، فكان يقابل أينما توجه بحماسة الشعب وابتهاجه ، ووصل فى سياحته الى (وادى حلفا) يوم ١٨ يناير سنة ١٨٩٤ ، وهناك عرض فرقة من الجيش المصرى كان يتولى قيادتها ضابط بريطانى ، ولاحظ نقصا فى نظام الجنود وتدريبهم فأبدى ملاحظاته فى هذا الصدد الى وكيل وزارة الحربية وقتئذ (محمد ماهر باشا ، وكان يرافقه فى سياحته) ، وندد بالجيش ونظامه ، وذاعت هذه الملاحظة ، فثارت ثائرة اللورد كتشنر وعدها اهانة له ، وجعل منها أزمة تتعلق بالـكرامة الانجليزية ، فبادر بتقديم استقالته من منصبه ، وابلغ الأمر الى اللورد كرومر ، فاستشاط هذا

غضبا من مسلك الخديو ، وأرسل الى حكومته يستطلع رأيها فيما يجب عمله ، فكان جوابها أن يطلب من الخديو اصدار أمره بشكر السردار وامتداح الضباط الانجليز ، وابعاد ماهر باشا من منصبه ، ومعنى ذلك اعتذار الخديو عن ملاحظاته ؛ وقد اتخذت الصحف البريطانية لهجة التهديد والوعيد حيال هذه الحادثة، واعتبرتها أزمة خطيرة لايحلها الا الاعتذار ؛ وكان رياض باشا رئيسا للوزارة، فبادر الى نصح الخديو بالاعتذار والاذعان لمطالب الاحتلال ، وانتهت الحادثة بالتسليم ، وأصدر الخديو من مدينة الفيوم أمرا بمثابة خطاب الى السردار كتب باللغة الفرنسية ثم عرب ونشر فى الجريدة الرسمية ، هذا نصه :—

« مدينة الفيوم فى ٢٦ يناير سنة ١٨٩٤

« قبل أن أترك الوجه القبلى للعودة الى مصر اريد أن أكرر ما اظهرته من العناية وحسن الالتفات للجيش عند زيارتى الحدود واؤيد حسن رضائى الذى ابديته لكم من جهة حسن حالة الجيش ونظامه وانى لمسرور من أن اهنئ الضباط الذين يرأسونه مصريون كانوا أو انجليز وانى لمرتاح أيضا بان اقدر الخدمات التى أدتها الضباط الانجليز لجيشنا حق قدرها وأملنا أيها السردار أن تعلنوا أمرنا هذا للضباط والعساكر »

« عباس حلمى »

وبعد مدة وجيزة أبعد ماهر باشا عن وكالة الحربية وعين محافظا للقنال ، فتم بذلك اذعان الخديو لمطالب الانجليز فى هذه الأزمة ، وأصيب نفوذه بضربة شديدة من جراء تسليمه ، وفقد هيبته فى نفوس الجيش ، وأدرك الضباط والجند أن سلطة أى ضابط بريطانى اكبر من سلطة الخديو ؛ فكان لهذه الحادثة أثر سيئ فى حالة الجيش المعنوية، اذ شعر الضباط المصريون أن خضوعهم للسيطرة الانجليزية هو السبيل الى الترقى والاطمئنان على مراكزهم ، وتصدعت هيبة الخديو ؛ فلم يعد يرى فى الطوابير والمناورات الا قليلا

استقالة وزارة رياض باشا
وتأليف وزارة نوبار

اشتد الجفاء بين الخديو ورياض على أثر موقفه من أزمة الحدود ، واعتقد الخديو أنه لو وقف موقف الحزم والاخلاص له لما نصحه بهذا الاعتذار المهين ، وانتهى الأمر باستقالة رياض باشا وتأليف وزارة نوبار باشا فى ١٦ ابريل سنة ١٨٩٤ على النحو الآتى : نوبار باشا للرياسة والداخلية . مصطفى فهمى باشا للحربية والبحرية . حسين فخرى باشا للاشغال والمعارف . بطرس غالى باشا للخارجية . احمد مظلوم باشا للمالية . ابراهيم فؤاد باشا للحقانية

كانت هذه الوزارة ذات ميول انجليزية ، فكان أول عمل لها تعيين أول مستشار بريطانى لوزارة الداخلية ، اذ انشئ هذا المنصب بموجب المرسوم الصادر فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٤ واسند الى السير الدون جورست (الذى صار سنة ١٩٠٧ قنصل بريطانيا العام فى مصر بعد استقالة اللورد كرومر) ، وصار المستشار البريطانى صاحب الحول والسلطة فى الوزارة ، وعين مفتشون انجليز بوزارة الداخلية تضاءلت بجانبهم سلطة المديرين

وفى عهد هذه الوزارة صدر المرسوم الخديوى فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بانشاء المحكمة المخصوصة لمحاكمة من يتهم بالتعدى على ضباط جيش الاحتلال وجنوده ، وهى المحكمة التى كان لها الشأن الكبير فى حادثة دنشواى كما تقدم بيانه (ص ٢٠٠)

وزارة مصطفى فهمى باشا

الوزارة الطويلة : نوفمبر سنة ١٨٩٥ — نوفمبر سنة ١٩٠٨

ثم وقع الجفاء بين الخديو ونوبار على أثر موقف الأخير من مسألة رجوع

اسماعيل باشا الخديو الاسبق الى مصر ، فقد ساءت حالته الصحية فى اوائل سنة ١٨٩٥ وأرسل الى حفيده الخديو عباس لكى يأذن له بالعودة الى مصر مراعاة لصحته وشيخوخته ؛ وكان عباس يميل الى تحقيق هذه الرغبة ، ولكن وزارة نوبار وجدت أن رجوع اسماعيل من منفاه غير مرغوب فيه من جانب الاحتلال ؛ فرفضت الموافقة على عودته بحجة انها تخلق لمصر عقبات من جانب الدول التى اشتركت فى خلعه ؛ فأسرها عباس فى نفسه ؛ وأخذ المرض يلح على اسماعيل حتى توفى يوم ٢ مارس سنة ١٨٩٥ ، وقد رغب عباس فى أن يتخلص من وزارة نوبار فى تلك السنة ، ولكن نوبار كان مؤيدا من الاحتلال، فلم يفكر فى الاستقالة ، فأسرها عباس فى نفسه مرة أخرى ؛ وأخيراً توصل الى تنفيذ أمنيته فى اقصاء نوبار، بأن أعرب للورد كرومر عن رغبته فى اعادة مصطفى فهمى باشا المشهور بولائه للاحتلال الى رآسة الوزارة ؛ وكان الخديو قد أخذ من ذلك الحين يجنح لمسالمة الاحتلال ويختم عهد المقاومة والأزمات ، فلقيت الفكرة ارتياحاً فى نفس اللورد كرومر الذى كان لا يفتأ يترقب الفرص لعودة مصطفى فهمى الى رآسة الوزارة، لأن الانجليز لا ينسون صنائعهم ، فلما أحس نوبار بهذا الموقف قدم استقالته يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٥؛ وألف مصطفى فهمى باشا الوزارة الجديدة فى اليوم التالى واحتفظ ببقية الوزراء الذين كانوا مع نوبار، وأضاف اليهم محمد العبانى باشا وزير الحربية، فصارت مؤلفة كما يأتى: مصطفى فهمى باشا للرآسة والداخلية . حسين فخرى باشا للاشغال والمعارف . بطرس غالى باشا للخارجية . احمد مظلوم باشا للمالية . ابراهيم فؤاد باشا للحقانية . محمد العبانى باشا للحربية والبحرية ؛ وهى وزارة الاستسلام والولاء المطلق للانجليز ، وقد بقيت فى الحكم حتى نوفمبر سنة ١٩٠٨ ؛ أى انها دامت ثلاثة عشر عاما كانت كلها خضوعا وتسليما للاحتلال البريطانى ، وقد سميناها « الوزارة الطويلة » ، اذ كانت أطول الوزارات عمراً

أهم الحوادث فى عهدها

هى حلقات متصلة مترابطة من التسليم فى حقوق البلاد ومرافقها

فى سنة ١٨٩٧ طلب اللورد كرومر تعيين انجليزى نائبا عموميا بدلا من حمد الله بك أمين ، فأذعن مجلس الوزراء للأمر وعين المستر كوربت فى هذا المنصب الخطير ، وصارت سلطة النيابة وهيئتها تحت تصرف النائب العمومى الانجليزى ، كما كانت وزارة الحقانية تحت سيطرة المستر سكوت المستشار القضائى البريطانى

انشاء البنك الأهلى

وفى سنة ١٨٩٨ صدر المرسوم بتأسيس البنك الأهلى وأعطته الحكومة امتياز اصدار أوراق النقد المصرى ، فصار بمثابة بنك الحكومة ؛ وهو بنك أهلى شكلا وأجنبى فعلا ، ومؤسسوه وحملة أسهمه الأولى هم السير ارنست كاسل المالى الانجليزى الشهير ، والمسيو سلفاجو وشركاؤه ، والخواجه روفائيل سوارس واخوانه

بيع البواخر الخديوية

وفى تلك السنة ذاتها (سنة ١٨٩٨) عقدت الحكومة صفقة كانت وبالا وخسرانا على مصر ، ونعنى بها بيع البواخر الخديوية بأبخس الأثمان الى شركة (ألن والدرسن) الانجليزية

وبيان ذلك أنه كان للحكومة بواخر تعرف ببواخر مصلحة البوستة الخديوية ، عددها احدى عشرة باخرة كبيرة ، منها ثلاث بواخر اشترتها الحكومة حديثا من مصانع انجلترا وهذه البواخر هى : الشرقية . الدقهلية . الفيوم . المحلة . الرحمانية . شبين . توفيق ربانى . البرنس عباس . القاهرة . مصر . النجيلة ؛ وهذه البواخر كانت قوام الاسطول التجارى لمصر فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الاحمر ، والبقية الباقية للبحرية المصرية ، وكانت تنقل المسافرين والمتاجر بين مصر وثغور

هذين البحرين ، حاملة العلم المصرى ، مؤدية مهمتها فى بعث النشاط الاقتصادى والتجارى وبسط نفوذ مصر التجارى والبحرى فى هذين البحرين ، ويتبع هذه البواخر حوض الاسكندرية الكبير ، وحوض الاسكندرية الصغير ، وحوض السويس ، وهذه الاحواض معدة لاصلاح البواخر ، ويتبعها أيضا مستودعات المصلحة ومخازنها ومعاملها ومحلات الادارة والزوارق البخارية واللنشات ، وقد قدرت قيمة البواخر وهذه الملحقات جميعها بثلاثة ملايين جنيه ؛ فباعت الحكومة جميع هذه المنشآت الى شركة (ألن والدرسن) بثمن بخس ١٥٠٫٠٠٠ جنيه ، فكانت صفقة خاسرة من جميع الوجوه ، لأنها أضاعت على البلاد ثروة قومية ضخمة ليس من السهل أن تستردها ، وقضت على أسطولها التجارى الذى بذلت هذه الملايين فى سبيل انشائه وتكوينه ؛ وانطوت بذلك صفحة البحرية المصرية الى وقت طويل ، وقد تم البيع دون مزايدة أو اشهار ؛ بل حصلت المخابرة بشأنه فى الخفاء بين السير الوين بالمر المستشار المالى البريطانى للحكومة المصرية وشركة (الن والدرسن) الانجليزية ، وأقر مجلس الوزراء هذه الصفقة الخاسرة دون بحث أو تحقيق ، واكتفى بالبيانات التى أفضى بها اليه المستشار المالى ، ووقع على العقد احمد مظلوم باشا وزير المالية ، ومما يجدر ملاحظته لتقدير مبلغ الغبن الذى أصاب الحكومة من هذه الصفقة أن ثلاث بواخر من الاحدى عشرة باخرة المبيعة اشترتها الحكومة من مصانع انجلترا بـ ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه ، أى أن ثمن الصفقة كله أقل من ثمن هذه البواخر الثلاث ؛ وكانت علة الحكومة الظاهرة فى بيع هذه البواخر والمنشآت أن مصروفاتها تزيد عن ايراداتها ؛ وفضلا عن أن هذا ليس مسوغا لاضاعة ثروة البلاد القومية ، فقد ثبت من مراجعة حسابات المصلحة أن صافى ايرادها السنوى بعد جميع المصروفات هو ٢٢٫٠٠٠ جنيه ، فاذا لوحظ ان الحكومة تعهدت بان تعطى الشركة سنويا ستة آلاف جنيه فى السنة فيكون صافى ربح البواخر كله ٢٨٫٠٠٠ جنيه سنويا ؛ ويكون البيع قد

وقع بقيمة الربح مدة خمس سنوات تقريبا ؛ وهـذا أفظع مظهر للغبن الفاحش كان فى بيع هذه البواخر القضاء على الأسطول التجارى لمصر، بعد القضاء على اسطولها الحربى ، وظهر الفرق جليـاً بين حالتها فى عهد الاحتلال وحالتها فى عهد محمد على حين زارها الكاتب الايطالى (بنديتى) سنة ١٨٤٠ فراعه منظر السفن الحربية مصفوفة على أتم نظام فى ميناء الاسكندرية حيث قال فى وصفها :

« لما دخلنا الميناء الكبير مررنا بين قوات بحرية حربية تأخذ باللب وتذهل العقل ؛ وكان ضمن هذه القوات الاسطول العثمانى الذى استولت عليه مصر ؛ وفى يقيننا اننا لم نر ولا نظن اننا نرى فى المستقبل عـدداً من السفن الحربية يوازى ماشاهدناه على اختلاف الأنواع والاحجام ومنظما بمثل ذلك التنظيم البديع ، ومما زاد فى رواء المنظر وبهجته أن يوم وصولنا الى ثغر الاسكندرية كان يوافق عيداً من الأعياد الاسـلامية ؛ فألفينا تلك السفن كلها التى لاتقع تحت حصر رافعة أعلامها بشكل بديع ومنظر أنيق، تطلق مدافعها فى الفضاء ساعة الغروب ، فكأنها تودع الشمس وتحييها؛ فيجاوبها صدى الأفق بلسانها ، وصفوة القول ان المنظر كان من المناظر التى لامثيل لعظمتها »

بيع أملاك الدائرة السنية

وباعت الحكومة فى هذه السنة تفاتيش الدائرة السنية؛ وكانت أملاكها الزراعية تبلغ نحو ثلثمائة ألف فدان يتبعها تسع معامل كبيرة لعصير القصب وصناعة السكر ؛ باعتها الى شركة سوارس مقابل ثمن قدره ستة ملايين وأربعمائة ألف جنيه، وهو قيمة الدين الذى كان على الدائرة فى ذلك الحين، وكانت صفقة خاسرة لما فيها من الغبن الفاحش على الحكومة والربح الهائل للماليين الأجانب

الشروع فى بيع سكك حديد السودان

والظاهر أن سنة ١٨٩٨ كانت بمثابة سنة التصفية ، ففضلا عن انشاء البنك

الأهلى و بيع البواخر الخديوية والدائرة السنية ، شرع المستشار المالى البريطانى فى بيع سكك حديد الحكومة فى السودان الى شركة انجليزية، بحجة حاجة الحكومة الى المال لتدبير نفقات الحملة على السوادن ، فاعترض الخديو على هذا البيع ، ولما رأى اصرار اللورد كرومر على عقد الصفقة استنجد بتركيا بحجة أن هذه السكك الحديدية هى من أملاك مصر التى نص فرمان توليته على عدم جواز التصرف فيها أو التنازل عنها ، وأبرق الى سلطان تركيا يعرض عليه الأمر ويطلب منه النجدة ، فجاءه الرد بشكره واقراره على موقفه باعتبار أن السكك الحديدية أنشئت للجيش وان بيعها مخالف للسيادة التركية ، فتراجع اللورد كرومر وتقرر عدم البيع

حوادث السودان

وفى عهد وزارة مصطفى فهمى باشا حصلت التجريدة على السودان لاستعادته، وتم استرداده، ورفعت الراية البريطانية عليه، ثم أبرمت اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ مما نوجزه فيما يلى :

حملة دنقله سنة ١٨٩٦

بقيت الحكومة المصرية ملتزمة موقف الجمود حيال السودان، حتى تراءى للحكومة البريطانية سنة ١٨٩٦ استرداده بالاشتراك مع مصر ، فقررت الحملة على دنقله ،وأوعزت الى الحكومة المصرية تجريدها بقيادة اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى : ولم تكن الحكومة المصرية الا منفذة لارادة الحكومة البريطانية ، وقد بلغ بها الخضوع والاستسلام أن رئيس الوزارة لم يكن يعلم شيئا عن أمر هذه الحملة الا فى اليوم الذى ذهب فى مسائه الى الخديو وأخبره بأن اللورد كرومر أفضى اليه بان الحكومة الانجليزية قررت ارسال حملة الى السودان ، فلم يكن من الحكومة المصرية الا أن قررت فى اليوم التالى تجريد هذه الحملة

أقرت الحكومة المصرية فى ١٢ مارس سنة ١٨٩٦ الحملة على دنقله ،

وكانت حملة جدية منظمة، اذ حشدت على الحدود جيشا مؤلفا من ١٦٦٨٠ مقاتل منهم سبعمائة ضابط ، وهو مجموع الجيش المصرى اذ ذاك ، وأمدته بكل وسائل الزحف والتموين والنقل ؛ ولكنها حصرت الاعمال الرئيسية فى القواد والضباط الأنجليز ، فكان منهم قائد عموم الحملة (اللورد كتشنر [١]) ، ورئيس اركان الحرب ؛ ومدير قلم المخابرات ، وحكيمباشى التجريدة ، والحكيمباشى البيطرى، ومدير المهمات ، ومدير حملة النقل ؛ومدير سكة الحديد ، وأركان حرب التلغراف، وقواد الفرسان والطوبجية والهجانة والمشاة ، وقواد اللوآت جميعا

وكان اسناد القيادة العليا والاعمال الرئيسية على النحو المتقدم الى الأنجليز من الأسباب التى أفقدت الحملة حماسة الشعب ، اذ رأوا فيها مظهرا من مظاهر السيطرة البريطانية ، فقوبلت الحملة بالفتور ، وعدوها حلقة من سلسلة التدابير الأنجليزية ؛ بدأت بالاحتلال العسكرى سنة ١٨٨٢ ، ثم الغاء الجيش المصرى سنة ١٨٨٣ ؛وتغلغل الأنجليز فى شؤون الحكومة ، ثم اجبارها على اخلاء السودان سنة ١٨٨٤ ، وترك الثورة تستفحل فى نواحيه ؛ ثم اعتزام فتحه سنة ١٨٩٦ لحساب انجلترا بالاشتراك مع مصر ، وكان معروفا ان انجلترا لم توعز الى الحكومة المصرية بتجريد الحملة على السودان فى تلك السنة الا لتقاوم مشروع الفرنسيين فى الوصول الى أعالى النيل

وقد أبدى الجيش المصرى فى وقائع استعادة السودان من الشجاعة والكفاية والصبر واحتمال المشاق ماجعل تاريخ هذه الوقائع صفحة مشرفة لمصر ، وإن كانت ثمرتها قد استأثر بها الاحتلال

وأول عمل منهك قام به الجنود هو مد السكة الحديدية فى صحراء النوبة (انظر الخريطة ص ١١٩) ليتسنى للجيش أن يزحف ويحتفظ باتصاله بقواعده

---

(١) كان وقتئذ السر هربرت كتشنر، ونال لقب (لورد) بعد فتح الخرطوم سنة ١٨٩٨، وسمى لورد كتشنر أوف خرطوم

العسكرية ؛ وقد عانى الجنود المصريون ضروب المشاق والأهوال في اشتغالهم بانشاء السكة الحديدية في تلك الصحراء المقفرة ؛ اذ كانوا يعملون ابان القيظ الشديد ، وكثيرا ما كان يعوزهم الماء في شدة الحر ، فسقط منهم العشرات موتى من وطأة الحر وشدة ماعانوه من التعب والاعياء في الشمس المحرقة

واقعة فركه (٧ يونيه سنة ١٨٩٦)

كان أول عمل تمهيدى للحملة مد السكة الحديدية الى آبار (امبقول) بصحراء النوبة ، وقد كانت شراذم الدراويش تصل الى تلك الآبار وتحاول عرقلة العمل في مد السكة الحديدية. فاعتزم السردار اقصاءهم عن (فركه) [1] ، فزحف الجيش من (عكاشه) في ٦ يونيه وهاجم معسكر الدراويش في (فركا) فجر اليوم التالى (٧ يونيه) ، ودار قتال شديد انتهى باستيلاء الجيش على المعسكر وفر الدراويش جنوبا

وقد لاقى الجيش المصرى في هذه الحملة عناءً كبيراً من شدة الحر وهبوب الاعاصير في الصحراء ؛ وقطع المراحل الشاسعة ؛ ثم ظهور الكوليرا والحمى التيفودية في الجيش

واقعتا الحفير ودنقله (سبتمبر سنة ١٨٩٦)

وزحف الجيش برا وبطريق النيل حتى بلغ (الحفير) حيث كان الدراويش ممتنعين ؛ فأجلاهم عنها وعبر النيل في فجر يوم ٢٠ سبتمبر واحتل دنقله عاصمة المديرية يوم ٢٣ سبتمبر ، وتقدم الجيش فاحتل (الدبه) ثم (مروى) على النيل ، ودانت مديرية دنقله كلها للجيش المصرى ؛ وكان الأهلون يستقبلونه اينما حل بالترحيب والتهليل إذ رأوا من مظالم التعايشى وفساد حكومته ماجعلهم يتوقون الى رجوع الحكم المصرى

---

(١) بين وادى حلفا ودنقله

استرجاع (أبى حمد) و (بربر) ١٨٩٧ — ٩٨

استقرت الحملة فى دنقله حتى تمد السكة الحديدية ويتم تنظيم الحكم فى مديرية دنقله ، وقد عمل الجند فى مد الخط الحديدى الى (السكريمة) بحرى دنقله ليتفادى الجيش شلالات (المحس) و (سكوت) ، ثم مد خطا حديديا آخر من حلفا الى أبى حمد رأساً مخترقا صحراء النوبة ، وفى غضون ذلك استأنف الزحف ؛ فالتقى بالدراويش فى (المتمه) يوم أول يوليه سنة ١٨٩٧ إذ نشبت المعركة بينهما وانتهت بهزيمة الدراويش ، وهزم الدراويش أيضاً فى واقعة (أبى حمد) واحتل المصريون البلدة يوم ٧ اغسطس سنة ١٨٩٧ واسترجع الجيش المصرى (بربر) فى ٦ سبتمبر ثم (شندى) فى ٢٦ مارس سنة ١٨٩٨

واقعة عطبره (ابريل سنة ١٨٩٨)

وواصل الجيش المصرى الزحف فالتقى بجموع الدراويش فى (عطبره) قريباً من ملتقى نهر عطبره بالنيل يوم ٨ ابريل سنة ١٨٩٨ ، فهزمهم شر هزيمة وأسر قائدهم الأمير محمود ؛ و قتل منهم فى هذه الواقعة نحو ثلاثة آلاف قتيل وأسر منهم ألفان ؛ وكانت هذه المعركة ايذانا بسقوط دولة الدراويش

واقعة أم درمان واسترجاع الخرطوم (١ — ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨)

ثم شرع الجيش المصرى بعد واقعة عطبرة يستعد للزحف على الخرطوم فزاد السردار عمال السكة الحديدية ، ومدت من أبى حمد الى عطبره ، وجاءه مدد من الجند زاد به عدد الجيش فبلغ نحو ٢٥ ألف مقاتل ضم اليه نحو ألفى مقاتل من العربان الموالين للحكومة ، وبدأ الزحف فى اغسطس سنة ١٨٩٨ ، وما ان علم التعايشى (خليفة المهدى) بهذا الزحف حتى أخذ يستعد للقتال وحشد الجموع والمقاتلة فى أم درمان وأقام الطوابى للدفاع عنها فضلا عن الطوابى القديمة ، وكان عنده من المدافع التى غنمها الثوار من الجيش المصرى فى وقائع الثورة ٦٣ مدفعا ، وأمر بصنع الالغام لمقاومة وابورات الجيش فى النيل

وفى فجر أول سبتمبر سنة ١٨٩٨ زحف الجيش المصرى تصحبه البواخر النيلية على (أم درمان)، فتجاوز جبل (كررى) ظهر ذلك اليوم ووقف بمكان يدعى (العجيجه) على بعد نحو ثمانية أميال من أم درمان، ثم تقدمت البواخر والعربان الموالية للحكومة واستولوا على بعض الطوابى الأمامية للخرطوم، وسارت البواخر حتى وصلت الخرطوم فاستولت عليها عصر ذلك اليوم، وكان التعايشى ممتنعاً فى (أم درمان)، فأخذت بطاريات المدافع ترميها بالقنابل، وخرج التعايشى بجميع جيوشه من أم درمان لملاقاة المصريين غربى المدينة وكان معه من المقاتلة ٥١٧٨٩، منهم ٨٦ أميرا (قائداً) و ٥٤٩٥ فارساً و ١٤٣٠٠ راجلا مسلحين ببنادق الرمنتون التى غنموها فى المعارك السابقة، والباقون مسلحون بالسيوف والحراب، زحف بهذه الجموع لملاقاة الجيش المصرى يوم الجمعة ٢ سبتمبر، فوقعت المعركة المعروفة بواقعة (أم درمان)، إذ هجمت جموع التعايشى فى هيئة هلال على معسكر الجيش المصرى على شاطىء النيل، فكانت المدافع تحصدهم حصداً، وهم لا يهابون الموت، وانتهت الواقعة بهزيمة التعايشى، فتقدم الجيش المصرى واحتل أم درمان ظهر يوم ٢ سبتمبر، وبلغت خسائر الدراويش فى هذه الواقعة عشرة آلاف قتيل، والجرحى والأسرى مثل هذا العدد، أما خسائر الجيش المصرى فبلغت ٤٩٠ قتيلا وجريحا.

وقد فر التعايشى جنوبا بعد الواقعة واستقر فى جبل أبى قدير، فسارت اليه حملة بقيادة السير ونجت باشا وكيل السردار انتهت بقتله بواقعة (جديد) فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩، وبموته سلم البقية من أتباعه وتقلص ظل الفتنة المهدوية من السودان

رفع الراية البريطانية على السودان

وفى يوم الأحد ٤ سبتمبر، بعد واقعة أم درمان بيومين، عبر السردار النيل الى الخرطوم، ورفع الرايتين المصرية والانجليزية على اطلال سراى الحاكم العام، فقوبل رفع الراية الانجليزية على الخرطوم بالدهشة والسخط فى مصر ومن الضباط

المصريين فى السودان، إذ كان المفهوم أن السودان أرض مصرية وان استرداده كان لحساب مصر، وبجنودها وأموالها وجهودها. ولكن ولاء وزارة مصطفى فهمى باشا للاحتلال واستسلامها للغاصب جعل الانجليز يمعنون فى الاعتداء على حقوق مصر، فان رفع الراية الانجليزية على الخرطوم كان ايذانا بوضع السودان تحت الحماية البريطانية، ولم تحرك الوزارة ساكنا أمام هذا الحادث الجلل، بل مر كأنه حادث عادى

اتفاقية ٩ يناير سنة ١٨٩٩

وأعقب رفع الراية البريطانية على الخرطوم توقيع اتفاقية السودان فى ٩ يناير سنة ١٨٩٩، وقد سبق الكلام عنها فى الفصل الثامن (ص ١٢٩)، وتنفيذاً للاتفاقية عين اللورد كتشنر حاكماً عاماً للسودان، مع بقائه سرداراً للجيش المصرى، ثم تخلى عن منصبه سنة ١٨٩٩ حين اختارته حكومته لقيادة الجيش البريطانى فى حرب البوير، فصدر الأمر العالى بتعيين السير ريجنلد ونجت باشا سرداراً للجيش المصرى وحاكما عاما للسودان

تعديل الحدود بين مصر والسودان

وتنفيذاً لاتفاقية السودان أصدرت الحكومة المصرية قراراً فى ٢٦ مارس سنة ١٨٩٩ بتوقيع وزير الداخلية (مصطفى فهمى باشا) جعل نهاية الحدود بين مصر والسودان خطا يمتد غربى النيل على مسافة ٢٠٠ متر شمالى البربة الكائنة بناحية (فرص) وشرقى النيل الى البربة الكائنة بناحية (ادندان)، ووضعت هناك علامتان مكتوب على وجهة كل منهما الشمالية (مصر) والجنوبية (السودان)

تمرد فى الجيش المصرى

وفى يناير سنة ١٩٠٠ حصل تمرد فى فرقتين بالجيش المصرى فى السودان على أثر صدور أمر نائب الحاكم العام بتجريد الجيش من سلاحه وذخيرته، فأبت الفرقتان اطاعة هذا الأمر لما فيه من الامتهان لكرامتهما وعدم الثقة فى الجيش، وقد سجن الضباط المتهمون بالتحريض على التمرد وأحيلوا الى مجلس تحقيق

لمحاكمتهم وانتهت المحاكمة بطرد سبعة من الضباط من خدمة الجيش وهم اليوزباشى محمود افندى مختار . واليوزباشى حسن افندى لبيب . والملازمون الأول مصطفى افندى لطفى . وصالح افندى زكى . ومحمد افندى توفيق يوسف . والملازمان الثانيان عبد الحميد افندى شكرى . وادريس افندى عبد الله . واحالة اليوزباشى محمود افندى حلمى الى المعاش . والملازم الثانى احمد افندى شاكر (بك) الى الاستيداع . وتوبيخ الملازمين الثانيين عثمان افندى عارف (بك) ومصطفى افندى محمود الشامى (١)

وقد استحضرهم الخديو وعنفهم على وقع منهم ؛ وأبدى تأييده للسردار ونجت باشا

زيارة الخديو للسودان

وفى أواخر سنة ١٩٠١ زار الخديو السودان فوصل الخرطوم فى ٣ ديسمبر، واستقبل استقبالا رسميا حافلا، وأقيمت له حفلة ترحيب أمام سراى الحاكم العام حضرها كبار الضباط والموظفين ونخبة علماء البلاد وأعيانها ، وألقى السير ريجنلد ونجت باشا سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام خطبة ترحيب بمقدم الخديو، فرد عليه بالخطبة الآتية :

« انى أشكر لكم الخطاب الذى حييتمونى به وأؤكد لكم بأنى أعد من أعظم مسراتى رؤيتى اياكم فى هذه البلاد الشاسعة التى قربتها مناسكة الحديد العجيبة التى ملأتنى ارتياحا وابتهاجا

« الآن وقد رأيت هذه البلاد عرفت الصعوبات والمشقات التى لاقاها من كانت لهم يد فى الحملات التى كانت نتيجتها محو سلطة عبد الله التعايشى واعادة العدل والراحة والسكون فى جميع انحاء السودان

« العلمان الانكليزى والمصرى اللذان يخفقان الواحد بجانب الآخر هما اشارة الى الحكومة المشتركة التى أخذت على عاتقها حماية الأهالى من الوقوع

---

(١) تلقينا هذا البيان من حضرة الميرالاى محمود بك حلمى اسماعيل فله منا جزيل الشكر

محى شرك أهل الظلم والفساد ، وابتداء عصر هدوء وسعادة فى هذه الديار ، ولقد سرنى أيضا ما أشاهده من تقدم مدينة الخرطوم فى العمران ، واعتقدوا انى سأحفظ لكم أحسن ذكرى لاحتفائكم بى فى هذه الزيارة الأولى ، وإنى ليشملنى السرور كلما سمعت بتحسين أحوالكم وتقدمكم فى الرفاهية التى أرى شواهدها بدت فى كل الأرجاء ، هذا وإنى أنعم الآن بكل ارتياح ببعض النياشين على بعض كبار علماء الدين وسأنعم بها فيما بعد على الضباط والموظفين والأهالى الذين يعرض لى عنهم سعادة السردار والحاكم العام بناءً على التقارير السنوية التى ترد له من المديريات ، ثم أكرر شكرى لاحتفائكم بى احتفاءً صادراً عن حسن نية وخلوص طوية »

وتعد الخطبة فى مجموعها اقراراً لاتفاقية السودان ولنظام الحكم المشترك الذى قضت به ؛ وقد صعد الخديو فى النيل الأبيض ثم النيل الأزرق ؛ وعاد الى الخرطوم ، وبرحها الى مصر فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٠١

افتتاح سكة حديد بورسودان (يناير سنة ١٩٠٦)

بورسودان هو ثغر قائم على شاطئ البحر الأحمر على مقربة من سواكن ، وقد عمل الانجليز على انشائه لكى يكون ميناء السودان ؛ ويعرف قبلا باسم (الشيخ برغوث) ، وكان مرفأ صغيراً لا يصلح لايواء سفن الملاحة ، ثم زاره المستر وليم جارستن مستشار وزارة الاشغال واقترح جعله ثغر السودان بدلا من سواكن ، فأقرت الحكومة الانجليزية رأيه ، وأخذت حكومة السودان (بأموال مصر) تصلحه ، وشيدت فيه المبانى والمنشئات وأسمته (بورسودان) ، واحتفلت يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠٦ بافتتاح السكة الحديدية التى تصله بالنيل ، وكان الاحتفال برآسة اللورد كرومر معتمد انجلترا فى مصر ، ولم يحضره أحد عن الحكومة المصرية ؛ وقد ناب اللورد كرومر عن الخديو فى هذا الاحتفال ... ، فكانت الحفلة انجليزية محضة ، تجلت فيها السيطرة الانجليزية فى السودان واستبعدت فيها مصر وحكومتها بشكل مهين

الفصل السابع عشر
مصطفى كامل والخديو عباس

بدأت نشأة مصطفى كامل الوطنية عام ١٨٩٠ كما أسلفنا ، وتقع هذه السنة في أواخر عهد الخديو توفيق ، قبل وفاته بعامين ، فتاريخ هذه النشأة يدل على أنها غرس إلهام الفقيد وعبقريته ، اذ لم يكن في ذلك الحين عوامل أخرى تساعد على ظهورها ، ثم تولى عباس الثاني مسند الخديوية في يناير سنة ١٨٩٢ ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ، وقلبه مملوء آمالا كبارا في أن تسترد مصر استقلالها في عهده ، وساءه أن رأى الانجليز قد وضعوا أيديهم على وزارات الحكومة ومصالحها ، فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المشروع ، ورسم لنفسه في أول عهده بالحكم سياسة مقاومة التدخل البريطاني ، وفي الحق انها سياسة قومية ممدوحة ، تدل على ميول وطنية طيبة وشجاعة نادرة جعلته وقتا ما يغامر بعرشه

وجد الخديو عباس في مصطفى كامل الزعيم الوطني الشاب الذى استطاع على حداثة سنه أن يحمل علم الجهاد ، فأعجب بهذه الشخصية الفذة ، إذ وافقت ميوله وآماله في بداية حكمه ، وأمدها بالمال والتأييد وقتاً ما ، ومن هنا توثقت روابط الود والتعاون بين مصطفى كامل والخديو عباس في السنوات الأولى من حكمه ، ومن واجب المؤرخ المنصف أن يذكر هذه الحقيقة ، ويعدها مأثرة لعباس الثاني ، فانه قام من هذه الناحية بقسط محمود في تأييد الحركة الوطنية ، والملوك والأمراء في كثير من المواطن لهم فضل على النهضات القومية في مختلف نواحيها ، الوطنية والسياسية والاقتصادية ، أو العلمية والاجتماعية ، أو الأدبية والفنية

ساهم إذن الخديو عباس في الحركة الوطنية وقتاما بماله ونفوذه الأدبي ، على

أن العلاقة بينه وبين مصطفى كامل قد اعتراها الفتور بعد ذلك ، ثم التقاطع ، بسبب عدم ثبات الخديو على خطة واحدة ، واستماعه الى الوشايات والدسائس ، وكانت ميزة الفقيد أنه احتفظ باستقلاله وعلو نفسه تجاه الخديو ، ورأى في استقلال الحركة الوطنية عنه مايزيدها قوة وروعة ، كتب في هذا الصدد الى صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد ضمن كتاب له بتاريخ ٥ اغسطس سنة ١٨٩٨ يقول :

« باريس في ٥ اغسطس سنة ١٨٩٨

« أخي الأمجد الفريد أعزه الله

أقبلك ألف قبلة ، وأهديك أطيب تحية ، وصلني بالامس خطابك الكريم كما وصلني يوم الجمعة الماضية ماطلبته منك ، فلك الشكر مزدوجا ، شرف العزيز وسافر ، وتشرفت بمقابلته جملة مرات — هذا الخبر لك وحدك — وعلمت منه أمورا جمة سرتني للغاية ؛ وشرحت صدري ؛ وحققت لي أن الأمل ملء فؤاده ، وأن ليس لليأس عليه سلطان ؛ وسأقابله مرة أخرى في الشهر الآتي ، وقد قابل هنا وهناك كل ذي شأن وكل عظيم ، واستمال من لا يستمال ؛ فله منا الود والاخلاص والحب الحقيقي ؛ وانه لجدير بأن نتفانى في محبته ؛ ولم أكافه مدة وجوده ولم أطلب منه شيئا ، ولو أن سفري لألمانيا سيكلفني كثيرا كثيرا ، وذلك لأني لا أود أن اجعله يرتاب في إخلاصي الخالص له ؛ وسأبذل جهدي بعد عودتي للوطن المحبوب في أن ا كون مستقلا غاية الاستقلال لنزداد عنده مكانة ونفوذا »

وهذا الخطاب (الذي نشر نا صورته بالزنكجراف ص ٣٢٨) يلقي شيئا من الضوء على علاقة مصطفى كامل بالخديو ، ويدل على اخلاص الفقيد وإبائه وعلو نفسه ، وليس يخفى أن الخديو قد فترت صلته بالحركة الوطنية ، وتزعزت ثقته فيها بعد حادثة فاشودة ، وضعف أمله في الجلاء ، فأخذ في التحبب الى الاحتلال والنزول

(كتاب الفقيد الى فريد بك فى ٥ اغسطس سنة ١٨٩٨)

باريس في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨

أخي الأعز العزيز أعزه الله

اشكرك [illegible] واهديك أطيب تحية . وصلني [illegible] الكريم كما وصلني [illegible] [illegible] فلك الشكر [illegible]
[illegible] وسائر [illegible] وشرفت بمقالة [illegible] هذا [illegible]
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] وان ليس [illegible] على [illegible]
حتى أخرى في المستقبل الآن وقد قال هنا وهنا كل ذي شأن وكل
عظيم [illegible] خدمة الوطن [illegible] والحب الحقيقي [illegible]
[illegible] في محبة . ولم [illegible]
سفري لألمانيا سيكلفني كثيرا كثيرا . وذلك لأني لا أود [illegible]
[illegible] [illegible] بعد عودتي للوطن [illegible]
المستقبل لنزداد عنه مكافأة [illegible]
اخبرني عن أحوال المكتب وبلغ فائق سلامي لأخيك المحبوب ابراهيم
بك [illegible]

أرجوك زيارة المنزل كل يومين مرة وافادتي عن صحة العائلة جميعها
تقبل [illegible] ولا تقصر [illegible] أخبارك طالبا
دوام [illegible] أخي

كامل

على إرادته ؛ وبعدت الشقة تبعاً لذلك بينه وبين الفقيد ؛ على أن مصطفى كامل كان يرى بثاقب نظره أن لا يقع الانقسام بين الامة والخديو فيستفيد الاحتلال من هذا الانقسام ، كما استفاد من الخلاف الذى شجر بين توفيق باشا والعرابيين، لذلك كان يعمل دائما على ايجاد جو من التفاهم بين الخديو والامة ؛ ويدعو الى تعلق الأمة بالعرش ، على الرغم من اختلاف وجهتى نظرهما

قطع علاقته بالخديو

خطاب ٢٤ اكتوبر سنة ١٩٠٤

ثم جاء الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى ابريل سنة ١٩٠٤ ؛ وظهر انحياز الخديو بشكل واضح الى الاحتلال ، فرأى أن يقطع علاقته به ، وأعلن فى اللواء [1] أنه اعتزم الابتعاد عنه حتى لا يظن أحد أن عليه شيئا من المسئولية فى جهاده السياسى . قال فى هذا الصدد : « إن المخلص فى عمله يجب أن يؤدى الواجب عليه ولو ضحى فى سبيله مصلحته الذاتية وأعز ما تميل اليه نفسه » ، وقال :

« وانى لا أشك فى أن كل قارئ بل كل مصرى عرف خطتى وخبر مبادئى يدرك حقيقة مسعاى ومقصدى ، ويعلم أنى لم أطلب بذلك إلّا خدمة البلاد وعرش الخديوية بالثبات الذى لا تتغلب عليه الأيام والعقيدة الراسخة التى قد تتحول الجبال وهى لا تتحول »

وقال فى حديث له فى جريدة (البول مول جازيت) الانجليزية فى ديسمبر سنة ١٩٠٦ « لما رأيت رغبة سموه فى توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك الانجليز وحكومته ، وجدتُ من واجباتى أن أكون بعيداً عن سموه » [2]

---

(١) عدد ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٠٤

(٢) اللواء عدد ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٠٦

وقد أرسل عقب عودته من أوروبا سنة ١٩٠٤ الكتاب الآتى الى الخديو يصارحه فيه بموقفه حياله . قال :

« مولاى

« تشرفت فى ديفون بالمثول بين يدى سموكم يوم ٢٧ اغسطس الماضى (سنة ١٩٠٤) ورفعت الى مقامكم السامى أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى علىّ بأن أكون بعيداً عن فخامتكم ، وأن أتحمل وحدى مسئولية الخطة التى أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين ، منعا لتكدير خاطركم الشريف ، ودفعا لما عساه يقع من الخلاف والنزاع

« وقد رأيت يا مولاى بعد التفكير أنه صار من المحتم علىّ القيام بهذا الواجب ، وأنه أول عمل يلزمنى تأديته عقب عودتى الى الوطن العزيز ، لأن الانجليز أظهروا فى خلال السنوات الأخيرة من التضييق على جنابكم العالى ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم فى الصباح والمساء بجانب سموكم داعيا لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية وحجة لتدخل جديد غير محمود

«وانى بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع بمناسبة المقابلة التى تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى إياها ، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودى الذى نالته مدام جولييت آدم من لدنكم ؛ وتصريحهم بأن انجلترا لا تسمح لجنابكم العالى باكرام من يعاديها ؛ وادعاءهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم ، أعدّ نفسى مقصراً تقصيراً حقيقياً فى تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع إذا أبقيت صلتى بسموكم على حالها وفضلت نعمة التقرب منكم على القيام بواجب تدعو اليه الوطنية والسياسة

«وانى أرجو أن يعتقد مولاى حفظه الله أنى لم أقصد إلّا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين ؛ ويدخلون اسمكم الكريم فى كل حادث ، غير حاسبين للرأى

العام حسابا ، وغير ذاكرين أن عرش الخديوية هو البقية العزيزة لاستقلال البلاد وأنه يجب أن يكون على الدوام محاطا بالاحترام التام والاجلال العام ، ليقاوم القوتين المحاربتين له ألا وهما الاحتلال والزمان

«وانه ليحلو لى أن أبقى الى آخر لحظة من حياتى خادماً لتلك المبادىء الوطنية العالية التى كنتم سموكم أول الداعين اليها والمنادين بهـا ، وأن تزداد كل يوم اتساعاً الهوة التى بينى وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولا حياء

«وانى أتشرف يامولاى بأن أرفع الى سدتكم العالية واجبات الشكران على جليل التفاتكم وسامى رعايتكم ؛ وأقدم الى المقام الرفيع أسمى ما يليق من التجلة والاعظام »

مصر فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٩٠٤ « مصطفى كامل »

وهذا الكتاب يدل على اخلاص الفقيد فى جهاده ، وهو لعمرى صفحة مشرفة من الشجاعة الأدبية ؛ لأن مجاهرة الخديو وهو وقتئذ سيد البلاد الشرعى بقطع علاقته به ، ومقاومة الاحتلال وهو فى أوج سلطانه ، كل أولئك عمل يقتضى حظا كبيراً من الجرأة والاستقلال ، ولا يقدم عليه إلا من تغلبت فيه الشجاعة والوطنية ؛ على كل اعتبار للمصلحة الشخصية

وفى الحق انه لم يكن ممكنا أن يستمر مصطفى كامل على اتصاله بالخديو ؛ لأن عباس الثانى قد عرف عنه عدم الاستقرار فى الميول والخطط والآراء ؛ وقد تغيرت نفسيته كثيراً من يوم أن تراجعت فرنسا فى حادثة فاشودة ؛ وبخاصة حين عقدت وانجلترا ذلك الاتفاق الودى الذى تعهدت فيه بأن لا تضع العقبات أمام انجلترا فى مصر ، فهذه الصدمات السياسية التى لم تنل من مصطفى كامل قد كان لها تأثير عكسى فى نفس الخديو ، وألقت اليأس فى قلبه من نجاح سياسة مقاومة

الاحتلال ، فانصرف الى حياة المال والمتاع ، والمال كثيرا ما يفسد النفوس ويغير من الطباع

وقد ظهر استقلال مصطفى عن الخديو فى استهجانه إحالة حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوى على المعاش ؛ إذ أظهر أسفه على حرمان هذا المنصب السامى من رجل اشتهر بالنزاهة والكفاية ، وقد كانت إحالته على المعاش بأمر الخديو بسبب موقفه الشريف فى الحادثة المعروفة بحادثة مشتهر ، وخلاصتها أن أحد الماليين اليونانيين الذين لهم صلة بالخديو (وهو المسيو زرفوداكى) عرض على ديوان الاوقاف أخذ أطيان له بالجيزة مقابل تفتيش مشتهر التابع للاوقاف ، والذى كان اتفق مع الخاصة الخديوية على شرائه ، وعرضت صفقة البدل على مجلس الاوقاف الاعلى ، وكان حسن باشا عاصم من أعضائه ، فرفض إقرار الصفقة رغم أنها كانت تهم الخديو ؛ فكان موقفه وهو رئيس الديوان الخديوى دليلا على استقلاله ونزاهته [1] ؛ وكان انتقاد الفقيد إحالته على المعاش تحديا للخديو ومعالنة له بالعداء

وانتقد أيضا وقوفه تحت العلم البريطانى فى حفلة استعراض الجيش الانجليزى بميدان عابدين فى نوفمبر سنة ١٩٠٤ ؛ ولم يكن يحضرها من قبل ؛ حتى اضطرت المعية الى إصدار بلاغ رسمى تنسب فيه حضور الخديو هذه الحفلة الى المصادفة (انظر ص ١٨٥) ؛ وانتقد انصرافه الى مصالحه الخاصة فى مقالة له بعدد ١٠ ابريل سنة ١٩٠٤ من اللواء ، لمناسبة اعتراضه على طلب المجلس النيابى من الانجليز ووجوب طلبه من الخديو ؛ إذ قال :

« إن سمو الأمير هو المطالب وحده باعطاء مصر مجلسا نيابيا ، وبرفع صوته فى هذا الشأن ، والجهاد فى سبيله حتى تناله الأمة ، أما الذين يعلنون بأعمالهم وأقوالهم أن سمو الأمير أصبح عديم الحول والقوة وأن لا ملجأ للمصريين إلا

(١) اللواء عدد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٤

انجلترا والانجليز وأنه يجب عليهم أن لا ينتظروا من أميرهم شيئا ، ويشيرون على سموه باهمال أمته وصرف أوقاته وكل مجهوداته لمصالحه الخاصة دون المصالح العامة ، فهم ألدّ أعدائه ، وألد أعداء البلاد ، هم الذين يمكّنون المحتل فعلا ويهددون عرش الخديوية حقيقة »

ومن يوم ٢٧ اغسطس سنة ١٩٠٤ وهى آخر مقابلة له بالخديو ، انقطعت علاقته به ، وكان انقطاعه عنه مما زاده منزلة ورفعة ، إذ ظهر استقلال الحركة الوطنية عن الخديو أكثر من ذى قبل ، ولما أصدر الفقيد جريدتى ليتندار اجبسيان الفرنسية وذى اجبشيان استاندرد الانجليزية فى اوائل سنة ١٩٠٧ حنقت الصحف الانجليزية من ظهورها واتهمت الخديو بالمساهمة فى رأس مالها ، فنشر الفقيد ردا على هذه المفتريات أسماء المساهمين فى رأس مال الجريدتين ومقدار ما اكتتبوا به ، فكان هذا الاعلان قاطعا فى اثبات أن لاعلاقة للخديو بظهور الجريدتين ، ولا صلة له بهما

ولما استقال اللورد كرومر فى ابريل سنة ١٩٠٧ وخلفه السير الدون جورست اشتد انحياز الخديو عباس الى السياسة البريطانية ، وظهر هذا التحول فى حديثه مع المستر ديسى الذى نشرته جريدة الديلى تلغراف فى مايو سنة ١٩٠٧ ، إذ نفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال وذكر اللورد كرومر بالخير ، وصرح بأن المعتمد البريطانى لا يستطيع حكم مصر وحده ، وأنه مستعد للتعاون معه ، وأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال ، وأن الاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر

ومعنى هذا الحديث فى مجموعه أن الخديو يصرح بأنه يرغب مشاركة المعتمد البريطانى فى حكم البلاد حكما مطلقا ، فلم يحجم الفقيد عن انتقاد هذا الحديث انتقاداً حازما ، رغم صدوره من الرئيس الأعلى للدولة ، قال فى هذا الصدد :

« مما يجب علينا اعلانه والجهر به أمام الملأ كله أن تصريحات الجناب العالى

لاتقيدنا بأى حال من الاحوال ؛ لأن مركز سموه غير مركزنا ، على أن كل مصرى صادق الوطنية لا يقبل مطلقا أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده أو بيد المعتمد البريطانى ، أو بيد الاثنين معا ، بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين والصادقين من أبنائه ، وأن تكون نظامات الحكومة دستورية ونيابية[1] »

وقال فى موطن آخر :

« قد قلنا مراراً ان سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية ؛ وان المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال ، فهو إن قال كلمة فى صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه ، واستمال أمته اليه ؛ وإن عمل ضدها أضر بنفسه وبعرشه ، ونفر أمته منه ، ولكنه فى الحالتين لا يستطيع الاضرار بهذه النهضة ، لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود ، ومثل هذه النهضة لا يضرها إنسان مهما كان قويا وعظيما[2] »

وقال : « إن مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الجناب العالى ، حتى يعلم العالم كله أن المصريين يطلبون بأنفسهم وطوعا لعواطفهم وشعورهم إصلاح حالة بلادهم وترقية شؤونهم ومنحهم الدستور ؛ وأن هذه المطالب ليست صادرة بايعاز من كبير أو أمير »

وقال فى مقال آخر :

« لقد اتهموا الحزب الوطنى تارة أنه موحى اليه من الدولة العلية ، وطوراً من ألمانيا ، وتارة أخرى من سمو الخديو ؛ وقد سقطت التهمتان الأوليان من قبل ، وهذه الثالثة قد سقطت الآن معها ، فآن الأوان أن نهنئ أنفسنا »

(١) اللواء ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧

(٢) اللواء ٢٧ مايو سنة ١٩٠٧

وكتب من (نيوهوزن) فى ٢٣ اغسطس سنة ١٩٠٧ كتابا الى المغفور له محمد بك فريد (نشرناه بالزنكجراف فى هذه الصفحة) يدل على مبلغ استيائه من خطة الخديو وتحبيذه الابتعاد عنه ، قال :

« نيوهوزن فى ٢٣ اغسطس سنة ١٩٠٧

« أخى الأعز حرسه الله

« ألف قبلة وألف سلام ، وبعد فقد حظيت باستلام خطابك العزيز المؤرخ ١٥ الشهر الجارى ، وسأقرأ مقالتك فى القطار بامعان لأنى مسافر الآن الى باريس

(خطاب الفقيد الى فريد بك فى ١٣ اغسطس سنة ١٩٠٧)

نيوهوزن في ٢٣ اغسطس سنة ١٩٠٧

أخي الأعز حرسه الله

ألف قبلة وألف سلام . وبعد فقد حظيت باستلام خطابك العزيز المؤرخ ١٥ الشهر الجاري وسأقرأ مقالتك في القطار بإمعان .

لأني مسافر الآن مع [illegible] الى باريس

ارجوك عدم تخفيف الخديوي في كتاباتك فقد علمت عنه ما لا يسر . ولابد أن تضره السياسة ذات الوجهين ضربة كبيرة . وكلما كان عمل الوطنيين بعيداً عنه كان الفلاح محققاً

وعليه رفيقك المخلص
مصطفى كامل

« أرجوك عدم تفخيم الخديوى فى كتاباتك ، فقد علمت عنه مالا يسر ، ولا بد أن تضره السياسة ذات الوجهين ضرراً كبيراً ، وكلما كان عمل الوطنيين بعيدا عنه كان الفلاح محققاً »

فهذه الأقوال التى كتبها فى الصحف أو فى رسائله الخاصة تدل على عقيدة راسخة فى الواجب الوطنى الذى اضطلع به ؛ وترسم لنا صورة رائعة لتلك النفس الكبيرة التى سمت بالحركة الوطنية ؛ وجعلتها قوية بذاتها ، مستقلة بمبادئها ، محتفظة بكرامتها ، قوامها الاخلاص لمصر والنهوض بها الى الاستقلال والحرية

الفصل الثامن عشر

مصطفى كامل وتركيا

أساء بعض الكتاب تصوير خطة مصطفى كامل نحو تركيا ، فزعموا أنه كان من أنصار السيادة العثمانية ، لذلك نرى لزاماً علينا أن نضع الأمور فى نصابها ، ونبين حقيقة خطته فى هذه المسألة المهمة

إن مركز مصر الشرعى لغاية الحرب العالمية كانت تحدده معاهدة لندن المبرمة سنة ١٨٤٠ ، والتى تعتبر صكاً دوليا التزمت الدول باحترامه ، وأهم أحكام هذه المعاهدة الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول ، وضمان عرش مصر فى أسرة محمد على ، وبقاء السيادة العثمانية عليها ، وفى سنة ١٨٨٢ وقع الاحتلال البريطانى ، فعصف بالاستقلال المعترف به لمصر فى تلك المعاهدة ، ونزل بها الى مرتبة المستعمرات التي للحاكم العام البريطانى فيها مطلق التصرف فى شؤونها ، فلما قام مصطفى يدعو دعوته الوطنية كان واجبا عليه أن يحصر جهاده ضد الاحتلال البريطانى ، لأنه رأى بحق أن الجلاء هو الرمز الحقيقى للاستقلال ، أما السيادة العثمانية فان التخلص منها من أيسر الأمور بعد التخلص من الاحتلال ، وبخاصة لأن هذه السيادة قد تراخت مع الزمن وكانت سائرة من نفسها نحو الفناء ، إذ لم يكن بقى من مظاهرها سوى الجزية التى كانت مرهونة للبيوت المالية الاجنبية من دائنى تركيا وتحولت الى هذه البيوت لغاية سنة ١٩٥٥

من أجل ذلك لم يجد مصطفى كامل من الحكمة أن ينادى فى وقت واحد بجلاء الاحتلال البريطانى وبالغاء السيادة العثمانية معا ، لأن معاداة تركيا فى ذلك الوقت من أجل مسألة شكلية ستحل من نفسها ، كانت تؤدى حتما الى انضمام

تركيا الى جانب انجلترا وتنازلها لها عن سيادتها ، وهذا ما كانت تبغيه انجلترا، فانها ما فتئت تسعى لدى تركيا لتتفق وإياها على أن تتنازل عن سيادتها على مصر فلا تبقى أمام انجلترا عقبة دولية تمنعها من اعلان حمايتها عليها ، ولقد سعى اللورد دفرين المندوب السامى البريطانى الذى أوفدته انجلترا الى مصر عقب الاحتلال مباشرة فى أن تشترى الحكومة البريطانية من تركيا الجزية التى كانت تدفعها اليها مصر، لتحل انجلترا محلها فى سيادتها القديمة ، فاعترضه شريف باشا الوزير الكبير كما رفضت تركيا هذا الحل ؛ وفى الواقع ان سيادة تركيا الاسمية هى التى حالت دون اعلان انجلترا حمايتها على مصر من سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩١٤، ولذلك لم تعلن انجلترا هذه الحماية الا فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ؛ بعد دخول تركيا فى الحرب العالمية وسقوط السيادة العثمانية على مصر ، ويبدو هذا المعنى جليا فى تبليغ الحكومة البريطانية الى المغفور له السلطان حسين كامل فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤، على أثر اعلان الحماية ، فانها قد صارحته بأن حقوق السيادة العثمانية قد آلت اليها بعد سقوطها ؛ قالت فى هذا الصدد ما يأتى :

« وبذلك تكون الحقوق التى كانت لسلطان تركيا وللخديو السابق على بلاد مصر قد سقطت عنهما وآلت الى جلالة ملك بريطانيا العظمى ، ولما كان قد سبق لحكومة جلالته أنها أعلنت بلسان قائد جيوش جلالته فى بلاد مصر أنها أخذت على عاتقها وحدها مسئولية الدفاع عن القطر المصرى فى الحرب الحاضرة ؛ فقد أصبح من الضرورى الآن وضع شكل للحكومة التى ستحكم البلاد بعد تحريرها كما ذكر من حقوق السيادة وجميع الحقوق الأخرى التى كانت تدعيها الحكومة العثمانية ، فحكومة جلالة الملك تعتبر وديعة تحت يدها لسكان القطر المصرى جميع الحقوق التى آلت اليها بالصفة المذكورة » [1]

---

(١) التبليغ الوارد الى المغفور له السلطان حسين كامل من قبل الحكومة البريطانية — الوقائع المصرية عدد ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤

ومدلول هذا التبليغ أن زوال السيادة العثمانية ، والاحتلال البريطانى قائم ، معناه أيلولة هذه السيادة الى الدولة المحتلة ، ومن ثم ازدياد مالها من القوة والسلطان فى مصر .

فهذه النتيجة التى وقعت سنة ١٩١٤ : هى التى كان يتفاداها مصطفى كامل منذ قام يجاهد فى سبيل الاستقلال ، كان يتجنب اتفاق تركيا وانجلترا على تنازل الأولى للثانية عن سيادتها ، لأن هذا الاتفاق كان ولا ريب يجعل له من النتائج أسوء مما كان للاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ ، ولو هو سعى ونجح فى الغاء السيادة العثمانية والاحتلال قائم ، لكان ذلك ربحا حقيقيا لانجلترا ، اذ بذلك كان يتسنى لها اعلان حمايتها على مصر فتزداد حالة البلاد سوءا ، ويصبح مركز الاحتلال أقوى مما كان ، ففكرة عدم التعرض للسيادة العثمانية وقتئذ كانت هى الخطة الحكيمة لمن يريد أن يجاهد الاحتلال ، ويعمل للجلاء ، أى يعمل للاستقلال الحقيقى ، لأن التخلص من هذه السيادة كان أمرا هينا بعد التخلص من الاحتلال ، وقد سقطت هذه السيادة من تلقاء نفسها خلال الحرب العالمية ، أما أنصار الاحتلال الذين كانوا فى خاصة أنفسهم لا يريدون الجلاء فهم الذين استشكلوا على الفقيد أنه أقر السيادة العثمانية ، يضاف الى ذلك أن أقوى حجة لمصطفى كامل على الاحتلال أنه نقض لمعاهدة دولية أبرمتها انجلترا والدول جميعا ، وهى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، فكان بذلك يلزم الانجليز الحجة استناداً الى هذه المعاهدة ، ويطالبهم باحترام شروطها واحكامها ، وقد اتخذ منها وسيلة شرعية ودولية لاقامة الحجة على الاحتلال ، والمناداة بعدم مشروعيته ، وكانت هذه الحجة أقوى الحجج التى اكسبت قضية مصر الأنصار والاعوان فى مصر وفى الخارج ، فلم يكن منطقيا ولا معقولا أن يحاجج الاحتلال بمعاهدة لندن ، ويطلب فى الوقت نفسه نقضها فيما يتعلق بالسيادة العثمانية ، لأن انجلترا

كانت تغتبط بهذا الطلب ، إذ أنه يفتح لها الباب للتخلص من أحكام هذه المعاهدة جميعها

فموقف مصطفى كامل من السيادة العثمانية كان موقفا قوميا حكيما ، وهو يشبه موقفه تجاه الامتيازات الأجنبية ، فلم يكن ينادي بالغائها ، بل كان يقول باحترامها ، لكي لا يستعدى الدول والجاليات الأجنبية فى الوقت الذى يجاهد فيه الاحتلال ، وهو بذاته موقف « الوفد المصرى » تجاه الامتيازات الاجنبية

فقد تألف الوفد المصرى فى نهاية سنة ١٩١٨ بعد إلغاء السيادة العثمانية فعلا بعدة سنوات ؛ فلم يكن هناك إذاً من معنى للمطالبة بالغائها ؛ ومع ذلك فقد تمسك الوفد بهذه السيادة للاحتجاج على اتفاقية السودان ، إذ اعتبرها باطلة لأن مصر ما كانت تملك ابرامها بحكم السيادة العثمانية ، ثم انه فيما يتعلق بالامتيازات الأجنبية (وهى أشد وطأة من السيادة العثمانية) قد صرح فى مطالبه ومذكرته الى مؤتمر السلام ان مصر « تعتبر أن واجبها يحتم عليها أن تضمن للأجانب التمتع بامتيازاتهم بكل دقة »

وأعلن فى مطالبه « ان مصر تعلن أن امتيازات الأجانب فيها ستحترم بكل دقة واذا كان العمل أظهر أن بعضها يدعو الى تحوير اليق بمقتضيات الاحوال فانها تعرض مايعن لها من وجوه التعديل التى من شأنها المساعدة على تقدم البلاد مع صيانة المصالح المنظور فيها وتكون فيما تعرضه من ذلك واسعة الصدر ، غاية فى الاخلاص والمجاملة ؛ وتتعهد بالبحث فى وضع طريقة للمراقبة المالية لاتقل فى أهميتها بالنسبة للبلاد الأجنبية ذوات المصلحة عما كان متبعا قبل اتفاقية سنة ١٩٠٤ ؛ ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومى »

ولم ينتقد أحد على الوفد المصرى هذا الموقف الذى اتخذه بازاء الامتيازات الاجنبية ، بل سوغه الجميع بحق ، اذ كان المنطق السياسى يقتضى ذلك ؛ وهو ذات المنطق فيما يلومون على مصطفى كامل من عدم الجهر بالغاء السيادة العثمانية

والاحتلال قائم ، فانه ما كان ليستطيع الوصول الى الغاء السيادة العثمانية والى الجلاء في وقت واحد ، بل كل ما كان يصل اليه لو جمع بين الأمرين أن يجعل تركيا وانجلترا صفا واحدا فى مقاومة الأمة المصرية ، ولو تحقق الجلاء فان الغاء السيادة العثمانية ليس بالمطلب العسير على السياسة المصرية

فالمنطق فى الحالتين واحد ، مع هـذا الفارق الظاهر بين السيادة العثمانية ، والامتيازات الاجنبية ، فان الأولى كانت عقبة شكلية ، وكانت سائرة الى الفناء من تلقاء نفسها ، بينما الامتيازات الأجنبية تنشئ حكومات أجنبية مستقلة داخل الحكومة الأهلية تغل يدها فى التشريع وفرض الضرائب وادارة الأمن العام ، وتقضى بذلك على سلطانها وعلى سيادتها القومية فى الداخل والخارج

يخلص من ذلك أن الدعوة الصادقة الى الجلاء كانت تقتضى محاسنة تركيا وعدم مطالبتها وقتئذ بالغاء سيادتها على مصر ، وارجاء هذا المطلب حتى تنجو البلاد من العقبة الكؤود التى تحول دون استقلالها وهى الاحتلال ، كانت محاسنة تركيا هى اذن السياسة القومية الرشيدة لمن يريد مقاومة الاحتلال ، وبخاصة لأن تركيا منذ وقع الاحتلال كانت لاتفتأ تطالب انجلترا بالجلاء ، وكانت هى الدولة الوحيدة التى انفردت بمطالبة انجلترا باحترام عهودها فى المسألة المصرية ، وكان لها مندوب فى مصر وهو احمد مختار باشا الغازى ، جاء سنة ١٨٨٥ ليفاوض الأنجليز فى جلائهم عن البلاد ، وقد قدم تقريرا سنة ١٨٨٦ اقترح فيه تنظيم الجيش المصرى والاستغناء عن الضباط الانجليز والسردار الانجليزى ، وجهر بضرورة استرداد السودان ، ولما اخفقت مفاوضاته فى الجلاء بقى فى مصر ، وكان شعاره « أنه احتجاج حىّ على الاحتلال » ، فتركيا كانت تؤيد مصر فى الجلاء ، فكان طبيعيا أن يعطف عليها المصريون الراغبون حقاً فى الجلاء

والآن نورد هنا ما قاله مصطفى كامل فى احاديثه أو خطبه ومقالاته توضيحا لخطته نحو تركيا ، فلقد عرض لهذه المسألة فى حديث له مع مراسل جريدة

(نيويورك هرالد) فى خريف سنة ١٨٩٦ ، وهو الحديث الذى اقتطفنا بعض فقراته فى الفصل الخامس (ص ٨١) اذ سأله المكاتب عن علاقة مصر بتركيا وخطتها حيالها ، فأجابه المترجم فى صراحة وجلاء بما يأتى :

« ان سياسة مصر نحو الدولة العثمانية وهى السياسة التى يجرى عليها الوطنيون الصادقون هى سياسة حسن التقرب منها ، وتوطيد العلاقات الحسنة معها ؛ والتاريخ يعلمنا ألاّ نتبع حيالها غير هـذه السياسة ؛ لأنه اذا كان الانجليز قد احتلوا مصر فالسبب فى ذلك ولا شك هو النفور والخصام اللذان كانا مستحكمين قبل الاحتلال بين السلطان والخديو السابق توفيق باشا ، وقد نجح الانجليز فى التفريق بينهما باتباع سياسة ذات وجهين ، فأفهموا السلطان وقتئذ أن خديو مصر عدوّ له يعمل لاسقاطه عن عرش الخلافة ليجلس هو عليه كما سعى لذلك من قبل جده الاكبر (محمد على) ؛ وأفهموا المرحوم توفيق باشا من جهة أخرى أن السلطان يعمل ضده ويسعى لخلعه عن كرسى الخديوية ليعيد مصر ولاية عثمانية كما كانت قبل الأسرة الخديوية ، فلما قامت الحركة العرابية رأى الانجليز من تمام المهارة وتوسيع هوة الشقاق أن يبرهنوا للخديو على كراهية السلطان له ، فسعوا عند السلطان سعى الصديق حتى حملوه على تقليد عرابى الوسام العثمانى الأول ، وعرابى هو الذى كان يدعى يومئذ بأنه المدافع عن حقوق السلطان فى مصر ، وقد أوغر هذا الأمر صدر توفيق باشا ، وألقاه فى أحضان الانجليز ، وها هم الانجليز الآن يعملون جهد استطاعتهم للتفريق بين الخديو والسلطان ، ولكن ما نعهده فى أميرنا الحالى (عباس الثانى) من التبصر والحكمة والوطنية يحقق لنا انه يعمل دائما لتأييد سياسة المحاسنة والتقرب من الدولة العثمانية ، وهى السياسة التى فى اتباعها سلامة الكرسى الخديوى والوطن المصرى »

وأبان الفقيد أيضا هذه الخطة فى خطبته التى ألقاها بالاسكندرية فى يونيه سنة ١٨٩٧ لمناسبة الحرب اليونانية التركية واقتطفنا بعض محتوياتها (ص ١٩٦) :

ودافع فيها عن موقف مصر حيال هذه الحرب وما أبدته من العطف على تركيا
وكتب الى مدام جوليت آدم من الاسكندرية يلخص آراءه فى هذه الخطبة وقال فى كتابه اليها « انك تعلمين خطتى نحو تركيا وما أراه واجباً نحوها ، فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقة مع تركيا ما دام الانجليز محتلين وطننا العزيز » ، وقد أقرته مدام آدم على هذه الخطة بالرغم من أنها لم تكن تعطف على الاتراك لحبها لليونان

ووصف شعور المصريين فى حديثه بجريدة (بر لينر تاجبلاط) فى ابريل سنة ١٨٩٧ بقوله « انه وان كان المصرى لايعرف الا وطنا واحداً وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون جيش دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة فى يد الانجليز »

وأثيرت المناقشة حول هذه الخطة سنة ١٩٠٦ لمناسبة الخلاف الذى قام بين انجلترا وتركيا فى حادثة طابة (انظر ص ١٩٧) فقد أيد الفقيد فيها موقف تركيا، واتهمه انصار الاحتلال بأنه يبغى نقل مصر من حكم الاحتلال الى الحكم العثمانى، فرد عليهم فى عدد ٢ مايو سنة ١٩٠٦ من اللواء بمقالة قال فيها مخاطبا اياهم :

« أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد الى استعباد وأنهم انما يطلبون خروج الانجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد ، فهى دعوى لايقبلها ذو لب ولا يسلم بها أحد من العقلاء ، فاننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ، ونتمسك بهذا المطلب الى آخر لحظة من حياتنا »

« الا أن هذا الاعتقاد الذى خدمناه ونخدمه لايمنعنا من النظر الى وجهة أخرى للمسألة المصرية ، وهى الوجهة الدولية ، فان كل انسان له المام بسيط بالسياسة والتاريخ يعلم أن مسألة مصر كانت دائما (دولية) لأن مركز مصر

يقضى على الدول كلها بالاهتمام بها ، وما على الكتاب الطاعنين علينا الا أن يراجعوا كتاب المسيو (فريسينيه) السياسى الفرنسى الشهير وغيره من اكابر السياسيين ليعرفوا أنهم يطالبون المانيا بتغيير خطتها فى المسألة المصرية [1] ، ويذكرونها بأهمية قنال السويس وما يكون للدولة التى تضع يدها عليه من القوة والنفوذ ، ليتذكر هؤلاء الكتاب أن أوروبا لم تعمل شيئا فى مصر الا بالاتفاق مع السلطان ؛ وأنه لو كان عارض فى عزل الخديو اسماعيل باشا لبقى أميرا على مصر الى آخر لحظة من عمره ، رغما عن كل الدول المبغضة له ، وأن انجلترا تود من صميم فؤادها الاتفاق مع جلالته على مسألة مصر لتقبرها ولكنها تعلم أن ذلك هو المحال ؛ فاهتمام المصريين بالوجهة الدولية للمسألة المصرية أمر طبيعى وواجب ؛ ولو كانت أرقى الأمم شأنا وأعلاها مكانا فى موضعنا لفعلت فعلنا واتبعت خطتنا وسلكت مسلكنا وقال عنها المنصفون انها مدركة لمعنى الوطنية الحقة »

وكتب فى جريدة الطان بالعدد الصادر يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ عقب حادثة دنشواى مقالة جاء فيها ايضاحا لخطته نحو تركيا ما يأتى :

« ان اتفاقنا مع تركيا كان دائما أساسا من أسس سياستنا ؛ وان الخلاف الذى كان مستحكما بين قصر يلديز وسراى عابدين ابان الحركة العرابية كان السبب فى مصابنا وفى الاحتلال البريطانى ؛ ولما كانت تركيا هى الدولة صاحبة السيادة على مصر فان عملها وشأنها فى المسألة المصرية هما بلا نزاع كبيران ، وانى أسأل الذين ينكرون هذه الحقيقة أن يفكروا لحظة فيما يؤول اليه حال مصر لو عقدت تركيا فى يوم من الايام إتفاقا مع انجلترا مشابها للاتفاق الودى الفرنسى الانجليزى ؟ ألا تفقد بلادنا عندئذ البقية الباقية من استقلالها ؟ فكيف مع هذا يندهش البعض من الروابط التى تربط مصر بتركيا ، أو ليس هذا الارتباط فى

(١) كانت خطتها الجمود وعدم الاهتمام بها

ذاته أحسن احتجاج على استمرار الاحتلال بغير حق؟ إنى أسأل الذين لايكتفون بانتقاد سياستنا بل يتحاملون علينا أن يجيبونى : لماذا يجدون من الأمور المعقولة الطبيعية تحالف فرنسا مع الروسيا واتفاقها مع انجلترا ، ويعتبرون من الجنايات ومخالفة الوطنية الحقة اتفاقنا مع تركيا »

وقال فى خطبة له ألقاها يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠٧ لمناسبة عيد تأسيس الدولة العثمانية :

« يستحيل علينا أن يطلب واحد منا مالكا أجنبيا عنا ، فنحن لانود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية ، ننصرها وتنصرنا ونعتز بها وتعتز بنا »

وقال فى لواء ١٦ اكتوبر سنة ١٩٠٧ ردا على جريدة (لاندبندنس بلج):

« ان المحرر أخطأ كثيرا بقوله اننا نريد حرية مصر لاعادتها الى حكم الاتراك ، فقد صرحنا الوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين ، وبأن انعطافنا أو نفورنا من دولة لايؤثر شيئا على هذا المبدأ الرئيسى لحياتنا وأفعالنا ، ولست أجد لاختام خصومى الا طرح هذا السؤال البسيط عليهم : ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الانجليزية ؟ ألا تصير ولاية انجليزية ؟ اذن فلماذا يندهش الكاتب من كوننا نجعل علائقنا مع تركيا حسنة ونسعى لنيل الوسائل التى قد تفيدنا وتنفعنا ؟ واذا كانت الدول العظمى قد اتبعت الآن سياسة التحالف فمن ينكر على مصر المظلومة المهضومة اتباعها هذه الخطة ؟ »

وقال فى خطبته الكبرى بالاسكندرية يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ «فليعلم اعداء مصر اننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى صوتنا ، وعلى مسمع من أمم الارض كلها ، واننا اذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فانما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بان من اتفقت مصالحهم يجتمعون

ويتناصرون ، واذا كانت انجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغيير سياستها نحوها تغييرا محسوسا ، فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولا وفعلا وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا »

فهذه الاقوال والبيانات صريحة الدلالة على أن خطة الفقيد نحو تركيا هى الخطة القويمة التى قضت بها الوطنية الحقة واقتضاها الجهاد الصحيح للاستقلال التام

الفصل التاسع عشر

مجلس شورى القوانين

من الواجب أن نقول كلمة عن المجلس الذى كان بمثابة الهيئة التشريعية الممثلة للبلاد فى ذلك العهد ، وهو مجلس شورى القوانين ، ويجدر بنا أن نبادر بالقول ان هذا المجلس لم يكن يمثل الأمة تمثيلا نيابيا صحيحا ، فقد كان مؤلفا من ثلاثين عضوا ، منهم أربعة عشر عضوا تعينهم الحكومة وفيهم الرئيس وأحد الوكيلين . وأعضاء منتخبون وعددهم ستة عشر : ومنهم احد الوكيلين ، وكان انتخابهم على ثلاث درجات ، اذ كان مجلس المديرية هو الذى يتولى انتخاب عضو مجلس شورى القوانين عن المديرية ذاتها ، ولم يكن لهذا المجلس سلطة قطعية فيما يعرض عليه من الشؤون ، ولكنه مهما يكن نظامه وسلطانه فان له صفة رسمية جعلت له شأنا يرتبط بحالة البلاد السياسية ، والكلام عنه يكمل تصوير العصر الذى نكتب عنه

ويمكننا أن نلخص تاريخه فى ثلاثة أدوار تعاقبت عليه

الدور الاول

هو دور الخضوع والاستسلام ، ويبتدئ منذ انشائه سنة ١٨٨٣ ثم يستمر حتى سنة ١٨٩٢ ، وقد بقى موقفه طول هذه السنوات سلبيا محضا ، ولم تبد منه ظواهر تدل على الحياة والوجود ، ولم يكن له أى أثر فى تطور الحوادث ، بل لم يسمع له صوت ما فى الاحداث الجسام التى تعاقبت على البلاد فى ذلك الحين

الدور الثانى

ثم تغير موقفه منذ سنة ١٨٩٢ بتأثير تطور الأفكار وتنبهها ، فأخذت

تدب فيه بعض ظواهر الحياة ، ووقف من الاحتلال غير مرة موقف المعارضة ، ففي جلسة ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٢ رفض مناقشة ميزانية سنة ١٨٩٣ التى أعدها السير الوين بالمر المستشار المالى البريطانى ، بحجة أنها لم تعرض عليه قبل الموعد المحدد لصدورها بوقت كاف يسمح بفحصها ، ومع أن هذا القرار لم يمنع الحكومة من اصدار الميزانية طبقا للقانون النظامى القديم إلا ان فيه معنى الاحتجاج على الحكومة ، ولم يكن هذا مألوفا من قبل فى هيئة المجلس

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٣ ظهرت فى المجلس حركة استياء من اتصال المعتمد البريطانى ببعض أعضائه ، ورفض اعتماد نفقات جيش الاحتلال فى ميزانية سنة ١٨٩٤ ، ومقدارها ٨٥٠٠٠ جنيه ؛ فكان هذا القرار بمثابة احتجاج على بقاء جيش الاحتلال ؛ وقد ساء هذا القرار الصحف الانجليزية وصنائع الاحتلال فى مصر ، فردّت الحكومة على ملاحظات المجلس ردا كان بمثابة انتصار لوجهة نظره ، اذ أنها أعربت عن مشاركتها اياه فى احساساته الوطنية ، وأبانت أن المبلغ الذى كانت تؤديه الخزانة المصرية لجيش الاحتلال الى سنة ١٨٨٥ وهو ٢٠٠٠٠٠ جنيه فى السنة قد خفض بالتدريج الى ٨٥٠٠٠ جنيه ، وأن الحكومة تؤمل أن هذا المبلغ يخفف تدريجيا حتى يمحى بالكلية اعتمادا على عهود ووعود دولة بريطانيا العظمى القاضية بالجلاء عن القطر المصرى (١)

ودلّ تقرير المجلس عن ميزانية سنة ١٨٩٤ على ظهور روح جديدة من الحياة والشعور بالواجب ، اذ تعرض لحالة البلاد الاقتصادية وألمع الى ما يثقل كاهل الأهلين من أعباء الديون ، فكان تقريره أبلغ رد على أنصار المحتلين فيما ادعوه من أن الاحتلال قد جاء للأهلين باليسر والرخاء

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٤ اعترض على بعض ماقررته الحكومة فى ميزانية سنة ١٨٩٥ ورفض اعتماد مصاريف جيش الاحتلال وانتقد سياسة الحكومة فى

---

(١) تقرير الحكومة الذى تلاه رياض باشا فى مجلس شورى القوانين بجلسة ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٣

التعليم ، وفى ديسمبر من السنة التالية وقف بالنسبة لمصاريف جيش الاحتلال موقفه فى السنوات الماضية

وفى ابريل سنة ١٨٩٦ قرر الاحتجاج على الحكومة لعدم أخذها رأى المجلس أو الجمعية العمومية فى تقريرها مبلغ خمسمائة ألف جنيه لانفاقها على حملة دنقله التى قررتها فى تلك السنة

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٦ كان موقفه بالنسبة لمصاريف جيش الاحتلال أصرح من موقفه فى السنوات الماضية إذ ورد عنها فى تقرير اللجنة المالية الذى أقره عن ميزانية سنة ١٨٩٧ ما يأتى :

« مقدر لمصاريف جيش الاحتلال مبلغ ٨٤٨٢٥ جنيه ، واللجنة لاترتاب مطلقا فى أن للحكومة عظيم الثقة بأمانة جيشها وكفاءته ، وباستعداده الذى برهن عليه فى كل المواقع التى دعى اليها ؛ وباستتباب الأمن فى داخلية البلاد وأطرافها مما لايدعو للاستعانة بجيش أجنبي ، ولذا فهى ترى عدم المصادقة على المبلغ المقرر لهذه المصاريف » ؛ فكان هذا القرار بمثابة احتجاج من الهيئة النيابية القائمة فى البلاد ضد الاحتلال ؛ واستمر موقفه من مصاريف جيش الاحتلال على هذا النحو فى السنوات التالية

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٩ نظر فى ميزانية سنة ١٩٠٠ وفيها مبلغ ٤١٧ ألف جنيه نفقات عجز إيرادات السودان عن مصروفاته ، فقرر التصديق على هذه النفقات « باعتبار أن بلاد السودان جزء متمم لمصر غير منفصل عنها بحال من الأحوال » ؛ فكان هذا القرار بمثابة توكيد لاتصال السودان بمصر وعدم الاعتراف باتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

وكان يتولى رياسة المجلس منذ نوفمبر سنة ١٨٩٩ اسماعيل باشا محمد [1] وهو

---

(١) بقى يتولى رياسة المجلس الى أن توفى فى ٧ ابريل سنة ١٩٠٢ وخلفه عبد الحميد باشا صادق الذى شغل هذا المنصب حتى استقال فى ٣٠ يناير سنة ١٩٠٩

من خاصة أصدقاء مصطفى كامل وأنصاره ؛ وكانت تربطهما روابط الود الأكيد، يدل على ذلك حضوره حفلة مدرســة مصطفى كامل فى فبراير سنة ١٩٠٢ كما تقدم بيانه (ص١٥٥) ، فكانت رياسته حافزة روح المعارضة فى المجلس ، وبدت هذه الروح فيما طلبه من الحكومة فى ديسمبر سنة ١٩٠٠ لمناسبة عرض مشروع الميزانية ، وتتلخص هذه المطالب فيما يأتى :

أولا — زيادة المبلغ المخصص لوزارة المعـارف ، وقد لفت المجلس نظر الحكومة الى ما وصل اليه فساد البرامج وسد أبواب المدارس فى وجوه المتعلمين والبحث فى الأسباب التى دعت لاستعفاء الكثيرين من المدرسين

ثانيا — زيادة ما خصص للمحاكم الشرعية

ثالثا — طلب المجلس من الحكومة أن تدرج فى ميزانية السنة المقبلة ايرادات ومصروفات السودان

رابعاً — طلب أن لا تنقص المصروفات والمرتبات المتعلقة بالكسوة والمحمل إن لم يمكنها زيادتها

وقد طلب أيضا من ناحية أخرى مراعاة حرية الحجاج الشخصية فى ذهابهم الى الأقطار الحجازية وإيابهم منها ، والغاء احتكار المؤن التى تباع عليهم فى المحاجر الصحية

وفى سنة ١٩٠١ اختلف والحكومة فى أمر الدكريتو الصادر فى ابريل سنة ١٩٠١ بربط رسوم على الخيوط والمنسوجات والأقمشة القطنية المصنوعة بالقطر المصرى ؛ واحتج على اصدار هذا الدكريتو دون مباحثة الجمعية العمومية واقرارها، مستنداً فى ذلك الى المادة ٣٤ من القانون النظامى التى توجب تصديق الجمعية العمومية على كل ضريبة أو أموال أو رسوم على عقارات أو أشخاص ، وقد أجابت الحكومة على هذا الاحتجاج بأن المادة المذكورة لا تنطبق على هذه

الرسوم وأنها تنصرف الى الضرائب على العقارات فقط ، واستشهدت بنصها الفرنسى ، وطلبت فى الوقت نفسه أن يستبدل بالمادة ٣٤ من القانون النظامى النص التفسيرى الوارد فى ردها ، ورد المجلس على هذا الجواب رداً سديداً ختمه بقوله : « يرى المجلس أنه ليس من اختصاصه النظر فى هذا المشروع ويتجنب الدخول فى موضوع تبديل أو تغيير المادة ٣٤ وكل مادة فى القانون النظامى لأن ذلك من حقوق الجمعية العمومية »

وقد اعتبر اللواء هذا الموقف حسنة فى تاريخ مجلس شورى القوانين

الدور الثالث — دور التراجع

ولكن المجلس قد تراجع تحت تأثير حملات اليأس التى كانت تنشرها الصحف الموالية للاحتلال وابرام الاتفاق الأنجليزى الفرنسى فى ابريل سنة ١٩٠٤، فأخذ يجنح للخضوع والاستسلام للاحتلال ، وابتغاء الزلفى لديه ، فمن ذلك انه صدق على ميزانية سنة ١٩٠٥ فى صيغة شكر للحكومة ، فانتقده مصطفى كامل فى لواء ١٣و١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٤ إذ قال : « إن أعضاء المجلس لم يُسمعوا الأمة والعالم كله ذلك الصوت المحبوب صوت المطالبة بأعز ما تريد البلاد ألا وهو الاستقلال » ، ثم قال : « إنكم ياحضرات الاعضاء طلبتم هذا الطلب الغالى مرتين ، وحسبتم أن الاشارة تكفى ، وكأنكم نسيتم أن الالحاح فى الحق ليس بعيب وأن الاشارة مع المتعمد النسيان هى دون القليل ، فهل فاتكم أن مطالبتكم بالجلاء مما يقوى العقيدة الوطنية فى نفوس الخاصة والعامة والناشئة بنوع خاص ، وانكم اذا لم تبلغوا الا هذه الغاية لكفاكم شرفا وأجراً » ، ثم ضرب الأمثال بما كان من المجالس الشورية فى البلاد الصغيرة من التمسك بحقوق شعوبها فى وجه السلطة الغاشمة

وانقضت سنة ١٩٠٥ والفتور مخيم على المجلس ، وبخاصة اذا كان المقام متعلقا بأمر تود الحكومة تنفيذه

ولما وقعت حادثة دنشواى فى يونيه سنة ١٩٠٦ طالب الفقيد المجلس بأن يرفع صوته بالاحتجاج على الفظائع التى ارتكبتها الحكومة فى هذه الحادثة ، ولكن ذهب نداؤه عبثاً ؛ فكان هذا الموقف مظهراً لروح الاستكانة التى شاعت بين جوانب المجلس



محمد فريد

رمز الاخلاص والتضحية

١٨٦٧ — ١٩١٩

الفصل العشرون

مصطفى كامل ومعاصروه

ان روابط الانسان بمعاصريه وعلاقته بهم هى قطعة من حياته ، وجزء من شخصيته ، ولا مراء فى أن التحدث عنها يلقى جانباً من الضوء على تاريخه ، لذلك رأيت أن أخصص هذا الفصل بالكلام عن مصطفى كامل ومعاصريه ، سواء كانوا من أصدقائه وأنصاره ، أو مخالفيه ، أو من تلاميذه وحوارييه

أصدقاؤه الأقربون

محمد بك فريد

اذا ذكر أصدقاء الفقيد وأنصاره لأقربون كان فى طليعتهم المغفور له محمد بك فريد ، فهو زميله الخاص ، وصديقه الوفى ، وعضده الأكبر فى بعث الحركة الوطنية ، لازمه وأيده فى جهاده ، وبذل له ما بذل من العون الأدبى والمادى ، وأمده بماله ، وظل وفياً له طول حياته ، ثم حمل الراية بعد وفاته ، فكان خير خلف ، لأعظم سلف

رسائل مصطفى كامل الى محمد فريد

تدل رسائل مصطفى كامل الى فريد بك على ما بينهما من الود الصادق والحب الخالص الثابت على مر السنين ، فكلاهما كان يؤثر صاحبه على نفسه ، ويضحى نفسه من أجله ، وتلك دلائل الاخلاص الحقيقى ، وتطالعنا هذه الرسائل بما كان يعمر قلبيهما الكبيرين من الوطنية الصادقة ، والعواطف النبيلة السامية ، وهى وان لم تنشر من قبل ، ولم تكن معدة للنشر ، لكنها صارت قطعة من تاريخ

الزعيمين العظيمين ، لذلك رأيت أن أنشر بعض نماذج منها مع طبع بعضها بالزنكجراف

أول كتاب عثرت عليه أرسله اليه من فيينا بتاريخ ٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦، وهو يدل على الود القديم بينهما ، وفيه أفضى اليه بما بذل فى ألمانيا والنمسا من الجهود لتعريف الرأى العام الأوروبى بالقضية الوطنية ، وقد أشار اليه المغفور له محمد بك فريد فى خطبته فى تأبين الفقيد ، واقتبس بعض فقرات منه (انظر ص ٢٨٧)

والكتاب الثانى أرسله اليه من بودابست فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ قال فيه :

« أخى الفريد حفظه الله

« بعد التحية والتسليم ، والاعراب عن شوق عظيم ، لابد أنك استلمت كل ما أرسلت اليك وطالعت صدى ما عملت ، وعلمت بكل ما جرى وكان ، ولا بد أنك سررت وفرحت ؛ وان روحك الطاهرة الشريفة الممتلئة حباً لمصر التعيسة واخلاصاً ، رضيت عن روح لاتقل عنها حبا للوطن واخلاصاً ، وأخالك تفكر كثيراً فىّ ، وتود لو تكون معى تطوف البلدان مناديا بنصرة المظلوم رافعاصوتك ضد عدوّ الوطن الأسيف »

وقد أشار فريد بك الى هذا الخطاب أيضا فى خطبته سالفة الذكر واقتبس منه فقرات أخرى (ص ٢٨٨)

وكتب اليه ضمن خطاب له من الاستانة (استانبول) فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ يقول :

« كنت أحس بواجب مراسلتك ويسهل شوقى اليك قيامى بهذا الواجب نحوك ، وأتلذذ حقاً لمكاتبة صديق مثلك أساس مودته محبة الوطن العزيز ، أى أشرف وأجلّ احساس عند الانسان »

وكتب اليه من باريس فى ١٩ يوليه سنة ١٨٩٨ كتابا قال فيه (نشرنا صورته ص ٣٥٨)

« أخى الأعز حرسه الله

« بعد تقبيل وجنتيك واهدائك أعطر السلام، وصلنى هذا الصباح كتابك الكريم ، فتقبلته بالترحاب والتكريم ، وكنت فى شغف شديد لاستلامه ، لغياب أخبارك عنى ثلاثة أيام ، وليس ذلك بالزمن القليل

« لقد أدهشنى فى كتابك شكرك لى على مبادرتى باجابة طلبك ، ان هذا الشكر من غيرك جميل وواجب ، ولكنه منك غريب وعجيب ، فما بيننا من الود والاخاء يجعل مالك مالى، ومالى مالك، وحياتى حياتك، وحياتك حياتى، هذا ما اعتقده وما تعتقده أنت ، فروحى تناجى روحك بالود والاخلاص فى كل لحظة وفى كل آن ، دمت لى أخا وفياً صادقا ، ودمت معى خادمين صادقين للوطن المحبوب »

وختم الخطاب بقوله :

« اكتب لى باكر من فيشى وأطل كتابك ، واذهب يوم الخميس الى كوك قبل الظهر تجد منى كتابا اكتبه اليك باكر ليكون فيه وداعك ، وبعض أمور أريد منك عملها فى مصر ، تقبل الف قبلة من صديقك الأول وأخيك الثانى

« مصطفى كامل »

وكتب اليه من باريس فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٩٨ كتابا قال فيه (نشر صورته ص ٣٥٩) :

« أخى الأعز حرسه الله

« أقبل وجنتيك الفا ، وأهديك سلاماً عاطراً ، وأسأل لك الصحة الدائمة والسرور الكامل ، وأدعو الله أن يسرك بشفاء حرمك المصون وسلامة نجلك الأمين [1] ، انه سميع مجيب »

---

(١) هو المرحوم عبد الله فريد نجله الأول وقد توفى وله من العمر سنتان ، أما نجله الثانى فهو الشاب النجيب عبد الخالق افندى فريد وكيل نيابة طنطا الآن، بارك الله فيه ، وهو الذى تسلمنا منه رسائل مصطفى باشا كامل الى والده المغفور له محمد بك فريد، كما استودعنا مراسلاته ومذكراته ، فله منا جزيل الشكر

الى أن قال:

« أرجوك أن ترسل لى عدد المؤيد المؤرخ ٩ يناير من هـذه السنة وهو المشتمل على الخطبة التى ألقيتها على شبيبة المـدارس يوم احتفالها بعيد جلوس الخديو لأنى فى حاجة الى ترجمتها ووضعها مع المجموعة

«سأكتب لك كل أسبوع مرة على الأقل؛ ولا تنس العائلة ، ارسل سلامى لـكل أفرادها ، دمت الف مرة لأخيك المخلص كامل

« قبل لى وجنات الشقيق ابراهيم بك [١]، وسلّم لى على الفـاضل حسن افندى عبدالرازق [٢] واسأله أن يبلغ سلامى العاطر لوالده العزيز [٣]

«واذا قابلت شوقى بك [٤] قبله لى مرتين؛ وقل له أن يرسل لى ما طبع من ديوانه مع صورته واعطه عنوانى »

وقال فى ختام خطاب اليه من باريس فى ١٠ اغسطس سنة ١٨٩٨ :

« أقبلك فى الختام الف قبلة ؛ وارجوك أن لاتحرمنى من أخبارك ، وأن تعرفنى عند وصول هـذا اليك ؛ دمت لمصر العزيزة ولخادمها الضعيف أخيك

«مصطفى كامل »

وقال فى خطاب آخر من باريس فى ١٩ اغسطس سنة ١٨٩٨ [٥]:

« وغاية رجائى من الله — ان لم يسمع نداءنا ويخلص أوطاننا — أن يحفظ لى ودك الصادق ، وحبك الطاهر ، تقبل الف الف سلام من خير صديق لك ومن أخيك الشاكر العارف للجميل « كامل »

وقال ضمن خطاب اليه من باريس فى ٢٦ اغسطس سنة ١٨٩٨ :

---

(١) المرحوم ابراهيم بك فريد
(٢) المرحوم حسن باشا عبد الرازق ، وكان محاميا بمكتب محمد بك فريد
(٣) المرحوم حسن باشا عبد الرازق الـكبير
(٤) أمير الشعراء ، وكان صديقا حميا للفقيد
(٥) نشرنا صورته بالزنكجراف ص ١٢٣

« لك منى جزيل الشكر وعظيم الامتنان ، فحقا أنت الأخ الصادق الذى يضحى نفسه فى محبة اخوانه . فدمْ لى يامثالَ الوفاء ، واعتقدْ أبد الدهر ان لك فىّ أصدق الناس كافة ، وأوفاهم اليك ، فحياتى وروحى لك بعد الوطن العزيز »

وختم هذا الخطاب بقوله :

« سلامى العاطر لأخيك العزيز ، ودم أنت الف مرة وألف عام لأخيك المخلص « مصطفى كامل »

وقال ضمن خطاب له من باريس فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦ [1] :

« أخى الاعز فريد بك

« ألف قبلة وألف سلام ؛ وبعد فقد استلمت خطاباتك ؛ وقرأت اليوم مقالاتك وسررت بها للغاية ؛ وانّ ودَّك الصادق ، وإخاءك الطاهر ، ووطنيتك العالية ، لما يكفينى فى الحياة نعمةً ونعيما وسعادةً وسعوداً »

وقال فى خطاب من نابولى فى ٢٩ يونيه سنة ١٩٠٧ :

« إنى لو أردت أن أشكرك على صدق اخائك وتفانيك فى خدمة المبدأ الذى وهبنا حياتنا له لما استطعت الى ذلك سبيلا ، وحسبى أن أقول انك خير سلوى لى فى هذه الحياة ، التى كثرت أتعابى وهمومى فيها ؛ فكنتَ الأخ الممتاز والعون فى الشدائد »

هذه الرسائل التى تفيض اخلاصا وحنانا ونورا ، قد كتبها الفقيد على تعاقب السنين ، وهى تصور لنا مقدار حبه لفريد بك ، ومبلغ ما كان يجمع بينهما من الروابط الأخوية والوطنية التى دامت بين الصديقين طوال سنى الجهاد ، وجعلت منهما البطلين العظيمين اللذين بعثا فى نفوس الجيل روح الوطنية والاخلاص

(١) نشرنا صورته بالزنكجراف (ص ٢٣٣)

(خطاب الفقيد الى فريد بك فى ١٩ يوليه سنة ١٨٩٨)

باريس فى ١٩ يوليه ١٨٩٨

سلامى الخصوصى الى الدكتور احمد على
وارجوكم اعطاءه عنوانى الجديد كما انى
[illegible] الى نجل سعادة حسن باشا محمود ولده
اهدى سلامى لانيس بك

أخى الأعز حرسه الله

بعد تقبيل وجنتيك واهدائك اطيب السلام وصلنى صباح اليوم كتابك الكريم فقابلته بالترحاب والتكريم وكنت فى شغف شديد لاستطلاع اخبارك عن مدة ايام وليس ذلك بالزمن القليل

احمد الله مع وجودكم فى الصحة والسلامة واشكره على انى اولا فى صفاء من الراحة والسكون فانى متمتع بالصحة وسير الهضم منتظم الآن وتجدنى مواظبا على الاستحمام بالماء البارد حسب ارشادكم كل صباح وقد وزنت جسمى بالامس فوجدته قد زاد عما كان عليه بنيس (?) كيلو ونصف

لقد ادهشنى فى كتابك شكرك لى على مبادرتى باجابة طلبك ان هذا الشكر غير جميل ولا واجب ولكنه شكر غريب وعجيب فما بيننا من الود ومن كان يجهل ان مالك مالى ومالى مالك وحياتى حياتك وحياتك حياتى هذا ما اعتقده وما تعتقده انت فروحى تناجى روحك ابدا والاحساس فى كل لحظة وفى كل آن ودتك محبا اخا وفيا صادقا ووددت منى خادما صادقا للوطن المحبوب

اكتب لى باكر عن صحتك وارسل كتابك - ليوم الخميس اوضح لك ذلك قبل [illegible] كتابا اكتبه اليك باكر [illegible] فى [illegible] ونصف [illegible] علاوة على [illegible] الف قبلة من [illegible] الاول واخيك الثانى

مصطفى كامل

(خطاب الفقيد الى فريد بك فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٩٨)

باريس فى ٢٢ يوليه ٩٨

اخى العزيز [illegible]

اقبل وجنتيك الف مرة واهديك سلاما عاطرا واسال لك
الصحة الدائمة والسرور الكامل وارجو لك ان يسرك شفاء حرمك
المصون وسلامة نجلك الامين. [illegible]
ساعمل بامرك واقابل نوفيكوف احسن مقابلة [illegible]

ارجوك ان ترسل لى عدد المؤيد المؤرخ ٩ يناير من هذه
السنة وهو المشتمل على خطبة [illegible]
[illegible] احتفال [illegible] الخديوى لانى [illegible]
لترجمتها [illegible]

ساكتب لك كل اسبوع مرة على الاقل [illegible]
[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible]

8, Rue Balzac.



لطيف باشا سليم

من أعلام الحركة الوطنية . وهو نجل المرحوم سليم باشا الحجازى احد قواد الجيش المصرى فى عهد محمد على : تخرج من مدرسة اركان الحرب وتثقف ثقافة علمية وحربية عالية ، ثم تولى مهمة التدريس فى المدارس الحربية ، فكان خير معلم واستاذ ، ثم عين مفتشا بوزارة المعارف ؛ ثم مديراً للفيوم ، ثم رئيسا فخريا للمحكمة المختلطة ، واشتهر بأخلاقه العالية ووطنيته الصادقة وشجاعته واستقلاله ، كان عالما واسع الاطلاع ، شغوفا بالعلم والأدب ، ترك مكتبة حوت نفائس الكتب قديمها وحديثها ؛ وكان من زعماء الضباط الذين ثاروا بوزارة نوبار باشا على عهد الخديو اسماعيل فى فبراير سنة ١٨٧٩ ؛ وكان وقتئذ أستاذا بالمدرسة

الحربية ، وقد انتهت هذه الثورة بسقوط وزارة نوبار الأولى[1] وكان من أكبر أنصار الفقيد ومعضديه ؛ عرفه منذ كان طالباً بمدرسة الحقوق ، وكان واسطة التعارف بينهما نجله فؤاد باشا سليم ، صديق مصطفى الحميم ، وقد آنس فيه الاستعداد لبعث الحركة الوطنية فكان يقول عنه لنجله قبل أن يعظم شأنه « إنه الشعلة الوطنية المنتظرة » ؛ وقد صحت نبوءته ، وحققت الأيام فراسته وصدق نظره ، وظل طول حياته معضداً ومؤيداً له فى جهاده ، وقد حزن الفقيد لوفاته حزناً عميقاً كان له أثر شديد فى انتكاس صحته أثناء مرضه الأخير

كتب فى هذا الصدد الى مدام جولييت آدم بتاريخ ٧ يناير سنة ١٩٠٨ يقول:

« إنى مريض جداً منذ السابع عشر من شهر نوفمبر ؛ وقد بذلت مجهوداً فوق الطاقة لالقاء خطبتى فى الجمعية العمومية للحزب الوطنى » ؛ الى أن قال : « أما صحتى فهى بين اليأس والرجاء ، والأطباء مطمئنون الآن ، والسبب فى انتكاسى بعد خطبتى راجع الى مفاجأة المنون صديقا لى حميما كان من أشد وأكبر نصرائى وهو المرحوم لطيف باشا سليم »

وكانت وفاته قبيل فجر يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ولم يبلغ الخامسة والخمسين ، وقد نعاه مصطفى وهو مريض فقال عنه : « آخانا رحمه الله على صغر سننا ، فكان أخا رؤوفا ، وصديقا حميا ، ومواطنا محباً لبلاده حبا لا قدرة لكاتب أن يصفه » ؛ وقد انتقلت صداقته للفقيد الى نجله فؤاد باشا سليم حفظه الله ، فهو حافظ لوده وعهاه ، على مر السنين

---

(١) راجع تفصيل ذلك فى كتابنا (عصر اسماعيل) ج ٢ ص ٢٠٢ ومابعدها



علی بك فخری

من أوائل علماء القانون فى النهضة الحديثة ، انتظم فى سلك المناصب القضائية وتدرج فيها الى أن عين رئيساً لنيابة الاسكندرية الاهلية ، فكان بحكم منصبه عضواً بمجلسها البلدى ، وظهرت هنالك مواهبه من الذكاء والقريحة الوقادة والاستقلال فى الرأى والغيرة على شؤون الوطن ، وقد برزت شخصيته الساطعة فى المجلس البلدى ، وكان يساجل الأعضاء الأورو بيين الرأى ويناقشهم مناقشات ظهرت فيها قوة حجته واحتفاظه بكرامته ، فمثل العنصر الوطنى فى المجلس خير تمثيل ، ونال احترام زملائه الوطنيين والأجانب ، وارتقى فى المناصب القضائية فعين قاضياً بالمحاكم المختلطة ثم مستشارا بها ، وكسب احترام القضاة والمستشارين الاجانب حتى

صاروا يرجعون الى رأيه فى المشكلات القانونية ، وكان من أصدق أصدقاء مصطفى كامل ومن أكبر نصرائه ، توفى فى شهر يونيه سنة ١٩٠٦ ولم يكن يبلغ الخمسين من عمره ، وقد نعاه مصطفى فى اللواء نعياً مؤثرا دل على انه من أقطاب الحركة الوطنية ؛ وسماه (فقيد الوطن والبلاد) ؛ ويعد نعيه صفحة حية من التاريخ الوطنى ؛ ومن أبلغ ما كتب المترجم ، قال : « إن الفقيد كان أخا لنا نسترشد برأيه ، ونعتمد على فكره ؛ ونعتز بوجوده ؛ ونفتخر بعلمه وفضله، ووطنيته وحميته ، وعواطفه الحية السامية ، واحساساته الراقية ، فقدنا بموت ذلك الفقيد العظيم واحدا يفدى بآلاف من الرجال ، اذا ذكر العلم كان حامل رايته، وإن ذكر الحق كان أكبر ناصر له ، وإن ذكر العدل كان أكبر مشيد لأركانه، وإن ذكرت مكارم الأخلاق كان انسانها ؛ وان ذكرت الوطنية كان مثالها ، وإن ذكرت البلاد وحقوقها كان أشرف وأصدق خادم لها ، فكيف لا يكون مأتمه مأتم القطر وبنيه ، والأسف على وفاته فى كل قلب والحداد على موته فى كل دار : ارتبطنا بالفقيد من سنوات طوال برابطة الصداقة والاخاء : والاتحاد فى الرأى والفكر والشعور ، وهى أمتن الروابط وأقواها ، فعرفنا فيه مصريا لا تهزه الحوادث ، ولا تثبط عزيمته النوائب ؛ ولا تضعف آماله المصائب ، يتقد غيرة على مصالح وطنه ؛ ويمسى ويصبح وهو مفكر فى استقلاله وعزه ونعيمه ؛ اذا تكلم عنه سمعت الوطنى الحر الذى امتلأ فؤاده حبا لبلاده وحنانا عليها ؛ كان الفقيد البرهان الحى على كفاءة المصرى وسمو مداركه واستعداد هذا الشعب الكريم لأن يخرج النابغين من الرجال ، كان رحمه الله على جانب عظيم من الدعة ورقة الاخلاق ، مع ما اشتهر به من الاستقلال التام فى فكره والمجاهرة برأيه مع كل انسان وأمام كل انسان ، كنا اذا حادثنا الفقيد شعرنا بارتياح هائل لمحادثته ، وأسف عظيم على حالة هذا الوطن العزيز ؛ نرتاح لكلام نابغة عالى الفكر سامى الشعور ؛ طاهر القلب شريف الميول ، ونأسف على حالة الوطن لأن الفقيد مع

ماأراد له من الخدمات الجليلة النادرة كان يستطيع خدمته اكثر من ذلك لو كانت مصر مستقلة ، وأمرها بيدها ، إن الفقيد كان مؤهلا بفطرته وعلومه وأخلاقه وآرائه وهمته واقتداره لان يكون من اكبر قادة الأمم وباعثى روح الحياة والنهوض فيها ؛ فلذلك كان موته مصابا جسيما، مصابا لنا بالذات نعزّى فيه : لأننا فقدنا أخا حقيقيا لا يعوض ، ومصابا لكل مصرى، لأن الوطن فقد بموته واحدا يشرفه ويرفع قدره ويسليه بعلمه وعمله على همومه ومصائبه الجسام »

أصدقاؤه وأنصاره

لا سبيل الى أن نحصر هنا بقية أصدقاء الفقيد وأنصاره جميعهم ، وانما نذكر على سبيل المثال من وعتهم الذاكرة ، وهم (عدا من ذكرنا) : الأمير محمد ابراهيم (انظر ص ١٥٨) . الأمير حيدر فاضل . فؤاد بك سليم (باشا) . عمر بك سلطان (باشا) . على بك فهمى كامل شقيق الفقيد . اسماعيل بك شيمى . الدكتور محمود بك لبيب محرم . على بك حسنى المصرى . عمر بك لطفى . احمد بك لطفى . محمود بك سالم . عبدالمجيد بك رضوان رئيس نيابة مصر (توفى فى يناير سنة ١٩٠٤) . الاستاذ ويصا واصف (رئيس مجلس النواب الأسبق) . مرقس بك حنا (باشا) . رضوان بك شريف . احمد فايق باشا . حسن باشا حارس . اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين . عبدالحميد صادق باشا رئيس مجلس شورى القوانين . يوسف صديق باشا . الفريق حسن باشا رضوان . الدكتور حسن باشا محمود . محمد بك طلعت حرب (باشا) . عزت بك شكرى . احمد بك الصوفانى . عبد اللطيف بك الصوفانى . عبدالحميد بك عمار . عبدالرحيم بك احمد . احمد بك يحيى (باشا) . امين بك يحيى (باشا) . عبدالفتاح بك يحيى (باشا) . حسين بك القرشوللى . مصطفى بك سرى . عثمان بك لبيب . محمود بك أنيس . احمد بك نجيب (مؤلف كتاب حماة الاسلام) . عبد الخالق بك ثروت (باشا) . حسين رشدى باشا . محمد بك سعيد (باشا) . حسين بك حسنى العمرى .

عبدالباقى بك العمرى . الشيخ عبدالعزيز جاويش . الشيخ عبد المجيد اللبان .
محمد ماهر باشا . اسماعيل بك صدقى (باشا) . سيد باشا شكرى . على باشا آصف .
الدكتور محمود بك ناشد . الدكتور حسين يسرى بك . سيف الله باشا يسرى .
الدكتور اسماعيل صدقى بك . الدكتور محمود عبدالوهاب بك . حسن باشا عاصم .
حسين باشا واصف . الشيخ عبدالوهاب النجار . اسماعيل بك حافظ . الدكتور
على بك سلام (الاسكندرية) . مصطفى بك عزت . الاستاذ دافيد حزان . الاستاذ
محمد بك توفيق . عبدالقادر بك الغريانى . محمد بك أسعد . محمد بك حسنى يكن .
عثمان باشا ماهر . عبدالعزيز بك فريد . الدكتور احمد على . محمود بك حسيب .
شمس الدين بك حموده . اسماعيل بك لبيب . محمد بك فهمى حسين . محمود بك
أبوالنصر . محمد خلوصى بك . عبدالله بك طلعت . ابراهيم افندى حافظ . يوسف
بك ذهنى . على بك حشمت . محمد بك رشوان . الشيخ مصطفى القاياتى . الشيخ
محمود ابوالعيون . على بك لهيطه . يوسف بك حافظ . ابراهيم بك حفظى . اسماعيل
بك الملوانى . محمد عبد اللطيف الصيدلى . الدكتور محمد بك على دويدار . محمود
بك فهمى حسين . الدكتور احمد فهمى الجهينى . الدكتور نصر فريد . الحسينى
افندى العسقلانى . على بك المنزلاوى . محمود بك الشيشينى . حسن بك خيرى
(باشا) . محمد توحيد بك السلحدار . محمد بك احمد الشريف . مصطفى بك
الخادم . محمد بك توفيق زاهر . الدكتور عبد العزيز نظمى بك . الاستاذ محمد
بك رمضان . محمد على علوبه باشا . اسماعيل افندى كامل . مصطفى بك رشيد .
احمد بك حجازى . حسن محسن باشا . عثمان بك ابو شنب . حسن بك جمجوم .
توفيق بك حموده . حافظ افندى مصطفى . سعيد بك طليمات . الدكتور السيد
بك رفعت . محمد افندى لمعى المهندس . عبد الخالق مدكور باشا . محمد بك على
دلاور . حسن بك حمدى . الدكتور محجوب ثابت . الشيخ محمد رفعت . محمد
بك حبيب المهندس . الاستاذ محمود بك بسيونى (رئيس مجلس الشيوخ السابق) .

حسن بك نبيه المصرى (وكيل مجلس الشيوخ). الدكتور احمد بك السعيد (اسيوط). الاستاذ محمد كامل مرتجى . امين بك اسماعيل . الاستاذ حسن عبد المعطى . الميرالاى محمود بك حلمى اسماعيل . الميرالاى على بك اسماعيل . محمود بك محرم رستم . محمد بك لبيب البتانونى . حسن بك رضا . بشاره باشا تقلا . الاستاذ داود بركات . جبرائيل تقلا بك (باشا) . فؤاد بك حسيب . انطون بك الجميل . حافظ بك المنشاوى (باشا) . محمد فؤاد بك المنشاوى . يوسف بك المنشاوى . السيد رضوان جلال وأخوه عثمان افندى جلال رئيس قلم قضايا السكة الحديد . على بك ابو الفتوح (باشا) . محمد ابو الفتوح باشا . اسماعيل بك العسيلى . خليل بك محمود الفلكى . اسماعيل بك صادق . مصطفى بك الشوربجى من أعيان بريم . الشيخ على الغاياتى . محمد كامل بخاتى بك . محمد افندى الكازه . محمود افندى حمدى السخاوى . المرحوم محمود افندى على منصور . الشيخ حسن خفاجى (الاسكندرية) . محمود افندى على ناصر . الشيخ صالح الشهابى . ابراهيم عبد الواحد . الشيخ محمود عبد الغنى . محمد عبد الكريم (سيدى جابر) . حسن افندى سيف . عبد الله بك محمد الصيدلى . شعبان افندى خليفة . احمد افندى ابراهيم القويضى . محمود افندى كمل . محمد عبد القادر القط . محمد افندى عبد اللطيف التاجر . عبد الرازق افندى الحبشى . صالح بك القاضى . السيد افندى الشنيطى . ابراهيم افندى انيس . محمد افندى بسيونى طنش . على افندى ابو النظر . محمد افندى رشدى . السيد افندى الخطيب . محمد افندى مرسى النحاس . عبد اللطيف افندى الصاوى . اليوزباشى محمود لطفى الازميرلى . شيخ العرب سليمان على مطيريد الخ الخ

تلاميذه

نقصد بتلاميذه من أدركوه واعتنقوا مبادئه أو اقتبسوا من روحه الوطنية (ولو الى وقت محدود) ، وهم أيضا لاسبيل الى حصرهم ، ولكننا نذكر من

تحضرنا أسماؤهم ، وسنرتبهم قدر ما استطعنا بحسب طبقاتهم وهم :

احمد افندى حلمى المحرر باللواء . مصطفى بك النحاس (باشا) (١). الاستاذ عبد القادر حمزه (باشا) . محمد بك حافظ رمضان (باشا) . على بك الشمسى (باشا) . امين افندى عمر . سيد افندى على . الاستاذ محمد صادق عنبر . الاستاذ حسين فهمى بهجت . محمود خيرى باشا . الاستاذ محمد لطفى جمعة . امين بك الرافعى . الاستاذ احمد وجدى . عبد الرحمن بك الرافعى . الدكتور عبد الحميد سعيد . الاستاذ احمد وفيق . الدكتور حافظ عفيفى باشا . مصطفى بك الشوربجى . محمد بك زكى على . الاستاذ عبد المقصود متولى . الدكتور عبد الغفار متولى . ابراهيم بك راتب . الدكتور فؤاد بك سلطان . الدكتور منصور بك فهمى . الاستاذ محمود عزمى . الاستاذ احمد فايق . الدكتور عبد الحميد ابو هيف بك . عبد السلام بك ذهنى . محمد بك صادق جلال . امام افندى واكد . حامد بك العلايلى . الاستاذ حسن حسنى . محمد بك فؤاد حمدى . الدكتور احمد فؤاد . عبد الملك بك حمزه . اسماعيل بك كامل . اسماعيل بك شيرين . حسين بك شيرين . كمل بك الخشن . الامير افندى العطار . احمد بك فهمى القطان . محمد على بك المهندس . عوض بك البحراوى . عبد الرحمن بك عزام . الدكتور سيد عبد الحميد سليمان باشا . احمد مختار المهندس . الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى . الاستاذ على فهمى خليل . الاستاذ حسن شافعى الجيزاوى . الدكتور منصور رفعت . ابراهيم بك دسوقى اباظه . الاستاذ عبد الخالق عطية . الدكتور شفيق منصور . الاستاذ محمود خيرت . الدكتور عبد العزيز عمران .

---

(١) كان مصطفى بك النحاس (باشا) وهو قاض بالمحاكم الاهلية يفخر باعتناق مبادئ الحزب الوطنى ، وقد انتخب من أجل ذلك وكيلا لنادى المدارس العليا ، وفى سنة ١٩١٨ اختاره الوفد المصرى عضوا فيه باعتباره ممثلا للحزب الوطنى هو والدكتور حافظ بك عفيفى (باشا) .

الاستاذ عبد الوهاب البرعى. الدكتور يحيى الدرديرى . عمر بك عارف. الدكتور منصور القاضى . الدكتور حسين همت . الدكتور احمد توفيق . الاستاذ اسماعيل مظهر . الاستاذ محمود العمرى . على بك مراد . هاشم بك مهنا . الاستاذ محمد عرارجى . الاستاذ سليمان حافظ . احمد افندى رمضان زيان : محمد افندى فهمى بشير . الشيخ عبد الباقى نعيم سرور . محمد افندى عوض جبريل . عبد الوهاب افندى على . عبد الله افندى حسن عوض . المرحوم على افندى صادق (الاسكندرية) الخ الخ

معاصروه من الشعراء والادباء

كان لظهور الدعوة الوطنية التى بثها مصطفى كامل أثر كبير فى تطور الشعر فى مصر ، واتجاهه الى الناحية الوطنية ، التى لم يطرقها الشعراء من قبل ، وبدا هـذا الاتجاه فى قصائد فحول الشعراء المعاصرين للمترجم ؛ فان قرائحهم بتأثير دعوة الفقيد ، قد فاضت بالشعر الوطنى ، وسـارت النهضة الأدبية الى جانب النهضة الوطنية ، تغذيها وتؤيدها ، وتسجل حوادثها ، وتعبر عن آلامها وآمالها ، وردد الشعر صدى الحركة السياسية فى الحوادث الهامة

حافظ ابراهيم

فمن ذلك أن حادثة دنشواى لقيت صداها فى شعر حافظ ابراهيم ، فأنشأ فى يوليه سنة ١٩٠٦ قصيدته المشهورة عن الحادثة ؛ ندد فيها بسياسة الاحتلال ، وقال فى مطلعها مخاطبا المحتلين :

قصيدة حافظ فى حادثة دنشواى

أيها القائمون بالأمر فينا ... هـل نسيتم ولاءنا والودادا

خفّضوا جيشكم وناموا هنيئاً ... وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا

واذا أعوزتكم ذاتُ طوقٍ (١) ... بين تلك الربا فصيدوا العبادا

(١) ذات طوق أى الحمامة

إنما نحن والحمامُ سواءٌ ... لم تغادر اطواقُنا الأجيادا [١]

لاتظنوا بنا العقوقَ ولكن ... أرشدونا اذا ضللنا الرشادا

لا تُقيدوا من أمة بقتيل ... صادت الشمس نفسَه حين صادا [٢]

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ :

جاء جُهّالُنا بأمرٍ وجئتم ... ضعفَ ضعفيه قسوةً واشتدادا

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أقصاصاً أردتمُ أم كيادا

أحسنو القتل إن ضننتم بعفو ... أنفوساً أصبتمُ أم جمادا

ليت شعرى أتلك محكمة التفـ ... تيش عادت أم عهد (نيرون) عادا

كيف يحلو من القوى التشفّى ... من ضعيفٍ ألقى اليه القيادا

إنها مُثلةٌ تَشُفّ عن الغيـ ... ظ ولسنا لغيظكم أندادا

اكرمونا بارضنا حيث كنتم ... انما يكرم الجَوادُ الجوادا

وقد كان الفقيد شديد الاعجاب بشعر حافظ وأدبه ، وعند ماظهر الجزء الاول من ديوانه سنة ١٩٠١ قرظه فى اللواء [٣] تقريظا يدل على عظم تقديره لشاعر النيل ، وأسهب فى الثناء عليه حين عرب كتاب (البؤساء) سنة ١٩٠٣

قصيدة حافظ

فى حفلة مدرسة مصطفى كامل

وكان حافظ معجبا بوطنية مصطفى رغم صداقته وصلاته بخصومه

(١) يريد بالاطواق هنا سلاسل الاسر والاستعباد ، والاجياد الاعناق جمع جيد

(٢) أى لاتأخذوا الامة بقتيل ثبت انه مات بضربة الشمس وهو الكبتن بول (انظر ص ٢٠٢) ، وأقاد الحاكم القاتل بالقتيل أى قتله به قودا

(٣) عدد ٩ اكتوبر سنة ١٩٠١

السياسيين : وظهر إعجابه به وتأييده له بكل جوارحه فى قصيدته التى ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ فى احتفال مدرسة مصطفى كامل تعليقاً على خطبة الفقيد ، قال فى مطلعها :

سمعنا حديثاً [١] كقطر الندى ... فجدد فى النفس ماجددا
وأضحى لآمالنا منعشاً ... وأمسى لآلامنا مرقدا

وقال يستثير فى النفوس روح الامل والحياة ، وهى الدعوة المحببة الى الفقيد

فديناك ياشرق لاتجزعن ... اذا اليوم ولى فراقب غدا
فكم محنة أعقبت محنة ... وولت سراعا كرجع الصدى
فلا ييئسنك قيل العداة ... وإن كان قيلاً كحز المدى [٢]
أتودع فيك كنوز العلوم ... ويمشى لك الغرب مسترفدا [٣]
وتبعث فى ارضك الانبياء ... ويأتى لك الغرب مسترشدا
وتقضى عليك قضاة الضلال ... طوال الليالى بأن ترقدا ؟
أتشقى بعهد سما بالعلوم ... فأضحى الضعيف بها ايدا [٤]
اذا شاء بز السها سره ... وأدرك من جريه المقصدا [٥]
وان شاء أدنى اليه النجوم ... فناجى المجرة والفرقدا [٦]

---

(١) يقصد خطبة مصطفى كامل فى الحفلة
(٢) المدى بالضم جميع مدية وهى السكين
(٣) مسترفدا أى يطلب الرفد وهو العطاء .
(٤) الايد بتشديد الياء القوى من الايد بمعنى القوة
(٥) بزه سلبه والسها الكوكب المعروف ، أى اذا شاء ذو العلم سلب من السها سره وأظهره للناس
(٦) المجرة والفرقد نجوم فى السماء

وإن شاء زعزع شُمَّ الجبال نخرت لاقدامه سُجَّدا
وان شاء شاهد فى ذَرَّةٍ عوالم لم تحْىَ فيها سدى
زمانٌ تُسخَّرُ فيه الرياح ويَغْدو الجمادُ به مُنشِدا[1]
وتَعنو الطبيعةُ للعارفين بمعنى الوجود وسِرّ الهُدى
اذا ما أهابوا أجابَ الحديدُ وقام البخارُ له مُسْعِدا[2]
وطارَتْ اليهم من الكهربا بُروقٌ على السِّلك تَطوى المَدَى

***

أيَجْمل من بعد هذا وذاك بأن نَستكين وأن نجْمُدا ؟
وها أمّةُ (الصفر) قد مَهّدت لنا النهجَ فاستبقوا الموردا[3]

وقال فيها مخاطبا الشباب :

فيا أيها الناشئون اعملوا على خير مصر وكونوا يدا
ستُظهِر فيكم ذواتُ الغيوب[4] رجالا تكون لمصر الفِدا
فياليت شعرىَ مَن منكمُ اذا هى نادت يلبّى الندا

وقال فى ختامها مخاطبا مصطفى كامل :

لَكَ الله يا (مصطفى) من فتىً كثير الأيادى كثير العدا
اذا ماحمدتُكَ بين الرجال فأنت الخليقُ بأن تحمدا
سيُحصِى عليك سجلُّ الزمان ثناءً يُخلَّد ما خُلِّدا

---

(١) يشير الى الطيران والفونوغراف
(٢) مسعدا أى معينا
(٣) أمة الصفر أى اليابان
(٤) ذوات الغيوب أى الاقدار التى فى عالم الغيب

ويهتف باسمك ابناؤنا إذا آن للزرع أن يُحصدا

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ ، وتأمل فى البيت الأخير منها تجد حافظا يقر لمصطفى بأنه الموجد للحركة الوطنية ، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عند ماتجنى ثمار هذه الحركة ، وقد ظل على هذا الرأى بعد وفاة الفقيد وبعد ظهور زعامة سعد باشا زغلول للحركة سنة ١٩١٨ ، وجهر به فى رثائه المغفور له محمد فريد فى ديسمبر سنة ١٩١٩ إذ قال مناجيا روح فريد بك :

قُلْ (لِصَبِّ النيل[1]) إن لاقيته فى جوار الدائم الفرد الصَّمدْ
إن مصراً لا تَنِي عن قصدها رغم ماتلقى وإن طال الأمدْ
جئت عنها أحمل البشرى الى (أول البانين) فى هذا البلدْ
فاسترحْ واهنأ ونَمْ فى غِبطةٍ قد بذرتَ الحبَّ والشعبُ حَصَدْ

فحافظ يعترف هنا ايضا لمصطفى بانه أول البانين فى صرح الحركة الوطنية ، وبأنه بذر الحَبّ وان الشعب حصد وجنى ثمار مابذر ، ورأى حافظ سنة ١٩١٩ هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة ١٩٠٦ .

واقتبس حافظ من روح مصطفى ، وايده فى دعوته الوطنية : وردد صداها فى شعره ، اعتبر ذلك فى قصيدته عن حادثة دنشواى (ص ٣٦٨) وقصيدته فى حفلة مدرسة مصطفى كامل (ص٣٧٠)، ثم قصيدته فى استقبال اللورد كرومر عند عودته الى مصر فى اكتوبر سنة ١٩٠٦ بعد حادثة دنشواى قال :

قصيدة حافظ فى استقبال اللورد كرومر بعد حادثة دنشواى

(قصرَ الدوبارة [2]) هل أتاك حديثُنا فالشرقُ رِيعَ له وضَجَّ المغربُ

(١) يريد مصطفى كامل
(٢) يريد قصر المعتمد البريطانى

أهلاً بساكنك الكريم ومرحباً بعد التحية إنني أتعتب
نقلت لنا الأسلاكُ عنكَ رسالةً باتت لها أحشاؤنا تتلهب

الى أن قال

إنْ ضاقَ صدرُ النيل عمّا هاله يومَ الحمام[1] فان صدرك أرحب
أو كلما باح الحزين بأنةٍ أمست الى معنى التعصب تنسب[2]
رفقاً عميدَ الدولتين بأمة ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
رفقاً عميدَ الدولتين بأمة ليست بغير ولائها تتعذب
إن أرهقوا صيّادكم فلأنهم للقوت لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضنّ الفقيرُ بقوته وسخا بمهجته على من يغصب
في (دنشواى) وأنت عنا غائب لعب القضاءُ بنا وعزّ المهرب
حسبوا النفوسَ من الحمام بديلةً فتسابقوا فى صيدهن وصوّبوا
نُكبوا وأقفرت المنازل بعدهم لو كنتَ حاضرَ أمرهم لم ينكبوا
خلّيتهم والقاسطون[3] بمرصدٍ وسياطهم وحبالهم تتأهب
جُلدوا ولو منّيتهم لتعلّقوا بحبال من شُنقوا ولم يتهيّبوا
شُنقوا ولو مُنحوا الخيارَ لأهّلوا بلظى سياط الجالدين ورحّبوا[4]
يتحاسدون على الممات وكأسُه بين الشفاه وطعمه لا يعذُب
موتان : هذا عاجلٌ متنمّرٌ يرنو ، وهذا آجلٌ يترقب

(١) يوم الحمام يوم صيد الحمام فى حادثة دنشواى
(٢) يشير الى مازعم اللورد كرومر من أن التعصب الدينى هو سبب حادثة دنشواى
(٣) القاسطون الظالمون
(٤) اهلوا ورحبوا أى قالوا أهلاومرحبا

والمستشارُ مــكاثِرٌ برجاله ومُعاجزٌ ومناجز ومُحزِّب (١)
يختالُ فى أنحائها متبسماً والدمع حول ركابه يتصبب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا هو خيرُ ما يرجو العميد ويطلب
حبٌ يحاولُ غرسه فى أنفس يُجنَى بغرسها الثناءُ الطيب
كن كيف شئتَ ولا تكلْ أرواحنا للمستشار فان عدلك أخصب
وأفِضْ على (بند) اذا وَلى القضا رِفقاً يهشّ له القضاء ويطرب

وقصيدته فى شكوى مصر من الاحتلال وقد نشرت فى يناير سنة ١٩٠٧:

قال : قصيدة حافظ فى شكوى مصر من الاحتلال

لقد كان فينا الظلمُ فوضى فهذِّبتْ حواشيه حتى بات ظلما منظَّما
تمنُّ علينا اليوم أن أخصب الثرى وأن أصبح المصرىُّ حُرّاً منعما
أعِدْ عهدَ (اسماعيل) جلداً وسُخرةً فانى رأيتُ المنَّ انكى وآلما
عملتم على عِزّ الجماد وذُلّنا فأغليتمُ طيناً وأرخصتمْ دماً
اذا أخصبَتْ أرضٌ وأجدبَ أهلُها فلا أطْعَمتْ نبتاً ولا جادَها السّما
نهشُّ الى الدينار حتى اذا مشى به ربه للسوق الفاهُ درهما
فلا تحسبوا فى وَفْرةِ المال لم تُفِدْ متاعاً ولم تعصم من الفقر مَغْنَما
فان كثير المال والخفْضُ وارفٌ قليلٌ اذا حَلّ الغلاءُ وخَيَّما (٢)

وقصيدته التى قالها عند استقالة اللورد كرمر فى ابريل سنة ١٩٠٧ قال فيها

---

(١) يريد الكبتن متشل مستشار وزارة الداخلية وكان يشرف على تنفيذ الحكم ، ومعاجز من عاجزت الرجل اذا اتيت بما يجعله عاجزا ، وحزب أى جمع اعوانه واحزابه فبعضهم يتولى الشنق والبعض يتولى الجلد

(٢) الخفض سعة العيش . يريد ان كثرة المال مع غلاء الاسعار لاتغنى شيئا

قصيدة حافظ فى استقالة اللورد كرومر

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى ... فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا

لقد حان توديع العميد وإنه ... حقيق بتشييع المحبين والعدا

فودع لنا الطود الذى كان شامخا ... وشيع لنا البحر الذى كان مزبدا

الى أن قال :

يناديك قد أزريت بالعلم والحجا ... ولم تبق للتعليم يا (لورد) معهدا

وأنك أخصبت البلاد تعمدا ... واجدبت فى مصر العقول تعمدا

قضيت على أم اللغات ، وانه ... قضاء علينا أو سبيل الى الردى[1]

ووافيت والقطران فى ظل راية ... فما زلت (بالسودان) حتى تمردا[2]

فطاح كما طاحت (مصوع) بعده ... وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى

حجبت ضياء الصحف عن ظلماته ... ولم تستقل حتى حجبت (المؤيدا)[3]

وأودعت تقرير الوداع مغامزاً ... رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا

غمزت بها دين النبى وإننا ... لنغضب ان أغضبت فى القبر (احمدا)

يناديك أين النابغون بعهدكم ... وأى بناء شامخ قد تجددا

فما عهد (اسماعيل) والعيش ضيق ... بأجدب من عهد لكم سال عسجدا

يناديك وليت الوزارة هيئة[4] ... من الصم لم تسمع لأصواتنا صدى

فليس بها عند التشاور من فتى ... أبى اذا ما أصدر الأمر أوردا

---

(١) أم اللغات أى اللغة العربية ويشير الى محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دراسة العلوم فى أكثر المدارس باللغة الانجليزية

(٢) وافيت أى جئت . والقطران أى مصر والسودان

(٣) ظلماته أى ظلمات السودان وحجبت المؤيد أى منعته عن دخول السودان

(٤) وزارة مصطفى فهمى باشا

بربك ماذا صدّنا ولوى بنا   عن القصد ان كان السبيل ممهدا ؟
أشرت برأيٍ فى كتابك لم يكن   سديدا ولكن كان سهما مسددا
وحاولت اعطاء الغريبِ مكانةً   تجر علينا الويل والذّلّ سرمدا
فياويل مصر يوم تشقى بندوةٍ   يبيتُ بها ذاك الغريب مُسَوَّدا(١)
ألم يكفنا انا سُلبنا ضياعنا   على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا فى العيش كل ممارسٍ   خبير وكنا جاهلين ورُقّدا
وما الشركاتُ السودُ فى كل بلدة   سوى شَركٍ يُلْقِي به من تَصَيّدا

ويبدو مبلغ تقدير حافظ للفقيد فى قصيدته التى ألقاها على قبره يوم تشييع جنازة الزعيم ، وقصيدته فى حفلة الاربعين (وقد نشرناهما ص ٢٧٩ و ٢٩١)

وله قصيدة ثالثة القاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ فى الاحتفال باحياء ذكراه الاولى ، وهى من أبلغ روائع الشعر العربى ، قال فيها :

قصيدة حافظ فى الذكرى الاولى للفقيد

طُوفوا باركان هذا القبر واستلموا(٢)   واقضوا هنالك ماتقضى به الذممُ
هنا جَنانٌ تعالى الله بارئه   ضاقت بآماله الاقدارُ والهمم
هنا فَمٌ وبَنانٌ لاح بينهما   فى الشرق فجرٌ تُحيِّي ضوءَه الأمم
هنا فَمٌ وبنانٌ طالما نثرا   نثراً تسيرُ به الأمثالُ والحِكَمَ
هنا الكَمِيُّ(٣) الذى شادَتْ عزائمهُ   لطالب الحق رُكْناً ليس ينهدم
هنا الشهيدُ ، هنا ربُّ اللواء ، هنا   حامى الذّمار ، هنا الشَّهمُ الذى علموا

***

---

(١) يشير الى مشروع اللورد كرومر فى انشاء مجلس تشريعى مختلط
(٢) استلم القبر قبله أو لمسه بيده
(٣) الشجاع

يأيها النائم الهانى بمضجعه ... ليهنك النوم لاهمّ ولا سَقَم
باتت تسائلنا فى كل نازلة ... عنك المنابرُ والقرطاسُ والقلم
تركت فينا فراغا ليس يشغله ... الا ابىٌّ ذكىُّ القلب مضطرم
منفّر النوم[1] سبّاقٌ لغايته ... آثاره عَمَمٌ - آماله أمَم

***

إنى أرى وفؤادى ليس يكذبنى ... رُوحاً يَحُفُّ بها الاكبارُ والعظم
أرى جلالاً ، أرى نوراً ، أرى مَلَكاً ... أرى مُحيّاً يحيّينا ويبتسم
اللهُ اكبرُ ، هذا الوجهُ أعرفُه ... هذا فتى النيل ؛ هذا المُفْرد العَلَم
غُضّوا العيونَ وحيّوه تحيّتَه ... من القلوب اذا لم تُسعِد[2] الكلم
وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه ... فنحن فى موقف يحلو به القسم

***

لبّيكَ نحن الأولى حركتَ انفسَهم ... لما سكنْتَ ولما غالك العدمُ
جئنا نؤدى حسابا عن مواقفنا ... ونستمدّ ونستَعْدِى[3] ونحتكم
قيل اسكتوا فسكتنا ثم أنطقنا ... عسفُ الجفاة[4] وأعلى صوتَنا الألم
قد اتُّهمنا ولما نَطّلبْ جَللاً ... إن الضّعيفَ على الحاكمين متّهم
قالوا لقو ظلمُوا بالحقّ أنفسهم ... واللهُ يعلمُ انّ الظالمين هم
اذا سكتْنا تناجَوْا ، تلك عادتُهم ... وان نطقنا تنادَوا : فِتْنَةٌ عَمَم

(١) منفر النوم أى مسهد
(٢) أسعده اعانه
(٣) نستمد نطلب المدد ونستعدى نستنصر
(٤) يريد بالجفاة المحتلين

قد مرّ عامٌ بنا والأمرُ يحزُبنا (١) آناً وآونةً تنتابُنا النِّقَم
فالناسُ في شدّةٍ والدّهرُ في كَلَبٍ (٢) والعَيْشُ قدحارَ فيه الحاذِقُ الفهِم
وللسياسَةِ فينا كلّ آونةٍ لونٌ جديدٌ وعهدٌ ليس يُحترَم
بينا نَرى جمرَها تُخشى مَلامِسُه اذا به عند لَمسِ المُصطَلي فَحَم
تصغى لأصواتنا طوراً لتخدعَنا وتارةً يزْدَهِيها الكِبرُ والصَّمَم
فمن ملايَنَةٍ أستارُها خدَعٌ الى مُصالَبةٍ أستارُها وَهَم
ماذا يريدون (٣) ؟ لاقرّت عيونهم إن الكنانة لا يُطوَى لهـا عَلَم
كم أمة رغبتْ فيها فما رسخت لها — على حولها (٤) — في أرضها قدم
ما كان ربك ربُّ البيت تاركها وهي التي بحبالٍ منه تعتصم
لبيك إنا على ما كنت تعهده حتى نسود وحتى تشهد الأمم
فيعلمَ النيل أنّا خيرُ من وَرَدوا ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم

الى أن قال :

يا أيها النشءُ سيروا في طريقته وثابروا ، رضى الأعداءُ أو نقموا
فكلكم (مصطفى) لو سار سيرته وكلكم (كامل) لو جازه (٥) السأم
قد كان لا وانياً يوماً ولا وكِلاً (٦) يستقبل الخطب بسّاماً ويقتحم

---

(١) حزبه الامر اشتد عليه
(٢) الكلب الشدة
(٣) يريد المحتلين
(٤) الحول القوة
(٥) جازه أي جاوزه
(٦) الوكل العاجز الذي يكل الامر الى غيره .

وانت ياقبر قد جئنا على ظمأ ‏ ‏ فجد لنا بجواب ، جادك الدّيم [1]
أين الشبابُ الذى أُودعتَ نضرته ‏ ‏ اين الخلال — رعاك الله — والشيم؟
وما صنعت بآمالٍ لنا طُويت ‏ ‏ ياقبرُ فيك وعفّى رسمها القِدم ؟
ألاَ جوابٌ يُروّى من جوانحنا ‏ ‏ ما للقبور اذا ما نوديت تجمُ ؟ [2]
نم أنت،يكفيك ما عانيت من تعب ‏ ‏ فنحن فى يقظة والشمل ملتئم
هذا (لواؤك) خفّاقٌ يظلنا ‏ ‏ وذاك شخصك فى الاكباد مُرتسم

شوقى

أما شوقى بك ، أمير الشعراء ، فقد كان صديقا حميما للفقيد ،وكلاهما معجب بصاحبه أيما اعجاب ، ولا غرو فهما صنوان ،وفرسا رهان ، هذا فى ميدان الوطنية والجهاد ، وذاك فى دولة الشعر والبيان ، وكان الفقيد يصف شوقى بأنه « الغدير الصافى فى الفاف الغاب ، يسقى الارض ولا يبصره الناظرون » ؛ وكان يخصص لقصائده أسمى مكان فى اللواء ، وفى ذلك يقول فى مرثاته الخالدة :

قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى ‏ ‏ وتجلّ فوق النيّرين مكانى

وزار الفقيد وهو على فراش مرضه الأخير فطلب اليه أن يرثيه ؛ وفى ذلك يقول :

وجعلتَ تسألنى الرثاء فهاكه ‏ ‏ من أدمعى وسرائرى وجنانى

وكان لدعوة مصطفى أثرها فى شعر شوقى ؛ فمن ذلك أنه لما دعا الأمة سنة ١٩٠٢ الى الاحتفال بالعيد المئينى لولاية محمد على (ص ١٥٩) ، لبى شوقى

---

(١) الديم جمع ديمة السحاب
(٢) وجم يجم سكت عن الكلام

نداءه ؛ وأنشأ فى مايو سنة ١٩٠٢ قصيدة من غرر قصائده تخليداً لهذا العيد [1] ، قال فيها مناجياً روح محمد على :

قصيدة شوقى فى الاحتفال

بالعيد المئينى لولاية محمد على

عَلَمٌ أنتَ فى المشارق مُفردْ   لكَ فى العالمين ذكرٌ مخلّدْ

حبذا دولةٌ وملكٌ كبيرٌ   أنت بانى ركنيهما يا محمدْ

ولواءٌ فى البر والبحر يُعطى   مظهر الشمسِ فى الوجود وأزيد

تُدخلُ الأرض فيه قطراً فقطراً   مُدخَلَ الناس فى شريعة أحمد

عالاً الأرض صافنات وتُجرى   لك فى البحر كلّ برج مشيّد

هكذا فلينلْ سماءَ المعالى   من سعى فى الورى لمجد وسؤدد

همةٌ تبتنى الممالك شما   ءَ ورأىٌ يسوسُهن مسدّد

وثباتٌ فى الحادثات وعزمٌ   مثلُ ريب الزمان لا يتردد

تضع السيف موضعا يرتضيه   ومن البأس ما يذمّ ويُحمد

وتصون النوالَ عن حسن صُنع   لكَ يُنسى ونعمة لك تجحد

لا تُبالى بحاسدٍ وعدو   آية الفضل أن تُعادى وتحسد

همةُ الفاتحين حكم وقهرٌ   ولكَ الهمة التى هى أبعد

ليس من يفتح البلاد لتشقى   مثل من يفتح البلاد لتسعد

علمت مصرُ والحجاز وأرض ال   نوب والشام أن عهدك مَسجد

أنت إن أحصى النوابغ فى المل   ك كريمُ الثنا على الدهر أوحد

---

(١) نشرها اللواء فى عدد ٢٢ مايو سنة ١٩٠٢

أَيَّدتْهم قرابةٌ وقبيلٌ وأرى اللهَ وحده لك أَيَّد
فتولاك والليالى حُبالى وتولّاك والحوادثُ تولد
ورمى عنك والملوكُ رماةٌ نصفهم واجدون(١) والنصف حُسّد
ركنَ مصرٍ أقمت بعد انقضاضٍ أمةٌ جُمِّعت وأمر توحد

***

يامديم الرقاد فى خير مرقد قم فما حلّ قبلك الأرض فرقد
وانظر الشرق كيف أصبح يهوى وانظر الغرب كيف أصبح يصعد
وتأملْ ممالكا وبلاداً لمسَ الدهرُ عقدها فتبدد
كنتَ تحميه(٢) والسيوفُ عوارٍ من له اليوم بالحُسام المجرّد ؟
ينشر النور والحضارة فيه كلما زُوِّد الشعوب تزوّد
وترى الأمرين قلبٍ ذكىّ فى يديه وبين جفن مُسهد
يا عصامَ الملوك هل كنت تسلو عن عروش الملوك أو كنت تزهد
صغَّر الجاهلون بالنفس مسعا ك وعذرُ النفوس فيه ممهّد
ما سمعنا بفاتحٍ سلّ سيفاً يأخذ الملكَ حدُّه ثم أغمد
حالةٌ سامها (الأمينَ) أخوه وأمورٌ بها (أمية) يشهد
ثبت فى فتنة الحجاز اليهم حين أخمدتها ولم تك تخمد
وأتاهم بعذره لك بيتٌ كلما جنّدوا الى الحرب جند
يحفظ الملك ملك مصر عليهم جوهراً فوق تاجهم يتوقد
زعموا الشرق من فعالك قَلْقاً وأرى الشرق فى يمينك أقعد(٣)

---

(١) غاضبون
(٢) أى الشرق
(٣) اقعد أى أمكن وأثبت

جئته بالحياة والنور والتمـ ـدين والرأى والقنا والمهند
كان بين الورى بركن فعززْ ت بثانٍ والركنُ بالركن يشتد

***

شرفا فى الزمان آلَ علىّ جدّكم سيّدُ الملوك المسوَّد
ارجعوا فى العُلا اليه وروموا نهجه ، نهجه الذى كان أقصد
ألبسوه كما كساكم نخارا كلما رثّت الثياب تجدد
واملأوا مسمع الزمان حديثاً كدوىّ الخضمّ أرغى وأزبد
انما الناس أمة لا يموتو ن وأخرى تمر مرّاً وتنفد
وأرى جدَّكم على الدهر حيّاً خالدَ الذكر والثناء المردّد

قصيدة شوقى فى وداع اللورد كرومر

وقال سنة ١٩٠٧ ضمن قصيدته المشهورة فى وداع اللورد كرومر :

أيامُكم أم عهد اسماعيلا أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكمٌ فى أرض مصر بأمره لا سائلا أبداً ولا مسئولا
يا مالكا رقّ الرقاب ببأسه هلّا اتخذت الى القلوب سبيلا
لما رحلتَ عن البلاد تشهّدت فكأنك الداءُ العياء رحيلا
أوَسعْتنا يومَ الوداع اهانةً أدبٌ لعمرك لا يصيبُ مثيلا

الى أن قال

أنذرتنا رقّاً يدوم وذِلةً تبقى وحالا لا ترى تحويلا
أحسبت ان الله دونك قدرةً لا يملك التغيير والتبديلا
الله يحكم فى الملوك ولم تكن دولٌ تنازعه القوى لتدولا
فرعونُ قبلك كان أعظمَ سطوةً وأعزّ بين العالمين قبيلا

اليومَ أخلفت الوعودَ حكومةٌ كنا نظن عهودَها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشَرعه مصراً فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمَها وهدت ركنها وأضاعت استقلالها المأمولا

وقال :

قد مدَّ اسماعيل قبلك للورى ظلَّ الحضارة فى البلاد ظليلا
إن قيس فى جود وفى سرف الى ماتنفقون اليوم عُدَّ بخيلا
أو كان قد صرع المفتشَ مرةً فلكم صرعتَ بدنشواى قتيلا
لاتذكر الكرباج فى أيامه من بعد ما أنبتَّ فيه ذيولا

قصيدته فى ذكرى دنشواى

وقال سنة ١٩٠٧ عن (ذكرى دنشواى) بعد مرور عام على حادثتها فى سبيل طلب العفو عن سجنائها [1]

يادنشوايَ على رباكِ سلامُ ذهبت بأنس ربوعِك الايامُ
شهداءُ حكمك[2] فى البلاد تفرّقوا هيهات للشمل الشتيت نظام
مرّت عليهم فى اللحود أهلّةٌ ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الاراملُ فيكِ بعد رجالها وبأىّ حالٍ أصبحَ الأيتام
عشرون بيتاً أقفرت وانتابَها بعد البشاشةِ وحشةٌ وظلام
ياليت شعرى فى البروج حمائم أم فى البروج منيةٌ وحِمام
(نيرونُ) لو ادركتَ عهد كرومرٍ لعرفتَ كيف تنفذ الاحكام

* * *

(١) اللواء عدد ٢٧ يونيه سنة ١٩٠٧
(٢) أى حكم المحكمة المخصوصة فى قضية دنشواى

نوحى حمائمَ دنشواى وَروّعى شعباً بوادى النيــل ليس ينام
إن نامت الاحياء حالتْ بينه سَحراً وبين فراشه الاحــلام
متوجّعٌ يتمثل اليومَ الذى ضجّتْ لشدة هوله الأقدام

وتدل مرثاة شوقى على مبلغ مايكنه للفقيد من الاعجاب والاكبار ، وتعـد قصيدته أعظم مرثاة فى تاريخ الادب العربى ؛ وكان لايفتأ يذكره بعـد وفاته فى قصائده ، فمن ذلك قصيدته التى نظمها بمناسبة ذكراه السابعة عشرة بعنوان (شهيد الحق) ، تناول فيها وصف ما أصاب البلاد فى سنة ١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتناحر ، ثم انتقل من ذلك الى ذكرى الفقيد فوفاه حقه ؛ قال فى مطلعها :

قصيدة شوقى فى ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٤

إلامَ الخُلْف بينكمو الاما ؟ وهذى الضجةُ الكبرى علاما ؟
وفيمَ يكيدُ بعضكمو لبعض وتُبدون العـداوة والخصاما ؟
وأين الفوز ؟ لامصر استقرت على حال ولا السودان داما

الى ان قال :

وَلينا الامرَ حزبا بعـد حزب فلم نك مصلحين ولا كراما
جعلنا الحكم تولية وعزلا ولم نَعْدُ الجزاءَ والانتقاما
وسُسْنا الامرحين خــلا الينا بأهواء النفوس فما استقاما

وقال ذاكرا مناقب الفقيد :

شهيدَ الحق قم ترَه يتيما بأرض ضُيّمتْ فيها اليتامى
أقام على الشفاه بها غريبا ومرّ على القلوب فما أقاما (١)

---

(١) أى أن الحق تنطق به الافواه ولا يستقر فى القلوب

سَقِمتَ فلم تَبِت نفسٌ بخير   كأن بمهجة الوطن السقاما
ولم أر مثلَ نعشك اذ تهادى   فغطىَّ الارضَ وانتظم الأناما
تحَمَّل همةً ، وأقلَّ دِيناً   وضمَّ مروءةً وحوى زماما
وما أنساكَ فى العشرين لمَّا   طلعتَ حيالها قمراً تماما
يُشارُ اليك فى النادى وتُرمىَ   بعينى من أحب ومن تعامى
اذا جئتَ المنابر كنت (قساً)   اذا هو فى عكاظَ علا السناما
وأنت ألذُّ للحق اهتزازاً   وألطف حين تنقطه ابتساما
وتحمل من أديم الحق وجها   صراحا ليس يتّخذ اللثاما

***

اتذكرُ قبل هذا الجيل جيلاً   سهرنا عن معلّمهم وناما
مِهارُ الحق بغّضْنا اليهم   شكيمَ القيصرية واللجاما (١)
لواؤك كان يسقيهم بجامٍ   وكان الشعر بين يدىّ جاما (٢)
من الوطنية استبقوا رحيقا   فضَضْنا عن معتّقها الختاما
غرسنا كَرمها فزكا أصولا   بكل قرارة وزكا مُداما
جمعتهمو على نبرات صوت   كنفخ الصّور حركت الرجاما (٣)
لكَ الخطبُ التى غص الأعادى   بسوْرتها وساغت للندامى (٤)

---

(١) مهار جمع مهر والمراد بالمهار هنا الشباب ، والمراد بشكيم القيصرية ولجامها بطش الاحتلال وجبروته

(٢) الجام الاناء من الفضة

(٣) الرجام القبور

(٤) السورة الحدة والشدة ، والندامى جمع نديم والمراد بهم الانصار والاصدقاء

فكانت في مرارتها زئيرا　　وكانت في حلاوتها بغاما [1]
بكَ الوطنية اعتدلت وكانت　　حديثاً من خرافةَ أو مناما
بنيتَ قضيةَ الاوطان منها　　وصيَّرتَ (الجلاءَ) لها دِعاما

قصيدته في ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٦

وله قصيدة القيت في الاحتفال بذكرى الفقيد في فبراير سنة ١٩٢٦ قال

لم يَمُت من له أثرْ　　وحياةٌ من السِّيرْ
أدْعه غائباً وإنْ　　بعدت غايةُ السفرْ
آيبُ الفضل كلما　　آبت الشمسُ والقمر [2]
رُبَّ نورٍ مُتَمَّم　　قد أتانا من الحُفرَ
إنما الميْت من مشى　　ميِّتَ الخير والخبرَ
من اذا عاش لم يُفد　　واذا مات لم يضر
ليس في الجاه والغنى　　منه ظلٌّ ولا ثمر
قَبُحَ العزُّ في القصو　　ر إذا ذَلّت القُصُر

***

أعوزَ الحقّ ذائدٌ　　وإلى (مصطفى) افتقر
وتمنّت حياضه　　هبّةَ الصارم الذكر
الذى يُنْفذ المُدى　　والذى يركب الخطر
أيها القوم عظِّموا　　واضعَ الأسّ والحجر
اذكروا الخطبةَ التى　　هى من آيه الكبر

---

(١) البغام صوت الظبي

(٢) أى يعود للفقيد فضل ويتجدد له ذكر كلما آبت الشمس وعاد القمر

لم يرَ النـاس قبلها منبراً تحتَ محتضر
لستُ أنسى لواءَه وهو يمشى الى الظّفرَ
حشرَ الناسَ تحتَه زُمَراً إثْرُها زمر
وترى الحقَّ حولَه لاترى البيضَ والسُّمر (١)
كلما راح أو غـدا نفخ الروح فى الصور

***

يا أخا النّفْس فى الصبا لذةُ الروح فى الصِّغرَ
وخليـلا ذَخَرتُه لم يُقَوَّم بمدَّخرَ
حال بينى وبينه فى فُجاءاته القدَر
كيف أجزى مودَّةً لم يَشُبْ صفوَها كدر
غيرَ دمع أقوله قلّ فى الشأن أو كثرُ
وفؤادٍ معلَّلٍ بالخيالات والذكر
لم ينم عنك ساعةً فى الأحاديث والسّمر
قم تر القومَ كتلة مثل مَلْمومة الصخر
جدّدوا أُلفةَ الهوى والاخاء الذى شطر
ليس للخُلف بينهم أو لأسبابه أثر
ألَّفتهم روائحٌ غاديات من الغيرَ
وصحوا من منوّم وأفاقوا من الخدَر (٢)
أقبلوا نحو حقّهم مالهم غيره وطر

---

(١) البيض السيوف والسمر الرماح
(٢) الخدر الكسل

جعلوه خليّةً شرّعوا دونها الابر
وتواصَوْا بخطّةٍ وتداعوا لمؤتمر
وقصارى أولى النهى يتلاقون فى الفكر
آذنونا بموقفٍ من جلال ومن خطر
نسمع الليثَ عنده دون آجامه زأر
قل لهم فى نديهم[1] مصر بالباب تنتظر

اسماعيل صبرى

وكان الشاعر الكبير اسماعيل باشا صبرى صديقا صدوقا للفقيد ، أيده فى جهاده منذ الساعة الأولى ، كان محافظا للاسكندرية سنة ١٨٩٦ — ٩٩ وأراد مصطفى أن يلقى بها خطبة من خطبه الوطنية الكبرى ، فأوعزت الحكومة اليه أن يمنع اقامة الاجتماع الذى أعد لالقاء الخطبة ؛ بحجة المحافظة على الامن والنظام ، فأبى صبرى على الحكومة ماأرادت ورخص باقامة الاجتماع ؛ وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام[2]

ولما عين وكيلا لوزارة الحقانية (نوفمبر سنة ١٨٩٩) ظل على مودته للفقيد ، وكان يخرج فى غالب الأيام من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء ويقضى معه الوقت الطويل ، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقته له فى الوقت الذى كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به ، والى ذلك يشير شوقى فى رثائه لاسماعيل صبرى[3] إذ يقول :

---

(١) بريد البرلمان
(٢) ذكر هذه الواقعة الاستاذ الاديب أحمد الزين فى مقدمته لديوان اسماعيل صبرى باشا ص ٣٢
(٣) توفى اسماعيل باشا صبرى سنة ١٩٢٣

وبَيْح الشباب وقد تخطّر بينهم هل مُتِّعوا بتمسُّح وطواف
لو عاش قُدوتهم وربُّ (لوائهم) نَكس (اللواء) لثابت وقّاف[1]
فلكم سقاه الودّ حين ودادُه جَربٌ لأهل الحكم والأشراف

ونجد فى شعر اسماعيل صبرى انسجاما مع روح الفقيد ، قال فى قصيدة له وجهها الى الخديو عباس الثانى يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ يدعو الى الدستور :

سدِّد سِهامَ الرأى بالشورى يُحط بكَ منه فى ظُلَم الحوادث فيلقُ
واسبقْ به واضربْ به وافتحْ به ما شئتَ من باب أمامك يغلقُ

وقال فيها يذكر حادثة دنشواى والعفو عن مسجونيها :

وأَقَلْتَ عثرة قرية حكم الهوى فى أهلها وقضى قضاءٌ أخرقُ
إن أنّ فيها بائسٌ مما به أو رنّ جاوبه هناك مُطوّق[2]
وارحمتا لجُناتهم ماذا جنوا وقضاتِهم ماعاقهم أن يتقوا[3]
ما زال يُقذى كلّ عين ما رأوا فيها ويؤذى كلَّ سمع ما لقوا
حتى حكمت فجاء حكمك آيةً للناس طىّ صحيفة تتألق
نزلتْ ترفرف حول كاتب نصها زمراً ملائكةُ الرضى وتحلّق
شكرتك مصرُ على سلامة بعضها شكراً يغرِّب فى الورى ويشرِّق
ذكرتْ لك الصفح الجميل ولم تزل ترمى الى أمر أجلّ وترمُق[4]
قانون دنشاواى ذاك صحيفةٌ تُتلى فترتاع القلوب وتخفق

---

(١) قدوتهم أى قدوة الشباب ورب اللواء هو الفقيد صاحب اللواء ، أى لو عاش مصطفى حتى شهد وفاة اسماعيل صبرى لنكس اللواء حدادا عليه

(٢) رن الرجل رنينا صاح ورفع صوته بالبكاء ، والمطوق السجين

(٣) قضاتهم أى قضاة المحكمة المخصوصة (انظر ص ٢٠٣)

(٤) يريد الدستور

هل يُرتجى صفو ويهدأ خاطرٌ والموتُ حول نصوصها يترقرق
ومضاجع القوم النيام أواهلٌ بمعــذّب يردَى وآخر يُرهقُ
لن تبلغ الجرحى شفاءً كاملا ما دام جارحها المهنّد يبرق
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه فالحلمُ أجملُ والمكارم أليقُ

وقال سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمى باشا حين سقطت وزارته :

عجبتُ لهم قالوا « سقطت » ومن يكن مكانك يأمن من سقوط ويسلمِ
فأنت امرؤ ألصقتَ نفسك بالثرى وحرّمت خوف الذلّ ما لم يُحرّمِ
فلو أسقطوا من حيثُ أنت زجاجةً على الصخر لم تُصدع ولم تتحطّـم(١)

وقد جزع لوفاة الفقيد جزعا شديداً ، وشيع جثمانه الى مرقده الأخير ، ووقف على قبره يلقى قصيدته فى وداعه ، ولم يكد يلقى البيت الأول منها وهو :

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعيا هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا

حتى ظهر عليه التأثر الشديد والاعياء ؛ ولم يستطع أن يتم القصيدة ، وتدل قصيدته فى حفلة تأبينه (ص٢٩٠) على مبلغ حبّـه له واخلاصه لصداقته ، واعجابه به وشدة حزنه عليه ، فجاءت آية فى البلاغة ورقة التعبير ، وكأن كل بيت منها دمعة وفاء تذرفها عين الصديق على صديقه الحميم

خليل مطران

وكان بين الفقيد وشاعر القطرين خليل مطران صداقة وود داما طول العمر ، ويبدو مبلغ اعجابه به وتقديره لعبقريته فى قصيدته فى حفلة الأربعين (ص ٢٩٦) وقد نشرها فى ديوانه ، وصدرها بهذه الكلمة التى تعد فى ذاتها قصيدة

---

(٨) أى ان مصطفى فهمى باشا كان فى منزلة دانية لا يؤلمه السقوط منها بحيث لو اسقطوا زجاجة من ذلك المكان المنخفض لم تنكسر

من النثر المنظوم ، قال « مصاب الشرق فى رجله المفرد ، وبطله الأوحد ، مصطفى باشا كامل ، أيتها الروح العزيزة ، ان فى هذا الديوان الذى اختتمه برثائك ، نفحات من نفحاتك ، ودعوات من دعائك ، فالى هيكالك المدفون بالتكريم ، تحية الأخ المخلص للأخ الحميم ، ووداع المجاهد المتطوّع للقائد العظيم »

وظل خليل مطران (مد الله فى حياته) على تعاقب السنين يحفظ عهد صديقه العظيم ، ويشيد بذكراه ، وله فى سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ ابراهيم ، ضمنها وصفا رائعاً للنهضة القومية التى كونت حافظاً وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن آمالها وآلامها ، وكيف ان هذه النهضة هى غرس مصطفى وكيف تعهدها بجهاده الى أن مات ، وبموته كانت الآية التى تم بها استقرارها ، قال فيها :

طرأت حالةٌ تيقّظ فيها لدعاة الهدى ضمير السواد (١)

فاذا (حافظ) وقد بثّ ما فى نفسه من تجهّم وارابداد

وبدا للمنى الجلائلِ فيها أفقٌ واسعُ المدى لارتياد

ما تجلى نبوغُه كتجليه وقد هبّ (مصطفى) للجهاد

يوم نادى الفتى العظيمُ فلبّ من نبا (٢) قبله بصوت المنادى

ووَرى (٣) ذلك الشعور الذى كا ن كميناً كالنار تحت الرماد

تأتّى بعد القنوط الدّجُوجىّ (٤) رجاء للشاعر المجواد

سّ منه السوادَ فانبجست نا ر ونور من طىّ ذاك السواد

كبر الدهرُ وثبةً وثبتها مصرُ مفتكّة من الاصفاد

(١) يريد الجمهور

(٢) نبا تجافى وتباعد

(٣) ورى الزند خرجت ناره

(٤) المظلم

وثغاء (١) غدا هزيما (٢) فألقى   رعبه فى مرابض الآساد
ما الذى أخرج الشجاعة من حيث   طوتها قرون الاستبداد
وجلا غرة الصلاح فلاحت   تزدهى من غياهب الإفساد
فاذا امة ابية ضيم   مالها غير حقها من عتاد
نهضت فجأة تنافح فى آن   عدوين أسرفا فى اللداد
أجنبياً ألقى المراسى حتى   تقلع الراسيات فى الاطواد
وهواناً كأنما طبع الشعب   عليه تقادم الإخلاد
حلبة يعذر المقصر فيها   والخواتيم رهن تلك المبادى
ليس تغيير مابقوم يسيراً   كيف ما عودوه من آماد
غير ان الإيمان كان حليفاً   لقلوب الطليعة الأنجاد
فاستعانوا به على ما ابتغوه   غير باغين من بعيد المراد

الى ان قال :

بعد وثب فى إثر وثب عنيف   وارتداد فى الشوط غب ارتداد
ساور الأمة التردد والتاث   (٣) عليها فى السير وجه الرشاد
لاتسل يومذاك عن جلد القادة   فى ملتقى الخطوب الشداد
كلما ازدادت الصعاب أبوا إلّا   كفاحا وعزمهم فى ازدياد
يبذلون القوى وفوق القوى غير   مبالين أنها لنفاد
و(الزعيم الابر) أطيبهم نفساً   عن النفس فى صراع العوادى
هل ينجى شعباً من اليأس الا   حدث من خوارق المعتاد

---

(١) الثغاء صوت الشاة والمعز
(٢) الهزيم صوت الرعد
(٣) التاث عليه الأمر اختلط والتبس

مصطفى مصطفى بحسبك إن يذ ... كرْ فداءٌ أن كنتَ اول فاد
مصطفى مصطفى ليهنئك أن احـ ... ـييت قوماً بذاك الاستشهاد
دب فيهم روح جديد له ما ... بعدَه فى القلوب والأخلاد (١)
تنقضى الحادثات بعدك والرو ... ح مقيمٌ فيهم على الآباد
كادَ يومٌ شيعتَ فيه يريهم ... لمحَةً من جلال يوم المعاد
صدروا عنه بالتعارف فيما ... بينهم وهو قوة الأعداد (٢)
واستشفوا لبأسهم فيه سرا ... كم تحامى ان يدركوه الاعادى
هذه مصر الفتية هبت ... فى صفوفٍ فتيةٍ للذياد
رجل مات مُخافاً منه جيلاً ... رابط الجأش غير سهل المقاد
عهد نور من الحفاظ ونار ... بعد طول الخمود والاخماد
نخذت عبقرية الشعر فيه ... سلماً للعروج والإصعاد
أبلغت (حافظا) من الحظ أوجاً ... زاد منه العلياء كل مراد

***

وكان الفقيد يعجب أيضا بقصائد أحمد محرم ويشيد بها فى اللواء، ويسميه « نابغة البحيرة » ؛ وبقى أحمد محرم على صلته بالفقيدووفائه له ولذكراه حتى اليوم ، وكذلك كان معجبا بشعر أحمد الكاشف ، ثم بشعر أحمدنسيم.

وقد أدرك فى بداية عهده الشاعر الأديب المشهور الشيخ على الليثى ؛ وأحبه حب الوالد لولده ولمح فيه النبوغ والعبقرية ، وكان يقول له : « انك أوتيت ذكاء

---

(٧) العقول
(٨) اى قوة الاتحاد



مصطفى كامل بين جمع من اصدقائه

فى سفح الاهرام

وترى الى يساره مدام جوليت آدم ، فمحمد بك فريد ، فعلى فهمى كامل بك

والى يمينه مدام يونج فحسين واصف باشا

يقرب منك البعيد ويظهر لك الخفى ؛ وحجة بها تسكت من ناقشك وتفحم من جادلك »

ومن تلاميذه من الأدباء والشعراء الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى ، كان حين وفاة الزعيم طالبا بمدرسة المعلمين العليا ، وقد رفت أسبوعا من المدرسة جزاء له على خطبة وطنية ألقاها تلك السنة فى حفلة الطلبة بدار التمثيل العربى ، وبدأت كتاباته الوطنية تظهر فى صحف الحزب الوطنى عقب وفاة الزعيم

أصدقاؤه وأنصاره فى الشرق والغرب

أولهم مدام جولييت آدم، فهى التى عرفته بأقطاب السياسة فى فرنسا، وأيدته فى جهاده بما تراه مبسوطا فى فصول هذا الكتاب

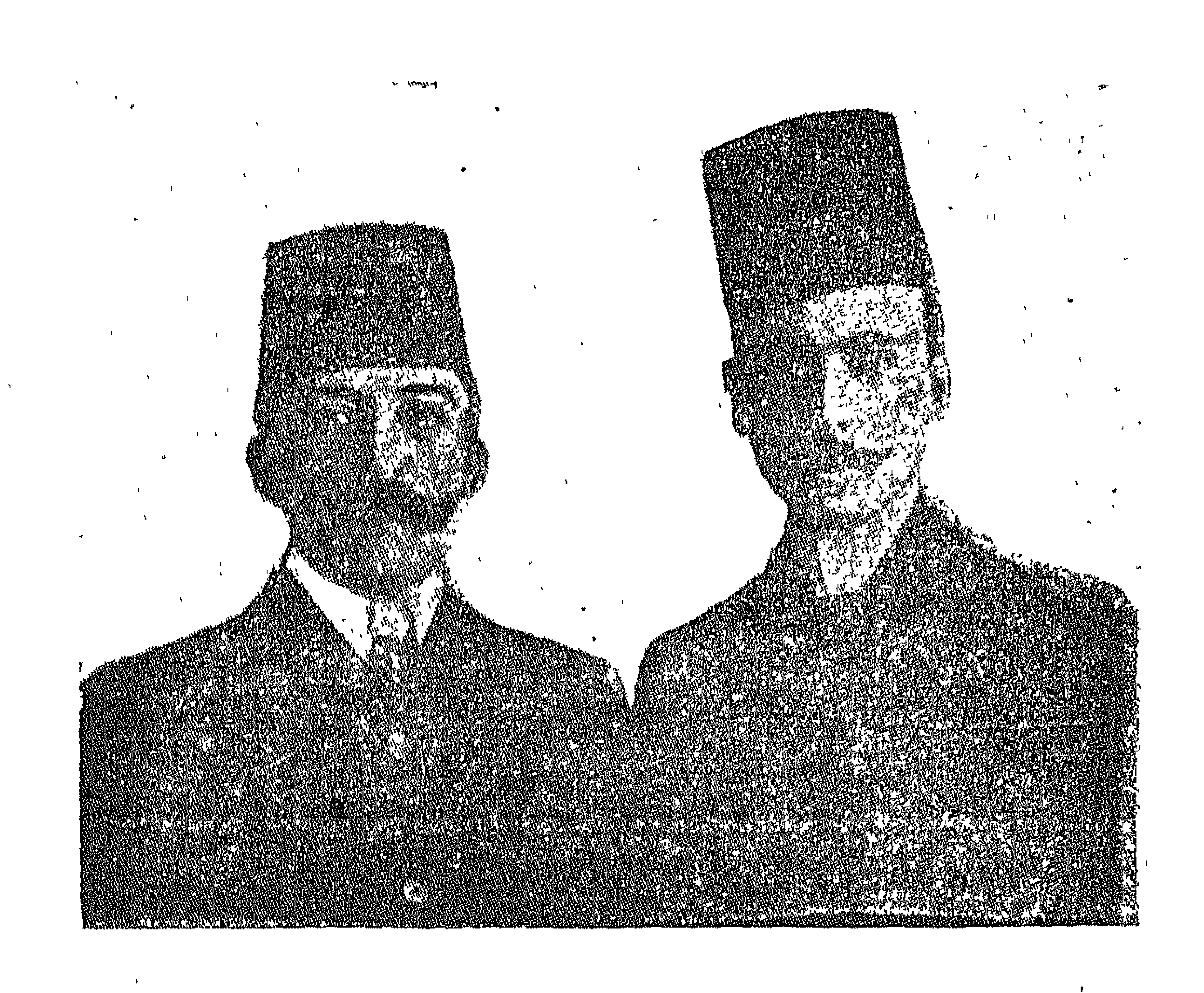
ومن أصدقائه من كتاب الغرب (بيير لوتى) الأديب الفرنسى المشهور، كانت بينهما صلة ود وثيقة ورسائل متبادلة، وكان لوتى يمد الايتندار اجبسيان بالمقالات الممتعة

ومن أصدقائه الشعراء شكرى غانم الشاعر اللبنانى الشهير، نبغ فى الشعر الفرنسى ووضع باللغة الفرنسية مسرحية (عنترة) التى مثلت فى فرنسا ومصر وحازت استحسانا كبيرا، وقد خطب الفقيد فى الاحتفال الذى أقيم تكريما له بالقاهرة فى يناير سنة ١٩٠٦ خطبة بليغة، أثنى فيها على شعر المحتفل به وأدبه، وصرح شكرى غانم بأنه هو الذى وجهه الى وضع رواية (عنترة) بالفرنسية، لكى تكون فيها دعاية للبطولة العربية فى الأوساط الفرنسية المثقفة

وكان له فى أوروبا أصدقاء وأنصار عديدون، نذكر منهم الكولونل مارشان بطل حادثة فشودة، وارنست جوديه، وكلاهما من تلاميذ مدام آدم، والمسيو فلورانس وزير خارجية فرنسا السابق، والمسيو بلاتان وزير بحريتها السابق، وقد حرر فى الايتندار اجبسيان مقالات عدة. والمسيو تارديو الذى صار رئيس وزارة فرنسا، والكونت روشفور، وكان معظم مديرى الصحف الفرنسية الكبرى ومحرريها من أصدقاء الفقيد والمعجبين به وبجهاده .

مصطفى كامل وطلعت حرب

كان الفقيد صديقا لطلعت حرب باشا، وامتدحه فى لواء ١٠ يناير سنة ١٩٠٠ لمناسبة ظهور كتابه فى تربية المرأة، ووصفه بأنه «الكاتب الفاضل محمد افندى طلعت حرب»، ولما ظهرت كفاءته المالية أثنى عليه وكتب عنه فى لواء ١٠ يوليه سنة ١٩٠٥ تحت عنوان (مصرى فاضل) ما يأتى :



مصطفى كامل وبيير لوتى (ص ٣٩٥)

« من الأشياء التي تسر كل مصرى يحب بلاده وأبناءها العاملين مايكون منها شاهدا على كفاءة المصرى فى الاعمال الجسيمة وتقدير الاوروبيين له حق قدره ؛ نعزتلو حضرة المقدام العامل محمد طلعت بك حرب مدير قلم قضايا الدائرة السنية سابقاهو أول مصرى نقدمه اليوم للقراء انتخب مديرا لشركتين عظيمتين ، هما شركة العقارات المصرية ، وشركة كوم امبو ، خلفا لحضرة عاداه بك مديرها السابق ؛ وان من يعلم أن أصحاب هاتين الشركتين ومؤسسيهما هم من كبار الماليين المعدودين كالمسيو ارنست كاسل والمسيو سوارس وشركائه ، لايرتاب فى أن الثقة بهذا المصرى الجليل عظيمة ، كما لاشك فى أن هاتين الشركتين ستصلان

الى شأو بعيد من الرقى والفلاح بما أوتيه حضرة مديرهما الجديد من سمو الادراك وسعة الاطلاع فى المسائل المالية ، فنهنئ الشركتين به ، ونسأل العلى القادر أن يهبنا الكثيرين من أمثاله »

فكأن الفقيد كان يستشف ماوراء الحُجب ، ويلمح فى الأفق ماسيكون لطلعت حرب باشا — مد الله فى حياته — من الشأن العظيم فى نهضة مصر الاقتصادية ، وأنه سيتولى زعامتها فى ميدان الاقتصاد والمال ، فأثنى عليه هذا الثناء المستطاب

مصطفى كامل ومصطفى فهمى باشا

كان الفقيد شديد الحملة على مصطفى فهمى باشا رئيس الوزارة فى ذلك الحين ، وعلى الوزراء عموما ، ولا عجب فمصطفى فهمى كانت سياسته تمثل الخضوع التام للاحتلال الاجنبى ، ولم يكن من أنصار الاحتلال فحسب ، بل كان من المخلصين له ، العاملين على تحقيق مآربه ، وقد نشر المسيو دجرفيل حديثا له فى كتابه (مصر الحديثة) سنة ١٩٠٥ تغنى فيه بفضل الاحتلال ، قال فيه : « ان عمل انجلترا فى مصر لهو عمل مجيد يشهد لها بالفخار ، انظر الى حالة مصر سنة ١٨٨٢ وماصارت اليه الآن سنة ١٩٠٥ ، لقد كان يسودها الخراب والفوضى والشقاء ، والآن يعمها النظام والعدل والرخاء ، ان التغيير كان سريعا واسع المدى لدرجة انى فى بعض الاحيان اغمض عينى واتساءل هل انا فى يقظة أم فى منام ... وفى الواقع لاتوجد فى العالم حكومة أخرى تسير بانسجام مثل حكومتنا ، انك تسألنى اذا كانت مصر تستطيع يوما ان تتحرر من انجلترا ، هذه مسألة دقيقة متروكة للمستقبل ، اما مايمكننى ان اؤكده الآن فهو اننا لانستطيع ذلك فى الوقت الحاضر ، فان عملها لم يتم بعيد ولايزال تمامه بعيدا ، لقد شيدت دعائمه القوية ولكن لايزال البناء غير تام يبشر بالآمال الزاهرة ، على انه فيم يحق لنا أن نشكو انجلترا ؟ اننا مدينون لها بثروتنا وسعادتنا وهنائنا ، انظر الى هذه الارض المقامة عليها

الفنادق والقصور، انها كانت منذ عشرين سنة لا تساوى شيئا والآن بلغت قيمتها ملايين من الجنيهات ؛ فماذا تكون قيمتها لو جلت انجلترا عن مصر؟»

فهذه الاقوال تعبر عن روح مصطفى فهمى باشا ؛ وكل اعماله فى الوزارة كانت تصدر عن هذه الفكرة ، فكرة تمجيد الاحتلال والولاء له ، فكان بديهيا أن يخاصمه زعيم الحركة الوطنية الاستقلالية

مصطفى كامل وسعد زغلول

حينما بدأ مصطفى كامل حياته الوطنية سنة ١٨٩٠ كان سعد زغلول لايزال المحامى النابه (سعد افندى زغلول)، وكان منصرفا الى اعماله فى المحاماة ، ثم عين سنة ١٨٩٢ قاضيا (مستشارا) ، فانقطع الى قضائه بمحكمة الاستئناف

وكانت علاقة مصطفى بسعد ودية حتى سنة ١٩٠٦ ، حدثنى فؤاد باشا سليم أن سعد بك زغلول كان يتردد على دار والده لطيف باشا سليم ، وهناك عرف مصطفى كامل ، إذ كان لايزال طالبا بمدرسة الحقوق ، ثم تخلف سعد عن جماعة لطيف باشا، لما ظهر عليها من طابع المعارضة ضد الاحتــــلال ، على أن علاقته بمصطفى ظلت ودية كما أسلفنا، وحين صدر اللواء سنة ١٩٠٠، كان سعد بك زغلول لايزال مستشارا بمحكمة الاستئناف ، وشقيقه احمد فتحى بك زغلول رئيسا لمحكمة مصر الابتدائية ، ولما ظهر كتاب (المحاماة) لاحمد فتحى زغلول بك كتب عنه الفقيد فى عدد ١٩ اكتوبر سنة ١٩٠٠ مقالة افتتاحية بتوقيعه، أثنى فيها ثناءً كبيرا على الكتاب وصاحبه ، وليس يخفى أن مجرد تخصيص المقالة الافتتاحية لتقريظ الكتاب هو دليل فى ذاته على التقدير والود الكبير ؛ قال فى مقالته :

« لست ممن يزفون المدائح زفا أو يبجلون الناس حبا فى مرضاتهم ، وطمعا فى استرضائهم ، ولكنى اكون مقصرا أمام الله والناس إذا لم أشكر أمام الملأ

كاه مؤلف كتاب (المحاماة) صاحب العزة المفضال احمد بك فتحى زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية الخ »

ويبدو ودّه لسعد مما كتبه اللواء فى عدد ٧ فبراير سنة ١٩٠٦ عن مرضه، قال تحت عنوان (شفاه الله): « انحرفت صحة حضرة الأصولى المفضال سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الاهلية وقضت باجراء عملية جراحية بسيطة له وقد تمت على غاية مايرام ، وأخذت صحته تتحسن تحسنا عظيما ، مما سر أصدقاءه ومحبيه العديدين الذين يتوافدون كل يوم على منزله لعيادته ، نسأل له الشفاء التام والصحة والعافية حتى تنتفع البلاد بعلمه الغزير ومعارفه الواسعة » ؛ فهذه الكلمة تدل على تقدير الفقيد لسعد ؛ ونشر اللواء فى ٢٨ فبراير نبأ شفائه فى غبطة وسرور

على أن علاقة الفقيد بفتحى باشا زغلول قد انقطعت وانقلبت الى خصومة شديدة بعد أن اشترك فى الحكم على المتهمين فى حادثة دنشواى ؛ إذ كان أحد قضاة المحكمة المخصوصة (انظر ص ٢٠٣) ، وهو الذى كتب الحكم بقلمه ، وازدادت صلته بالوكالة البريطانية ، ورقى بعد الحكم وكيلا لوزارة الحقانية ، فحمل عليه مصطفى حملة شديدة ؛ وسماه (قاضى دنشواى) ، وقال له فى منزل سعد باشا يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٠٦ ان حكمه فى قضية دنشواى « يحول بيننا وبينك الى آخر لحظة من الحياة »

من ذلك ترى ان صداقة الفقيد وخصومته كانتا خالصتين لوجه الحق والوطن ، فاذا مدح مدح بحق، واذا انتقد انتقد بحق، غير متأثر بصلات شخصية أو مآرب ذاتية ، وكانت علاقاته الشخصية تتبع المصلحة القومية

ولما عين سعد باشا وزيراً للمعارف فى ا كتوبر سنة ١٩٠٦ امتدح صفاته، وأمل الخير على يده ؛ وكتب فى لواء ٢٨ ا كتوبر سنة ١٩٠٦ تحت عنوان (سعد بك زغلول وزير المعارف) يقول : « لما قابل جناب اللورد كرومر أول البارحة سمو الخديو المعظم فى سراى رأس التين عرض عليه تعيين سعادة سعد بك زغلول

المستشار بمحكمة الاستئناف الاهلية وزيرا للمعارف المصرية ، فارتاح سمو الخديو لهذا الطلب لما يعهده فى سعادة سعد بك من الفضل والعلم والاخلاق القويمة ، وان ما يعرفه الناس فى اخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو فى المحاماة أولا ، وفى القضاء ثانياً ، يحملهم جميعا على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصريا مشهوراً بالكفاءة والدراية والعلم الغزير، وحب الانصاف والعدل ، ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت الى اليوم منصباً لا عمل فيه وكان المستشارون الانجليز أصحاب السيطرة التامة فى النظارات ؛ حقّ للناس أن يتساءلوا عما يعمله سعادة سعد بك زغلول فى وزارة المعارف ، هل يكون كبقية الوزراء — أمره وأمر المعارف بيد المستر دنلوب — أم يكون وزيراً اسما وعملا ويحيي سلطة الوزراء المصريين ؟ اللهم إننا عرفنا سعد بك زغلول فى ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكا باستقلاله وحقوقه ، وأكثرهم انتقاداً على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم ، وسمعناه يقرع بلهجة حادة الكسالى والمقصرين كبارا كانوا أو صغارا ؛ فاذا بقى سعد بك فى وظيفته الجديدة كما هو وكما كان — وهو ما نعتقد — أملنا خيرا كبيرا للمعارف ، ورجونا سريان هذه الروح الى بقية النظار وعودة « الحياة المصرية » الى الوزارة ، على أنه اذا كان جناب اللورد كرومر اختار سعد بك زغلول وزيرا للمعارف تقديرا لعلمه واعلانا لتغيير جنابه للسياسة الاحتلالية الماضية ، واتباعه لسياسة جديدة قاضية باعطاء المناصب لمستحقيها وتشريف الكفاءة ، فان هذه السياسة تقضى قبل كل شئ بأن يكون الوزير وزيرا حقيقة ، وأن يكون العامل عاملا مؤديا لوظيفته ، متمتعا بكل حقوقه ؛ لا أن يكون آلة فى يد الموظف الانجليزى ، ولوجب أن يكون سعد بك زغلول المدير الفعال لدفة المعارف المصرية والمصلح لخللها الكثير ، والمحقق لآمال الأمة فى نظارة خابت فيها مع المستر دنلوب كل الآمال ، فنحن لا نبتهج اليوم بتعيين سعادة سعد بك زغلول وزيرا للمعارف إلا بأمل أن يكون كما كان على مبارك باشا والفلكى

باشا وأمثالهما ممن خدموا العلم فى هذا القطر خدمات خالدة ، وكانت لهم فى مناصبهم الكلمة النافذة ، والرأى المتبع ؛ ونطالبه قبل مطالبتنا للاحتلال بأن يكون كذلك ، وأن يكون فى مستقبله كما هو فى حاضره وكما كان فى ماضيه : الرجل المستقل الذى لا يخدعه منصب ولا مال »

ولكن الفقيد أخذ ينتقد سعد باشا حين انسحب من لجنة مشروع الجامعة المصرية عقب تعيينه وزيرا للمعارف (وكان نائب الرئيس أو الرئيس الفعلى لها) — انظر ص ٢٤١ — فإنه لم يكد يتولى وزارة المعارف فى ٢٨ أكتوبر حتى وقف اجتماع اللجنة ، وكانت تجتمع فى داره ، ثم اجتمعت يوم ٣٠ نوفمبر بدار حسن بك جمجوم أحد أعضائها ؛ وحضر سعد باشا الاجتماع ، فأعلن انسحابه من اللجنة ، بدعوى أن كثرة أعماله فى الوزارة لا تسمح له بالاشتراك فى مشروع الجامعة ، مع أن تعيينه وزيرا للمعارف كان أدعى لاضطلاعه بعمل هو من أخص واجبات وزارة (التعليم) ، وكتب الفقيد فى هذا الصدد يقول : « كيف يهتم المستشار فى الاستئناف بمشروع علمى ولا يهتم به ناظر المعارف؟ » ؛ وقال فى مقالة أخرى : « إن تخليه يظهر للملأ الخطر الذى يحيق بالمشروعات العامة اذا كان لرجال الحكومة دخل فيها ؛ واعتقادنا أن أقوى ضمانة لامثال مشروع الجامعة المصرية أن يكون القائم بها هو الأمة دون سواها »

وتبين أن انسحابه من رياسة اللجنة كان تحقيقا لرغبة الاحتلال لكى يحبط المشروع ؛ وقد أصابه الفتور والركود فعلا بعد انسحابه من اللجنة ، وبخاصة لأن الحكومة خاقت فى ذلك الحين « بايعاز من الاحتلال أيضا » حركة إنشاء الكتاتيب ؛ واستحثت الاعيان فى مختلف الجهات على التبرع لها ؛ معارضةً بذلك مشروع الجامعة ، وبقى المشروع راكدا حتى دبت فيه الحياة حين تولى رياسة لجنته الامير احمد فؤاد (المغفور له الملك فؤاد الاول) فى سنة ١٩٠٨

واشتد الفقيد فى نقد سعد باشا حين طلبت الجمعية العمومية من الحكومة فى مارس سنة ١٩٠٧ جعل التعليم فى المدارس الاميرية باللغة العربية ؛ وكان وقئذ باللغة الانجليزية ، فاعترض سعد باشا وكان وزيرا للمعارف على هذا الاقتراح ، وألقى خطبة طويلة فى هذا الصدد سوغ فيها جعل التعليم باللغة الانجليزية ، قائلا « إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبتها أو اتباعا لشهوتها ، ولكنها فعلت ذاك مراعاة لمصلحة الأمة » وقال : « إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية وشرعنا فيه فعلا فاننا نكون أسأنا الى بلادنا والى أنفسنا إساءة كبرى لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا فى الجمارك والبوستة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة الخ»

على أن الجمعية العمومية رفضت اعتراضات سعد باشا على الاقتراح وأقرته بالأغلبية العظمى ، وقد كانت خطبته دفاعا عن سياسة الاحتلال فى التعليم ، لأن الاحتلال هو الذى أحل اللغة الانجليزية محل اللغة العربية فى التدريس بالمدارس الاميرية ، فأحدث هذا الموقف ضجة استياء عند الرأى العام

وكتب مصطفى كامل مقالا فى الاتينذار اجبسيان عربه اللواء فى عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٧ تحت عنوان (فشل وزير) قال فيه :

« إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل ، لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزارة (مصطفى فهمى باشا) الأمين على وحيه، الخادم لسياسته، وفهموا أيضا لماذا قامت الصحف الانجليزية والصحف المتحزبة للانجليز وذرت الرماد فى العيون قائلة ان الوزير الجديد هو من الحزب الوطنى ، فى حين أن كل شىء من أحواله وشؤونه يدل على شدة ميله الى السلطة ، فسعد باشا زغلول قد فشل فشلا عظيما فى الجمعية العمومية ، ولو كان وزيرا أوروبيا يتكلم أمام برلمان لكان قد استقال فى الحال ، ولكنه وزير فى مصر ، يعتقد أن ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته ، الا ان

الذين كانوا يحترمون الوزير كقاض ليأسفون على حاضره كل الأسف، وليخافون على مستقبله كل الخوف ، ويفضلون ماضيه كل التفضيل ، ذلك لأن الوزير قائم الآن على منحدر هائل مخيف »

وزاد فى انتقاده إياه امتداح اللورد كرومر له فى خطبة الوداع التى ألقاها قبل رحيله عن مصر ، على حين أنه طعن فى المصريين جميعا ورماهم بنكران الجميل

وصفوة القول ان موقف مصطفى كامل من سعد زغلول كان وديا حتى انسحابه من لجنة مشروع الجامعة ، ثم تحول الى موقف انتقاد نزيه وخصومة شريفة تبعاً لما اقتضاه الدفاع عن الصالح الوطنى العام

الفصل الحادى والعشرون

شخصية الزعيم

لانزاع فى أن مصطفى كامل هو من عظماء الرجال ، ومن زعماء الشعوب وقادتها الابطال فى ميادين الحرية والاستقلال ، ولامراء فى أنه باعث الحركة الوطنية التى ظهرت فى مصر عقب الاحتلال البريطانى

لقد أوضحنا فى الفصل الأول من الكتاب كيف ظهر واضطلع بأعباء الدعوة الوطنية ، فى عصر لم يكن مؤاتيا لها ولا مستعدا لمناصرتها ، فهذه الشخصية الكبيرة التى حملت عبء الجهاد ودعت الأمة الى الانضواء تحت لواء الحرية والاستقلال فى وقت تحالفت فيه أسباب اليأس والجمود ، يجب أن تكون شخصية بالغة منتهى القوة ، لكى تستطيع أن تشق لدعوتها طريقا وسط هذه العوامل المثبطة للعزائم ، فما هى العوامل التى تألفت منها هذه الشخصية الفذة ؟

إن شخصية مصطفى كامل تتركز فى قوى ثلاث ، هى التى ساعدته على النجاح فى عمله العظيم ، وهى إيمانه برسالته ، وأخلاقه وصفاته ، ثم وطنيته الصادقة

إيمانه برسالته

فايمانه برسالته هو أبرز الجوانب فى شخصيته ، ويبدو لك هذا الايمان من ذلك الكتاب الذى بعث به الى مدام جولييت آدم فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، وهو بعد فى الحادية والعشرين من عمره إذ يقول فيه :

« إنى لاأزال صغيرا ، ولكن لى آمالا كبارا ، فانى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة ، هم يقولون ان وطنى لاوجود له ، وأنا أقول ياسيدتى

أنه موجود ، وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى ، وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفا عليه »

فهذا الكتاب الوجيز فى عبارته ، الرائع فى أسلوبه ، يطالعك بقوة الايمان الذى يملأ قلب صاحبه ، فهو مؤمن بحياة الوطن ، ولو خالف الناس جميعا ، مؤمن برسالته إيمانا جعله يجود فى سبيلها بشبابه وحياته ، وقد لازمه هذا الايمان طول حياته ، على تعاقب السنين ، وهذا هو سر نجاحه ، قال فى سنة ١٩٠٤ « سأبقى حتى الممات حاملا لواء الاستقلال ، اذ أجد حياتى فى هذه العقيدة ، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة »

وكتب الى مدام آدم فى ١٣ اغسطس سنة ١٩٠٦ يقول : « غداً تذكار ميلادى ، إذ أبلغ الثانية والثلاثين ، وماعساى أن أعيش أيضا لأخدم مصرنا العزيزة ؟ وعلى كل حال فانى لا أترك لحظة تمر من حياتى دون أن أغرس حبها فى قلوب مواطنى ، وأتم عملى الى النهاية »

فهذا الايمان هو قوام شخصيته ، ومصدر قوته ، ولولاه لما تابع الجهاد رغم العوامل المثبطة ، وهو الذى يسّر له تذليل كل عقبة اعترضته فى جهاده ، وجعله يضطلع بأعباء الجهاد المضنى ، ويسير بالأمة فى طريق الحرية والاستقلال ، قال صديقه الاستاذ داود بركات فى هذا الصدد : « اعتقد فى نفسه القدرة على العمل ، فصغر كل كبير فى نظره ، واذكر من أقواله يوماً : ان اغسطس قيصر لم يكن كبيرا لأن أمته كبرته ، بل لأنه سار أمامها فعرفت أنه كبير »

صفاته وأخلاقه

كان الفقيد شابا فى مقتبل العمر ، قمحى اللون ، جميل الطلعة ، متوسط القامة ، نحيف الجسم ، عريض الجبهة ، براق العينين ، يشع منهما الذكاء وقوة العزيمة

ان الجانب الاخلاقى هو بلا مراء من أعظم مميزات هذه الشخصية الفذة ،

ولا غرو فالاخلاق هى سياج الوطنية ، وحصنها الحصين ، وهى قوامها وغذاؤها الدائم ، ولقد كان مصطفى كامل زعيما أخلاقيا وزعيما وطنيا معا ، فلا جرم كانت وطنيته ثابتة كالطود ، راسخة كالجبال

وأبرز أخلاقه وصفاته الشجاعة الأدبية ، والصدق ، والصراحة ، والاخلاص ، والصبر ، وقوة العزيمة ، والثبات ، ثم الوفاء ، وعلو النفس ، وعلو الهمة ، والجود ، والكرم ، هذه الاخلاق هى قوام وطنيته ، وبها استطاع أن يقوم على دعوته ، ويثابر عليها ، ويناضل عنها طول حياته ، ولولا قوة أخلاقه لما امكنه أن يغالب العقبات ، ويقاوم المؤثرات والمغريات

كان شديداً فى الحق ، يحب الصدق والصراحة ، ويكره النفاق والرذيلة ، يجاهر بما فى ضميره بشجاعة أدبية كبيرة ، لايهاب فى الحق كبيرا ، وكان مع ذلك وديعاً يخفض جناحه للأصاغر وأواسط الناس ، ويعطف عليهم

كان شديد الذكاء ، سريع الخاطر ، قوى الذاكرة ، بالغ الحجة ، عظيم النشاط ، محبا للعمل ، لايكل منه ولا يعرف الملل والهوادة

وكان وفيا لأصدقائه ، بارًّا بأهله وذويه ، يعطف عليهم ويعد نفسه أباً لهم جميعا ، لم يتزوج فى حياته قط ، وانحصر حبه العائلى فى والدته واخوته واقاربه وذويه ، ظهر وفاؤه لوالدته حين مرضت ، فكان مشغول الفؤاد بمرضها ، شديد العناية بأمرها ، يكتب عن أنبائها الى مدام جولييت آدم فى رسائله اليها ، وقد حزن عليها حزنا شديدا حين أدركتها الوفاة [1] ، كتب فى هذا الصدد الى مدام آدم يقول :

« قد رزئت أكبر رزء فى الحياة ، فان والدتى العزيزة مالكة فؤادى قد فارقت الدنيا يوم الأحد الماضى ، إن حزنى لشديد ، وحياتى كادت تنقضى ! »

---

(١) توفيت يوم الاحد ١٢ مايو سنة ١٩٠٧

فهذا التعبير يدلك على مبلغ وفائه لوالدته ، وحبه لها ، وتعلقه بها ، وحزنه عليها ، وهذا لعمرى أبلغ مظهر لوفاء الانسان فى هذه الدنيا

ويبدو وفاؤه لأهله وذويه من رسائله الى صديقه وزميله فى الجهاد محمد بك فريد ، فانه لا يكاد يخلو كتاب منها من سؤاله عنهم ، وعنايته بهم ؛ واهتمامه بكل صغيرة وكبيرة من شؤونهم ، على كثرة مشاغله ومهامه الجسام

كان جوادا كريما ، يعطف على الفقراء والمعوزين ويحبهم ؛ فكان لهم نصيب وافر فى مدرسته ، اذ خصص للمجانية قسما كبيرا لتعليم أولادهم ، واليه ينسب فضل كبير فى مبدأ الاسعاف ، فقد عطف على قتيل حادثة الهماميل بالاسكندرية ، فأسعف اهله بماله ومساعيه ؛ وعنى بتعليم ابنه بفضل ذلك المبدأ الكريم

وطنيته

أما وطنيته فلا نرانا فى حاجة الى التحدث عنها ، فلقد خصصنا لها هذا الكتاب جميعه ، إذ هو سجل لوطنيته الكبرى ، فالوطنية تبدو فى كل ظاهرة من ظواهر حياته ، وفى كل حركة من حركاته ؛ وكل خاطرة من خطرات نفسه ، ولا غرو فقد ملكت عليه لبه ومشاعره وتفكيره ، فكانت حياته هى الوطنية ، واقتبست منها الأمة نهضتها الوطنية ، وهو الشعلة التى انبثق نورها فى أرجاء وادى النيل منذ ثمان وأربعين سنة . فأضاءت النفوس وأحيت فيها الشعور الوطنى ؛ وحفزتها الى الحياة والكرامة والجهاد القومى بعد سنوات طويلة من الانحلال الوطنى العام

كانت وطنيته أسبق وأقوى من الجيل الذى ظهر فيه ، وأقوى من الحوادث التى اعترضته ، فليس يخفى أن هذه الحوادث كانت فى مجموعها سلسلة هزائم ، مثبطة للعزائم ؛ على أنه قد تغلب عليها بقوة الوطنية والاخلاق ، وكان يزداد ثباتا فى الكفاح والنضال ، كلما ازدادت فى طريقه العقبات ؛ وهنا وجه البطولة فى تاريخه

وتبدو قوة وطنيته فى مثابرته على الكفاح وفى هـذه الحركة الدائمة التى لا ينقطع عنها ؛ والتى بينّا أدوارها ومراحلها فى فصول هذا الكتاب ، فهذه الحركة التى لم يعترها الكلال فترةً ما خلال الثمانى عشرة سنة التى قضاها فى الجهاد ، هى عنوان وطنيته ، وثمة عنوان آخر لها ؛ وهو ان جهاده كان خالصا لله والوطن ، اذ كانت الحركة الوطنية لا ترمى فى ذلك الحين الى الحكم والمناصب ، أو الجاه والمنافع ، بل كانت سلسلة متصلة الحلقات من المتاعب والتضحيات ومن هنا ، تتجلى بطولتها ؛ ويسطع نورها وروعتها ؛ فهذه الروح ؛ روح التضحية والاخلاص ، هى رأس مال الشعوب فى حياتها القومية ، لان الأمم انما تتميز فى ميادين الرقى والعظمة بمقدار اخلاص ابنائها لاوطانهم ، وتفانيهم فى خدمتها ، وايثارهم الصالح العام على منافعهم الشخصية .

سبيله الى الوطنية

كان الفقيد لا يهتم طول حياته إلا بالوطنية يبثها فى نفوس النشء والجيل ، وكانت سبيله الى غرسها فى النفوس الدعوة والخطابة والصحافة والتأليف ؛ والقدوة الصالحة فى الاستمساك بالعروة الوثقى ، كان معلّما للجيل ، أرشد الأمة الى المثل العليا فى حب الوطن والاخلاص له ، ولذلك كان يعنى بالتاريخ الوطنى لجميع الشعوب ، يستخلص منه دروس الوطنية الصادقة ويلقنها لبنى مصر ، كتب فى هذا الصدد الى مدام جولييت آدم فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٩ حين اعتزم اصدار اللواء يقول : « أشكرك كثيرا إذا تفضلت بارشادى الى المؤلفات الخاصة بالتاريخ القومى والقصص الوطنية عن كل البلاد لكى ألقن الشعب إياها ؛ فانه يجب أن أنشر المثل العليا فى الوطنية »

وكتب اليها فى ٢٨ ديسمبر من تلك السنة يقول :

« إنى أعمل الآن كثيرا ، وأملى أن يصير (اللواء) أول جريدة فى الشرق ، فانى أريد له أن يكون فى وقت واحد عاملا للوطنية المصرية وواسطة بين العالم

الأوروبى والعالم المصرى ؛ ولهذا رجوت منك أن تكتبي لنا بين آن وآخر مواعظ وطنية مما جرى فى عصرك أو فى بطون التاريخ »

وكان فى دعوته وجهاده، فى مقالاته وخطبه وأحاديثه، يسمو بالوطنية، ويوجهها الى المثل العليا ، وينزهها عن الخصومات والاحقاد الشخصية ، ويربأ بها عن الطعن فى اعراض الناس وشخصياتهم ، كان عف القلم ، عفّ اللسان ، وفى ذلك يقول فى خطبته بالاسكندرية سنة ١٨٩٦ « انى أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب »

وكان يحبب النفوس فى الحرية، ويرغبها فى الاستقلال الشخصى، ليمهد الجيل الى الاضطلاع بأعباء الاستقلال القومى ؛ ومن هنا جاء استحثاثه الشبان على العمل الحر ، والاعتماد على النفس ، وترغيبهم عن التواكل والتطلع الى الوظائف ، وله فى ذلك خطب ومقالات عدة ؛ أهمها خطبته بالاسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧ اذ قال فيها :

« اتركوا الأبناء معشر الآباء فى الحياة الحرة ؛ أتركوهم يخدموا الوطن ويخدموا أنفسهم فى غير دائرة الوظائف ، أتركوهم أحرارا غير مقيدين بقيود الرواتب ، ابعثوا بهم الى الخارج ليدرسوا التجارة والصناعة ويؤسسوا فى البلاد المعامل والمصانع ؛ تزدادوا بذلك شرفا وفخرا وتزدادوا أمام الله وأمام الوطن مثوبة وأجراً »

وكان كثير الحث على الاستقلال الاقتصادى ، قال فى هذا الصدد فى خطبته سالفة الذكر : « اذا أهملت تربية الأمة وبقى الكبراء منعكفين على ادارة شؤونهم الخاصة واستمر الآباء يتلقون بالأبناء الى مهاوى التوظف فى الوظائف وبقيت التجارة والصناعة فى كساد ودامت الأمة فى حاجة الى استجلاب لوازمها الضرورية من غير بلادها ، دام الانحطاط ودام التأخر ودام الخطر »

بعض كلماته الخالدة فى الوطنية

للفقيد كلمات خالدة دلت على تأصل الوطنية فى فؤاده ، وسارت سير الحكم والامثال ، وقد مر بك بعضها فى فصول الكتاب ؛ وسنجمع هنا أهمها شأنا ، وأدلها على شخصيته ، مع بيان تاريخ كل كلمة منها :

ـ « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » سنة ١٨٩٥

ـ « إن لى روحا هى من نور الحرية الساطعة لاتستطيع الحياة فى ظلمات الظلم والاستبداد » من خطاب له الى فريد بك سنة ١٨٩٦

ـ « إنى أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب » سنة ١٨٩٦

ـ « كل احتلال أجنبى هو عار على الوطن وبنيه » من خطبته بالاسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧

ـ « فى الرضا بالاحتلال الخيانة والعار ؛ وفى العمل ضد الاحتلال الشرف والفخار » من خطبته المذكورة

ـ « قد يكون الرجل صادق الوطنية فقيرا فى المال ، ولكنه يعيش ويبقى فى التاريخ من اكبر سراة الوطنية » من خطبته بالقاهرة يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٨

ـ « إذا لم نقتطف ثمرة عملنا وجهادنا فى حياتنا فاننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يأتى بعدنا » من رسالة له سنة ١٨٩٨ الى أخيه على بك فهمى كامل

ـ « لامعنى للحياة مع اليأس ولامعنى لليأس مع الحياة » من خطبته بالقاهرة يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨

ـ « الحياة جهاد والعمر قصير ، وخير الناس من جاهد فى سبيل بلاده وعمل لخيرها وناضل عن حقوقها » من خطبته المذكورة

ـ « ليست الحرية بعزيزة على قوم يعملون للحصول عليها ويجتهدون فى نوالها ، وليس بعزيز على المصريين أن يفكوا قيود بلادهم ويعيدوا اليها استقلالها

ومجدها ؛ فالصخرة الضخمة تذوب وتتفتت بسقوط المياه عليها نقطة بعد نقطة »
من خطبته المذكورة

ــ « الأمل دليل الحياة ورائد الحرية » (اللواء ٨ ابريل سنة ١٩٠٠)

ــ « ان قيام كل رجل حى الشعور شريف الميول بواجباته نحو هذه البلاد العزيزة يرد اليها حريتها ومجدها وعزها » (اللواء ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٠)

ــ «سأستمر بمشيئة الله طول حياتى ؛ ولو بقيت وحيداً أخطب فى الصحراء واكتب على صفحات الماء ؛ ذلك الذى عرف فيه المصريون الخادم الأمين للوطن العزيز » اللواء ١٣ اغسطس سنة ١٩٠٣

ــ « الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد لهيبه فى القلب ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه » من خطبته سنة ١٩٠٤

ــ « ان روحى تتغذى من حب الوطن ؛ وبغيره لا أستطيع الحياة؛ اذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة حتى فى شدائده وبخاصة فى الشقاء حيث لا يجد الانسان القوة ولا الأمل الا فى هذا الحب » سنة ١٩٠٤

ــ « مادامت هذه الشعلة الوطنية تغذينى وتؤازرنى فانى لا أهاب شيئاً ولا أحداً فى الوجود » سنة ١٩٠٤

ــ « من أشق الاعمال أن يجاهد المرء ضد الزمن والحوادث والناس » سنة ١٩٠٤

ــ « سأبقى حتى الممات حاملا لواء الاستقلال ، اذ أجد حياتى فى هــذه العقيدة ؛ وبغير هذه الشعلة الوطنية لا استطيع الحياة » سنة ١٩٠٤

ــ « لو انتقل فؤادى من الشمال الى اليمين ، أو تحولت الاهرام عن مكانها المكين ؛ لما تغير لى مبدأ ولا تحول لى اعتقاد ؛ بل تبقى الوطنية رائدى ونبراسى، ويبقى الوطن كعبتى ومجده غاية آمالى » اللواء ١٧ مايو سنة ١٩٠٦

ـ « ان سلاسل الاستعباد هى سلاسل على كل حال سواء كانت من ذهب أو من حديد » من كتابه الى السير هنرى كامبل بانرمان سنة ١٩٠٧

. مختارات من خطبته بالاسكندرية سنة ١٩٠٧

ـ « اننا لانعمل لأنفسنا بل نعمل لوطننا ، وهو باق ونحن زائلون ؛ وماقيمة السنين والايام فى حياة مصر وهى التى شهدت مولد الأمم كلها وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الانسانى كله ؟ ان العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ؛ ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ؛ وسيكون كذلك لامحالة ؛ فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الايام ، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب؛ فاننا لانمل ولا نقف فى الطريق ولانقول أبدا : لقد طال الانتظار »

ـ « اننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا الى أشرف غاية اتجهت اليها الأمم فى ماضى الايام وحاضرها؛ وأعلى مطلب ترمى اليه فى مستقبلها ؛ فلا الدسائس تخيفنا ؛ ولا التهديدات توقفنا فى طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر علينا ؛ ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية؛ نعم لو أخذنا الموت من هذه الدار واحدا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا « كونوا أسعد حظا منا ؛ وليبارك الله فيكم ، ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس ! »

ـ « بلادى بلادى ! لك حبى وفؤادى ؛ لك حياتى ووجودى ؛ لك دمى ونفسى ؛ لك عقلى ولسانى ؛ لك لبى وجنانى ؛ فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر ! »

ـ « إنى لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا »

— « إن أمة دبت فيها روح الوطنية ، وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبداً ، وان صواعق السياسة كلها لا تحوّل ضميرا لاذ بالوطن عن وجهته »

— « نحن مسلوبون والانجليز هم السالبون ، ونحن طلاب حق مقدس هم مغتصبوه ، فلا سبيل الى الاتفاق بيننا وبينهم الا باعترافهم بحقنا ورده الينا »

— « هل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو اليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها ، ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها ، وأقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من اطراف الأرض هل خلق الله وطنا أعلى مقاماً وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأجل آثاراً وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هـــذا الوطن العزيز ؟ اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا ، وان شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب اذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه اذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبى »

— « قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بانسان ، ولكن أى شرف يطمع الحر فيه اكبر من العمل لاحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب ؟ أى رفعة يسعى الشريف اليها أسمى من انهاض شعب كان استاذ الشعوب البشرية ومربى العالم كله ؟ »

— « ان مصر جديرة بأن تحب بكل قوة ، بكل عاطفة ، بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل حياة »

— « لا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد الا بقوة العقيدة الوطنية »

— « ان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان »

— « الدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية هما المؤديان الى تحقيق آمال الأمة المصرية ، فليكن معتقد المصريين جميعاً أن نجاة مصر لا تكون الا بهمم المصريين ،

وأن ارتقاءنا موكول الى عزائمنا ، فلنطلب النهوض من أنفسنا ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد »

عبقريته ومكانته السياسية

لم يكن مصطفى كامل زعيما وطنياً فحسب ، بل كان زعيما سياسياً ناضج الفكر ، صادق النظر ، واسع الاطلاع ، ملما بأسرار السياسة الدولية ، وهذه ميزة له على كثير من الزعماء الذين سبقوه (فى الثورة العرابية) أو تولوا الزعامة من بعده ، ويضارعه فى الاطلاع السياسى المغفور له محمد بك فريد ، فكلاهما درس القضية المصرية دراسة عميقة قبل أن يضطلع بأعباء الزعامة ، ولعلك تلحظ أنه حين عاد الى مصر عقب حصوله على شهادة الحقوق من فرنسا جاء ومعه صندوق من الكتب المؤلفة فى القضية المصرية ليتزود منها بالحقائق والبيانات اللازمة لخدمة هذه القضية

وظهر بعد نظره السياسى فى المبدأ الذى اتخذه شعاراً لدعوته ، وهو الجلاء ، اذ رأى بثاقب نظره أنه الرمز الصحيح للاستقلال التام ، وأن الاستقلال والاحتلال ضدان لايجتمعان ، قال فى هذا الصدد : « كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه »، واطرح المبادئ الملتوية والنظريات الخيالية جانباً ، وخالف الكثيرين من معاصريه الذين كانوا يرون مصانعة الاحتلال والتقرب اليه ، وجعل الجلاء شعاراً للحركة الوطنية ، فهو أول من علم الأمة أنه صخرة النجاة لمصر ، وأن الاحتلال الأجنبي هو مصدر العبث باستقلال مصر وكرامتها القومية، وقد أثبتت الحوادث قديمها وحديثها صحة هذا المبدأ القويم، لأن الاحتلال مهما كانت صفته لايمكن أن يتفق مع الاستقلال والكرامة القومية [1]

ويبدو بعد نظره فى تجنبه أخطاء زعماء الثورة العرابية ، فقد أدرك من

---

(١) قال مصطفى النحاس باشا فى خطبته التى ألقاها يوم أول يوليه سنة ١٩٣٨ : « ان جوهر المسألة المصرية هو الاحتلال والجلاء»

دراسته العميقة للمسألة المصرية أن اصطدام العرابيين والخديو توفيق كان من أسباب اخفاق الثورة ، ومن العوامل التى تذرعت بها انجلترا لاحتلال البلاد ، فكان يعمل دائما على ايجاد جو من التفاهم بين الأمة والخديو عباس الثانى ، ويدعو الى تعلق الأمة بالعرش ، ولما وقع الخلف بينهما بعد أن جنح الخديو للاستسلام والخضوع للاحتلال اجتنب هو الاصطدام به ، حتى لا يتخذ الاحتلال من هذا الاصطدام وسيلة لاضعاف الحركة الوطنية أو محاربتها باسم الخديو

وكذلك رأى من الحكمة السياسية توثيق الروابط الودية بين مصر وتركيا ، لكى يتخذ من موقف تركيا وسيلة لمقاومة الاحتلال واقامة الحجة عليه ، وأدرك من مطالعاته التاريخية أن انجلترا كانت تعمل دائما على تعكير العلاقات بين الخديو توفيق والسلطان مما أدى الى اطلاق يدها فى مصر ، وأن جفاء العلاقات بين مصر وتركيا فى عهد اسماعيل كان من العوامل التى جنحت بتركيا الى خلعه إجابة لرغبة انجلترا وفرنسا ، فعمل على اكتساب ود تركيا مادام الاحتلال فى مصر ، لكى يضمن أن لا تتفق الدولتان على اقرار الاحتلال كما فعلت فرنسا فى الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، وقد فصلنا الكلام عن هذه المسألة فى الفصل الثامن عشر

أما سياسته بازاء فرنسا فقد كان الى ماقبل حادثة فاشودة يتوقع تدخلها لصالح مصر ولذلك كان يأمل العون من ناحيتها حتى سنة ١٨٩٨ ، وكل من كان فى موقفه كان محقا فى هذا الأمل ، ولكن بعد أن وقعت حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ وتراجعت فرنسا أمام انجلترا أدرك أن لافائدة ترتجى منها ، وجعل الاعتماد على قوة الأمة وجهادها أساس الحركة الوطنية ، وأخذ يطعن على فرنسا وسياستها منذ تلك الحادثة ، كتب فى هذا الصدد يقول فى لواء ١٥ مايو سنة ١٩٠٠ : « اننا انتقدنا دائما السياسة الفرنسية وقلنا غير مرة أنها لا تليق

بحكومة الجمهورية ولولا هذه السياسة العوجاء لما كانت انجلترا فى مصر ولما كنا فيما نحن فيه »

ثم فقد أمله فى عدالة فرنسا خاصة وأوروبا عامة منذ أن رأى جمود أوروبا أمام مأساة (البوير) وتركها اياهم يسحقون أمام القوات الانجليزية دون أن تأبه بهم ، قال فى هذا الصدد فى عدد ٢٨ اغسطس سنة ١٩٠٠ من اللواء : « ان المعتمد على أوروبا واقف على هاوية عميقة القرار ، وان الوطنية تحتاج الى أسلحة عدة اذا كانت الشهامة والفضيلة والاقدام أهمها وألزمها ، فالحذر والدهاء والتبصر ضرورية لها بل وحيوية لكل أمة تطلب الحياة أو تريد الزيادة فى المجد والسؤدد ، واذا كانت أمة بلغت من الشهامة وحب الوطن مبلغ أمة البوير وهذا حالها مع أوروبا ، فكيف بنا ونحن نحتاج لسنين عديدة وأعمال مجيدة لبلوغ مبلغها والحصول على مالها من المحامد والمزايا »

وكتب الى مدام جولييت آدم فى رسالة له بتاريخ ٢١ يونيه سنة ١٩٠٠ يقول : « إنى لاأجد كلمات تسع اعرابى لك عن استيائى من أوروبا والمدنية الانسانية التى قضت بهجر البوير البواسل ! أى عار وأى درس لنا نحن الذين طالما كنا نعتمد على أوروبا ! »

فمصطفى كامل قد دعا الأمة منذ سنة ١٨٩٨ الى الاعتماد على النفس فى جهادها ؛ ومن الخطأ مايظنه بعض الكتاب انه ظل يتعلق بالآمال من ناحية فرنسا حتى سنة ١٩٠٤ وهى السنة التي أبرم فيها الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا ؛ فانه على العكس فقد أمله فى فرنسا منذ حادثة فاشودة ، ولم يفاجئه الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ بل زاده قوة على قوته فى الكفاح والجهاد

على أنه مع فقدانه الأمل فى تدخل فرنسا وأوروبا فى المسألة المصرية ، كان يؤمن بقوة الدعاية وأثرها فى احراج مركز الاحتلال وشد أزر الحركة الوطنية ؛ فكان لايفتأ يبذل الجهود الجبارة ليكسب لمصر الانصار والاعوان

فى صحافة أوروبا وفى دوائرها السياسية والأدبية ؛ وقد وُفّق من هذه الناحية توفيقا عظيما يدل على حظ كبير من المكانة الشخصية والمقدرة السياسية ؛ فليس من السهل على أى انسان مهما كان كبيرا أن يدرك تلك المكانة التى جعلت الفقيد ينشر مقالاته واحاديثه فى أهم الصحف الأوروبية

لقد كانت كبرى الصحف الفرنسية كالفيجارو والاكاير والطان والديبا وغيرها ترحب بمقالاته واحاديثه ، وكان ينشر بعضها أيضا فى الصحف الانجليزية . وكان فى صيف كل عام يقصد الى أوروبا وتنشر له كبريات الصحف الاحاديث والمقالات عن مصر وشؤونها ، وتخصص لها مكانا بارزا فى أعمدتها ، وتتناقلها الصحف الأخرى ، وكان لايحل ببلد الا وتتجه اليه الانظار ليدلى الى الجمهور بآرائه عن الحركة الوطنية المصرية التى كان زعيمها وممثلها فى الداخل والخارج بلا منازع

ومن دلائل مكانته السياسية أنه لما وقعت حادثة دنشواى استطاع أن ينشر مقالته الشهيرة (الى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن) فى صدر جريدة (الفيجارو) ، فكانت بمثابة صحيفة اتهام للسياسة الانجليزية فى جريدة من أكبر الصحف العالمية ، وفى وقت كانت السياسة الفرنسية متجهة وجهة الاتفاق الودى مع انجلترا ، وهذا يدلك على عظم المنزلة التى نالها الفقيد فى العالم السياسى

ولما نشرت له (الفيجارو) فى سبتمبر سنة ١٩٠٧ كتابه المفتوح الى السير هنرى كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية الذى احتج فيه على الاحتلال وطالب الحكومة البريطانية بتحقيق وعودها فى الجلاء ، تناقلته جرائد الطان والديبا والاكاير والايكودى باريس والجولوا وغيرها ، وعلقت عليه تعليقات تدل على عظم مكانته ؛ وأنشأت الطان فى صدده مقالة افتتاحية قائلة ان العلاقات الأدبية والمادية بين فرنسا ومصر تعادل ماعند فرنسا من الميل والانعطاف نحو المصريين ، وتردد صدى الكتاب فى معظم الصحف البريطانية كالتيمس والستاندارد

والديلي نيوز والمورننج بوست والمورننج ليدر وغيرها ونشرته ضمن رسائلها التلغرافية الواردة اليها من مكاتبها بباريس ، كما رددت صداه شركة روتر فى أرجاء العالم .

وعند مااستقال الاستاذ ادوار لامبير من منصب ناظر مدرسة الحقوق الخديوية (ص٢٥١) التقى بالفقيد بفرنسا ؛ وهو الذى قدمه الى المسيو تارديو مدير جريدة الطان (والذى صار رئيس وزراء فرنسا فيما بعد) لينشر له مقالته عن أسباب استقالته ، وقد نشرت بها فعلا ونشرها الفقيد بأكملها فى الاتيندار اجبسيان وذى اجبشيان ستاندرد ونشر تعريبها كاملا فى اللواء فى اليوم التالى لظهورها فى الطان ، وقد ذكر العلامة لامبير هـذه الحقيقة فى حديث له بجريدة الجهاد عدد ٨ مارس سنة ١٩٣٧ حين حضر الى مصر لالقاء محاضراته القانونية تلبية لطلب كلية الحقوق المصرية .

وقبلت جريدة الفيجارو الشهيرة أن تنشر ليتندار اجبسيان كل المقالات التى يكتبها الكاتب الطائر الصيت (بييرلوتى) عن مصر فى يوم واحد معا ، على حين كانت تنقده المبالغ الطائلة على ذلك

ولما أوفد الفقيد الى باريس سيد افندى على أحد محررى اللواء فى بعثة صحفية ليتلقى علوم الصحافة فى مدرسة العلوم السياسية بها ؛ زوّده بكتب توصية الى اقطاب السياسة والصحافة فى فرنسا ، فكان كلما قابل أحدهم وسلمه كتاب التوصية قابله بعناية واحترام لاحترامهم شخصية الفقيد ؛ وقصد الى ادارة جريدة (الطان) ؛ وهى كبرى صحف فرنسا ومعه خطابان أحدهما لرئيس تحريرها ، والآخر لمحررها الاول ، فلما أخبرهما أنه رسول مصطفى كامل قابلاه بالحفاوة البالغة ؛ وأخذ رئيس التحرير يقدمه الى زملائه مبتسما قائلا : «هذا مندوب صديقنا الجليل مصطفى باشا كامل » ، ولما تلا كتابه أقبل عليه وقال : « إنى أحب الباشا من أعماق قلبي ، وأود أن اقوم له بخدمة ولو صغيرة ، فأعلم أن ابواب الطان مفتحة أمامك فى كل وقت وساعة ، وأن أبواب غرفتى لاتقفل فى وجهك أبداً ، وقد كلفنى رئيسك أن

ألحقك بمدرستى العلوم السياسية والصحافة ؛ ومن رأيى أن تقتصر على الأولى ، لأنك لاتستفيد من الثانية شيئا ؛ فاذا أتممت العلوم السياسية فعُدْ الى مصر وتعلم الصحافة فى مدرستها الكبرى التى يديرها مصطفى كامل باشا » ؛ فهذه المنزلة التى نالها الفقيد لدى أقطاب السياسة والصحافة فى فرنسا لايمكن أن ينالها الا الرجل العظيم الذى رفعته كفايته الممتازة وشخصيته الفذة الى ذلك المستوى الكبير ، ولا غرو فقد كان معروفا فى أوروبا بأنه بطل الاستقلال المصرى ، ويدلك على سمو مكانته فى نفوس عظماء الغرب أن الكاتب الفرنسى الشهير بيير لوتى ، وكان صديقا حميما له ، وضع كتابا سنة ١٩٠٩ عن مشاهداته فى مصر ، وقدم له بكلمة إهداء الى روح الفقيد قال فيها : « الى ذكرى صديقى المجيد العزيز مصطفى كامل باشا الذى استشهد يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ فى ميدان الجهاد الشريف عاملا على رفعة شأن مصر والاسلام » ؛ وهى كلمة لا تصدر الا عن تقدير عظيم ، من أديب كبير .

سياسته نحو النزلاء

وكان شديد الحرص على اكتساب ثقة النزلاء الأجانب واطمئنانهم الى الحركة الوطنية ، وفى ذلك قال كلمته المشهورة (أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا) ، وقد وفق توفيقا كبيرا فى كسب ثقة الأجانب واحترامهم ، مما كان يبدو أثره فى الصحف الأوروبية المحلية ، ولا شك ان ظهور زعيم وطنى شاب مثقف ثقافة أوروبية قد أفاد كثيراً فى الدعاية للحركة الوطنية ، سواء فى أوروبا أو فى الأوساط الاوروبية المحلية ، ولذلك كان له أنصار وأصدقاء ومعجبون كثيرون من أعيان الجاليات الأوروبية ، ومن أقطاب الصحافة والسياسة والقضاء والمحاماة ، وقد كان أول زعيم مصرى سمعت منه أوروبا صوت مصر الحديثة ، وكان له من الصحافيين الأجانب فى مصر أصدقاء شخصيون عديدون كالمسيو هيكاليس باشا صاحب جريدة الفارد الكسندرى ، والمسيو برشيه

صاحب الجورنال اجبسيان . والمسيو راوول كانيفيه مدير جريدة الريفورم والمسيو جورج فيسييه مدير الجورنال دى كير وغيرهم

سياسته الشرقية والاسلامية

كان مصطفى كامل علما على الوطنية المصرية ،وكان فى الوقت نفسه رسول الحرية والجهاد للأمم الشرقية ؛ شديد الغيرة على توثيق عرى الروابط والتعاون بينها ، وكان قوى العقيدة الدينية ، قوى الايمان ، ولقد كانت قوة ايمانه من أسباب رسوخ العقيدة الوطنية فى فؤاده ، قال فى هـذا الصدد رداً على حملات الصحف الأوروبية على الاسلام لمناسبة مقالات هانوتو : «قد يظن بعض الناس أن الدين ينافى الوطنية أو ان الدعوة الى الدين ليست من الوطنية فى شئ ؛ ولـكنى أرى ان الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وان الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ويفديه بروحه وماتملك يداه » (راجع ص ١٤٧)

ويبدو اتجاهه الى تقوية الروابط بين الشعوب الاسلامية من اصداره جريدة اسبوعية باسم (العالم الاسلامى) كان ينشر بها كل ما يهم الاسلام من المقالات والانباء

وكتب فى جريدة (الطان) الفرنسية ـ عدد ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ ـ مقالة ردا على مقالة نشرتها عن الجامعة الاسلامية قال :

« لقد فسرت كلة الجامعة الاسلامية فى أوروبا تفسيرا لا يتفق ومعناها الحقيقى ، وانى أعيد هنا ما كتبته فى « الفيجارو » و « اللواء » وما قلته فى كل مكان من أنه لا يوجد مسلم متنور يعتقد لحظة واحـدة أن الشعوب الاسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبا ، وانى اتساءل من الرجل العـاقل السليم الادراك الذى يصدق امـكان تغلب الشعوب الاسـلامية على كافة الدول الاوروبية ، ان الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شىء هى أن حركة الجـامعة

الاسلامية بالمعنى المقصود منها فى أوروبا ـ أى الحرب الدينية ـ لا وجود لها بالمرة لان المسلمين أدركوا من زمان بعيد انه يستحيل على أية أمة أن تعيش فى معزل عن العالم ؛ وان الامة التى تحاول ذلك تقضى على نفسها بالموت ؛ اما الشعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند كافة الشعوب الاسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض ، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده ان يرى أبناء دينه معاملين أحسن من المعاملة الحالية ومعتبرين كجزء حى من الانسانية ومحترمين فى كل مكان ومن كل انسان ؛ وانه لما كان لتأخر الشعوب الاسلامية أسباب واحدة ؛ فان نهضتهم تكون بوسائل واحدة ؛ وان هذه النهضة لا تصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل أوهام تأليف عصبة اسلامية ضد المسيحية ؛ بل بالتعليم والنور ؛ وبما ان الاسلام ليس عقيدة دينية فقط بل قانون اجتماعى فان احياء الافكار ونشر المعارف لا يتمان الا باظهاره على حقيقته؛ وان ميل كل مسلم لابناء دينه أمر طبيعى وشرعى؛ ولا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل ، اما عن تهمة التعصب الاسلامى المزعوم فى مصر فانى اؤكد أن بلاداً كثيرة فى أوروبا تعرف التعصب العنيف الممقوت فى حين أن مصر لا تعرفه؛ فليس عندنا احزاب ضد اليهود ولا اشتراكيون ولا فوضويون ولا شىء من تلك الفرق التى يأكل بعضها بعضا »

مقدرته الخطابية

هو أعظم خطيب أنجبته مصر الحديثة ؛ وأول خطيب سياسى جهر بالاستقلال فى عهد الاحتلال ؛ وأول زعيم اتخذ الخطابة وسيلة لبعث الحركة الوطنية ؛ ولا شك أن الحركة الوطنية مدينة لخطبه الجليلة الرائعة فى ظهورها واتساع مداها ؛ وكانت هذه الخطب من الحوادث الهامة فى تاريخ الحركة القومية ؛ كان خطيبا مفوها ؛ يجيد الخطابة باللغتين العربية والفرنسية ؛ والخطابة بعد الوطنية كانت أبرز الجوانب فى شخصيته ، كان اذا جلس فى محفل خاص

وتكلم مع الحاضرين يدوى صوته كأنه يلقى على السامعين خطبة من خطبه الرنانة ، كان جهورى الصوت ، يتكلم من أعماق قلبه المملوء يقيناو إيمانا ، وكان له سلطان روحى على من حوله من السامعين أو المخاطبين ، وقد بدأت مواهبه الخطابية فى الظهور وهو بعد فى المدرسة الثانوية إذ كان يخطب فى جمعية الصليبية الادبية وجمعية الاعتدال بمدرسة الامريكان (ص١٦) ؛ فكان يسترعى الانظار بفصاحة لسانه وصوته الرنان ، وقد اختار مدرسة الحقوق « لأنها مدرسة الكتابة والخطابة » كما يقول فى خطابه الى شقيقه فى ١٢ يوليه سنة ١٨٩١ ، ممايدلك على ميوله الخطابية وهو فى هذه السن المبكرة ، وانك لتلمح مقدرته الخطابية فى بداية حياته الوطنية من قول على مبارك باشا له سنة ١٨٩٠ وهو بعد طالب فى المدرسة الثانوية « انك امرؤ القيس » ، ومن وصف الاستاذ محمد مسعود بك إياه سنة ١٨٩٦ (ص ٦٨) بخطيب مصر المصقع ، وانه الذى اذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له القول وسخر له الخطاب وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق

وقد كان فى مواقفه الخطابية الكبرى يضع خطبه ويكتبها ؛ ولكنه كان يلقيها على السامعين دون أن يقرأها ، وكان له من قوة ذاكرته المدهشة مايغنيه عن الرجوع الى التلاوة فى خطبه ، وكانت مقدرته الخطابية باللغةالفرنسية لاتقل عنها فى خطبه العربية ، ولذلك نال اعجاب الأوروبيين ممن سمعوه يخطب بالفرنسية ؛ وكان هذا الاعجاب من أسباب علو منزلته السياسية والاجتماعية فى اوروبا وبين النزلاء الاوروبيين فى مصر

مقدرته الصحفية

هو من عباقرة الصحافة فى مصر والعالم ، خلق صحفيا بفطرته ، فأسس مجلة المدرسة وهو بعد فى المدرسة الثانوية ؛ فكان أول طالب مصرى مارس الصحافة ؛ كما أنه كان أول طالب خطب فى الوطنية ؛ وقد ولع بمراسلة الصحف فى هذه السن المبكرة ، وكتب فى كبريات الصحف من مصرية وأوروبية قبل

أن ينشئ اللواء ، ولما أنشأه سنة ١٩٠٠ بعث فى الصحافة روح التجديد والنشاط ، فكان اللواء نموذجا للفن الصحفى ، متنوع المقالات والأبحاث والأنباء ، وكان أول ماصدر فى أربع صفحات ، ثم مازال يرقى به حتى جعله فى ثمان بعد أن استحضر له من أوروبا آلة الطباعة الكبرى (روتاتيف) ، وكان يفيض بالأنباء البرقية الواردة اليه من الخارج على يد مراسليه ، فضلا عما كان ينشر من رسائل كبار الكتاب فى مصر وأوروبا ، وصار كما قالت (الاجبشيان جازيت) : « أكثر الجرائد العربية انتشارا ليس فى مصر فقط بل فى جميع العالم على الأرجح » ؛ ولم يكتف باصدار اللواء اليومى بل أصدر الى جانبه (مجلة اللواء) الشهرية ثم جريدة العالم الاسلامى سنة ١٩٠٥

وبلغت مقدرته الصحفية أوجها حين أصدر جريدتى ليتندار اجبسيان وذى اجبشيان ستاندرد اليوميتين ، فصار يصدر ثلاث صحف يومية كبرى ، بثلاث لغات مختلفة ؛ وهى مهمة تنوء بها العصبة اولو القوة من الرجال والجماعات ، وقد كان يشرف بنفسه على تحريرها وادارتها ، وتتمشى روحه فى كل كلمة منها ، بحيث لم يؤخذ على أية صحيفة منها أنها نشرت يوما مقالة أو نبذة تخالف روحه ومذهبه .

وكان للايتندار اجبسيان وذى اجبشيان ستاندرد محررون اختارهم الفقيد من صفوة الكتاب الفرنسيين والانجليز : ومراسلون فى باريس ولندن يرسلون اليهما تلغرافيا خلاصة كل ما ينشر فى الصحف الاوروبية عن مصر فى حينه ، فكانت الالوية الثلاثة تطالع قراءها يوميا بكل ما يهم مصر فى الخارج

ولما نشرت (الديلى تلغراف) حديثا للخديو عباس (ص٣٣٣) فى مايو سنة ١٩٠٧ عقب استقالة اللورد كرومر علم به الفقيد تلغرافيا من مراسل ذى اجبشيان ستندرد فى لندن ، فطلب اليه أن يوافيه بنصه حرفيا ؛ فجاء نصه بالتلغراف فى ١٤٤٥ كلمة ، وكانت هذه أول مرة فى تاريخ الصحافة المصرية والشرقية جاء فيها تلغراف بهذا الطول وهذه الاهمية

وقد بلغ من تعلق الفقيد بترقية الصحافة ورفع شأنها أن أوفد بعثة صحفية إلى أوروبا فى اكتوبر سنة ١٩٠٧ لدراسة فن الصحافة وإتقانه ، وبدأ بارسال سيد افندى على أحد محررى اللواء وتتثلذ الى باريس ، وانتظم على نفقة صاحب اللواء فى سلك مدرستى العلوم السياسية وفن الصحافة بباريس لمدة ثلاث سنوات ، ولكن لم يطل مكثه هناك لمرض اعتراه ، وقد عرض علىّ الفقيد فى تلك السنة وكنتُ اذ ذاك طالبا بمدرسة الحقوق أن يوفدنى فى هذه البعثة الصحفية بعد حصولى على شهادة الحقوق ؛ فقبلت هذه الثقة شاكرا ، ولكن المنية عاجلته قبل تخرجى من المدرسة

كان مصطفى يتولى عمله الصحفى المنهك ، إلى جانب إشرافه على إدارة مدرسة مصطفى كامل ؛ الى جانب خطبة الرنانة التى كان يلقيها من آن لآخر ، وأحاديثه ومقالاته فى كبريات الصحف الاوروبية ، واطلاعه على الصحف والمؤلفات التى تكتب عن مصر وعن المسائل السياسية الكبرى العالمية ، والى جانب ذلك يجتمع بأصدقائه وأنصاره وتلاميذه ويفيض عليهم من أحاديثه وتعاليمه ماءيملأ نفوسهم وطنية وايمانا ؛ وكان اذا خلا الى راحته يكتب الرسائل الخاصة الى كبار السياسيين والكتاب فى أوروبا ؛ مما لو جمع لصار عدة مجلدات ، وقد جمع شقيقه على بك فهمى كامل رسائله الى مدام آدم ؛ فجاءت كتابا قيما ممتعا ، كان الفقيد يضطلع بهذه الاعباء كلها مجتمعة بهمة وكفاية ومقدرة منقطعة النظير

فضله على الحركة الوطنية

هو رسول الوطنية والحرية لمصر والشرق جميعاً ، وان قيامه ضد اكبر دول الاستعمار وهى فى أوج قوتها لهو مثال خالد للبطولة والاخلاص والتضحية ، جدير بأن تحتذيه الامم الشرقية فى جهادها للحرية والمجد ، وقد بينا كيف أنه كان باعث الحركة الوطنية الحديثة وموجدها ؛ فلا نعود الى هذا البيان

ولقد ظهرت هـذه الحقيقة رائعة يوم الاحتفال بجنازته ، إذ كانت إجماعا من الأمة على الاعتراف بأن الحركة الوطنية هى غرس جهاده المتواصل طوال سنى حياته ؛ وسندعم هذه الحقيقة هنا بأقوال معاصريه فى مصر وفى الشرق والغرب ، فان هذه الأقوال تسطع منها شخصية الفقيد العظيمة

قال المغفور له الشيخ على يوسف صاحب «المؤيد» فى رثائه :

« كان فى عمله كقائد الجيش يسير به الى ميدان القتال «للحياة الفاخرة ، أو للدار الآخرة ، ذلك كان مبدأ صديقى القديم ،وهذا شأن رصيفى العظيم ؛ فكان من مبدئه يافعا ، الى أن صار فى الرابعة والثلاثين رجلا كاملا، مثال الهمة الشماء والفطنة والذكاء والعزيمة ذات المضاء ، والحركة الدائمة التى لا تنى ولا تنثنى ، ذاهبا فى طريق الآمال ينشد لوطنه الاستقلال، فاليك أيها الصديق القديم والرصيف العظيم تحية محزون يعرف لك أكثر من كل انسان خدمتك العظيمة التى خدمت بها وطنك ؛ فايقظت من شعور المصريين ما قامت مظاهرات الأمس اكبر برهان على مقدار ما كان لك فيه من حسن الاثر ويد بيضاء ، ويقـدر جهادك العظيم فى أوروبا فى سبيل الدفاع عن حقوق الأمة المصرية حق قدره ، وأنى لمصر أن تجد بعدك صوتا عاليا اذا قال أسمع أوروبا بأسرها وتردد صـداه فى الخافقين ، بل أنى لمصر بمن يملك احسـاس شبيبتها كما كنت تملك ويستفز شعورها كما كنت تستفز، والأمة فى حاجة كبرى الى تنمية مثل هذه العواطف الشريفة »

وقال المرحوم مرقس حنا باشا (عضو الوفد المصرى) فى حفلة تأبينه : « ان العظمة والمهابة التى أحاطت بنعش المرحوم مصطفى كامل باشا يوم ١١ فبراير المنصرم دلت دلالة صادقة اكيدة على أنه لم يكن صديقا لفريق من المصريين ، بل كان صديقا لجميع الوطنيين على السواء ؛ بـكاه كل ساكن من سـكان هذا البلد لأنه

قضى حياته كلها فى بث روح الوطنية الحقيقية بين أهله وقاطنيه : بكيته أنا شخصيا لأنى عرفته مثالا للرجولة والشهامة والصداقة بكل معانى الكلمة ؛ كان الرجل شفاء لغلتنا ، وإرواء لظمأنا ؛ جئت أقول لكم كلمة واحدة هى حياة مصطفى كامل كلها ؛ إن الأمة نمت وسمت وتغارست أغصانها حول جذع واحد هو مصر ، هو الوطن العزيز : تلك الحقيقة التى لا ريب فيها ، الفخر فى احيائها راجع الى مصطفى كامل باشا »

وقال الشيخ مصطفى القاياتى فى مارس سنة ١٩٠٨ : « هذه الحياة القومية المدهشة والنهضة المصرية الفائقة إنما هما أثر من آثاره ونتيجة من نتائج أعماله ، سيتوارثها الأبناء عن الآباء وتبقى مابقيت صفحات التاريخ »

وقال سعد باشا زغلول فى خطبته بفندق شبرد يوم ٢٠ ابريل سنة ١٩٢١ « أعلم ان البلاد تصبو الى الاستقلال وان حركتها الاستقلالية بدت من زمان طويل ، خصوصا من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك ، هؤلاء الذين أسسوا وأيدوا ماأسسوا فى النهضة الحاضرة »

وقال فى خطبته بالسرادق يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣ « لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم ؛ لااقول ذلك ولا أدعيه ، بل لااتصوره ، انما نهضتكم قديمة تبتدئ من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد على ؛ وللحركة العرابية فضل عظيم فيها ، وكذلك للسيد جمال الدين الافغانى واتباعه وتلاميذه اثر كبير ، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها أيضا ، وكذلك للمرحوم فريد بك »

وقال الاستاذ اخنوخ فانوس من خطبته فى حفلة تأبينه

« انه أنهض روحا شريفة عامة بين طبقات وعناصر الأمة المصرية ، روحا وطنية شريفة بل زهرة زاهرة عابقة نمت وعلت فوق هامة الاشراك المذهبية بناموس الرقى ، فما مات مصطفى حتى اطلقت عبيرها بين الملأ فأنعشت كامن

الحب القومى الوطنى الطبيعى وكشفت فى مصر عن حلقةوطنية صحيحة شريفة»
وقالت « الاهرام » فى رثائه ـ بقلم الاستاذ داود بركات
« ذهب « فتى مصر » ، فكل قلم « مصرى » ككل لسان مصرى ، وقف اليوم على تأبينه ورثائه ، ومات مصطفى كامل ؛ فالأمة التى كانت اقواله وسياسته وأفكاره شغلها الشاغل ؛ هى الآن رهن الفجيعة به ؛ والمصاب بفقده ؛ بل ان اقلام خصومه الحادة التى كانت تتناوله كل حين بالغمز ؛ وكل آونه بالتجريح واللمز ؛ هى اليوم أمام نعشه خاشعة تقطر بالرثاء ، بعد أن اتأدت ، والداء يفت من جسمه ؛ لاتقلق مضجعه ولا تشوك سريره ؛ بل هى اليوم مثلها بالأمس ؛ تعرف انها كانت تنازل فى منازلته فكراً يؤلف به الافكار ؛ لاشخصا فى عقر الدار ؛ ومذهباً فى السياسة هو صدى آمال أمة عظيمة ؛لامذهبا فى العمل ينحصر فى دائرة ضيقة ؛ فلو لم يكن فتى مصر قوة ما جردت عليه قوات ، ان الطريقة التى كانت عنوان عمل مصطفى كامل هى الحرية فى القول ، والمجاهرة بما يضمر ؛ والتذرع بالشجاعة فى العمل ، لانه لايميت الحقوق فى الامم مثل الجبن عن المطالبة بها ، أو التطوح الى ماوراء الغاية من الشجاعة ، فحسبه مجداً أن يسجل له فى تاريخ أمته تلك الشجاعة وتلك الحرية ؛ بل حسبه أن يكون مثالاً للناشئة ؛ فهو اكبر معلم بما عمل »

وقالت مدام جوليت آدم فى مقدمة كتاب رسائل الفقيد اليها :

« ان فى نشر رسائل صديقى وابنى مصطفى احياء له بعض الشىء ، على أن مواطنيه لذكره لحافظون ، هل مات « مصطفى » ؟ كلا ، لم يمت ، لأن اعماله وكتاباته وأقواله حية فى أعماق قلوب أنصاره ومحبيه ، وهو يحيا فى تلك الشبيبة المصرية التى أخرجها من الظلمات الى النور ووقف نفسه على مستقبلها جسما وروحا ؛ لقد صار من رجال التاريخ ؛ وهو حى فى شخص الكل والكل حى فى شخصه ، وما يجىء من الحوادث لن يغير شيئا من صورته وعنوان

مجده ، وان الفخر فى تحقيق آماله حين تتحقق يعود عليه ويرجع اليه كله ، لأنه لا شيء ينقص من فضل أول باعث لفكرة استقلال مصر ، لقد قامت عند وفاة « مصطفى كامل » مظاهرات لم يصدر من أمة أخرى أعظم منها ، وقد صار عمله كله حيا فى قلب كل مصرى ، لأن كل مصرى يفهم أن « مصطفى كامل » قد أحيا مصر اذ نفخ فيها من روحه ، وعند ما كان يقول متباهيا بلسان المغرم : أمتى ! لم يكن يقولها باسان الملك عن رعاياه ، بل كان يحيى فى نفسه بلاده ووطنه ، وكان يحيا معهما . لأنه كان يحب أمته حبا لا يقوى عليه الموت :

« وان ما خترته من رسائله لدال على أنه جدير حقا بلقب « الوطنى » الذى أسبغته عليه أمته فى كل شيء : الخطيب الوطنى ، ورئيس الحزب الوطنى ، ومثل هذا اللقب أعظم فخر يطمع فيه خادم الوطن ، لقد كان « مصطفى كامل » يقول ان هذا اللقب يحيينى بحياة بلادى كلها وهو جزائى الاعظم ، واليوم يبعثه هذا اللقب حياً فى نفس كل وطنى مصرى »

وقالت جريدة (الديبا) الفرنسية الشهيرة فى ابريل سنة ١٩٠٨

« ان مصطفى كامل لم يوقظ أمته فقط وانما رباها ايضا ، بل يمكن القول بانه هو الذى انشأ الروح المصرية من العدم ، لم تكن مصر قبله الا قسما من الاقسام الجغرافية ، ولم يكن سكانها الا فرقا منقسمين بعوامل الجنس والدين متفرقين شيعا على قدر ما فى مصر من الاديان وما كان فيها من اختلاف المذاهب والمشارب والمطامع ، لقد تولى محمد على شؤون مصر فبعد بذله الجهد الجهيد نصف قرن من الزمان تمكن من انشاء جنسية مصرية ممتازة عن الجنسية العثمانية ، لكنه لم ينشئ أمة مصرية ، أما مصطفى كامل فقد خرج من بين هذه الجموع المتنافرة المتخاذلة التى لم تعرف معنى للتضامن القومى ولم تتذوق نعمة الوحدة الوطنية ، وكان أول من نطق بنداء الوطن ، نطق بهذا النداء ولم يكن قد تجاوز عشرين عاما ، ثم مازال يبث هذه الفكرة السامية والروح الشريفة مدة

أربعة عشر عاما متتالية تارة بالصحافة وطورا بالخطابة وأخرى بالمدرسة ؛ ظل يبث هذه الفكرة بجهد عظيم اضعف صحته وقرب منيته ، لقد انشأ مصطفى كامل الوطن المصرى ، فهو بذلك قد أتم اشرف عمل أدبى يخلد له الذكر الحسن على مر الاجيال ، واضاف الى هذا العمل الادبى عملا سياسيا ، وهوالسعى فى تحرير مصر من رق الاحتلال الانجليزى وجعلها اهلا لهذا التحرير ؛ فعمل مصطفى كامل كان اذن أدبيا وسياسيا معا »

ووصفه الكاتب الفرنسى (لويس برتران) فى مجلة العالمين، وكان قد زاره وهو فى أوج مجده قال :

«قصدت شيخ الوطنيين مصطفى كامل باشا وزرته فى داره؛ وقد كانت مدام جولييت آدم اعطتنى كتاب توصية اليه؛ فاستقبلنى رئيس الحركة الوطنية ومدير سياسة جريدة اللواء فى غرفته بادارة الجريدة ؛ فأحسن وفادتى واكرمنى ، دخلت غرفة الرئيس فعرتنى دهشة لانى وان كنت لا انتظر ان ألاقى شيخا عربيا ذا لحية بيضاء، ولكن كنت أحسب انى ملاق رجلا كبير السن قوى الجسم سا كنا كما هو المعهود فى الطبقة العالية من المسلمين، نعم عرتنى دهشة لأنى وجدت فتى شديد العارضة عظيم النشاط ، لايدل ظاهره على أن عمره يتجاوز الخامسة والعشرين مع أنه فى الحقيقة قد بلغ الثانية والثلاثين ، رأيت رجلا صغير الجسم ، شاحب اللون خفيف اللحم ؛ تدل ملامحه على انه رجل رقيق عصبى المزاج، لكنه مع هذا الجسم الضئيل كان جهورى الصوت خطيباً فطريا ، فكلمنى عن شئ من تاريخ حياته ، ومن عجيب مالاحظته انه بالرغم عن حبه وبغضه كان يحكم على الناس بفراسة عجيبة ، من غير أن تخدعه صلة النسب أو رفعة الرتب ، ثم انه فوق ذلك خبير بدخائل السياسة الأوروبية كل الخبرة ؛ وبالرغم عن انى كنت واياه وحدنا فى غرفة ، فانه كان يخاطبنى وكأنما هو يخطب فى جمع عظيم ، ومن مزاياه العجيبة ان له تأثيراً فى النفوس يضطرها الى الاقتناع بما يقول ، حتى انى لم أتركه الا وقد

انقسم فؤادى بين الميل الغريزى اليه ، وما سمعته من قبل من خصومه ؛على انى كنت شديد الرغبة فى مقابلته مرة ثانية ، قابلته مراراً وتحادثت معه كثيراً فعرفت فيه السياسى الحكيم الذى يعرف كيف يستخدم الظروف والفرص، وكيف يلين وكيف يقسو،وكان من رأيه أن لا يعتمد على أوروبا الاقليلا وان الثورة الحربية جنون، وكل عمله ينحصر فى تقوية روح الوطنية والاتحاد بين مواطنيه، والمقاومة السلمية ، وكان يحتقر مدنية لاغاية لها الا الرقى المادى دون عناية بتحرير النفس أدبياً ، فما كان أجمل جهاد ذلك الشاب المخلص الذى نصب نفسه لمحاربة خصم قوى عنيد مع انه لاسلاح له الا قلبه ولسانه! »

فضله على الوحدة الوطنية

إن الفقيد هو أول من أسس الوحدة الوطنية وجعل لواء الوطنية يضم المسلمين والاقباط على السواء ، كثيرون من الكتاب ينسبون هذا الفضل الى سعد زغلول ، وهذا خطأ تاريخى واجحاف لا مسوغ له ؛ والحقيقة ان مصطفى كامل هو صاحب الفضل فى تأسيس هذه الوحدة ، اعتبر ذلك فى اصطفائه الاستاذ ويصا واصف ومرقس حنا باشا، وهما من خيرة الوطنيين الاقباط. وضمهما الى الحركة الوطنية ، فكانا من اكبر أنصاره وأعوانه فى الجهاد ، وقد كان فى خطبه ومقالاته يدعو الى ارتباط المسلمين والاقباط فى الجهاد الوطنى

قال فى خطبته بالاسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧ : « ان المسلمين والاقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والاخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد » (ص ٩٨)

وقال فى خطبته بالاسكندرية يوم ٢ يونيه سنة ١٩٠٠ : « كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو للشقاق والبغضاء وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ، فالاقباط اخوة لنا فى الوطن تجمعنا بهم اشرف رابطة وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق » (ص ١٤٧) ؛ وتبدو هذه الروح الوطنية فى كل أقواله وأعماله

وليس أبلغ فى الدلالة على أنه الموجد للوحـدة الوطنية من شهادة المرحوم مرقس حنا باشا فى حفلة تأبينه يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٠٨ إذ قال عنه :

« ليس الابطال قائدى الجيوش والقابضين على دفة الاساطيل ، انما الابطال هم أولئك المتمسكون بالمبدأ القويم وأهدابه ، الدائبون على السير فى سبيله ، حتى رفعوا قومهم الى أوج الرقى والعلا ؛ سار الفقيد فى سبيله هـذا ثابت الجأش ، شديد المراس ، لا يلوى على أحـد ولا يقف به امر ، حتى فاز كما نوى ؛ واراد فكوّن الوحدة الوطنية ؛ وأرانا طريق الاخاء والحرية ، وهدانا الى السعادة الحقيقية ؛ رسم لنا طريق الوفاق والتآلف ، طريق الحرية والاستقلال ، وهذا الجمهور العظيم الذى نراه اليوم التف حول قبره وقد ضم بينه جميع العناصر المصرية يقول لكم بأفصح لسان وأجلى بيان وأقوى حجة وأعظم بلاغة « ان التآلف بيننا أصبح قاعدة ثابتة » ، ان الشبيبة المصرية لا تعرف غير أنها الشبيبة المصرية وألّا واجب عليها سوى خـدمة مصر والمصريين ؛ بلا تخصيص ولا تقسيم ، هـذا بناء مصطفى كامل ؛ هذا عمل مصطفى كامل ، وقد بدا لنا جنى ثمره من الآن ، لان الاتحاد هو السلم الأول للوصول الى الحرية والاستقلال)

تضحياته

سيظل اسم مصطفى كامل علماً للوطنية المنزهة عن الأهواء ، ومثالا للاخلاص والتضحية ، لا يمحوه الزمان ؛ وتبدو روح التضحية فى تاريخه من الطريق الذى سلكه فى الحياة : فهو لم يسلك الطريق السلطانى الموصل للرخاء والراحة ، والأبهة والجاه ، ونعنى به طريق المناصب ، ولو هو اختاره كما فعل معاصروه لبذّهم جميعاً بذكائه وكفاءته ونشاطه ؛ ولضمن لنفسه ولأهله وذويه طبقة بعد طبقة رغد العيش ، والثروة الطائلة ، والمراكز الممتازة ، ولكنه على عكس ذلك ؛ اختار الطريق

الشائك ، طريق الجهاد ضد الاحتلال وضد الحكومة معاً ، ولم يكن هذا الطريق ليجاب لصاحبه نفعاً ولا جاها ، بل هو طريق العقبات والمصاعب ، والجهد والحرمان ، فهذا الاختيار فى ذاته يدلك على مبلغ ما فطرت عليه نفس الفقيد من الاخلاص والتضحية ، والعمل لوجه الله والوطن فقط ، وفى ذلك يقول فى محاجّة خصومه سنة ١٩٠٠ : « يمكننى اليوم أن أقول أمام الملأ كله انه لا يستطيع انسان فى العالم أن يدعى انى خالفت مبدأ من مبادئى لحظة واحدة ، مع تغير الظروف وتقلبات الأحوال ، وموت الآمال عند كثير من الرجال ، ولا يوجد من يقول انى عملت ما عملت طمعا فى عز أو ثروة ؛ لأن الطامع فيهما لا يقف موقفى ، ولا يجاهد ضد الاحتلال ، تحت سماء مصر ، ولا يخطب ضد المحتلين حتى فى الوقت الذى كان فيه أخى فى قبضتهم يعاملونه بالذل والاستبداد ويذيقونه أنواع العذاب وصنوف البلاء ويهددونه بالموت والاعدام فى كل آن »

لقد ضحى اذن بمنافعه وراحته ومصالحه الشخصية فى سبيل حياة الجهاد التى اختارها لنفسه ، ولم يتحول عنها طول حياته ، كما ضحى بمصالح أقرب الناس اليه وأعزهم عليه

ذلك أول مظهر للتضحية فى تاريخه ، وهناك التضحية الكبرى التى تتضاءل بجانبها كل تضحية ، وهو بذله حياته وشبابه فى سبيل مصر

فلقد رأيت مما بيناه فى الفصل الخامس عشر (ص ٢٧٣) كيف كانت جهوده أقوى مما تحتمل صحته ، ذكر المرحوم فريد بك أنه رافقه فى سفره الى باريس ولندن فى شتاء سنة ١٩٠٦ لاختيار محررى جريدتى ليتندار اجبسيان وذى اجبشيان استندارد ، وان المرض عاوده أثناء تلك الرحلة ، ولزم الفراش بباريس عدة أيام ، عاده فيها الدكتور روبان الطبيب الشهير ونصح له بحضور فريد بك بعدم اجهاد قواه فى العمل ، وان يترفق بصحته فلا يحملها فوق طاقتها من العناء ، ويترفق كذلك بأمته فلا يحرمها وجوده حتى يتم مهمته التى وقف حياته عليها ، قال فريد بك : ولكن النصيحة أتت بعكس ما كنا ننتظره ، فانه رحمه الله لما أحس

بضعف قواه واستعداده للأمراض الفتاكة أسرع الخطى وضاعف الجهود ، فأتم معدات اللواءين الفرنسى والانجليزى حتى ظهرا فى مارس سنة ١٩٠٧ ، واستمر يجاهد ويبذل الجهود الجبارة طيلة سنة ١٩٠٧ ، كما تراه مفصلا فى الفصل الثالث عشر والفصلين التاليين

مضى الفقيد فى جهاده لا يلوى على شىء ، ولا يكترث للاخطار التى تتهدد حياته ، فكان كالبطل المجاهد فى حومة الوغى ، يرى الخطر ماثلا امام عينيه ، ومع ذلك لا يهاب الموت ويتقدم الصفوف ويجود بحياته فى سبيل الوطن ، وهذا لعمرى أقصى درجات التضحية فى الجهاد ، فهو بحق باعثُ الحركة الوطنية ومحييها ، ثم هو شهيدُها واكبر وأعظم ضحية لها ، وانه ليجدر بنا أن ننقش على قبره هذا البيت من قصيدة شوقى فى رثائه :

يا صَبَّ مصر ويا شهيدَ غرامها　　　هـذا ثرى مصرٍ فنم بأمان

الفصل الثانى والعشرون

نماذج من خطب الفقيد

رأينا أن نختم الكتاب بنماذج من خطب الفقيد التى القاها لتتكون منها صورة بارزة من حياته الخطابية فى مختلف مراحل جهاده ؛ وقد اخترنا هذه النماذج من أربع من هذه الخطب : الاولى والثانية فى ابان حياته السياسية سنة ١٨٩٦ ، والثانية سنة ١٩٠٢ فى منتصف سنى جهاده ، والثالثة سنة ١٩٠٧ فى أوج مجده الوطنى

(١) — خطبته بالاسكندرية

يوم ٣ مارس سنة ١٨٩٦ (انظر صفحة ٦١)

سادتى وأبناء وطنى الاعزاء

ما اقتربت من مدينتكم الزاهرة حتى شعرت من نفسى بارتياح زائد وانشراح خاص لانى عهدتها وأعهدها مدينة الحياة الحقيقية ومهد الرجال المشهورين بالشجاعة والبسالة والاقدام ، والمقابلة الودية التى قوبلت بها من كرمائها وساداتها قبل أن أقف بينكم الليلة خطيبا زادتنى حبالها وميلا لأهلها ؛ وانى أحمل كل ذلك الاكرام من أهل الاسكندرية على عظيم رغبتهم فى اعزاز مبدأ الوطنية الشريف ، لا على اكرام شخصى الضعيف

ويسرنى أن احادثكم اليوم فى شؤون الوطن العزيز ، هذا الوطن الذى تحبونه حبا مفرطا وتعملون جميعا لخيره وسعادته ، وأرانى موفقا لحصولى على هذه الفرصة الثمينة التى أتبادل معكم فيها ما يختلج فى نفوسنا من الآمال والامانى التى هى معنى الحياة والباعث القوى على العمل بجد ونشاط

ويلزمنى أن أقول لـكم انى قبل مبارحة القاهرة اخبرت بعض اصدقائى بأمر هذه الخطبة فأشار علىَّ فريق منهم بعدم القائها ، معللين ذلك بقولهم « انك اذا ذهبت الى الاسـكندرية واجتمعت بأهلها وحادثتهم فى مصائب مصر وآلامها ربما نتج عن ذلك شيء من هياج الافكار الامر الذى لا تحمد عقباه لانهم شديدو الوطنية وأنت شديدها وقد تدعو شدة الشعور بالواجب الى ما يتجاوز الحـدود احيانا »؛وزاد بعضهم على ذلك قوله « ولربما انتهز خصومك وخصوم الوطن العزيز هذه الفرصة لاحداث ما يقلق ويضر لتلقى التبعة عندئذ على اهل الاسـكندرية وعليك أيضا » ؛فخالفتهم فى الرأى وجئت ثغركم الباسم معتمدا على حـكمتـكم واعتدالـكم اعتمادى على همتـكم وشجاعتكم ؛ وان أفضل صفة اتصف بهـا أهل الاسـكندرية هى ولا غرو معرفة الواجب والشعور الصادق بحقيقة الحوادث ؛ والواجب اليوم على المصريين كافة انما هو التمسك بالصبر والاعتدال اكثر من ذى قبل

وقد اتخذتم ياأبناء الاسـكندرية فى كل بلاد مصر مثالا للهمة والحماسة، فلتـكونوا كذلك ،مثالا صادقا للدعة والسـكون والاعتدال لتصبحوا وتمسوا أساتذة لمصر كلها فى تأدية الواجب نحو الوطن المحبوب

ولقد أشاع عنـكم بعض كثيرى الظنون أن غيرتـكم وحميتـكم يستعملان احيانا ضد صالح البلاد وأنـكم تنفذون من حيث لا تشعرون مآرب ذوى الغايات باحداث القلاقل ؛ وكنت كلما أسمع مثل هذه الاشاعات استغربها كل الاستغراب ولى الحق فى ذلك الاستغراب ، لان الغيرة التى تستعمل فى غير موضعها تـكون دواما أضر من البلادة والخمول ، فلذا أناديـكم — وان كنتم أعلم منى بالواجب — مناداة محب لبلاده ولمدينتـكم بنوع خاص ان تنفوا باعتدالـكم وسـكونـكم تهمة من يرمونـكم بحب الهياج والاضطراب

ومثل مصر اليوم وهى على باب السعادة المقبلة مثل مريض قارب الشفاء ينصحه الطبيب بزيادة التحفظ وعدم التعرض للهواء لئلا ينتكس بالعلة فتعود عليه بويل أشد من ويلها الاول ، فلنحترس جميعا معشر المصريين من التعرض الى ماوراؤه تعرض الوطن نفسه الى خطر عظيم

وان صفتي التسامح والغفران اللتين اشتهرت بهما الأمة المصرية كانتا من أعظم الأسباب التي استمالت قلوب الأوروبيين نحوها ؛ وجعلتهم يعتبرون مصر كقطعة أرض من أوطانهم ، فهم يقطنونها آمنين مطمئنين ، ممتعين براحة البال والبعد عن البلبال ؛ ولذا وجدنا منهم على اختلاف جنسياتهم وملاهم نصراء أشداء للمطالبة بحقوق مصر وتحقيق رغائب أبنائها ، ويفرحنى كثيراً أن أرى اليوم الكثير من اكابر وأعاظم القوم فيهم قد حضروا هذا الاحتفال ، ولبوا الدعوة بلطف وتكرم ، وهو ما يدلنا على اشتراكهم معنا فى الاحساسات نحو هذه البلاد العزيزة

وأول مدينة فى مدائن اقطر سكنها الأوروبيون ووجدوا من أهلها بشراً وائتلافا هى ولا جرم مدينة الاسكندرية ؛ ولكم الحق يا أهلها وأعز أبنائها أن تفتخروا بذلك أعظم الافتخار ؛ فداوموا أيها الوطنيون الاعزاء على اكرام وفادة ضيوفكم ونزلائكم الذين يشتركون معكم فى الاحساسات نحو هذا البلد الامين ، وليكن مبدأنا دائما « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا »

وقد يفهم بعض الناس بالاعتدال الكف عن كل عمل يخدم البلاد ويسبب سعادتها ، فتراهم مقصرين كل التقصير عن واجباتهم ، وهؤلاء يخطئون الاعتقاد لان الاعتدال لا يفيد التهاون والاهمال ؛ وما أجمل الاعتدال مع العمل على خدمة الأوطان

وان فى مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعى العمل ، فلبست ثياب اليأس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز ؛ وجعلت مهمتها فى الأمة تثبيط الهمم واقعاد العزائم ؛ فلا تنادى فى المحافل والاندية الا بأنه ليس لمصر حظ فى

المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية؛ وان شعبها قد مات من زمن طويل وليس لمفكر عاقل أن يؤمل له مستقبلا جديداً ؛ وترى رجال هذه الفئة اليائسة يرمون كل رجل يقوم بالدفاع عن حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر .

وعندى أن الرجال اليائسين وان كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررونه ، اذ ان قتل العواطف الشريفة واخماد نار الغيرة الوطنية هما ولا محالة أكبر جناية تجنى على الوطن واهله ، فليكن من واجباتنا أن نترك هؤلاء اليائسين فى سفن يأسهم تصعدهم أمواج الافكار وتهبطهم حتى نصل بهم الى شاطىء الخير وبر الرفاهية فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم

ولا تظنوا أيها الاخوان الأعزاء ان عملكم لخير بلادكم يقابل من الانجليز بالازدراء والاحتقار ، كلا ثم كلا ، الانجليزى الذى يحتقر مصريا يحب بلاده ويدافع عنها بصدق واخلاص يكون محتقراً لنفسه ولقومه؛ لأنه هو وكل مواطنيه أول العاملين فى الأمم على تقدم بلادهم؛ ولا يرضيهم أن تبقى سعيدة فى داخلها فقط ، بل يبذلون كل مافى وسعهم لاتساع نطاق مستعمراتها واستدرار الخير من مواردها لها وحدها لا لغيرها

وإذ ولجت موضوع الوطنيين المصريين ازاء الانجليز فأرانى فى حاجة لأن أستميحكم الاذن فى التكلم عن مسئلة الاحتلال وابداء رأيى فيها بكل صراحة

وليس من غرضى أن أطعن على الحكومة المحلية أو أنتقد على أعمالها ، فكلكم تعرفون مثلى مواضع الخلل فى الادارة ومواضع الكمال والانتظام ، وبديهى ان نواميس الوجود قاضية بسوء ادارة كل مصلحة وطنية يتداخل فى شؤونها تداخلا فعليا رجال غرباء لا يفقهون لغة البلاد ولا يعرفون شيئا من عوائد أهلها واخلاقهم

وليس غرضى كذلك أن أندد بحكومة جلالة الملكة أو بالامة الانكليزية ، لانى أترفع عن أن ادافع عن بلادى بالطعن والسباب ؛ فضلا عما أحس به دائما

من وجوب احترام الشعب الانكليزى ، وانما الذى اريد ذكره وايضاحه هو أن الخلاف حقيقة الخلاف بيننا معشر المصريين وبين بعض الانكليز هو ، هل زمن الجلاء عن مصر حان أو لم يحن ، فدول اوروبا ذوات المصالح فى مصر تقول معنا ان زمن الجلاء قد حان منذ أعوام ، والمستر غلادستون زعيم الاحرار واكبر سياسيي انكلترا يقول ذلك القول بعينه غير خائف لوما أو تعنيفا ، وبعض أبناء التاميز يقولون ضد ذلك ان زمن الجلاء لم يحن وان مصر فى حاجة الى وصى عليها

وقد نرى بعض المتحزبين للاحتلال الابدى — وهم ليسوا من الانكليز والانكليز لا يستطيعون أن يكونوا على رأيهم — يقابلون مطالبنا الشرعية بالسباب والشتائم ، فهل يستطيعون اليوم أن يقولوا عن المستر غلادستون انه عدو لبلاده كما يتهموننا بنكران الجميل ؟

وبعيد عن ذهنى انه يوجد على الأرض رجل انجليزى يحب وطنه حبا حقيقيا ويستطيع القول بأن انكلترا تريد وضع يدها على وادى النيل ، فان ذلك الامر بل هذا الجرم العظيم مناقض كل المناقضة لمصلحة انجلترا نفسها ولشرفها العالى الشأن

والا فهل يرضى أبناء انجلترا أن يستعمل شرفهم آلة دنيئة لامتلاك بلاد حرة واستعباد أمة حرة ؟ وهل ترضى الامة البريطانية الغيورة على مقامها واحترامها أن يقال عنها انها لا شرف لها ولا احترام لكلمتها العلنية وعهودها الصريحة ؟ انى لا أظن ذلك وأعتقد انكم كلكم على رأيى

وهل تسمى المروءة مروءة اذا كان معناها أن أمة اوروبية استغاث بها أمير شرقى فاغاثته ونصرته ثم عملت لضياع ملكه واسترقاق أمته وشعبه ؟

اذن فنقطة الخلاف الوحيدة بيننا وبين بعض الانكليز هى ان زمن الجلاء على رأينا قد حان ، وعلى رأيهم لم يحن الى الآن ، وعهد كل عاقل بالامة الانجليزية

انها اذا وقفت على الحقيقة وأرشدت الى الصواب كانت فى مقدمة أمم أوروبا مطالبة بالجلاء

وعسير على الأمة الانجليزية الوقوف على الحقيقة الا اذا قام فيها خطباء من أفرادها ومن المصريين أنفسهم يبطلون ماتذيعه التيمس واخوانها من ذوى الاغراض السافلة من أن الانجليز لم يقوموا فى مصر الى الآن بالواجب عليهم ، ولقد سألنا شيخ الاحرار غلادستون أن يكون من أبناء جنسه المرشد لأمته عن حقيقة مسئلة مصر وعن ضرورة الجلاء،وأملنا أن يجيب طلبنا ويحقق أمنيتنا

ولكن ارشاد الأمة الانجليزية الى ما ينتظره المصريون منها وما يعتقدونه فى شرفها لايكون الا برجال من أبناء مصر يقومون وينادون فى كل بلاد أوروبا بحقيقة أحوال مصر وأمانيها وآمالها ليزيدوا من أنصارهاويكون للوطن المصرى من الأمم الأوروبية نصراء عند مطالبته الأمة الانجليزية باجبار حكومتها على الجلاء

ويكفينا لاستمالة الامة الانجليزية نحو مطالبنا الشرعية أن نقول لها بكل صراحة : لقد صار الشرقيون الى ريب فى احترامك لشرفك وشك فى محافظتك على الوفاء بعهودك، فهل لك أن تطالبي بالجلاء عن مصر لتحقق للعالم كله بقاءك على عهدك الاول الشريف ، ولقد غرر بك أيتها الامة الخطيرة بعض ذوى الغايات وقالوا لك ان الامن لم يستتب فى مصر وان الخديو لا يستطيع حكم بلاده برجاله؛ليجبروك على الحكم بلزوم الاحتلال ، فاعتقدى ان ذلك محض اختلاق وان الامن مستتب والأمة كلها مخلصة لأميرها معجبة به محبة له

والا فهل يرضى الانجليز بأن يقال عنهم انه ليس فى امكانهم اعادة الامن الى ديار مصر بعد احتلالهم لها أربعة عشر عاما ؟

اذا قلنا ذلك للأمة الانجليزية وعرفناها أننا لا نبغض الانجليزى بل نبغض المحتل من حيث هو محتل ولو كان من أقرب الناس الينا لاننا أمة حياة متمدنة

نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ولا نرضى أن نبقى قصرا تحت حكم وصى ننظر الى تقدم الامم الاخرى نظرة الكئيب التعيس دون أن نستطيع محاكاتها ومجاراتها، اذا قلنا لها ذلك وأسمعناها هذا الصوت صوت الحق كانت ولا ريب أول أمة قاضية على الاحتلال آمرة حكومتها بالاسراع بالجلاء ، لأن من شأن كل أمة متمدنة تمدنا عظيما كالأمة الانجليزية أن تحترم الشعوب المطالبة بحقوقها العارفة بواجباتها

واذا كان صالح مصر يقضى كما قلت بوجوب وجود خطباء من أبنائها يطوفون العواصم والمدائن فى اوروبا معلنين آراءهم مجاهرين باحساساتهم مطالبين بحرية بلادهم ، فوجود خطباء مثلهم فى مصر نفسها يرشدون الامة الى الخير ويحذرونها من الوقوع فى الشر اصبح امرا محتما

وغنى عن البيان أن الصادق فى حب بلاده لا يعرف الا عند الحاجة ، والوطنى لا يسمى وطنياً الا اذا خدم وطنه فى شقائه ، اكثر من خدمته له فى رفعته وهنائه

ولا ريب عندى فى انكم كلكم تودون مثلى ان تكون مصر بلادا حرة منتشرة فى سائر ارجائها من الاسكندرية الى منابع النيل انوار العلوم والمعارف، وتصبح كما كانت مهدا للفضائل والآداب، مشرقا لشمس المدنية فى كل بلاد الشرق ، مرسحا للتنافس فى الصناعة والتجارة . مجمعاً آمناً للأجانب ذوى المصالح فيها ، طريقا سهلا للرائدين ، لاريب عندى فى انكم كلكم تحبون أن تنتسبوا لمصر إذ يكون هذا شأنها ، يفتخر عندئذ كلٌ منكم أن ينادى بأعلى صوته (أنا مصرى)

ولكن الا تحبون كذلك « مصرا » خيم عليها الشقاء وحل بها البلاء وسبقتها الامم واصبحت تعد فى مصاف الشعوب القاصرة ، تناديكم وانتم حولها « الا فانصرونى ياأعز البنين ، الا فارفعوا شأنى بين الامم واجعلوا لى مكانا فسيحا بين الشعوب المتقدمة الحية » ، اجل ! أجل ! تحبونها ويجب عليكم ان تحبوها

وتحنوا عليها كما يحن المرء على أمه الشفوقة اذا عتلت ويسعى فى خدمتها ويبحث عن دوائها

ولا يكن حبكم واقفا عند حد الحب وحنانكم عند حد الحنان بل ليتجاوزا ذلك الى العمل لخيرها واعلاء شأنها

وثقو أيها الوطنيون الاعزاء بان المستقبل لكم ولها فاعملوا لسعادته وتذكروا دائما قول غمبتا الشهير « ليس المستقبل بمستعص على أحد » ، نعم لنعمل لسعادة الحال والاستقبال وننفذ ناموس الطبيعة لئلا نخرج أنفسنا من نوع الانسان ، ذلك الناموس القاضى على كل فرد بالعمل حتى تستريح النفس فى السكينة والظلام

ولقد كنت أحضر فى أوروبا مجتمعات يتردد عليها كثير من الغربيين ذوى الجنسيات المختلفة ، فكان كل يفاخر القوم ببلاده وذويه ، الامريكانى بحرية أوطانه وشرف تاريخها وحسن نظامها وكبار رجالها ، والفرنساوى بشهامة ابناء وطنه وفضل جنسه على النوع الانسانى وحرية مبادئه وشرف تاريخ بلاده العظيم ، والالمانى والانجليزى وغيرهم كذلك ، وأنا أنظر الجمع واسمع الجميع وقلبى فائض حزنا وفؤادى ممتلىء كآبة وعيناى مغرورقتان بالدموع ، وليس يجرى على لسانى غير ذكر مصائب مصر وآلامها ، فهل لنا أن نفاخر الامم يوما من الايام ببلادنا واوطاننا ؟ هل لنا ان نكون أمة حية قوية محترمة ؟

انى أؤمل ذلك ، وأؤمله من صميم فؤادى

ومستحيل علينا ان نصل الى السعادة التامة ونفوز برغائبنا الوطنية الا اذا اتحدت كلمتنا واجتمعت قلوبنا على محبة البلاد بصدق وتجرد عن الشخصيات ، فلنتحد قلبا ولسانا . ولا يكن مثلنا مثل عائلة اشتعلت النار فى دارها وافرادها متباغضون فبدلا من أن يجتمعوا لاطفائها اخذوا يتنازعون ما أبقته يد النار من

المتاع، غير ناظرين الى ان النار تصل اليهم فتحرقهم وتحرق متاعهم وتقضى على دارهم القضاء الاخير اذا لم تزل آثار الشقاق من بينهم ويجتمعوا على اطفائها

وان يوما تجتمع فيه قلوبنا على محبة البلاد وخدمتها وتتحد فيه كلمتنا يكون يوم تحقق الآمال وعنوان سعادة الحال والاستقبال، ويحق لنا فيه أن نقف امام الأمم كافة وننادى بأعلى صوتنا وبكل فخار (نحن بنو مصر الاحرار).

(٢) — خطبته بالفرنسية فى الاسكندرية

يوم ١٣ ابريل سنة ١٨٩٦ (انظر صفحة ٦٦)

(تعريب الخطبة)

أيتها السيدات، أيها السادة

انى اقف بينكم متكلما وانفعال نفسى عظيم، ولقد كان بودى أن اعتذر للذين شرفونى بدعوتى الى القاء هذه الخطبة لو لم يكن احساسى بالواجب علىّ دعانى لاطاعة امرهم والانصياع لرغبتهم، فجئت الى هذه الحفلة وفؤادى منشرح لأنى أخاطب نخبة نزلاء الاوروبيين، أولئك العاملين بالنشاط الذين هم بيننا طليعة المدنية الغربية (تصفيق شديد) (١)

ومما يزيدنى سرورا أنى واقف امام جمعية أصدقاء لبلادى اوفياء لها، لم يقصدوا بمجيئهم هذه الليلة سماع خطيب بليغ بل جاؤا ليظهروا علامة ودهم لوطنى ضعيف ولمسئلة مصر الشريفة الحقة

أجل أيها السادة، يتكلم الانسان امامكم بكل ارتياح وافتخار عن الاوطان، ويدافع عن حقوقها المهضومة ويطلب لها مستقبلا سعيدا، فانكم

---

(١) لم يتيسر فى غير هذه الخطبة معرفة المواضع التى صفق فيها بالضبط الحاضرون أو التى اظهروا فيها علامات الاستحسان

كالكم تنسبون الى أوطان شريفة حرة سعيدة، وتحبون هذه الاوطان وتعشقونها عشقا صحيحا ولا استطاعة لكم غير الموافقة للذين يحبون أوطانهم مثلكم. (تصفيق متضاعف)

واننا معشر المصريين نحب مصرنا الاسيفة بكل اخلاص ولا نود لها شيأ آخر غير يقظتها وسعادتها ، ولكن من سوء الحظ يوجد فى هذا البلد طغمة من الرجال يطعنون أشد الطعن على الوطنيين ويدعون مع ذلك أنهم المدافعون عن الاحتلال الانجليزى، على أنهم لو كانوا حقيقة المدافعين عنه لحسبوا عارا عليه وخجلا ، فان انجلترا نفسها لا تستطيع أن تبغض أو تحتقر مصريا وطنيا، اذ من ضمن الاسباب التى تنتحلها لنفسها للاقامة فى مصر تربية المصريين ، فهل من الجائز ان يكون المصريون حسنى التربية من غير أن يكونوا وطنيين محبين لبلادهم ؟ كلا ! (علامات استحسان)

ولقد كان أولئك الذين يدعون الدفاع عن الاحتلال الانجليزى يزعمون أنهم أوقفونى الى الابد اذ يظنون بسذاجة لا مثيل لها أن الاجحاف الذى لحق أخيرا باحد اخوتى [1] يضعف قواى أو يوهن عزيمتى أو يقال مجاهدتى فى سبيل سعادة بلادى ، فاخطأوا الظن لاننى بعيد عن أن أمل وسأستمر بقدر استطاعتى فى المدافعة عن وطنى العزيز ، سأستمر — ولا يوقفنى فى طريقى الا الموت — فى وصف مصائب مصر وآلامها والمناداة فى كل مكان بحقوقها المقدسة والمطالبة بحريتها واستقلالها (تصفيق شديد متواتر)

وانا نعلم حق العلم أننا بدفاعنا عن مسئلة بلادنا الشريفة وبتقديسنا لها نعرض أنفسنا للضرر والخطر ، ولكن اعتقدوا جيدا أيها السادة ان همتنا لا تفتر أبدا، لحق بنا ضرر أم لا (تصفيق واستحسان)

---

(١) يشير الفقيد الى اضطهاد الانجليز شقيقه على فهمى كامل (بك) وكان وقتئذ ضابطا بالجيش المصرى (انظر ص ٦٤)

فليس هناك من شىء أجمل فى عين الوطنى من المجاهدة فى سبيل بلاده فضلا عن أن المجاهدة بالنسبة لنا ليست أمرا صعبا، إذضد من نجاهد نحن ؟ أضد الامة الانجليزية ؟ كلا ، ليس جهادنا ضدها ، انما هو ضد فريق من الناس يعملون لتأبيد الاحتلال الانجليزى فى مصر الى الابد، قضاءً لاغراض شخصية أو املا فى تحقيق مآرب ذاتية

أجل! انا نجاهد ضد هذه الفئة التى اعضاؤها أعداء للحقيقة وضدهم وحدهم نبذل كل قوانا فانهم وحدهم الآثمون الحقيقيون فى مسئلة مصر ، فهم ينشرون فى كل مكان عن حالتها الاخبار الكاذبة ويخلقون كل يوم حججا سافلة واهية لاطالة أمد الاحتلال البريطانى وهو الحمل الثقيل الذى لا يستطاع تحمله (تصفيق)

ومن سوء حظ أولئك المشهورين بالمبالغة فى الدفاع عن انجلترا ان اعمالهم توصلهم غالبا الى نتائج مخالفة للغرض الذى يعملون له ، لانه كما قال حقا فيكتور هوجو : للحقيقة والحرية مزية خاصة بهما وهى أن ما يعمل ضدهما وما يعمل لهما يخدمهما على السواء (تصفيق شديد)

اما فيما يختص بالأمة الانكليزية فلا نستطيع الا احترامها ومهما وقع فاننا نحترمها دائما كما نحترم كل الامم الاخرى ، اذ انه لا يصح بغض اية امة ولا يقضى على شعب من الشعوب بخطأ بعض افراد من ابنائه ؛ وانا نعلم حق العلم أنه اذا كانت الامة الانجليزية موافقة على الاحتلال راضية به فذلك انما هو لكونها جاهلة لحقيقة احساس المصريين، لانها لو كانت تعلم احساسنا لاظهرت عدم رضائها باحتلال ضارّ كهذا الاحتلال ولكانت ولا محالة قضت عليه (تصفيق) ولكن واسفاه قد تساق الامم غالبا فى اجهل السبل على يد من تثق به اكثر من غيره !

ولئن قالوا ليس فى السياسة شىء من الشرف وانها ليست شيئاً آخر غير الكذب والخيانة؛ فاننا لانستطيع أن نتصور طرفة عين ان أمة بلغت من العظم

والمدنية مبلغ الأمة الانجليزية تجسر يوما من الأيام على أن تخون علنا سريرتها وتحتقر أمام الناس شرفها (تصفيق شديد متواتر) ؛ فانها على نسق كل الأمم غيورة على كرامتها التي يهدرها ولا محالة أن تطيل الاحتلال الانجليزى الى أمد غير محدود

وكل الذين يعرفون للشرف معنى يعتقدون مثل غامبتا « ان ليس هناك سياسة حقيقية فعلية مثمرة اذا اعتدت القوة ولو لزمن مؤقت سريع الزوال على المبادئ الراسخة للعدالة والانسانية » (تصفيق عظيم متواتر)

وان هذه السياسة المؤسسة على مبادئ العدالة والانسانية هي السياسة الحقيقة بالأمة الانجليزية ، هذه الأمة التي لاتزال محترمة معتبرة عند جماعة مقهورين مثلنا ؛ عند الذين يريد بعض سواسها ان يضحوهم ومستقبلهم فى سبيل نجاح آمالهم الباطلة

لقد رأينا من عام ١٨٨٢ أشد المناظر وقعاً على النفوس ، رأينا اكثر من ٦٠ ألف مصرى ماتوا فى التجريدات التعيسة لأعوام ١٨٨٣ و١٨٨٤ و١٨٨٥ ، رأينا تقهقر التعليم والتربية ، رأينا انحطاط الآداب العامة وفقر الفلاح والوطن نفسه ، وكم رأينا من أشياء مؤلمة ومناظر مفتتة للاكباد ، ومع ذلك كله قد حافظنا على سكينتنا وبقيت ثقتنا عظيمة بالأمة الانجليزية وبوعودها وبشرفها (تصفيق طويل)

واليوم يسيئون مقابلة تساهلنا وصبرنا وسكينتنا ، ويخاطرون بالقاء البلاد وأبنائها فى هاوية

أجل أيها السادة ، يخاطرون بالقائنا فى أعمق الهاويات وأخطرها ، انى أريد أن أتكلم على حملة السودان

أما من جهة استرجاع السودان فكلنا نريده وكلنا يجاهر بذلك علنا كل يوم ، فاننا نعتقد اعتقاداً صحيحا ان مصر بدون السودان تكون أحقر أرض وأفقر بقعة فى الدنيا ، وبطلبنا جلاء الجنود الانجليزية عن بلادنا لا نطلب

فقط تحرير مصر من الاسكندرية الى وادى حلفا ، بل نطلب تحرير كل وادى النيل إذ لا يمكن أن يحكم النيل كله الا بحكومة واحدة (علامة استحسان)

وانا نود من صميم أفئدتنا أن نسترد المقاطعات السودانية التي هى لبلادنا روحها نفسها ، وانني قد أعلنت من جهتي هذا الاحساس عدة مرات وقلت منذ خمسة أسابيع لأبناء وطني من أهل الاسكندرية ان أعظم واجب على سمو الخديو عباس باشا هو اعادة أملاك مصر المفقودة اليها ، وأنا أعيد هذه الليلة ما قلته وما أقوله دائما أبداً ، ولكننا ما أردنا قط ولا نريد أبداً أن نسترجع السودان تحت قيادة الانجليز (تصفيق شديد)

فان وجود الانجليز على رأس جيشنا يكفي وحده لعدم نجاح الحملة ، يكفي لتحقيق مصيبة عظيمة ، وبوجودهم على رأس الجيش يحفرون بيننا وبين السودانيين هوة من أعمق الحفر تؤخر لزمن مديد صلحنا معهم — أولئك الذين كانوا من رعايا الخديوية المصرية

وفضلا عن ذلك فان الذى يجعل المصريين ناقمين من حملة دنقلة انما هو سوء المقصد الذى يبدو عند كثير من رجال انجلترا السياسيين عندما تتكلم الدول بشأن الجلاء عن مصر ، فانا لا ننكر هذه الحملة فقط لكونها داعية لتعريض كل جنودنا لخطر عظيم وان من احدى نتائجها التى لسوء الحظ تبدو لنا مؤكدة انشاء جيش جديد وجعل العساكر الانجليزية تحتل مصر كلها فى الحدود كما فى المدائن ؛ ولكننا ننكر هذه الحملة بنوع خاص لأنها تؤخر لزمن طويل تحرير بلادنا (تصفيق شديد)

أجل أيها السادة ، انها تؤخر تحرير بلادنا وهو التحرير الذى نتمناه من كل قلوبنا والذى طالما وعدنا به

ذلك لأن انجلترا قد كشفت بيدها الغطاء عن مقصدها ؛ وليس هذا من الوقت الحاضر فقط ، بل من سنة ١٨٨٧ عند ما أراد السير درومند وولف أن

يعقد مع جلالة السلطان اتفاقيته المشهورة، فان جملة من المادة الخامسة كانت تشير الى ذلك بالعبارة الآتية :

« اذا ظهر فى ذلك الوقت — يشير الى الوقت الذى عين للجلاء أى عام ١٨٩٠ — خطر داخل مصر أو خارجها وكان ذلك الخطر يستوجب تأجيل الجلاء تنسحب الجنود الأنجليزية من مصر بعد زوال ذلك الخطر ... »

فيفهم اذن من اتفاقية وولف انه كان يخشى ظهور خطر ما فى وقت الجلاء، وبعبارة أخرى كان فى الحسبان أمر مسألة السودان وما يجرى بيننا اليوم، إذ أن خلق الاضطرابات وايجاد الاخطار ليسا بالنسبة للسياسة الأنجليزية الا أقل ما تنتجه يد التصنع (تصفيق مستمر)

واذا كانت انجلترا تريد بصدق نية وكرم أخلاق ان ترد السودان الى مصر فكان يكفيها لبلوغ هذه الغاية أن تنجلى عن القطر، فان الجلاء وحده يعيد لنا السودان.

لماذا بقى السودانيون مصرين على عصيانهم ضد مصر ؟ لماذا لا يقبلون أى اتفاق معنا ؟ لا ينكر أحد فى العالم أن وجود الانجليز فى مصر هو الذى جعلهم بهذه الحالة (علامات استحسان)

(وبعد أن فند الخطيب الحجج التى يتذرع بها انصار الاحتلال لبقائه، ردعلى تهمة التعصب الدينى المزعوم للمصريين قال) :

أجل لنتكلم قليلا عن هذا التعصب الخيالى الذى يقول أعداؤنا انه فى نفوسنا، إن أعداء مصر يريدون أن يمثلونا أمام أوروبا بهيئة قوم متوحشين مستعدين لافناء كل أوروبى ساكن بلادنا متى رحلت العساكر الانجليزية عنا، ولقد تطرف فى هذا الادعاء أولئك الأعداء، فأرادوا أن يغشوكم أنتم أنفسكم ويسخروا من سلامة نيتكم، حيث يكررون أمامكم فى الجرائد وفى كل مكان هذه الأكاذيب وهذه الوشايات، كيف ذلك، أيتجاسرون على أن

يقولوا أمامكم هذه الأقوال أنتم يا أوفى أصدقاء مصر وأعز ضيوفها ؟ كيف يستطيعون أن يغشوكم بدناءة كهذه عن صفات أمة مودتها لكم علانية ؟ أمة قابلتكم — وتقول ذلك بأعظم فخار — بأوسع كرم وسخاء ، ان القول بتعصبنا انما هو أدنأ أكذوبة ، الأمة المصرية متعصبة ! وامصيبتاه ! ، أما ترون بأنفسكم أيها السادة أنه اذا كانت فى العالم أمة صفتها الخصوصية اللطف والوداعة فانما هى ولا شك الأمة المصرية ، فان الكثير من الأوروبيين يعيشون بأعظم سكينة فى القرى مختلطين اختلاطا دائما مع الفلاحين أى مع أكثر الناس تمسكا بالدين والبعض منهم يتاجرون فى تجارتى الربا والخمور المحرمتين فى الدين الاسلامى ، كل ذلك مع ما لهم من الفلاحين من حسن العلائق ، فهل هذا من التعصب ؟

هل احتجتم مرة من المرار الى عضد عسكرى انجليزى ضد مصرى ما ؟ هل يستطيع خصومنا أن يثبتوا أن جيش الاحتلال يحميكم ضدنا ؟ وان وجود العساكر الانجليزية ضرورى لسلامة حياتكم بيننا ؟ كلا أيها السادة . كلا . ؟ (تصفيق شديد جداً)

ليفتش أولئك الذين يتهموننا بالتعصب فى كل تاريخنا وليبحثوا اذا كان الأوروبى فى زمن من الأزمان أسيئت معاملته ؛ من الجائز أن يذكرنا الخصوم بالذكرى التعيسة للثورة العسكرية المشئومة التى كانت سبباً فى مصائب عديدة ، ولكن كل رجل عاقل عادل يقول معنا ان تجاوز الحدود يقع كثيراً فى المظاهرات الأهلية الكبيرة ، والدليل على ذلك الثورة الفرنساوية ، ولقد حصلت فى كل البلاد اضطرابات ، وهى حاصلة الآن وتحصل فى المستقبل : وفضلا عن ذلك فان التاريخ سيوضح لنا اذا لم تكن هذه الاضطرابات حدثت بأعمال رجال كان لهم قصد مخصوص (تصفيق)

ولماذا نذهب للبحث فى التاريخ برهاناً على تسامحنا الدينى ؟ أليس أمام أعينكم اليوم أسطع البراهين على هذا التسامح الدينى الجميل ، أتظنون أنه اذا كانت أمتنا

متعصبة اما كانت تنتهز الآن فرصة غياب كل قوة عسكرية ذات شأن لكى تقوم وتحدث أى اضطراب ؟ أتظنون انه اذا كانت الأمة المصرية متعصبة هل كانت تسمح أبداً لأبنائها أن يذهبوا لمحاربة أمة أشد تمسكا بالاسلام منها ؟ أليس الذين يدعون اننا متعصبون فى الدين يظهرون أنفسهم بمظهر السخرية عند ما يقولون كذلك ان الأمة المصرية يزداد تعلقها بالاحتلال ؟ كيف اذن تكون الأمة فى آن واحد متعصبة فى الدين ومحبة للانجليز ! (تصفيق عظيم جداً)

ان لأعدائنا مقصدين من القول بأننا متعصبون فى الدين ، اهاجة الأمة والقاء بذور الشقاق بين الأوروبيين والمصريين ، ولكن من حسن حظ مصر ان الامة محافظة على السكينة عارفة بقيمة الاعتدال الدينى وحسن معاملة الاوروبيين . (تصفيق)

فلقد تعارفت أوروبا ومصر منذ قرن واحببتا بعضهما فاعتبرت أوروبا مصر قطعة منها — كما قال ذلك وأحسن القول الخديو اسماعيل — ومصر اعتبرت كذلك وجود الاوروبيين بيننا كضمانة للتقدم والرفاهية (تصفيق طويل)

وانا نعلم جيدا أيها السادة انكم أحسن نصراء الجلاء ، لانه من جهة موافق للعدالة والشرف الدولى ومن جهة أخرى لان مصالحكم قاضية به ، أجل ان من مصالح الاوروبيين النازلين فى مصر أن يتحقق الجلاء لانه اذا صارت انجلترا مالكة لمصر تصير حياة الاوروبيين على شواطىء وادى النيل من الامور المستحيلة ؛ فانكم هنا وكلاء المدنية الاوروبية فى العلوم والفنون كما انكم وكلاؤها فى التجارة والصناعة (استحسان عام) ، واليوم الذى تصير فيه انجلترا صاحبة مصر تضع يدها على كل شىء غير تاركة شيأ ما لاحد وتدعى عندئذ انها الوكيلة الوحيدة للمدنية أمام وادى النيل

اننا معتقدون كل الاعتقاد أن اليوم قريب حيث نترك وراءنا ماضيا مملوءاً

بالحوادث لنسير سواء ويدنا فى يدكم على طريق التقدم نحو أسطع مستقبل (تصفيق عظيم)

ومتى تخلصنا من هذا النظام الادارى الذى وجهته فائدة بريطانيا العظمى وخرجنا من هذا الشتاء الطويل الذى استمر أربعة عشر عاما والذى كاد يميت اعضاءنا نعيد السير ثانيا واثقين من حقنا ومن عطف الشعوب كافة وعدالتها (تصفيق شديد)

وفى ذلك اليوم يكون تقدم مصر باهرا

ومتى تخلصت التجارة من الملل الذى يسببه لها الاحتلال الانجليزى فستفتح لنا ولكم آفاقاً ذهبية (تصفيق)

ومتى تخلصت الصناعة من العوائق التى يخلقها لها الانجليز فى الجمارك لغاياتهم فسترقى الصناعة الاهلية وتعود فائدة رقيها على أبناء مصر وعلى ضيوف مصر (تصفيق شديد)

عندئذ يعقب الازمات الكثيرة المتوالية السلام، وتعقب الريب والشكوك الثقة، ويعقب الموت الحياة (تصفيق متواتر)

فلنتمن جميعاً أيها السادة تحريرا عاجلا لوادى النيل وسعادة أبدية لهذه الارض العزيزة، أرض الفراعنة الأمجاد (تصفيق شديد متواصل وتهليل عظيم)

(٣) — خطبته فى العيد المئينى

لولاية محمد على

(٢١ مايو سنة ١٩٠٢ — انظر صفحة ١٥٩)

« عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم »

سادتى وابناء وطنى الاعزاء

انى اذا وقفت الليلة أمامكم لاذكركم بمجد مضى وعظمة خلت، وأحيى معكم أكبر تذكار فى حياة مصر والمصريين، فانى أعلم انكم جئتم مرتاحين

لسماع هذا الخطاب ، وانكم ترون مثلى أن خير احتفال يقام لأكبر عامل من عمال المجد المصرى ، هو المقارنة بين أيامه وأيامنا ، وأعماله وأعمالنا ، واستنباط عبر التاريخ النافعة ، وعظاته البالغة ، وتمثيل الوطن فى مجده وعظمته ، واظهاره للعيون والابصار على حقيقة الحالة الحاضرة ، أسيفاً كئيباً حزيناً ، مرتديا ثياب الحداد ، باكياً على أيام كان فيها حامل لواء الشرف والفخار بين الممالك والأقطار

أى حال حال مصر فى هذا اليوم بعد مرور مائة عام هجرية على الحادث الخطير والأمر العظيم الكبير ، على اجتماع الأمة واتفاقها حول رجل واحد واختيارها له أميراً عليها يدبّر شئونها ويرفع شأوها ويعلى مقامها ، أى حال حالها وأى موقف موقفها وهى التى ملأت الدنيا دويّا ونافست أقوى الممالك فى جلالها، ثم انحدرت انحدار السيل من قمة ذلك الموقف العالى حتى هوت الى هاوية ذل وانحطاط وصارت مثالاً للمسكنة والهوان !

صبراً أيها الوطن المحبوب على بلواك ! فما ازدحم بنوك اليوم الا لينشدوا أكبر العصور وأجلّ الأيام ؛ ويجمعوا أمرهم بينهم على احيائها بالجد والعمل والوفاق والوئام ؛ صبراً أيها الوطن العزيز صبراً ! فقد ناجت الضمائر الضمائر ، وتفاهمت النفوس والخواطر ، وشعر كل مصرى بأنه الوارث لأفضل الأوطان وأعز البلدان.

صبراً صبراً ! فمن الذى يرى ذلك الظل الممدود ظل مؤسس العائلة الحاكمة (محمد على الكبير) ويبصر بعين بصيرته روحه الطاهرة ترفرف فوق الرءوس، ويسمع صوته العالى يذكر المصريين بأقدس الواجبات نحو الوطن وأهله، وينظر بعين الحقيقة الى يده القادرة العاملة ، مشيرة الى سبيل الفلاح والرّقى ؛ من ذا الذى يرى ويبصر ويسمع ذلك ولا يعتبر ؟ من ذا الذى ينتسب بدمه أو بماله أو بعلمه الى ذلك الرجل العظيم ولا تصغر نفسه فى عينه اذا رآها نفس رجل دون الرجال؟

من ذا الذي يذكر منا مجد مصر فى عهد ذلك الأمير ولا يذكر أنه مسئول عن زواله مطالب باسترداده ؟

أسمع المعترضين يقولون : عجباً عجباً ! أيؤمل الخطيب أن تنال مصر فى حاضر الأيام أو فى مستقبلها ما نالت فى غابرها ، وتلبس من جديد ذلك الثوب الباهر الفاخر الذى حسدتها عليه الليالى والحوادث وسلبته منها يد الغدر والانتقام ؟

أجل أيها السادة ! ان للمصرى أن يؤمل لبلاده مجداً كمجدها الماضى وعزاً وسؤدداً وجلالا ، كيف لا وحياة (محمد على) وأعماله كلها دروس ترشد المصريين الى أن تاج المجد لا يوضع الا على رأس العامل المجدّ ، وان رايات الفخار لا تنال الا بالعمل والجهاد ؛ وان أمة فتحت البلاد والأمصار يوم كانت لا تتجاوز ثلث عددها اليوم قادرة على بلوغ غاية العز والرفاهية ونيل أسمى ما يرام من الحضارة والعمران

كيف سار (محمد على) بمصر وكيف أنقذها من مهاوى الهلاك ، وكيف أخرجها من عالم الظلمات الى النور ؛ وكيف فتح بها وضرب وغلب ، وكيف ساد ولم يُسَدْ ، وكيف ملأ من جنودها الديار وأخضع لسلطانها البحار والأنهار ، وكيف رفع ذكرها الى أعلى منار وجعلها عاصمة الشرق ومصدر الأنوار ، وكيف أبهج هذا الثغر بتزاحم الجوارى فى ثغره ، وعمّم المعامل والمصانع فى المدائن والقرى ، ونشر المدارس والمكاتب فى انحاء البلاد ؛ وأخرج من أبنائها نجوم علم وعرفان يهتدى بهم ولا يضل بنورهم ؟

كيف وفق هذا الرجل العظيم لهذه العظائم ؟ كيف أباد المفسدين والظالمين وجمع القطر تحت لواء واحد وكان ألف قطر فى وطن واحد ؟ هل استعان بغير المصرى على تحقيق غاياته أم استعار أمة من حديد ورجالا من صلب وأرواحا شبت بين الموت والنار حتى أوتى ذلك الجلال ونال من العظمة ما نال ؟

كلا ! لم يصل الى ذروة المعالى وأقصى غايات الرجال الا بعقلك وبأسك أيها المصرى العزيز ، فسلاما والف مرة سلاما على هذا العزم المقبور وهذه الهمة المدفونة ، سلاما على من نسى نفسه بعد أن أنسى العالم كل انسان سواه

سلّمت الأمة المصرية أمرها لمحمد على والبلاد ممزقة بين المماليك يذيقونها أنواع العذاب والنكال ، والشرع فى أيديهم شرع الجور والاعتساف ، والقانون فى قبضتهم قانون الظلم والاستبداد ، والبلاد منقسمة على نفسها ، اسمها مصر وهى ألف قطعة وقطعة ، لا جامعة بين أهلها ولا رابطة بين بنيها ، ولا راحة ولا نعيم ، ولا حرية ولا عمل !

تولاها الرجل العظيم وهى عليلة ضئيلة لا حراك بها ، فقطع دابر المفسدين والاشرار وأزال دولة المماليك كما يزول الغبار ، وانقضت تلك السلطة المريعة التى قوضت أركان الدين والعقيدة وهدمت بنيان الوطن والامة وما تركت فضيلة حتى جنت عليها ولا رذيلة حتى مجدتها ، انقضت وكأنها ظل زائل أو سحابة صيف لم تدم الا قليلا ، انقضت والعالم بين مصدق ومكذب يتساءل كيف أتيح لرجل واحد أن يحول مجرى الليالى والايام ويغير تيار الحادثات العظام

مضت أيام المماليك ووقف (محمد على) ناظراً الى هذه الأمة ليرى أى أمر تقدر عليه وأى عمل تستطيع ، فرآها بعد عهد الشقاء وزمن البلاء وأيام المحن والفتن ، قادرة على القيام بأعظم الاعمال ، فيها من روح الحياة وقوة النهوض مايزحزح الجبال الراسيات وتخر امامه الشم الثابتات ، فجنّد من أهلها الجند ، وأى جند جنّد ؟ جند الغزاة الفاتحين حملة النصر والفخار ، جنّد من المصريين قوما لا تراهم أمة حتى تسلم وتستسلم ، جنّد من أعلوا مكانته ورفعوا رايته وجعلوا اسم مصر فى كافة الارجاء والآفاق عنوانا للمجد الرفيع والشرف الصحيح

أخرج من أولئك الفلاحين الذين طالما تصرفت فيهم الكورات كما شاءت أبطالا وشجعانا اهتزت الارض تحت أقدامهم اجلالا واعظاما ، وعجزت جيوش العالم عن مجاراتهم ومناظرتهم ، بعث (محمد على) من السكينة عزماء ومن السكون همة واقداما ، وسار جيشه من مكان الى مكان حاملا لواء الظفر والغلبة ، فائزا فى كل بقعة بالنصر والفخر ، فما هذه الروح العجيبة التى نقلت بنى مصر من حال الى حال حتى صار الجريح يأبى أن يغيب عن ميادين القتال والطفل ولوعا بمناظر الحرب والنزال ؟ ما هذا التغير الفجائى الذى اندهش لآثاره العالم طراً ؟ وأى سر جعل الامة المهضومة الحقوق المسلوبة الارادة امة فتح وغزو وفوز ونصر ؟

السر فى هذا الانقلاب وذلك التغير ان الرجل العظيم الذى تولى أمر مصر أدرك بواسع عقله أن فى أمتها كنوزا من الشهامة والذكاء مدفونة ، فكشف عنها الغطاء وأظهرها للعالمين ساطعة بهية تخطف الابصار ، السر فى ظهور المصريين على مرسح العالم بمظهر الفاتحين القادرين أن (محمد على) لم يترك لليأس سلطانا على نفسه ولم يقف فى طريقه لأول عائق حاول منعه عن العمل ، بل اجتاز المصاعب والعقبات بعزيمة ماضية وثبات دونه الحديد قوة وبأسا

اجتاز المصاعب ولم يرضه أن تكون مصر قوية فى البر ضعيفة فى البحر ، فوهبها أسطولا ضخما فخما لم يمض على انشائه وتكوينه اكثر من اربع سنوات ، وهبها أسطولا كان فى الصف الأول من أساطيل العالم تباهى به الاسكندرية ثغور الارض وهو يباهى بها وبوادى النيل الدنيا ومن عليها

كان الغربيون إذا جاءوا مصر زائرين يقفون امام هذا الأسطول حائرين مندهشين [1] ، بهرتهم عظمة مصر وارتقاؤها سلم المعالى فى قليل من الأعوام

---

(١) انظر تأييدا لذلك ص ٣١٧

ما عساى أقول اليوم عن جيش مصر وأسطولها ، ولو نقلت اليكم كتابات المنشئين والمؤرخين وآراء جماعات الكتاب عنها لخلتم هذا الوطن غير ذلك الوطن ومصر غير مصر ، ولظننتم أن حادثا استثنائياً محى أمة عاداها الزمان فلم يترك لها ارادة ولم يلبسها غير لباس الوهن والاستسلام

رددوا الطرف معاشر المصريين فى صحف التاريخ ، تروا أن مصر لم تكن ميداناً للجنود والبحارة المثلين لرفعة قدرها ليس الا ، بل تبدو لكم مصر المحبوبة فوق ذلك فى مصاف الأمم الصناعية ذات الشأن الأول ، تبدو لكم المدائن والقرى مزدحمة بالصناع والعمال يحيون أطيب حياة ويخدمون الاوطان اشرف خدمة ، تبدو لكم بولاق والخرنفش وشبرا وقليوب وشبين والمحلة الكبرى وزفتى وميت غمر وفوه ومنوف وابيار والاشمونيين والمنصورة ودمياط ودمنهور ورشيد والاسكندرية والروضة والجيزة وبنى سويف والمنيا واسيوط وابو تيج وفرشوط وملوى ومنفلوط والفشن وطهطاوجرجا وقنا ، ميدانا للمعامل والمصانع والورش على إختلافها ، تبدو لكم بحليها وحللها زاهرة عامرة تسعد مصر والمصريين وتكفى البلاد حاجاتها وتوفر لأهلها ثروتهم وقوتهم ولا تعطى الأجنبي من خيراتها الا بمقدار

ارجعوا البصر كرة أخرى الى مصر قبل عهد (محمد على) وقارنوا بين حالها فى ذلك الحين وما صارت اليه فى عهده ، تجدوا أرضاً بلقعا تحولت الى رياض وجنان ، وفضاء واسعاً صار فيه الألوف والملايين يحرثون الأرض ويزرعون ويستثمرون ؛ وشقاءً تولى ونعيا أقام ؛ وفوضى زالت وأمناً استتب ، وزراعات جديدة دخلت الى البلاد فأحيتها وأنمت ثروتها وملأت نواحيها رغداً وسعداً

من ذا الذى يستطيع أن يقف أمام هذه الأمة موقف المحقق المدقق وينكر على (محمد على) فضله فى إحياء اراضى القطر ونقل زراعة القطن اليها وأياديه البيضاء على كل من يعيش من الزراعة ويعكف عليها ؟ من ذا الذى ينكر

اصلاحاته العديدة فى الرى، والقناطر البديعة التى أقامها والمصارف التي أنشأها والمشروعات التى لا تزال قاعدة لكل اصلاح ؟ من ذا الذى يحارب الحقيقة والتاريخ ليتجاهل ان مصر تجنى اليوم من ثمرات اعمال (محمد على) عشرات الملايين من الجنيهات وانه صاحب الفضل الأكبر على كل فرد من اهلها والنزلاء المستوطنين بها ؟

محالٌ أن تخرج مصر واحداً من ابنائها يأبى على الحقيقة والوطنية اعلان فضل (محمد على) والاعتراف بأعماله الجسام وافعاله العظام ، ومحالٌ ان ينسى مصرى تربى فى مهد العلم والأدب احسان هذا الأب الكبير والمحسن البار العظيم، وهو الذى تعلم القراءة والكتابة بعد الأربعين ليكون خير قدوة للمصريين، وهو الذى فتح المدارس والمكاتب وملأ الديار نوراً وعرفانا، وتولى تربية صغار الفلاحين فبهر العالم المتمدن بفرط ذكائهم وعظيم استعدادهم للتعلم والانتقال من شأن الى شأن

دعوا الصانع والمزارع واسألوا كل متعلم فى مصر : ماذا كان يكون حالك لولم يعلم (محمد على) اباك من قبل ؟ اما كنت تكون فى ظلمات الجهالة بعيداً عن مشارق النور والحياة والوجود ؟

اجل ؛ ان كل مصرى شبّ وتعلم وتهذب وعرف ان حياة الفكر والجد هى الحياة الصحيحة وادرك ان اسمى الهبات هبة العقل وان اجمل حلية لهذه الهبة الغالية تثقيفها بالعلوم والمعارف ، مدين لمؤسس العائلة الخديوية بما هو فيه من نعمة ونعيم ، وانه لخليق بكل مصرى نال العلم بفضل (محمد على) ان ينتسب اليه بالروح والوجدان انتساب بنيه وذويه اليه ويسلك السبيل الذى وجه الهمم والعزائم اليه ليبلغ بالوطن والبلاد الشأو الاول والمقام المحمود

ايها السادة: مهما بحث الباحث فى حياة (محمد على) ومهما حكم على عصره فانه لا يستطيع الا الاعتراف بانه احاط مصر بسور من القوة والرهبة ؛ ورمى الى

انشاء حكومة منتظمة فيها تدير امورها على قواعد راسخة واصول ثابتة ، وجمع شملها فبعد أن كانت مفرقة موزعة على المماليك يتصرف كل واحد منهم فى الاموال والارواح والاعراض كما يشاء وتشاء الأهواء صارت وطنا واحداً لأمة واحدة يجمعها لواء واحد تحت سيادة أمير عظيم لا يذكر اسمه الا مقروناً بالاحترام والاعظام

ومهما اختلف الناس فى اعتبار نتائج أعمال (محمد على) فلا مراء فى أنه وهب مصر عقلا مدبراً وقلبا شاعراً وساعداً شديداً ومجداً تليداً ، وانه وهب المصريين وطنا وأمة وحكومة ولسانا ، وطبع على قلوبهم وأفئدتهم محبة الوطن والشهامة والاقدام ؛ وحبب اليهم الفتح والنصر ورفع الراية المصرية على كل صقع ومكان

انظروا معاشر المصريين الى سياسته فى حكومته تجدوها قائمة على مبادئ ثلاثة لا تدوم دولة بغيرها ولا تحيا مملكة بغير احيائها : وهى أولا حماية الوطن من اعتداء الأجنبي وسلطته ، ثانيا ترقية المصرى الى أسمى الوظائف وترشيحه الى استلام مقاليد الأمور حتى لا تحتاج البلاد لأجنبي يزاحم بنيها ، وتدريب المصريين على كل عمل وصناعة حتى تحفظ الثروة الاهلية فى البلاد ويزداد الوطن عزا ورغدا ونعيما ؛ ثالثا الامتناع عن الدين واجتنابه كل الاجتناب

بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم عن حماية الوطن وصيانته ومنع اعتداء الاجنبي على ربوعه وصده عن منازله ، ومصر اليوم تمثل الاستسلام للانجليزى والرضوخ لسلطته ، والامتثال لارادته ، وهى هى التى ردته عن الديار تحت امارة (محمد على) وفى ظل رايته ؛ وقالت له : مكانك أيها المهاجم ! مكانك أيها الداخل ! مكانك أيها المزاحم ، انى أمة حية تأبى الضيم والهوان ولا تدرك للحياة معنى بغير الحرية والاستقلال ! .

بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام (محمد على الكبير) وقد حاولت انجلترا أن تقضى على هذا الملك الجديد وهذه الدولة الناشئة وتزيل من سماء المجد والاقبال هذه الشمس المشرقة فأراها يومئذ بنو مصر أى أمة هم ، وأراها (محمد على) أى أمير هو ! فتركت الثغور والبلاد ، آسفة على فشلها ، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقة والهمة الحديدية

أعجبوا أيها المصريون لهذا الحادث الخطير ولتصرفات الليالى كيف أفرحت مصر وأبكتها فى يوم واحد ، أفرحتها فى يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٠٧ حينما جلت الجنود الانجليزية عن ثغر الاسكندرية بعد احتلال دام ستة أشهر ، وأبكتها فى يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٨٢ حينما دخلت الجنود الانجليزية عاصمة الديار المصرية

كوفئت مصر فى يوم باكبر مجد وأشرف فخار ، وعوقبت فى مثل ذلك اليوم بعد خمسة وسبعين عاما باحتلال جرّ عليها العار والشنار ؛ كوفئت لأنها صانت الوطن والديار ، وعوقبت لانها سلمت البلاد وانشقت على نفسها ونسيت تاريخها وتناست مطامع أعدائها وامتلأت نفوس دعاة الثورة فيها بالأنانية والاغراض الذاتية والآمال الشخصية ؛ فذهب الوطن فريسة ، وقُدّمت الأمة على هيكل الدنايا ضحية ، وتولى المجدُ القديم والعز التليد ، وأقام الذل والهوان

هذه عبرة العبر فى التاريخ وموعظة المواعظ ؛ فالتقطوها معاشر المصريين الراغبين فى خير البلاد ورفعتها ، واذكروها فى كل وقت وآن ، اذكروها ، وتأملوا فى تاريخ ذلك الرجل العظيم ، تأملوا كيف كان ينتدب علماء الغرب وحكماءه وسادات ادبائه وفضلائه ليعلموا المصريين العلوم والصناعات ، حتى اذا صاروا من رجالها وتحلوا بجمالها سلمهم مقاليد الاعمال وكافأ المعلمين الغربيين على عملهم بزودهم بالشكر والاحسان

رأى محمد على أن الدّين (بفتح الدال) أساس الاستعباد وأن اسمى المبادئ الجديرة بالاتباع مبدأ القائلين « أدِنْ تستعبد واستدِن تُستَعبد» ؛ فلم يستدن لأنه خطب السيادة ولم يخطب الاستعباد ، وطلب القوة ولم يطلب الضعف والمذلة

حقا انها لآية الآيات ومعجزة المعجزات ، كيف يشيد (محمدعلى) المدارس والمعامل ويقيم الابنية للجنود والعساكر ، وينظم الرى والفلاحة ، ويشكل جيشا بلغ عدد رجاله مائتين وثمانين الف جندى (٢٨٠٠٠٠) واسطولا كان البحارة فيه لا يقل عددهم عن ستة عشر الف بحرى (١٦٠٠٠) وكانت ايراداته مصر اذ ذاك لا تتجاوز مليونين ونصف مليون من الجنيهات ، ثم لا يستدين عزيز مصر ولا يعرف الدّين ولا الدَّين يعرفه :

ائتونى بعظماء الرجال وكبراء الامم وفحول السياسة ، واعرضوا عليهم هذا العمل المدهش وهذه الآية الكبرى ، وأنا كفيل بأنهم لا يصدقون به ولا يؤمنون بها ، هل فى طاقة رجل مهما بلغ من العظمة وقوة الارادة أن يقوم بهذه العظائم ولا يتعثر فى ذيله بالديون الثقال؟ من هذا الرجل الذى تمدى حدود الطاقة البشرية حتى استطاع أن يخرج أمة من الجهالة والظلمات الى العلم والنور، ويشيد فيها ملكا قائما على جيش عديد وأسطول قوى رهيب ومعامل ومصانع ومدارس ؟ ثم لا يستمد بمال الغير ولا يستعين على أعماله بغير قوة البلاد وهى التى حمّلها الزمان من قبل ما يدك الجبال ويفل الارادة الماضية ويودى بعزائم الرجال ؟

ما هذا المجد الفخيم الذى يحدثنا عنه التاريخ ؟ أين ذلك المصرى الذى كان اذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الأنظار والتفتت اليه الشعوب بعيون الاعجاب والاعتبار ؟ اين ذلك الذى اذا فاخر القوم ببلادهم أُعطى المقام الاول نال الشرف الاعلى وعُد وطنه فى مقدمة الاوطان ومصره فى الصف الاول من صاف الامصار والبلدان

أين عصر نقل عنه الناقلون أن الدول غدرت بمصر وحرقت أسطولها فى ثغر (ناورين) وأماتت من بحارتها البواسل ستة آلاف رجل وتقدم ضابط فرنساوى بالخبر الى رجل الحروب وبطل المواقع ابراهيم باشا ؛ فهز الامير رأسه ساخرا وقال : « ما أنشئت السفن والبواخر الا لتكون فريسة النار أو البحار فلست بآسف عليها ، وان ابى لقادر ان يجدد مثلها فى عام أو بضع عام ! »

أين ذلك العهد البعيد ليتعزى به المصرى الحزين الأسيف ؟ أين هو ليبعث فى القلوب المستميتة شيئا من الحياة والقوة ؛ ويدل المصرى على حقيقة موقفه وقيمته ومكانته ؟ أين هو ليخطب فيكم بلسان الحال فيبلغ من نفوسكم مالا يبلغه لسان المقال ؟

اين كانت اليابان يومئذ ؟ اين كانت هذه المملكة الناشئة والدولة الفاخرة ؟ كانت — وكأنها لم تكن — فى دياجى الظلمات وغياهب الجهل ؛ تعد اذا ذكرت فى عداد الاموات ، فقف أيها المصرى فوق اطلال التاريخ وارقب الحوادث ، وانظر الى أى حال صارت اليابان والى أى حال صرنا ، وماذا كنا نبلغ من الشأن والشأو لو سلكنا ذلك السبيل الذى وجهنا اليه محمد على الكبير

ليس الموقف موقف حزن يميت النفوس بل موقف عظة واعتبار ؛ وان العبرة الكبرى فى حياة (محمد على) والدرس المفيد الذى يلقيه التاريخ على ابناء هذه الديار انهم لم يفقدوا العصبية والوحدة الملية ولم يقفوا فى طريق التقدم على حين استرسال غيرهم فى السير الى الامام الا لأنهم فقدوا الثقة بأنفسهم ونسوا ما قاموا به من جلائل الاعمال

ثقة الامة بنفسها هى الاساس الذى يبنى عليه مجدها ويشاد عزها وسؤددها ، ترى الأمة اذا اعتقدت الخير والقدرة فى مجموعها وافرادها تغلبت على الحادثات والايام وقهرت ألد أعدائها واجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلة .

هذه أمم الغرب يترك الفرد من أبنائها بلاده ويطوف الأرض من جانب الى جانب ، وهو فى كل مكان ينزل به قوىّ الجنان شاعر بأنه الممثل لوطنه الدال عليه ، معتقد أنه رايته التى اذا أهينت أهين واذا مست بسوء قامت لأجلها بلاده وقعدت ، وما هذا الاعتقاد وذلك الشعور الا لأن الأمة وثقت ببعضها وارتبط كل فرد ببقية أفرادها ، فصارت كتلة واحدة لا يعتدى عليها زمان ولا يجرؤ على المساس بها انسان

أما الأمة التى ظنت السوء بنفسها وتركت هذا الظن الفاسد ميراثا لابنائها واحفادها فقل عليها السلام وادْعها أمة الموت والفناء

لا يؤلم المصرى المحب لبلاده مثل ما يسمعه ذات اليمين وذات الشمال من سوء مظنة المصريين بأنفسهم وتناقل هذه الاقوال المميتة للخواطر القاتلة لكل حركة وارادة من الكبير الى الصغير وشيوعها حتى بين الاطفال الناشئين.

ما هذا السمّ القتّال الذى تناولته الأمة عن طيب خاطر ؟ ما هذا البلاء المدمّر للبلاد الذى حل بها وتساقط على رؤوس أهلها وهم اليه ناظرون ؟ كيف تنسى هذه الأمة العزيزة أنها هى التى فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها ؟

لا ريب ان أصل هذا البلاء وجرثومة ذلك الداء اهمال أمر التربية الوطنية، ومحو آثار التاريخ المهذّب للعقول والأرواح من المدارس والمكاتب ، التاريخ التاريخ ! هو المدرسة الجامعة لكل طبقات الأمة والمعلم الذى يتأدب بأدبه الأمير الخطير والوزير الشهير والعالم والطالب،والفقير الصغير ، من ذا الذى يقرأ تاريخ محمد على ويرى على صفحاته آيات الشهامة والبسالة التى حلّى بها المصريون أيامهم وأسماءهم وأوطانهم ولا يشعر بأنه ينتسب لأمة عالية إن أهانها الزمان أياما فلسوف يرغم على احترامها واكرامها ورد سؤددها اليها ، من ذا الذى يسمع

بتلك السفن الجارية والجيوش الجرارة والمعامل العديدة والمدارس الجمة والحياة العامة والاستقلال المصان ولا يرى نفسه من سلالة قوم فاتحين متمدنين جديرين بأن يخلد مجدهم وتدوم أيامهم

يقول الجاهلون ان الزمان لم يترك من آثار محمد على شيئا مذكورا ، ولا يدرون أنه ترك شيئاً كبيراً ، ترك بذور المجد والمدنية ، ترك المواد الحيوية لاحياء الأمم وإعلاء قدرها ، ترك العلوم والأنوار

ان لم يكن الا هذا الأثر — أثر العلوم والمعارف — فحسب العصر الماضى شرفا وفخاراً ؛ لأنه ألقى الينا السلاح الذى ما حارب الجهل والرذيلة حتى تغلب عليهما ، ألقى الينا مفتاح الرقى والتقدم وآلة المجد والغلبة وسُلَّم السؤدد والمعالى ونبراس الكمال ، القى الينا معدات الحياة ، فان استخدمناها كما استخدمها سُدنا كما ساد وسادت الديار ، وان اسأنا استعمالها أسأنا الى أنفسنا وقضينا على الحاضر والمستقبل شر قضاء

قد ينسى بعض المصريين ان (محمد على) تولى أمر البلاد باختيار أهلها وانتخابهم ، وان علماء مصر وأعيانها رفعوه الى الامارة بأيديهم فى مثل هذا اليوم من مائة سنة هجرية مضت ، وان هذه رابطة اكيدة بين الامة والعائلة الحاكمة لا يصح لأحد أن ينساها ولا يليق بمصرى أن يتناساها ، هذا إخاء بين الشعب والامير لا تنفصم له عرى ولا ينحل له رباط

اذا كانت مصر لم تذكر فى بعض حوادثها الماضية وأيامها السالفة هذه الرابطة وهذا الاخاء مما أودى بها وساقها الى مهاوى الدمار والشقاء ، فخليق بها أن تذكر الآن وفى كل آن هذا العهد المتين وتزداد بعرش الخديوية ارتباطا وتعلقا كلما مضت الأيام وتوالت الأعوام

وكيف لا يذكر المصريون ذلك العهد ويبذلون الأرواح والأموال فى

سبيل تأييده وصيانته وهو هو الحامى لبقايا المجد والاستقلال

فى أى موقف يرى المصرى بلاده الآن ؟ فى موقف البلاد المستعبدة التى تنتظر من وقت الى آخر تحقيق وعود دولة متمدنة عظمى ولا تزف لها الأيام إلا مطالا فى الوعد وبلاء على بلاء

دخلت انجلترا هذه الديار مدعية اصلاحها وتأييد عرش الخديوية المصرية فيها ونشر ألوية الأمن والعدل فى نواحيها واعداد المصريين الى ادارة شئون بلادهم بأنفسهم ، ثم الجلاء عنها وتركها لأهلها : فماذا عملت وأى طريق سلكت والى أى نتيجة وصلت ؟

كان أول عمل للدولة الانجليزية انها قدمت الوعود والعهود للعالم كله بالجلاء عن مصر ولو بعد حين ، وتركها لأهلها المصريين ، فاعتقد صدق أقوالها الكثيرون من الشرقيين وقالوا : « محال أن يكذب القوم المتمدنون ! » ، لأنهم لم يكونوا ليعلموا أن السياسة الغربية قائمة على مخالفة الوعود والنكث بالعهود ، وان المدنية البريطانية تطلب سيادة الأمم من مثل هذا الطريق حتى صرح الساسة الانجليز انهم لم يقدموا هذه الوعود وتلك العهود الا للسذج والبسطاء ، وانهم ينزهون العقلاء والحكماء عن التصديق بوعد فى السياسة أو بعهد فى تدبير امتلاك الأمم واغتيال حقوقها ، فعلم المصرى يومئذ ما لم يكن يعلم : علم أن انكلترا احتلت بلاده لتقييده بقيود الذل والاستعباد ، لا لتضع على رأسه تاج الحرية والاستقلال : علم أن وطنه صار مرمى السهام البريطانية ، وأن حياته ومجده على خطر ، وسمع صوت البلاد يناديه الحذار ! الحذار !

ولكن صوت الانجليزى ارتفع ليدله على وسائل الرضوخ للمذلة والاستكانة ، ارتفع ذلك الصوت ، صوت العاملين على ابتلاع مصر مناديا بأن المصريين لا يزالون أمة طفلة محتاجة لمربّ حكيم ومرشد عليم ، فهل هم المربى وذلك المرشد ؟

دلّ سلوك انجلترا فى مصر ويدل على أنها لا تريد لعرش الخديوية قوة ولا للبلاد خيرا ، ولا للمصريين تقدما وارتقاء ؛ ونحن لا نقول هذا القول جزافا بل نقدم عليه الف برهان وبرهان ؛ وما دام الانجليز يفاخرون ويفتخرون بحرية القول والكتابة فانا نناقشهم الحساب ونسألهم أمام الملأ كله عن نتائج سياستهم بعد عشرين عاما ، نسألهم أين الامن الذى ادعوا توطيد أركانه ؟ هل ازدياد الجرائم والجنح والمخالفات وتعدد السرقات وكثرة اللصوص واعتراف النائب العمومى بذلك كله وتفنن الاشرار فى اشعال النيران وحرق القرى والبلدان مما تفاخر به انجلترا وتعده آية يحق لها أن تمن بها على مصر والمصريين ؟ هل انتقال الوظائف من أيدى المصريين شيئا فشيئا وخروج السلطة من قبضتهم وإماتة كل نفوذهم مما يرشحهم لاستلام مقاليد الأمور والسير بالبلاد الى الامام؟ هل محو كل روح وطنية فى المعارف وقلب مدارس الحكومة حتى صار عاليها سافلها مما يؤهل المصريين للتقدم فى ميادين الحضارة والعمران ؟ هل انشاء المحكمة المخصوصة وتعالى المحتلين على المصريين واعتداؤهم على القانون والعدالة والنظام العام مما يؤيد المساواة فى البلاد ويزيد القطر ارتقاء وانتظاما؟ هل رفع العلم البريطانى على عاصمة السودان واخراج العدد العديد من الضباط المصريين من الجيش بعد أن أبلوا ضد الدراويش أحسن بلاء وقاموا بأعمال تخلد لهم المجد والفخر مما يؤيد عرش الخديوية المصرية ويستوجب حمد المصريين ؟ هل بقاء الحكومة بغير سلطة مراقبة عليها من الامة كما يشاء المحتلون مما يجعل مصر فى بحبوحة الراحة والأمن ويوطد أركان الدستور فيها ؟

ذكرت الدستور وطالما ذكره الذاكرون من أنصار الاحتلال ورجاله ، فاين هو الدستور ؟ اين ذلك الدستور الذى يلجم الحكومة بلجام من حديد ويهب الأمة حرية الرأى والفكر وحق المراقبة على أعمال الحكام وسن القوانين

والشرائع ومناقشة الوزارة عن الصغائر والكبائر ؟ اين ذلك الدستور ونحن لا نرى الا مستشارين من الانجليز يحركون الحكومة يمينا ويسارا ، ويتلقون لاوامر من رجل واحد ولا يحاسبون أمام أحد من أبناء هذه الأمة ؟ هل معنى الدستور سقوط السلطة المصرية وقيام السلطة البريطانية مقامها ؟

كلا ثم كلا ! انما الدستور هو منح الامة حق الاشراف على كافة الاعمال ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لضرها ، وسؤال الوزارة عن كل صغيرة وكبيرة ، وتغييرها بغيرها اذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت في خدمة البلاد ، الدستور هو أن لا يستطيع أحد ، مهما كان عظيما ، وطنيا أو أجنبيا ، أن يمس القوانين والنظامات بشيء ؛ فهل يوجد رجل واحد فى هذه الأمة يجرؤ على القول بأننا اليوم متمتعون بنعمة الدستور وأن المحتلين لو شاؤا تغيير أى نظام موجود أو خرق سياج أى قانون لا يستطيعون ؟

لعمرى ان ما يسميه المحتلون وانصارهم بالدستور لهو الفوضى فى لباس النظام ، والاختلال فى قالب الاحتلال ؛ والا فاين الضمانة التى تطمئن لها القلوب والخواطر ؟ أين مجلس النواب المصرى الذى يقف فى وجه كل طامع ويرد كل ظالم ، أين ذلك المجلس الذى وعدت به بريطانيا على لسان اللورد دفرين ؟ أين هو لتعتقد الأمة المصرية أن الدولة البريطانية لم تحتل بلادها الا لتسعد حالها وتعلى شأنها وتوقف المصرى على مكانته وتعرفه أنه انسان له حقوق الانسان ؟

يظهر بعض الانجليز اندهاشا من قيامنا ضدهم ، ولست أدرى كيف أكيف هذا الاندهاش ؟ كيف اكيفه وهم أبناء أمة متمدنة تعرف معنى الوطن والوطنية وتدرك أن الحرية هى اسمى نعيم وان صيانة البلاد من اعتداء الاجنبي أقدس فرض على أهلها ، كيف اكيفه وقد قال اللورد دفرين : « انه يحق للمصريين ان يبغضونا من عميق قلوبهم اذا أقمنا طويلا ببلادهم مهما اسعدناها واسبغنا عليها من النعم ، لأن الاستقلال لا ثمن له ! »

نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلاء ، نحن نرى من الجبن والاستماتة عدم المطالبة بالدستور اى بالنظام الذى تتمتع به الامم المتمدنة ، نحن نرى من موت الشعور وفقدان الوجدان السكوت عن حقوقنا الشرعية التى يعترف بها كل انسان ؛ ونعتقد ان الانجليز انفسهم يحتقرون كل مصرى لا يرى هذا الرأى ولا يجاهر به ؛ لأنهم ان احبوا ان يخون الرجل وطنه لأجلهم لا يحبون الخائنين ؛ وان كرهوا القائمين فى وجوههم المدافعين عن بلادهم لا يستطيعون الا تعظيم الوطنية ورجالها أنى كانت وانى كانوا !

أيها السادة ؛ أصبحنا بعد مائة عام قضينا جانبا منها فى الجد والعمل وغرس بذور المدنية وفتح أبواب مصر والسودان للعالم المتمدن فى آخر مصاف الامم ، تمتاز عنا الصرب والبلغار وشعوب صغيرة لم تكن فى الحسبان بالحرية والاستقلال والاحترام العام ، فمن البلية والشقاء والموت الادبى أن نقف متفرجين على حركة العالم ونترك الامم الأخرى ترتقى منصة السمو والجلال !

هذه حياة (محمد على) لنا أن نستنبط منها ما يفيد البلاد فى الحال والاستقبال ، لنا أن نضربها مثلا للأبناء والناشئين ليعلموا أن مصر كانت من القوة والبأس بمكان ؛ وانها تكون كذلك لو طرقوا أبواب الاتحاد والوئام وسلكوا مسالك العزم والأقدام

لاتقوم مدنية مصر فى مستقبل الأيام ولا يدوم لها شأن الا اذا شيدت على الأمة وبالأمة وعرف الفلاح والصانع والتاجر والمعلم والمتعلم وكل فرد من أفرادها ان للانسان حقوقا مقدسة لا يصح المساس بها ، وانه لم يخلق ليكون آلة بل ليعيش عيشة الأحياء ، وان حب الوطن هو أسمى شعور تتحلى به نفس بشرية ، وان أمة ضاع استقلالها لامقام لها ولا شأن لأبنائها

الوطنية أيها السادة ؛ هى العماد لكل مملكة ؛ والأساس المتين لكل دولة ، فالوطنية هى الروح العاملة فى كل بلاد العالم المتمدن ؛ الوطنية هى أم المعجزات

وأصل كل تقـــدم وارتقاء ، الوطنية هى التى تنقل الشعب الجبلى الى الحضارة والعمران والاقتدار وسمو القدر فى قليل من الأعوام ، الوطنية هى الدم فى عروق الأمم والحياة لـكل ذى حياة

الوطنية هى الغذاء الذى يحتاج اليه جسم مصر وروحها قبل كل غذاء ، فقدموها للأبناء فى غدواتهم وروحاتهم وحركاتهم وسكناتهم ، واطبعوها على قلوبهم

أيها السادة ، ان الرجل العظيم الذى غير أحوال مصر وكساها حلة من المجد والفخار وَفَّق فى عمله بين مبادئ المدنية العصرية ومبـادئ الدين الاسلامى الـكريم ، لأنه رأى ان فى الاسلام كافة المواد الحيوية لأرقى مدنية يشتهيها بنو الانسان ، وانه الدين الذى يؤهل أهله وذويه الى أسعد حالات الحيـاة وأتم نعيمها ، فاذا اقتدينا به واعتمدنا على الاسلام وقواعده وأوامره وارشاداته وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها واعتبرنا بعبر التاريخ فتركنا النزاع الذى أضر بمصر والاسلام واجتنبنا كل افتراق وشقاق بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيـع

واننا لا نبغى فى هذا الطريق الذى يدعونا لسلوكه كل محب لمصر معاداة أحد من النزلاء أو الخروج عن خلة اكرام الغريب التى اشتهرنا بها ، بل اننـا نشكر كل أجنبى يساعدنا على خدمة الأوطان كما شكر أباؤنا من قبل وكما شكر تاريخ مصر سليمان باشا ، وفارين ، وسجرا ، وكاوت بك ، ودى سيريزى ، وبسون بك ، وجومار ، وجومل ،[1] الا اننا نطلب الاحترام المتبادل والاشتراك فى المنفعة اشتراك أخاء لا اشتراك شحناء وبغضاء ، وانه يسرنى أن أعلن شكر الأمة المصرية كلها لأولئك الـكرماء من النزلاء الذين شاركوها فى مصابها بالحرائق

(١) هم من المستشارين الذين استعان بهم محمد على فى نهضة مصر — أنظر تفصيل ذلك فى كتابنا (تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث — عصر محمد على)

الأخيرة والنوازل المؤلمة ، فجادوا بالأموال عن كرم وسخاء ؛ وخففوا بها وبصادق العواطف الآلام عن المنكوبين

يحلو لى أيها السادة أن أختم خطابى بكلمة قالها نابليون يوم دخل مصر ، قال ذلك الرجل الكبير « لا تكون الأسماء العظيمة الا فى الشرق ! » فالشرق كان ولا يزال ميدانا واسعا للمجهودات الكبيرة والهمم العالية ؛ لا يزال الشرق مهداً لعظماء الرجال وكبراء الشعوب ، واذا كان قد حرمهم حيناً من الدهر طويلا فما علة ذلك الحرمان الا اليأس والقنوط

فانزعوا اليأس من قلوبكم معاشر المصريين ، وطهروها من القنوط وسوء الظن بالله وقدرته ، وابنوا مجدكم المقبل على التربية الوطنية السامية الصحيحة ، وضموا صفوفكم واجمعوا أمركم ليخرج من بينكم رجال عظماء يبدلون ليل الأوطان بالنهار ويردون لها مافقدت من استقلال ومجد وفخار !

(٤) — خطبته بالاسكندرية

يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ (انظر ص ٢٦٣)

سادتى وأبناء وطنى الاعزاء

بأى لسان اشكركم على مظاهرتكم الودية لى وانعطافكم العالى علىّ وليس لى مطمع فى هذه الحياة الا أن اراكم متفقين معى شعورا ورأيا وقد حققتموه فبلغتمونى أقصى ما أتمنى ...

(المبدأ خادمه)

ألا أنى أعلم انكم انما اردتم بمظاهرتكم هذه أن تجيبوا أولئك الاعداء الظاهرين والمستترين وتسمعوهم أصواتكم جهيرة وتقولوا للملأ كله انكم اعوان الشعور الوطنى وأنصار النهضة المصرية ؛ وأن خدام هذه البلاد يجدون منكم على الدوام كل مؤازرة ورعاية

انى أعلم أنكم تعتقدون كما اعتقد أن الذين يهبون قواهم وأعمارهم لبلادهم لا يحسبون لأشخاصهم وجودا مستقلا عن المبدأ الذين يعملون لنصرته : بل يندمجون فى المبدأ نفسه فكل تحية تهدى اليهم فهى تحية اليه

ولذلك أستقبل دلائل الحب والميل التي تظهرونها نحوى على انها اكرام لأشرف مبدأ قام ويقوم فى خدمة الانسان؛ الا وهو مبدأ إحياء الوطن ورد مجده واستقلاله اليه

(حياة مصر بعد الاتفاق عليها)

أيها السادة! إن مصر خطت فى الثلاث السنوات الأخيرة خطوات واسعات فى سبيل النهضة الأهلية وأسمعت الأمم والدول صوتا ما تعودن سماعه من قبل

ظن الساسة الانجليز أنهم اذا اتفقوا مع فرنسا على مسئلة مصر طويت أوراق هذه القضية الخطيرة وخفت كل صوت ومات كل امل وحل اليأس محل الرجاء ، وصار الشعب المصرى أثراً كتلك الآثار القديمة التي يأتى السائحون لرؤيتها فى كل عام

ولكنهم أخطأوا خطأ كبيرا : نعم أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله أمهر الناس فى تدبير الشؤون وإعداد الحوادث ومعرفة المستقبل

أخطأوا لأن العزلة التي صرنا اليها بعثت فينا روحا جديدا أرشدنا الى الحقيقة التي لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها ، وهى : ان الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها ؛ وان الشعب كالفرد لا يكون آمنا على نفسه إلا اذا كان قويا بنفسه مستجمعاً لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة

نعم : فقهنا أن الشعوب التي لا ترجو الرقى إلا بمعونة جيرانها واصدقائها ولا تحفظ استقلالها الا بالاعتماد على حلفائها هى شعوب فى خطر ، وحياتها مهددة فى كل وقت

دهش الذين كانوا لا يرون فينا إلا أمواتا تتحرك كما بهت أعداء الوطنية المصرية من هـذه الروح الجديدة التى دبت فى الامة وقالوا : عجبا أيحيا هـذا الشعب ؟ أتنهض مصر بنفسها ؟ أتعمل للاستقلال وحدها ؟ أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض ارادتهـا ؟ أتقاتل اليـأس والقنوط وتتغلب على الحوادث والكوارث ؟

أجل وألف مرة أجل ! ان مصر بالغة آمالها ومحققة أمانيها بارادتها وهمتها، انكم تقولون ياأعداء مصر اننا عشنا القرون الطوال أذلاء تعساء يحكمنا الغير وتتبدل السلطة الاجنبية ولا يتبدل شقاؤنا، وتجعلون هذا القول حجة علينا ودليلا على أننا خلقنا للذل والهوان ، وأن السيادة الأهلية لن تسكن وادى النيل أبد الزمان ! كذبتم وحق مصر ياأعـداء مصر ! كذبتم على الله والناس ، فما بقاء هذه الامة بعد اشتداد الاحن والمصائب وتعـدد الاهانات والنوائب ووجود الروح الوطنية فيها بعد كل ما كان، الا دليل قاطع على أنه قـد حان الوقت لأن تسترد حقوقها المسلوبة وتسترجع مـكانتها فى الوجود، تقولون ياأعداء مصر انها لبثت زمنا طويلا مكبلة بقيود الذل والاستعباد ، وتتساءلون كيف تعيش بعد ذلك فى سؤدد واستقلال ؟ وفاتكم أن ذلك الماضى المظلم يزيدنا تمسكا بحقنا فى مستقبل مضئ باهر ، نسيتم ان الشقاء المديد أدعى إلى هناء مثله مديد، وأن شعبا قضى القرون وقواه لاتنصرف الى خير الوطن يكون أقوى شعوب الأرض يوم يوجهها الى هذه الغاية السامية

تقولون يا أعداء مصر اننا لو أفلحنا لما نلنا هذا الاستقلال الا بعد حين طويل، فنجيبكم اننا لو سلمنا بقولـكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل

لأننا لا نعمل لأنفسنا، بل نعمل لوطننا، وهو باق ونحن زائلون ، وما قيمة السنين والأيام فى حياة مصر وهى التى شهدت مولد الأمم كلها وابتكرت المدنية والحضارة للنوع الانسانى كله !

إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لا محالة !

فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب، فاننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار !

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا واعمارنا الى اشرف غاية اتجهت اليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها، وأعلى مطلب ترمى اليه فى مستقبلها؛ فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات تقفنا فى طريقنا ولا الشتائم تؤثر فينا ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية

نعم ، انا لو تخطفنا الموت من هذه الدار واحدا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا: « كونوا اسعد حظا منا، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على ايديكم ويخرج من الجماهير المئات والالوف بدل الآحاد المطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس ! »

بلادى ! بلادى ! لك حبى وفؤادى ، لك حياتى و وجودى ، لك دمى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجنانى ، فانت انت الحياة ولا حياة الا بك يامصر !

(حب مصر وإحياؤها)

يقول الجهلاء والفقراء فى الادراك انى متهور فى حبها، وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو اليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها

ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها ، واقرأوا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض هل خلق الله وطناً أعلى مقاما وأسمى

شأناً وأجمل طبيعة وأجل آثاراً وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟

اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد ان مصر جنة الدنيا وان شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه اذا تسامح فى حقها وسلّم أزمتها للأجنبي

انى لولم اولد مصريا لوددت أن أكون مصريا!

قد يرى السفهاء والطائشون ان الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بانسان ، ولكن اى شرف يطمع الحر فيه اكبر من العمل لاحياء الأمة التى سبقت الامم كافة فى العلم والمدنية والأدب؟ اى رفعة يسعى الشريف إليها اسمى من إنهاض شعب كان استاذ الشعوب البشرية ومربى العالم كله ؟ أى سؤدد ترمى النفوس الأبية اليه أعلى من اخراج الوطن المصرى من الظلمات الى النور وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التى كانت فى الدجنة الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقا للعرفان ؟

ليت شعرى ، اى لذة وسعادة ومكافأة يطلبها الوطنى المصرى اكبر من اشتراكه فى هذا العمل الخطير الذى هو أجل عمل يراه العالم فى القرن العشرين ، ان المكسب الأدبى للوطنى المصرى من هذه الخدمة يربو على اتعابه ومجهوداته بكثير

(متطرفون !)

أيها السادة ! يروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الانجليز أن يلقبونا « بالمتطرفين » ويقسموا الأمة فرقا وأقساما ، وما دروا أنه لا يصح أن يوجد فى البلاد الفاقدة استقلالها المتحكم فيها الأجنبى إلا حزب واحد وهو حزب الوطن : حزب الحرية ، حزب الاستقلال ؛ وقد جهلوا أو تجاهلوا أنه ليس للبلاد التى يحتلها الاجنبى الا سياسة واحدة : وهى سياسة المطالبة بالاستقلال ، وإن كل قول أو عمل يؤدى إلى اضعاف الروح الوطنية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة

بنفسها وبمستقبلها هو أكبر أذى يلحق بالبلاد، نسوا أن قانون الحاكم فى معاملته للمحكومين خاضع لدرجة احترامه لهم، فان رآهم أمواتا فى أزياء احياء يقولون مالا يعتقدون ويطلبون منه الاصلاح كما يطلب السائل الاحسان لا كما يطلب صاحب الحق حقه، استبد فيهم وسخرهم لسلطته كما تسخر الانعام!

نلقب بالمتطرفين! ولماذا؟ لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها! لأننا نذكر انجلترا بشرفها وعهودها ووعودها! لأننا نقول لها بصوت الحق والاعتقاد القوى ان المستقبل يكفل ذلك الاستقلال وأنه خيرها لها ألا تقاوم الحوادث فيما بعد، وألا تحاول اعدام أمة خلقها الله للحياة والعمل!

متطرفون! لأننا نعلن ثقتنا الكاملة بمستقبل بلادنا، ونقول لهذه الأمة فى الصباح والمساء: اليوم عسر وغداً يسر، اليوم أسر وغداً فخر، اليوم احتلال وغداً استقلال، اليوم عناء وشقاء وغداً رخاء وهناء!

متطرفون! لأننا نقول للأمة اعملى وحافظى على السكينة، اياك والقلاقل، فهى تخدم العدو وتضر بالوطن، إياك والانقسامات فانها منشأ الخراب والدمار، اياك وهوس العداوات الدينية فانها آفة الآفات وجالبة المحن، اياك وسوء ظن الملأ المتمدن بك فان الشعوب فى المدنية متضامنة ويا شقاء من سار ضدها!

متطرفون! لاننا نقول للامة خذى من العلم أوفر قسط وتساحى بأسلحته واملأى وادى النيل من نوره، وردى الى الفقير حقه ونصيبه من هذا المنهل العذب!

متطرفون! لأننا نردّ تهم العدو ونثبت للعالم كله أننا متمدنون وأنه ليس للتعصب بيننا وجود وان الاسلام عامل قوى لترقية الأمة ونشر أنوار المدنية فيها

متطرفون! لأننا رفعنا أصواتنا محتجين على فظيعة الفظائع فى دنشواى

وعارضنا السياسة الانجليزية فى دعاويها ووقفنا فى وجوه اعدائنا والحق سلاحنا والصراحة عدتنا والاقدام مطيتنا !

متطرفون ! لأننا نمثل مصر للأمم تتدفق حياة ونشخصها قوية ناهضة شريفة المقاصد أبية لا ترضى المذلة ولا تعرف الكذب والخداع

متطرفون ! لأننا لا نطالب استعمار بلاد الغير ولا استعباد شعب من شعوب الارض ، بل نقنع بطلب الاستقلال لوطننا

فان كنا نعتبر متطرفين لأننا نعلن ذلك كله ولأن هذه خطتنا ، فاكرم بالتطرف ويا لخارنا بأن نلقب بالمتطرفين !

من منكم لايفخر بأنه متطرف وأيكم لا يريد أن يكون سائر المصريين متطرفين !

وهل يكون الاعتدال فى هذه الحالة شيئاً آخر سوى الخوف والجبن والرياء واستعمال خطتين واتباع سياستين ومخاطبة الناس بلسانين ؟ ومن ذا الذى يرضى لنفسه ولقومه بهذا الاعتدال ، وما هو فى الحقيقة إلا المذلة فى أبشع مظاهرها والموت الشنيع الموجب لاحتقار الأمم جمعاء

عجبا ! عجبا أنلقب نحن بالمتطرفين لاننا نطلب استقلال وطننا من أشرف السبل وبأكمل الوسائل ولا نريد أن نتعداه بالاعتداء على احد على حين أن الانجليز لم يكتفوا باستقلال وطنهم ، بل استعبدوا الامم وتوسعوا فى الاستعمار وملكوا البحار ولا يزال أكثرهم يقول : هل من مزيد ؟

هل هم يلقبون بالعقلاء المدبرين لأنهم انجليز ، ونلقب نحن بالمتطرفين لأننا مصريون ؟

هل الوطنية التى تروق وتعجب هناك تؤذى وتؤلم هنا ؟

هل مصر دون بريطانيا فى الجمال حتى تحدد محبة المصريين لمصر ولا يعرف لحب الانجليز لبريطانيا حد ؟

كلا وأيم لحق كلا، ان مصر جديرة بأن تحب بكل قوة، بكل عاطفة، بكل جارحة ، بكل نفس ، بكل حياة !

لا عجب اذا وقف من لا يعرف هذا الحب باهتاً أمام من يعرفونه ، لاعجب اذا دهش الذي لا يتألم لمصاب وطنه ولا يشعر بأوجاع بلاده ممن يتألمون ويشعرون، لا عجب اذا كان الذين خلقوا وقلوبهم من صخر يعدون وطنية من ولدوا ولهم قلوب إنسانية جنوناً فى جنون

(أعداء الوطنية)

أيها السادة ، لايجهل أحد منكم أن الحركة الوطنية المصرية أزعجت محبي الاستعمار من الانجليز ، فحاربوها بدنشواى فخابوا، وبزيادة جيش الاحتلال فأخفقوا ، وبتهمة التعصب الديني ففشلوا وأضحكوا العالم طراً ، وهاهم الآن يحاربونها بالخونة والمنافقين بعد أن عهدوا الأمر للدخلاء طويلا فلم يبلغوا منها مأربا ، وانهم لمخفقون أيضاً فى هذه السياسة الجديدة ، انهم لو جردوا جيوشا من أعداء الحركة الوطنية المصرية فانها لاتزداد أمامهم الا قوة وحمية وثباتاً واقداماً .

ليقلبوا نظام التعليم ما استطاعوا وليحاربوا الناشئين ما أرادوا ، فان رجال الغد لا يكونون إلا مصريين وطنيين متشربين بمحبة بلادهم متطلعين لان ينيلوها من المجد والسؤدد أسمى مما نالت الأمم الأخرى ، لينفقوا الأموال ذات اليمين وذات الشمال لشراء الضمائر الخربة والنفوس المنحطة فانهم ان كسبوا فردا واحداً قام من الوطنيين الصادقين العشرات لهدم ما يبنون ودك ما يقيمون

ان أمة دبت فيها روح الوطنية وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبدا ، وان صواعق السياسة كلها لاتحول ضميراً لاذ بالوطن عن وجهته !

ايها السادة ، ان الوطنية واحدة لا تتعدد ! وقد يضل الانسان فى أمور كثيرة ويخطئ فى مسائل عدة ولكن اذا كان هناك شعور لا يضل الرجل فيه ولا يخطئ أبداً فى تقديره وتكييفه واظهاره بكل مظاهره فهو الشعور الوطني

لا يحتاج المرء الى علم ولا الى فلسفة ولا الى خبرة وتجارب ليقول اذا سأله سائل : « ما رأيك فى مسألة احتلال الانجليز لبلادك ؟» :

« ان خروجهم غاية آمالى وان العمل له أقدس الفروض المحتمة علىّ »

ان أجهل الشعوب وأبعدها عن العلم والحضارة والمدنية تشعر بهذا الشعور لأنه طبيعى ولا يكون الانسان انساناً الا به

لذلك كانت ضجة الأمم شديدة ضد من قالوا باماتة هذاالشعور ونادوا بأن الوطن خيال وان الراية قطعة من قماش وأشاروا باعتصاب الجنود لو قامت الحرب ودعت الأمة أبناءها الاشداء للذب عنها

انظروا الى فرنسا وهى الدولة التى امتلأت صحف تاريخها بذكر الوطنية وآثارها الفخمة وورث الأبناء عن الآباء فيها حب الوطن والدفاع عنه حتى صار هذا الشعور مقدساً لا يقربه أحد بسوء ؛ كيف تهتز الآن من شمالها الى جنوبها ويقول خدامها الامناء بأعلى أصواتهم :

« حذار حذار من « هرفى » وأنصاره فانهم يريدون هدم بناء الوطنية الفرنسية أى بناء المجد الحقيقى والحياة العالية وان عدوى أفكارهم أضر بفرنسا من كل جيش فاتح »

فاذا كان هذا مبلغ سخط الشعوب القوية الراقية على أعداء الوطنية ، فكم يجب أن يكون سخطنا شديدا عليهم ونحن أحوج شعوب الارض الى هذا الشعور الذى لا ننال حقاً الا به ولا نبلغ مأربا الا بفضله

اننا ما رأينا وما سمعنا ولا روى لنا التاريخ ان أمة سلبت حقوقها واختلس استقلالها وضربها الأجنبي ضربة الاستبداد والاستعباد يقوم من أبنائها من يمجد هذا الأجنبي ويقول له :

« أنت السيد وأنت المنعم فافعل ما شئت ؟ »

أسمعتم أن ارلنديا واحداً قال هذا القول ؟ أوصل اليكم ان بولونيا من أجهل البولونيين طأطأ رأسه أمام الحاكم الأجنبي ؟ أم علمتم ان صغار البولونيين أدهشوا العالم كله بتمسكهم بوطنيتهم ؟

ان من يظن أن الانجليز يحبون الخونة يخطئ خطأ كبيراً ، نعم انهم يستخدمونهم لأغراضهم ولكنهم يحتقرونهم أشد الاحتقار لأن شعباً ينشأ الفتى فيه وهو يرى امتلاك الأرض ومن عليها حقاً من حقوق أبناء جلدته لا يعتبر الخيانة الا جناية الجنايات

أين كانت تكون عظمة انجلترا وسلطتها لو كان فيها من الخائنين من ترى مصر ، هل كانت تسود الامم وتملك رقاب الشعوب وتبلغ من الثروة والسؤدد هذا المبلغ ؟

كلا وأيم الحق كلا ، انها كانت تكون ممزقة الوجود متفرقة الكلمة متباينة الاراء يلعب بها الاجنبي ويسيرها فى الطريق الذى يختار

فلا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد الا بقوة العقيدة الوطنية ، ولا تدرك الشعوب هذه القوة الا اذا كانت شديدة الحكم على من يتلاعبون بالوطنية قاسية فى تأديبهم ومعاقبتهم

سمعت البعض يقول عنى إنى شديد فى تقريع من خالفوا الواجب الوطنى ومالوا عن مصلحة البلاد ، فأجيبهم اليوم بانه اذا صح التسامح فى بعض الأمور وفى ظروف معينة فان التسامح فى الوطنية اعدام لها وقضاء عليها ، وان من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان

(سياسة المغالطة)

ينادى البعض فى هذه الايام بأن كلمة الاستقلال توجع الانجليز وأنه اشير عليهم من بعض انصار مصر فى انجلترا بأن الأصلح والأوفق الاكتفاء بطلب الاصلاح وإهمال مسألة الجلاء والاستقلال ، أو على الاقل تأجيلها الى حين ، ويغمل

ذلك البعض لترويج هذا الرأى ويندفع فى طريقه طاعنا فى المطالبين بالاستقلال قائلا إنهم متطرفون !

وانى لمفصح الآن امام الأمة كلها عن رأيى فى هذه السياسة التى يتوهم ذلك البعض أنها أكبر ضرب من ضروب الدهاء

(احرار الأنجليز ومصر)

ان العمل بآراء الأنجليز الذين يشتغلون بمسألة مصر فى انجاترا ليس مما يطالب به مصرى، لأن هؤلاء الانجليز يعملون لخـــدمة انجلترا بالذات ؛ فهم يريدون أن تكون سياسة بلادهم سياسة لين ومهارة بدلا من أن تكون سياسة شدة وصلابة ؛ وهم ان اتفقوا معنا فى بعض المسائل قد يختلفون فى الجوهر ولذلك نرى بعضهم يرى بمزيد الاستياء الحركة الوطنية الداعية الى الاستقلال

فنحن مسلوبون والأنجليز هم السالبون ، ونحن طلاب حق مقدس والانجليز هم مغتصبو هـــذا الحق ؛ فلا سبيل الى الاتفاق بيننا وبينهم الا باعترافهم بحقنا وردّه الينا

أما القائلون بأنه يتم الاتفاق بين المصريين والأنجليز على أساس تضحية الشرف البريطانى؛ وتضحية استقلال مصر، أى خيانة المصريين لوطنهم وخيانة الأنجليز لشرفهم ووعودهم وعهودهم ، فانما يوجهون الى الأمتين أكبر مسبة ويطلبون اتفاقا باطلا ، وأى احترام لعقد أساسه الخيانة الصريحة ؟ اننا نشكر كل انسان ينصف مصر ويعترف بحقوقها كلها أو بعضها ، ولكننا لا نتقيد برأى أحد ولا نتأثر بسياسة خاصة، بل يجب أن نكون خُدّام العقيدة الصحيحة السليمة ، خدام العقيدة الوطنية

فان قال المنتصرون لمصر فى بعض امورها من أحرار الانجليز ان المطالبة بالاستقلال تؤلم قومهم وطالبونا بالعدول عنها ، وجب على كل مصرى أن يجيبهم قائلا « لكم دينكم ولى دين »

(فساد سياسة المغالطة)

يتوهم أنصار سياسة المغالطة أنهم مهرة قادرون وسياسيون محنكون ، فلذلك هم يريدون أن يخدعوا الدولة الانجليزية ويغلبوها بقوة الدهاء ، هم يقولون : « لنهجر طلب الاستقلال ولنطالب الانجليز بالاصلاحات الداخلية مثل تأسيس مجلس نيابى ونشر التعليم حتى اذا صرنا أصحاب الحول والطول فى البلاد قلنا لهم « انجلوا عنها » فلا يستطيعون إلا ان ينجلوا خاضعين ممتثلين »

اللهم انى اعترف بأنى لست من المهرة فى السياسة حتى أدبر مثل هذا التدبير واصرح بأنه لم يخطر لى لحظة واحدة على بال بأنى قادر على أن أصرع السياسة الانجليزية بمثل هذه المهارة الفائقة ، كما أنى مع عداوتى الاكيدة للاحتلال ، لا أرى الانجليز قد تحولوا بسرعة البرق أطفالا صغارا حتى تدخل عليهم هذه الحيلة المضحكة

باطلا يعتقد البسطاء أن الانجليز مع كونهم ينوون البقاء فى مصر يقبلون منح أهلها حكومة دستورية ، لأنه لو جاز ذلك لكان وجودهم فى هذه الديار يوم يؤسس فيها مجلس نيابى تام السلطة واسع السلطان نافذ الكلمة لغواً ، ولأصبحوا فى هذا القطر لاعبين

ان اعطاء المصريين مجلساً نيابيا حقيقيا ــ لاصورة يراد بها السخرية وذر الرماد فى العيون ــ هو تجريد للاحتلال من كل سلطة ، فلا يستطيع المعتمد البريطانى إبقاء مثل دنلوب فى نظارة المعارف مع سخط الأمة كلها عليه ، ولا يمكن تعيين مثل المستر هيل فى مدرسة الحقوق والأكفاء من المصريين يعدون بالعشرات ان لم نقل بالمئات ، ولا يقدر أن يطلب اربعمائة ألف جنيه لبناء ثكنات للجيش البريطانى والبلاد فى أزمة شديدة وحاجتها للمال ظاهرة للعيان ، ولا يتيسر له صرف تلك الاعتمادات الطائلة للسودان ومصر فى أشد الحاجات اليها ، ولا يجد

سبيلا لمسخ الحكومة الأهلية وتمكين الانجليز من كل فروعها ومحاربة الأمة في كل ميولها وسلبها جميع حقوقها

أنما تساعد انجلترا بكل قوتها على تأسيس حكومة دستورية في هذه الديار يوم تنوى حقيقة الجلاء عن مصر؛ ولذلك طلبتُ دائما المجلس النيابى مقرونا بطلب الاستقلال

الا أن الخطة التى وضعتها الحكومة الانجليزية عند ما احتلت هذا القطر هى ترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم، وإقامة معالم الدستور بينهم ثم الجلاء عن بلادهم؛ هى خطة متماسكة كل التماسك ولا يمكن تنفيذ مبدأ من مبادئها دون المبدأين الآخرين ؛ فترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم يجعلهم أقوياء أشداء راقين في الشعور الوطنى فلا يرضون بحكم الأجنبي ، ومنحهم مجلساً نيابياً يحصر السلطة في أيديهم فلا يبقى للانجليز بجانبهم عمل ما

لذلك صرحتُ أيها السادة بفساد سياسة المغالطة وبضررها الشديد على مصر والمصريين ، لأنها تؤدى الى اعتراف فريق من الأمة بقبول الاحتلال وتظهره بمظهر الضعف الشديد ولا تثمر ثمرة ما ، هذا فضلا عن كونها قاتلة للروح الوطنية بابعادها المصريين عن ذكر الاستقلال والتعلق به

(سياستنا)

أسمع المعترضين يقولون : وبم تمتاز سياستكم على سياستهم وما ثمراتها ؟

فأجيب بأن سياستنا هى سياسة الصراحة والمناداة بالحق والدعوة للاستقلال، وهى وحدها الموصلة الى كل الغايات الحسان فالصراحة وقول الحق من الخلال التى تحمل الحاكم على احترام المحكوم

فالانجليزى لا يشك في أن كافة المصريين يودون الاستقلال من أعماق قلوبهم، فاذا رأى بعضهم يقول عكس ذلك ويتحبب اليه ويطعن فيمن يخالفونه في خطته، عرف أنه منافق واحتقره ورمى الأمة بعدم الاستعداد للاستقلال

وقد قال غمبتا حقا وصدقا : « لأجل أن تنال محبة الانجليز يجب أن تنال احترامهم »

ان الانجليز أنفسهم فى حاجة لمن يسمعونهم الحقيقة الصارخة ؛ وهى إن إساءتهم وآلمتهم فى الظاهر فانها أفيد لهم فى الواقع من نفاق المنافقين وكذب الكاذبين

أليس أولئك المنافقون هم الذين أدخلوا فى نفس اللورد كرومر اعتقادات كاذبة بشأن الأمة المصرية فاعتدى عليها قولا وفعلا وحفر بيده هاوية بينها وبينه بفظيعة دنشواى وبسببها فى وطنها ودينها حتى فارقها وقلوبها وألسنتها تشيعه بالسخط الشديد ؟

فمن من الانجليز يرضى لشرف بلاده ومصلحتها أن يكون كل عهدها فى مصر كرومريا ؟ ألا يقول معنا بضميره إن لم يقل بلسانه ان الصراحة والصدق هما أمتن أساس لأشرف سياسة

(الاستقلال والوصول اليه)

ان الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال انما يريدون أن تموت الروح الوطنية فى مصر، أى أن تموت الأمة المصرية، لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح فى الشعب

يتساءل البعض عن الوسيلة الموصلة الى الاستقلال ، وهذا تاريخ الشعوب البشرية يدلهم على أن الوسيلة الموصلة الى الاستقلال تنحصر فى بث روح الوطنية الصحيحة والشهامة والاقدام فى الأمة ، واعلاء ملكتها ، وايجاد حب السؤدد والرفعة ، ومسابقة الأمم الراقية فيها ، وجعل الاستقلال رائدها

فاذا تمكنت هذه الروح وتلك الميول من كل مصرى فتحت المدارس العلمية والصناعية والتجارية والزراعية فى كل مكان ؛ وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن فى كل جهة وناحية، واتحدت الأمة فى الغايات والمقاصد أو ازدادت

ثروتها فى المال والعلم والوطنية والوئام ، وقضت على كل عمال الخصام والانقسام وصارت أمة من أقوى الامم فعلا، واضطرت انجلترا يومئذ لأن تتفق معها على الجلاء والاستقلال، تفضيلا لمودتها على عداوتها ؛لأن أمة تبلغ هذا الشأن لا تلبث أن تستخدم الحوادث — وما الحوادث مسيرة بارادة دولة أو برغبة انسان — فتنال استقلالها رغما من كل معارض فيه

فالدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية الطاهرة هما المؤديان الى تحقيق آمال الأمة المصرية، فليكن معتقد المصريين جميعا أن نجاة مصر لا تكون الا بهمم المصريين، وان ارتقاءنا موكول الى عزائمنا، فلنطلب النهوض من أنفسنا ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد

يقول البعض ان المناداة بالوطنية كلام فى كلام ؛ ونسى ذلك القائل ان أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الانسانية تنحصر فى ادخال عقائد جديدة فى النفوس ؛ لأن العقيدة تحرك الجبال

فإدخال الروح الوطنية فى نفوس المصريين لتجتمع كلمتهم حول الوطن العزيز ويتفقوا فى المطالبة بمجده واستقلاله ، لهو أكبر الأعمال

ومن قال ضد ذلك فقد انكر الديانات وتأثيرها والتاريخ وأحكامه والعوامل الفعالة فى الشعوب كلها

(العالم ومصر)

أيها السادة عرف المصريون أجمعون أن اعتقاد العالم فيهم قد تغير وأنه أصبح يرى فيهم أمة حية رشيدة بعد أن كان يعتقد فيهم ضد ذلك ، ولماذا ؟ أليس لأنه علم أنهم محبون لوطنهم راغبون فى خيره واستقلاله وأن الحركة الوطنية المصرية فى نمو مستمر

ليقل لنا الطاعنون فينا أكانت تبلغ هذه الحركة شأوها الحالى لولم تكن

قد سيرت بقوة وصراحة صارمة لا محاباة فيها ؟ أليس من الحقوق الطبيعية لمن سلب حقه أن يعلو صوته بدرجة صوت سالبه ، إن لم يرتفع فوقه ؟

فأى لوم يوجه الينا أننا فى كل أقوالنا وكتاباتنا وأفعالنا نذكر الأمة الانجليزية بالكرامة والاحترام ، فهل فعل المحبون للاستعمار من الانجليز فعلنا ؟ هل قالوا مثل قولنا ؟ هل كتبوا مثل ما كتبنا ؟

كلا والف مرة كلا ، انهم ما أسمعونا الا الشتائم والمطاعن البذيئة والتهم الباطلة ، وهذا شيخ سياستهم لورد كرومر أبت عليه آدابه وتجاربه وخبرته أن يترك مصر دون أن يسب أهلها جميعاً ويلقبهم بالعميان ويقضى عليهم بالذل الى أبد الزمان ، فهل قام مصرى واحد يسب الأمة الانجليزية كما سب لورد كرومر الأمة المصرية ؟ هل خالف واحدنا الأدب والكمال أو نسى سمو القضية التى نخدمها وقلد اللورد فيما قال

لا ريب فى أن العدو نفسه يجيب سلبا أمام ضميره ويعترف بأن المطالبين باستقلال مصر ساروا فى طريقهم والحمية والحكمة عندهم متلازمتان

(المعارضة الوطنية والحكومة الانجليزية)

أيها السادة ان الحكومة الانجليزية التى نخارها فى وطنها الجدل والمناقشة والسعى وراء الحقيقة ، تعلن عجزها فى مصر اذا جارت أولئك المضطربين من الحركة الوطنية النادبين سوء حظهم لوجود افراد فى هذه الأمة يقولون الحق جهاراً ولا يخافون فيه لومة لائم ، لأن الحكومة القوية تزداد قوة بفضل المعارضين الواقفين لها بالمرصاد المنددين بسيآتها المشهرين باغلاطها الدالين لها على عيوبها ، فما بالك بسلطة الرجل الفرد ، بسلطة الأجنبى الجاهل بأخلاق الأهالى وميولهم ومطالبهم ورغائبهم ؟

أليست هى أحوج السلطات الى قوة معارضة تقف أمامها موقف الخصم

العنيد الذى لاينزل عن حق ولا يسكت على عيب ولا يستر نقصاً ولا يجامل فى خطأ، بل ينادى بما يراه ويعتقده وينتقد الأعمال بصراحة وبطش شديد ؟

الا أن حكومة كحكومة مصر لايزال شكلها ونظامها أبعد الأشكال والنظم عما يرجوه المصريون لبلادهم ويطلبونه فى الصباح والمساء، لأجدر حكومات العالم بأن تسمع أصوات المخالفين لها وتنظر فى انتقاداتهم بعناية لا بتعنت وغيظ ، فان الموقف موقف خدمة عامة وعمل للصالح العام لا موقف خصام وعناد

يقول بعض الصحف ان الحكومة تأبى تقرير ذلك الأمر النافع وهـــذا المشروع المفيد لأن المعارضين أو المتطرفين أوالمتحمسين أو أعداء انجلترا فى مصر طلبوا ذلك الأمر وهذا المشروع ، وان المسألة صارت الى المشاكسة والعناد والمبالغة فى النكاية بالخصم

ومثل هذا القول هو اكبر مسبة توجه الى رجال الحكم !

ان الحكومة الصالحة العاملة لخير الرعية هى التى تلتقط الحقيقة انى وجدتها، وتعمل بالرشد والصواب ولو كان خصمها هو مرشدها ، فهى تزداد قوة على قوتها ونفوذاً عند الرعية اذا اتبعت رأى خصمها متى كان حقا ، لأنها تثبت بذلك انها حكومة خير ورشاد لا حكومة طيش واهواء

أما اذا اعتقد الجمهور فى الحكومة انها لاتعمل الا ما تريد وانها تهمل كل صوت يرتفع بالحق ما دام قائله ليس من مملقيها فان مقامها يسقط فى نظر الناس ويسىء الكل الاعتقاد فيها وتكون قد أوجـــدت بنفسها وبارادتها الشقاق والافتراق بينها وبين المحكومين

أى معنى لافتخار الانجليز بسيادة حرية القول وحرية الأقلام فى مصر اذا كانت هذه الحرية لاتفيد الحكومة شيئاً ولا تصلح المعوج من أمورها ؟ وهل القصد من هذه الحرية أن يسمح للمصريين بأن يبكوا استقلالهم وينادوا بالويل والثبور على سالبيه ليس الا ؟

اللهم ان حرية لاتعطى الأمة حقا فى ادارة شئون البلاد ، ولا تجعل للناطقين باسم الشعب سلطانا أدبياً محترما عند الحاكمين؛ لحرية أجنبية عن حرية الشعوب المتمدنة ولأهانة حقيقية الأمة تقدم اليها فى شكل نعمة

(سيئات المحتلين وفساد حكمهم)

ماذا يريد الانجليز منا؟أيريدون أن نسمى سيئاتهم حسنات ونصفق لضياع حقوقنا واستيلائهم على بلادنا وتجريدهم إيانا من كل سلطة ونفوذ ؟ هل كانوا يسرون بمثل هذا الحال لو كانت بلادهم محتلة بدولة أجنبية ؟

(اتفاقية السودان)

من من المصريين يذكر اتفاقية السودان ويشكر المحتلين ؟ وكيف يشكرهم وهم قد ضغطوا على حكومة فى قبضتهم فأتت ماأرادوا مع مخالفة الامر للفرمانات السلطانية وبطلانه من الوجهة القانونية ؟

من ذا الذى يمدح هذه السياسة ، سياسة القوة والجبروت التى أنكرت حقوق مصر فى السودان فعلا بعد أن روينا أرضه بدمائنا الغالية وأنفقنا عليه الأموال الطائلة

(أين العدل ؟ ؟)

أى مصرى يرضى عن قوم لا يعرفون العدل والانصاف والمساواة .وتلك الكلمات الضخمة والمعانى الفخمة إلا اذا كان الامر متعلقاً بمصرى ؛ اما اذا كان له مساس بانجليزى فلا عدل ولا إنصاف ولا مساواة !

أليست الوكالة البريطانية هى التى أقامت الدنيا وأقعدتها يوم ادعى أمامها أحد الأرمن بأن أخاه سجين فى سراى رأس التين وأنه يعذب بغير حق ؟ ألم تنتدب يومئذ المستر شابمن للتحقيق وتفتيش السراى أى القيام بعمل لم نسمع بمثله فى حكومة أخرى ، ألم تقل يومئذ فى الجرائد الخادمة لسياستها ان هذا أكبر مظهر من مظاهر العدل وانه يحق للمصريين أن يشكروا المحتلين ليلا ونهاراً ويرتلوا آيات الثناء عليهم ؟

فأين هذا العزم اليوم؟ أين تلك الهمة العالية فى تأييد العدل وعدم التمييز بين الصغير والكبير؟

كيف سكنت عواطف المدنية والانسانية والانصاف والمساواة مرة واحدة فى قلوب السادة الانجليز لما اتهم عالم من كبار العلماء الفرنسيين مستر دنلوب بتهم شنيعة يأبى الحر قبولها والسكوت عليها

أين المظهر العادل للعدل أيها المحتلون؟ أين أبناء الأمة التى تعد من أكبر مفاخرها عدم التستر على مرتكب أثيم؟ أين اختفوا؟

أين هم لنسمعهم الحق الذى لا ريب فيه ونقول لهم بصوت جهير أن عدم محاكمة دنلوب بعد الفضائح التى أعلنها المسيو لامبير معرة كبرى على الاحتلال والمحتلين؟

ينسب البعض سكوتهم أمام هذه التهم الصريحة الى أنهم لايريدون ارضاء الرأى العام أو الظهور أمامه بمظهر الضعف

حقا انها لحجة تضحك وأنها لسياسة لا ترضاها لنفسها حكومة «بهنزين». أيظن المسيطرون من الانجليز أن اخراج دنلوب من المعارف أضر بالسياسة الانجليزية من بقائه؟

اننا كنا نعتقد أنهم أذكى وأفطن من أن يقولوا ذاك، والا فكيف فاتهم أن بقاء دنلوب هو اكبر وصمة للاحتلال، واننا لو كنا نريد تحقير الحكم البريطانى فى مصر لما طلبنا منهم اكثر من بقاء دنلوب بعد تهم الأستاذ لمبير، أليس بقاؤه أكبر دليل نقدمه للأمة على انه آن لها أن تترك مدارس الحكومة خاوية لايقصدها طالب وتؤسس هى مدارس لأبنائها باموالها وهم القادرين من رجالها لتنال الاستقلال العلمى والأدبى وتستريح من أعمال دنلوب ومساعيه؟

اذا كان الأستاذ لامبير يقرر أن خطة دنلوب هى التى دفعت بطلاب الحقوق الى صفوف الوطنيين فصاروا فى مقدمتها، فكيف لايدرك الانجليز اننا لو كنا

لا نرمى الا الى جمع كافة القوى الحية ضدهم وان هذه طلبتنا الوحيدة ؛ واننا لا نريد الخير لبلادنا ولا نطلب الاصلاح ، لا بتهجنا ببقاء دنلوب عاملا على زيادة الوطنيين المصريين ومجدًّا فى بث روح العداء فى قلوب الناشئين للانجليز واحتلالهم ؟ ان الأمة المصرية تنظر اليوم بمزيد الاهتمام الى ما تنوى الوكالة البريطانية عمله مع دنلوب ، فان هى تركته وشأنه علم من لم يكن يعلم فى هذا القطر وفى غيره من الأقطار ان العدل خيال فى مصر لا حقيقة وأن الانجليز يغفرون لرجالهم كل السيئات ويتربصون للمصريين فيعاقبونهم على أصغر صغيرة

فاذا كانت هذه هى النتيجة التى يعمل لها المعتمد الانجليزى الجديد فليفعل ؛ فانما هو يهدم بيمينه البقية الباقية من نفوذ بلاده عند المغرورين الذى لم يسيئوا بها الظن تماما ويقوى عقيدة الذين لا يرون فى نواياها ومراميها شيئا من الخير لمصر والمصريين

(محاربة الأكفاء من المصريين)

كيف يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالمحتلين وهؤلاء هم الذين يدعونهم كل يوم الى إساءة الظن بهم

كيف يصدق العلماء والفضلاء والاكفاء من المصريين أن الانجليز يريدون حقيقة لهذه البلاد التقدم والارتقاء وهذا مستر دنلوب يأمر كل مدير لمدرسة عالية بأن يطعن فى كفاءة المصريين الذين يطلبون وظائف التدريس ؟

واذا تركنا المستر دنلوب وارتقينا الى رئيسه الاعلى معتمد انجلترا فى مصر ، فماذا نجد من نياته ؟ نجد أن السير الدون غورست قد عين المستر هيل مديرا لمدرسة الحقوق وسخر بذلك من المصريين عامة ومن الأكفاء خاصة

ألم يقل لهم بلسان الحال : « إنى لأسخر من معارفكم وآدابكم وكفاءتكم واستعدادكم وخبرتكم وشهاداتكم لانكم مصريون وأقدم عليكم من هو دون أصغركم علما وفضلا وخبرة لأنه انجليزى ؟ »

فهل يعد هذا يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالانجليز ؟ وهل هناك عداء صريح من قوم لآخرين أكبر من هذا العداء ؟ وهل يليق بشرف دولة كبرى كالدولة الانجليزية أن تحارب المصريين بمثل هذه الصغائر وهى التى أقسمت أمام العالم كله ان جل رغائبها اعداد المصريين لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ؟

ومتى يتسنى لهم ذلك والقاعدة السائدة فى السياسة الانجليزية بمصر ، هى تجريد المصريين من كل سلطة ، وابعادهم عن كل منصب ذى عمل ، والاستعانة بالضعفاء والمارقين منهم على تمثيل مصر فى المناصب التى يشغلونها بأسوأ صورة

(دنشواى)

يقولون سير ادواردغراى بأعلى صوته فى مجلس العموم الانجليزى ان لورد كرومر لم يعامل المصريين كأمة منحطة،فاذا كان يريدأن يعمل اللورد ليعترف بأنه عاملهم كذلك ؟

أليست دنشواى وحدها بكافية لأن تثبت مدى الدهور والأجيال ان الانجليز أهانوا المصريين اهانة قاسية لاتنسى أبداً ولا يمكن اختلاف اثنين من المنصفين فى الحكم عليها؟

ينادى الساسة الانجليز بأن الحكم فى دنشواى كان سياسيا وكان يقصد به تأديب الأمة ، واذا طلبت الجماهير العفو عن المسجونين بسبب هذه الحادثة قالوا « انما أنتم تطلبون العفو لتعدوه انتصاراً على السياسة الانجليزية »

فهل هذا هو العدل الذى تجود به علينا المدنية البريطانية ؟ هل هذا هو الانصاف الذى تريد أن تعلمنا اياه الدولة الانجليزية ؟ أيعاقب أهالى دنشواى بتلك الشدة المتناهية لأن الأمة لم تكن مع الانجليز فى حادثة العقبة؛ وهل الحكومة التى تخلط بين السياسة والعدل الى هذا الحد فتعاقب البرئ وتكافئ المجرم

تستحق أن يمدحها مادح ويثنى عليها انسان ؟ وكيف يدهشها قيام المعارضين فى وجهها واعتراضهم عليها بكل شدة وقوة ؟

اننا لو كنا نريد دوام العداء والنفور واستحكام الشقاق والتنازع لطلبنا بقاء مسجونى دنشواى فى سجونهم الاعوام الطوال ، لانه كلما مرت السنون وهم على حالهم تجددت آلام الأمة بما لا يكيف وجرى ذكر دنشواى على كل لسان ، وهكذا سياسة العناد لا تثمر الا عكس المقصود منها ولا تؤدى الا الى ضد الغاية المطلوبة

ان الرجال لايحكمون بمثل هذه السياسة ولا تدبر شؤونهم بمثل هذا الاعتساف

إذا كان الانجليز يجهلون أحوال المصريين وما يدور بينهم ؛ فليعلموا ان فى هذه الأمة رجالا مستنيرين رشيدين يعادلون اكفأ العقلاء من الانجليز وانهم يغارون على الحق والعدل ولا يرضون بأن تكون الأحكام فى البلاد قائمة على الغايات والأهواء ، وهؤلاء الرجال هم القوة المفكرة التى تحترمها كل حكومة فى العالم وتسترشد بآرائها فى المواقف الحرجة

إننا نقدم العدل والرحمة على السياسة ؛ ولذلك طلبنا ونطلب بأعلى أصواتنا العفو عن مسجونى دنشواى ، ونقول بكل صراحة ان السياسة الرشيدة هى التى تعمل لتخفيف الآلام الناشئة من هذه الحادثة الموجعة ، لا العمل على تقويتها وزيادتها بدعوى أن طلاب العفو ليسوا من أنصار الاحتلال !

ألا فاقرأوا معاشر الانجليز التاريخ الاسلامى وانظروا فى أعمال أولئك الخلفاء العظماء الذين كان الواحد منهم ينشد الحقيقة فى كل وقت وفى كل مكان ويمتثل للحق ولو كان قائله من أحقر الناس

خليق بالانجليز وهم الذين يدعون ان مدنيتهم سادت كل مدنية أن يذكروا

أن رجال المدنية الاسلامية لم يكونوا ليقولوا « السياسة فوق الحق » بل كانوا يقولون ويؤيدون هذا القول بألف دليل ودليل : الحق فوق كل شيء

(الثروة والازمة)

أيها السادة ، يفاخرنا الانجليز على الدوام بانهم أغنوا البلاد وملأوها ذهبا حتى حدثت الأزمة الأخيرة وخفت هذا الصوت الذى صمت من سماعه الآذان أعواما طوالا

فما قيمة الثروة التى يفاخرون بها بجانب الحرية الشخصية والحرية العمومية وسيادة المصرى فى بلاده واستقلاله فى وطنه ؟ ومن من المصريين لا يفضل أن يكون أفقر الناس جميعا وحكومة بلاده قائمة على العدل الصحيح على أن يكون أغناهم وأثراهم ويهدد من المحتلين بعقوبات دنشواى ؟

واذا كان من المسلم أن ارتفاع أثمان أراضى الزراعة تابع لثمن القطن ، وان هذا خاضع لطلبات العالم ولحاجة الناس للقطن المصرى بنوع خاص ولقلة المحصول الامريكى وللمضاربة ، فما أثر الانجليز فى هذه الثروة ؟

لا شك أنه جرت اصلاحات جمة فى الرى وان الأعمال التى بدىء بها فى فى عهد الخديويين السابقين تقدمت فى العهد الحاضر ، ولكن هذا الاصلاح فى الرى ليس مزية خاصة للحكم البريطانى ، ثم ألم يكن هذا من فائدة الانجليز أكثر مما هو فى فائدتنا ؟ ألم يكن من مصلحتهم ارضاء دائنى مصر وفتح السودان واصلاحه بأموال مصر

ومن الذى ينكر اليوم أن الازمة المالية الحاضرة ناشئة عن فوضى البورصة وعن كثرة الشركات التى دبرتها اليد التى قيدت الشركات المؤسسة بمقتضى القانون المصرى بعقود جمة؛ لايجاد أسهم للتأسيس حتى تؤسس الشركات كلها بمقتضى القانون الانجليزى

من الذى ينكر أنه كان فى استطاعة الانجليز أن يطلبوا من الدول وضع قانون للبورصة ويقيدوا السماسرة والشركات بقيود متينة صيانة لمصالح البلاد

وأى خلل فى المالية المصرية أكبر من الذى فضحه المستشار المالى السابق نفسه حين أعلن أن مصر خسرت ٧٠٠٠٠ جنيه فى كل مليون اشترت به اسهم الترنسفال أو القونصليد الانجليزى ؛ فهل كانت تجرى هذه الأمور كلها لو كان للأمة مجلس نيابى يراقب أعمال الحكومة وكانت الحكومة مؤلفة من عناصر أهلية وليس للأجنبى عليها سيطرة، ومن ذا الذى يتغنى بعد الآن بالاصلاح المالى البريطانى فى هذا القطر

ان الذى يفاخر بزيادة الثروة وبوصول مالية الحكومة المصرية الى مركز سام يجب عليه قبل كل شىء أن يعدد الاعمال العامة والمنافع المختلفة التى عادت على القطر من هذه الزيادة

فهل يستطيع الانجليز أن يدعوا أنهم رقوا الفلاحين « أصحاب الجلاليب الزرقاء » ونشروا أنوار المعارف بينهم ، وهم الذين سدوا أبواب المدارس فى وجوههم وقالوا لهم « حكمنا على أولادكم بأن يكونوا فقراء تعسين وأن لا يتسلحوا أبدا بسلاح العلم ! »

هل من مفاخر العهد البريطانى أن ينفق على المجانية ابتداء من هذا العام ١٦٠٠ جنيه ليس الا ؛ وميزانية الحكومة بلغت خمسة عشر مليونا من الجنيهات، على حين أن التعليم كان مجانا فى كافة مدارس مصر يوم لم تكن ميزانية الحكومة تزيد عن المليونين ؟؟؟

هل يقدر الانجليز أن يدعوا أنهم أصلحوا الحالة الصحية فى البلاد وغيروا من معيشة الأهالى وان مدينة العاصمة صارت نظيفة فاخرة لا يجد المتنقل فيها محلا للانتقاد فى فصل من فصول السنة ؟ هل لهم أن يدعوا أنهم حموا الاطفال من الامراض المختلفة التى تقتلهم مئات والوفا ؟

فما فائدة الأموال التى تجمع والخزينة التى تمـلأ بالذهب الوهاج اذا كانت الأسوار قائمة بين الفقراء والعلم، والأحوال الصحية على أسوأ حال ، والعـدل مزعزع الأركان، والمصرى لا يملك فى بلاده نفوذا ولا يسمع له صوت، والأمن مختل أى اختلال ؟

(الأمن العام)

دعا الانجليز حب نزع السلطة من المصريين الى تدمـير الادارة المصرية تدميرا حقيقيا باحلال سلطة المفتش محل سلطة المدير ، فصار الأشقياء لا يخافون الحـكومة لان قوتها الحقيقية تلاشت من أمامهم ، وصرنا نسمع بحوادث القتـل والفتك فى كل بلد ، مما أذهل الناس جميعا ؛ وقد اضطرب المحتـلون فى التشريع اضطرابا عجيبا فتراهم يغيرون القوانين ويقلبون المبادئ التشريعية بسرعة فائقة كأنهم يبدلون فى مواد لائحة من لوائح البوليس والمخالفات لا فى قوانين أساسية يُساس بها شعب كبير، وهم اليوم يطلبون تقرير النفى الادارى الأمر الذى أسخط الأمة كلها وأظهر فشلهم الفاضح

وهذا خلل كبير فى إدارة شؤون مصر ، فان كل بلاد حرمت قوة تشريعية حقيقية تـكون خاضعة لسياسة الاهواء.

(الحـكومة الاهلية)

لذلك قلنا ان المصريين لا يرضون باصلاحات سطحية يُعْطُونها ذرا للرماد فى العيون ، بل انهم لا يطمئنون على أنفسهم وبلادهم الا اذا عادت الحـكومة الاهلية بسلطتها وسطوتها ورهبتها و كانت حـكومة دستورية خاضعة لمبادئ التمدن الحديث ومستمدة قوتها من الشعب وعاملة برغائبه ممتثلة لأوامره

واذا كان بعض الانجليز يرون أن ما عمل فى مصر فى الخمسة والعشرين عاما الاخيرة كافيا لتشريف انجلترا ولائقا بمدنيتها وبما ينتظر منها ؛ فاننا نعتقد أن

انجلترا قادرة على أن تعمل أحسن مما عملت وتحترم شرفها وعهودها وتاريخها وتقاليدها بخطة أخرى غير الخطة التى اتبعتها

ان الأنجليز الذين يتألمون لمطالبتنا باحترام تعهدات الملكة فيكتوريا وتصريحات كبار وزرائها ينسون أن مخالفة هذه التعهدات وتلك التصريحات أشد ايلاما لهم فى الحقيقة من كل انتقاد يوجه اليهم ، وان الذى يدعوهم لاتباع سياسة العدل والمدنية انما يدعوهم لما هو أليق بهم وبشرف دولتهم وعظمتهم

كيف لا ومطاعن الطاعنين وشتائم الشاتمين لا تؤثر فى شرف انجلترا وسمعتها عشر معشار ما يؤثر قول العالم المتمدن عنها انها تعادى الوطنيين المصريين وتحاربهم لأنهم يطلبون اتباع مبادئ الوطنية وتعميم التعليم واقامة الدستور مقام الظلم والاعتساف — وينادون بانهم لا يرضون بحكومة الرجل الفرد سواء كان مصريا أواجنبيا ، وان مداركهم ارتقت الى حد انهم يعتبرون انفسهم من « عائلة الشعوب المتمدنة » ، ويطلبون أن يعاملوا كذلك

لذلك كان من المؤكد عندنا نجاحنا عاجلا او آجلا ، لأن الزمان يكفل النجاح لصاحب الحق على الدوام !

(أعداء الحزب الوطنى والنزلاء)

هذه خطتنا أيها السادة وهذه مطالبنا التى نرمى الى تحقيقها ، فهل يقول منصف عادل بأنها غير موافقة لمصالح مصر والمصريين

كلا ، ولكن عصابة من الكتاب الأوروبيين فى هذه الديار حملت علينا حملة شعواء ووجهت الينا من السباب مالا يتصور صدوره من رجال متمدنين ، ورمتنا هذه العصابة بتهم شنيعة لو كان لها نصيب من الحقيقة لكنا من المجرمين

ولقد يتوهم البعض منا ان هؤلاء الكتاب يعبرون عن أفكار النزلاء الاوروبيين فى هذه الديار ونزعاتهم ، ولكن هذا الوهم باطل ، لان أولئك النزلاء يحبون مصر على ما اعتقد ويعترفون لها بالجميل ويرجون لها الخير ولا

ينسون أنها البلاد التي لاقوا فيها الاكرام التام والحفاوة الزائدة ووجدوا تحت سمائها ما يطلبون من كسب عميم وخير وفير

ان النزلاء الأوروبيين يقدرون الوطنية حق قدرها لأنهم يحبون بلادهم حبا جما ويظهرون هذا الحب فى كل آن؛ فمن منا يصدق أن أولئك الذين يعيشون ونخارهم استقلال أوطانهم ويعتقد الواحد أنه راية بلاده يمثلها أنى كان وان الاعتداء عليه اعتداء عليها يجاهدون ضد أمة تنهض مطالبة بالاستقلال وتعمل لزوال الاحتلال !

انى اعتقد اعتقادا جازما أن لنا فى النزلاء الأوروبيين أصدقاء عديدين وأن عدد أولئك الأصدقاء يزداد كلما أثبتنا لهم بالدليل والبرهان اننا نريد أن تكون مصر عضوا عاملا فى جسم الامم المتمدنة واننا نطلب الاستقلال لتكون بلادنا مصدر النور والعرفان فى الشرق كله؛ واننا لا نريد مطاردة أحد من الناس، بل نعد من شرف مصر وامتيازها على غيرها من البلاد أنها ترحب بكل قادم اليها وتوسع له فى ديارها غير خائفة على أبنائها من مزاحمة أو منافسة بل مسرورة بكثرة العاملين وهم الساعين المجدين

وانه ليأتى يوم يجد الأجنبى فيه أن الجنسية المصرية ليست دون غيرها من الجنسيات الراقية فيقبلها فرحا مبتهجاً وتزداد بذلك قوة الوطن المصرى ولا يوجد من يعد الانتساب لمصر عارا وشنارا

(تهمة الثورة)

عماذا طعن الطاعنون فينا !

قالوا إننا نريد احداث ثورة دينية فى البلاد وانه أوعزالينا من الاستانة بها !

وهو قول الجاهل أو المتجاهل المتعنت الذى يريد أن يحارب خصومه بكل سلاح، اذ كيف يقبل العقل السليم أو يتصور انسان ذولب وادراك أن قادة الأفكار فى مصر يعملون لهدم البقية الباقية من استقلال هذه البلاد ويجزبون

أوروبا بأمرها على مصر والمصريين ، ألم نقل مرارا أو تكرارا ان كل فتنة تحدث فى مصر لاتفيد الا المحتلين ؟ ألم نكن أول الداعين للسكينة المطالبين أبناء وطننا بأن يعملوا بعزم وهمة وصراحة ولكن مع السكينة والمحافظة على الأمن العام ؟ ألم نجعل أساس سياستنا وقاعدة خطتنا وروح أعمالنا استخدام الوسائل السلمية لنيل حقوقنا والتمسك بالطرق القانونية دون غيرها ؟

ومن الذى يستطيع أن يقول أن للاستانة منفعة فى احداث ثورة فى مصر وما الذى يدفعها إلى ذلك ؟ أعداوتها للمسيحيين وأسمى وظائف الدولة فى قبضتهم ؟ وماذا يكون مركز الدولة العلية لو ثارت مصر وضربتها أوروبا الضربة القاضية ؟ ألا تكون هى المسئولة بالذات عن ذلك اذا صح أنها تحرض على ثورة فيها ؟ أوليس التحريض داعيا الى المؤازرة ؟ فأى مؤازرة ترضى تركيا أن تقوم لنا بها على أوروبا كلها ؟

ان القائلين بذلك اعداء متعنتون او جهلاء لايدركون معنى ما يقولون ، لأن المصرى الذى يدعو الى فتنة او يعمل لها يكون عدوا لبلاده ، واذا وجد فى العالم دولة تنصح للمصريين باستعمال السكينة وملازمة الحكمة والتبصر فهى الدولة العلية ، لأنها بلا نزاع أشد الدول غيرة على سلامة مصر وأكثرهن فائدة من عدم ازدياد مصائبها وبلاياها

(تهمة خيانة مصر)

رمانا الطاعنون ايضا بأننا نريد أن نخرج الانجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية ، أى اننا نريد تغيير الحاكمين لاطلب الاستقلال والحكم الذاتى

وما هذه التهمة الا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التى نقلت الى مصر من مدة قرن من الزمان ما زادتنا الا تمسكا بالعبودية والمذلة ، وان معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا الا أن نكون عبيدا ارقاء

فهذه التهمة هى مسبة للمدنية والمتمدنين وقضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى ابدا ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب ؛ لأنه اذا كان المتعلمون من ابنائها يطلبون احلال نير محل نير واستبدال استعباد باستعباد فكيف يطمع طامع فى تقدمها وارتقائها ووجود ضمير أهلى لها ؟

ان القائلين بذلك يدعون الناس لأن يسخروا من عقولهم ومداركهم لأن الصومالى والحبشى وكافة الأمم التى هى دون الأمة المصرية بمراحل فى العلم والادب والشعور دافعت عن استقلالها أجمل دفاع وبرهنت للعالم طرا أن حب الوطن فطرة فطر الناس عليها وان الانسان لا يحتاج الى علم ولا الى أدب ليشعر بهذا الشعور

فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ؛ واننا اذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فانما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون

واذا كانت انجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغيير سياستها نحوها تغييرا محسوسا، فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولا وفعلا وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا .

(تهمة التضييق فى الوطنية)

قال اعداؤنا فيما قالوا: اننا ضيقوا الفكر صغار الآمال، واننا نأبى على الذين ولدوا فى مصر واستوطنوها أن يكونوا مصريين ؛ وهذا قول لا يقوم عليه برهان

اننا اذا قاومنا بكل قوانا تلك الفئة التى قابلت احسان مصر بالنكران وأعلنت على البلاد وأهلها حربا عوانا فاننا نميز بينها وبين بقية الشرقيين من ترك

وعرب وسوريين الذين اختاروا مصر وطنا لهم وأحبوها وشاركونا فى الآلام والآمال وصاروا مصريين فعلا

اننا نستقبل بمزيد السرور والانشراح كل راغب فى الدخول فى جنسيتنا، معترف بحقوقنا، مقدر لشرف جهادنا، عامل على بلوغ الاستقلال، لأننا نريد زيادة قوى الوطن والاستزادة من الايدى العاملة لخيره ولنفعه ومجده وعظمته

وان الأمم التى تخاف دخول الغريب فيها وانتماءه اليها هى الامم الضعيفة فى وطنيتها المضطرب فؤادها على جامعتها ونحن اليوم بحمد الله أمة قوية الشعور راقية الاحساس لا تخاف على وطنيتها ، فليدخل فى الجنسية المصرية من أراد فانه ان لم يزدها قوة زادته هى حمية واقداما، وملأت قلبه بحب الحرية والاستقلال

(تهمة التعصب الدينى)

قال اعداؤنا أيضا : اننا نخلط الاسلام بالوطنية ونتكلم دائما عن المسلمين ونطلب ادخال الدين فى التعليم وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم

فكيف لاتكون انجلترا والمانيا متعصبتين وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الدينى فى مدارسهما ونتهم نحن بالتعصب الدينى ؟ لماذا يكون الانجليزى وطنيا وبروتستانتياً فى آن واحد ولا يكون المصرى المسلم وطنيا ومسلما ؟ ألا تكون الوطنية صحيحة سليمة الا اذا قضت على الدين ومحته ؟

الا أن الحقيقة الساطعة التى لا ريب فيها هى أن الوطنية والدين يتفقان بل وقد يكونان متلازمين

نحن اذا طلبنا ارشاد امتنا الى الحقيقة الدينية فما ذلك الا لأن الاضاليل والاكاذيب والخزعبلات التى راجت بين العامة باسم الدين قلبت حقيقة هذا الدين فصار الجهل والتأخر والانحاط وكل الآفات مما يلقى على الدين وينسب اليه والدين منه براء

لذلك كان من المستحيل احياء الأمة وانهاضها بغير الحقيقة الدينية لأنه سبيل لابادة جيش الباطل الذى ألف ونظم باسم الدين الا بالدين نفسه

فالتعليم الدينى ليس فرضا من الوجهة الدينية فحسب ، بل هو كذلك أيضا من الوجهة الوطنية ، لأنه لو وقف المرشد أمام الأهالى ونبههم الى واجباتهم باسم الوطن والعلم والمصلحة وأجابه الضالون منهم بما عندهم من الاعتقادات الباطلة بأن الدين ينافى ما يقول لما قهرهم واستمالهم الى فكره الا اذا أثبت لهم أن الدين ليس ما اعتقدوا بل ان الدين مخالف لتلك الخزعبلات التى آمنوا بها وأنه متفق مع العلم والوطن تمام الاتفاق

على أن بث الحقيقة الاسلامية بين المسلمين من أكبر الاسباب الموجدة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى ، اذ لا تعصب مع علم ولا نفرة مع نور ورشاد ، ! فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات من بينهم

(تهمة تحريض المسلمين على الدول)

لم يكتف الطاعنون فينا بنسبة التهم المتقدمة الينا بل قالوا ان الحزب الوطنى آلة فى يد ألمانيا تحركها ضد فرنسا وانجلترا لاحداث فتنة فى البلاد الاسلامية التابعة لها ، وما قصدوا بهذه التهمة الا جمع كلمة الدولتين ضدنا وتنفير أصدقائنا العديدين فى اوروبا منا

اننا نعلن للملأ كله ان الحزب الوطنى مستقل عن كل الدول والحكومات والملوك والأمراء وانه انما يطلب سعادة مصر واستقلالها من كل طريق يجده مساعدا على الوصول الى الغاية ، وليس هناك برهان على أفك أعدائنا اكبر وأقطع من أننا انتقدنا السياسة الالمانية مرارا وقلنا لها ان المسلمين لا يصدقون محبتها الا اذا غيرت خطتها فى مصر وطلبت حل المسألة المصرية فى مؤتمر دولى

كما فعلت بشأن مراكش ، وشتان ما بين مصر ومراكش فى الاهمية ووفرة المصالح الاوروبية

ان المسلمين يخدعون أنفسهم كثيرا ويسيئون الى بلادهم حقيقة اذا اعتقدوا أن سلامتهم فى الاعتماد على دولة من الدول وأن لهم أن يناموا على وسادة الامان والاطمئنان اذا جاملتهم هذه الدولة بكلمة حب وانعطاف لغاية يجهلونها

انما سلامتهم فى أن يعملوا بأنفسهم لصيانة بلادهم وحمايتها بالعلم والعدل والنظام والدستور فان البلاء كل البلاء فى أن يكون الاسلام سلاحا بيد الجاهل الغبي يقتل باسمه البرىء من المسلمين وغير المسلمين ويخرب البلاد ويؤذى العباد قائلا « ان هذا من عمل الاسلام »

ان الاسلام برىء من هذه الفظائع ؛ ان الاسلام يقضى بكل قوة على هذه القبائح ، الاسلام والجهل عدوان لا يتفقان ، فلا اسلام بغير علم وفضل وعدل ومدنية وانسانية ، فلترفع الأمم الاسلامية التي لا تزال قادرة على حماية بلادها وصيانة استقلالها رايته ، ولتعمل عمل اليابان فتعتمد على الجد وحده وتطلب الحياة والسؤدد من جهودها ومساعيها لا من تعضيد دولة ورعاية حكومة اجنبية

فان السياسة التى تدفع بهذه الحكومة لمساعدة أمة اسلامية فى ساعة من ساعات حياتها قد تتغير بتغير الظروف والاحوال فلا تساعدها فى ساعة اخرى

وانه خير لمرشدى المسلمين والناصحين لهم ان يحملوا على أسباب الفشل والسقوط التى نشأت بينهم ويحاربوا الجهلاء والاغبياء منهم قبل توجيه الملام الى الهاجمين عليهم ، فانما الجهل هو الذى دعا الأجنبي لأن يطمع فيهم ولو نظم المسلمون بلادهم وأثبتوا للعالم أن الاسلام دين مدنية وعمران وقوة ورفعة لما اعتدى عليه أحد ولخطب ودهم كل انسان !

(الاتحاد والعمل)

أيها السادة ، دعا لورد كرومر قبل سفره كافة العناصر الاجنبية للاتحاد

ضد المصريين تنفيذا لسياسة التفريق التى عمل لها طول حياته ، فاسمحوا لى أن أدعوكم للاتفاق والاتحاد وازالة كل سبب للنفور والشقاق بينكم وبين النزلاء فان الاتحاد هو القوة الكبرى ، ولولاه ما قام شعب فى العالم وما وجد التضامن بين أفراد الهيئة الاجتماعية

انه ليحزنكم كثيرا أن تجدوا المنافقين والخائنين من أبناء البلاد؛ وهو حال يحزن ولكنه ليس خاصاً بمصر ، بل هو عام فى الدنيا كلها؛ واذا أحزن الوطنيين الصادقين من جهة فانه يسرهم من جهة أخرى ؛ لأنه يبعد العناصر الفاسدة من الحركة الوطنية ويجعلها طاهرة خالصة من كل شائبة

فضموا صفوفكم وأجمعوا أمركم واعملوا بجد وهمة واثبتوا للأعداء والأصدقاء أننا احق الأمم بالدستور والاستقلال، ان الوطنية الحقة تقضى على صاحبها بأن يضحى حياته خدمة لوطنه لو دعت الحاجة لذلك ، فلنضحّ جميعاً أحقادنا الذاتية وخصوماتنا الشخصية ، ولننس عداواتنا واختلافاتنا أمام المصلحة الوطنية وامام الوطن المقدس ، لننس أشخاصنا ولنترك الطمع فى الزعامات والرئاسات ونتبع أحقرنا اذا كان على الحق ، فاننا اذا نصرناه نصرنا الوطن والأمة ، واذا خذلناه خذلناهما معا

أيها السادة ! ان العالم كله ينظر الى مصر وما سيكون من أمر حركتها الوطنية ، وان اعداءنا يدبرون ألف تدبير وتدبير لهدم دعائم هذه الحركة ومحو آثارها

فاذكروا ذلك على الدوام ليزداد الاتفاق بيننا وليوجد الاخاء بأسمى معانيه بين صفوفنا

وانى لأدعو كل واحد منكم للدخول فى الحزب الوطنى ، حتى تتسع دائرة العمل لخدمة مصر، ويزداد الطالبون للاستقلال، الممثلون للأمة فى همتها ونخوتها، واجتماع كلمتها، العاملون على إنالتها شرف الاحياء ومجد الراقين !

فهرست الكتاب

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الجهاد

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

صفحة

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

الفصل السادس عشر

الفصل السابع عشر

الفصل الثامن عشر

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون

الفصل الحادى والعشرون

الفصل الثانى والعشرون

فهرست الصور

فهرست هجائى للكتاب

(خ)

(د)

(ر)

(ى)

تصحيح خطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩١	٧	شعانر	شعار
١٠٤	٤	لسواء	لسواه
١٧٤	٩	يترعزع	يتزعزع
٢٠٧	٤	الفيقد	الفقيد
٢٥٢	٢١	لموفظفين	الموظفين
٢٦٧	٥	استخدام	استخدم
٢٦٩	١١	صديقى	صديق
٣٢٤	٧	على وقع	على ماوقع
٣٧٦	٥	سلبا	سلبنا
٣٧٩	٦	يظلمنا	يظللنا
٣٨٥	٧	تنقطه	تنطقه
٤٥٤	٥	فائراً	فائزاً
٥٠١	٣	٢	١

استدراك (ص ١٥٢و٣٠٢)

فى خلال طبع الكتاب قرر مجلس الوزراء بجلسة ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٨ تعديل مكان تمثال مصطفى كامل باشا وجعله فى ميدان (سوارس) مع تغيير اسم الميدان وتسميته «ميدان مصطفى كامل»

للمؤلف

(حقوق الشعب)

هو كتاب وضعناه سنة ١٩١٢ يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الانسان فى قالب محاضرات لتعليم للشعب حقوقه وواجباته

(نقابات التعاون الزراعية)

كتاب بسطنا فيه تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته ونظمه فى أوروبا والثمرات التى عادت منه على البلاد الاوروبية، وبحثنا فيه عن نشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ونقاباته ومنشآته ومزاياه وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤

كتاب الجمعيات الوطنية

صحيفة من تاريخ النهضات القومية

يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح اصول الدساتير والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢

تاريخ الحركة القومية

الجزء الاول

يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الاول من أدوارها وهو عصر المقاومة الاهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر وتاريخ مصر القومى فى ذلك العهد

الجزء الثانى

من اعادة الديوان فى عهد نابليون الى انتهاء الحملة الفرنسية ثم الى ولاية محمد على الكبير

عصر محمد على

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على

عصر اسماعيل

(فى جزءين)

الجزء الاول ويشتمل على عهد عباس وسعيد واوائل عهد اسماعيل
والجزء الثانى وفيه ختام الكلام عن عهد اسماعيل

***

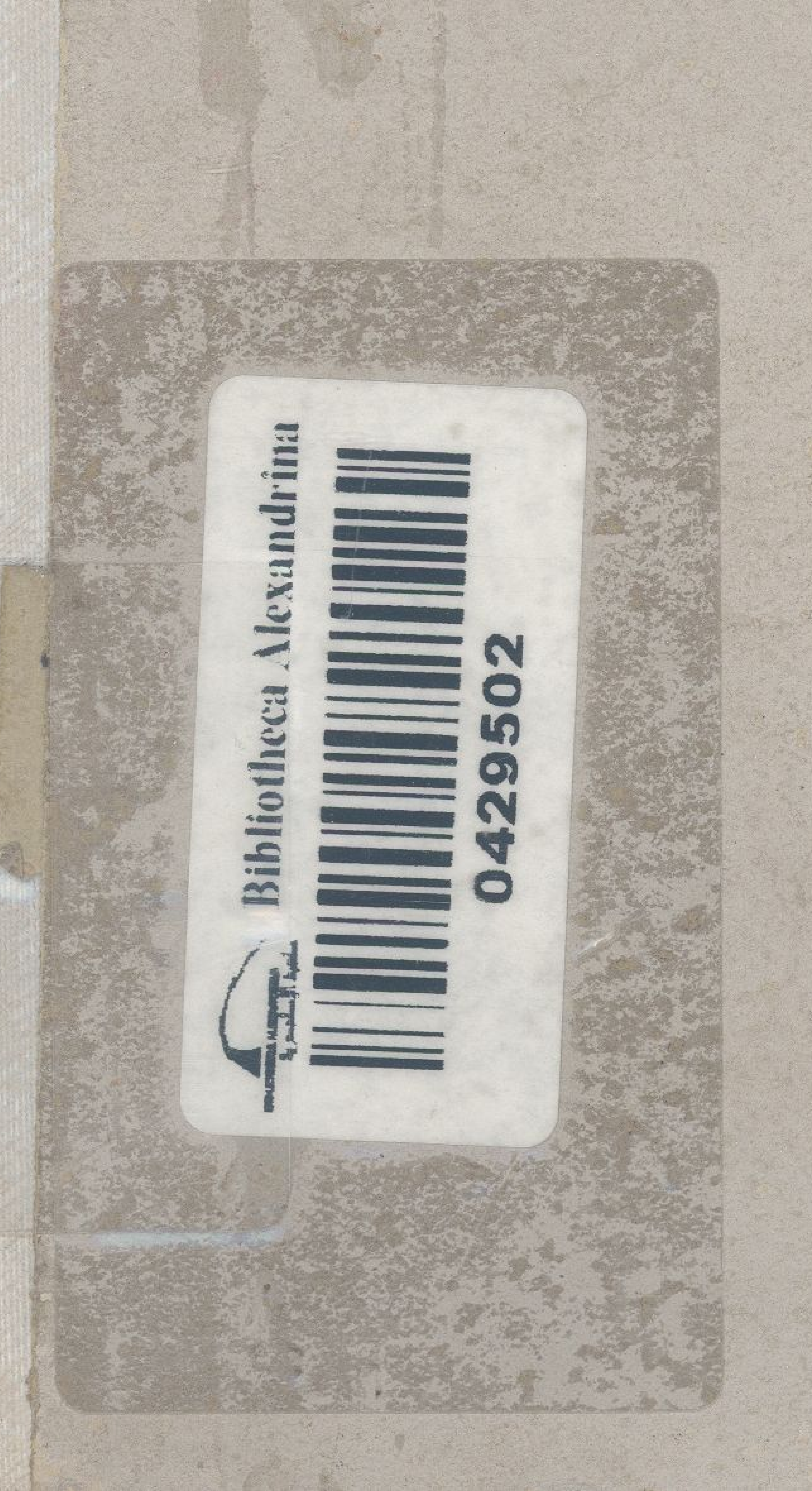
الثورة العرابية

والاحتلال الانجليزى

***

مصر والسودان

فى أوائل عهد الاحتلال (تحت الطبع)


Bibliotheca Alexandrina
04295502